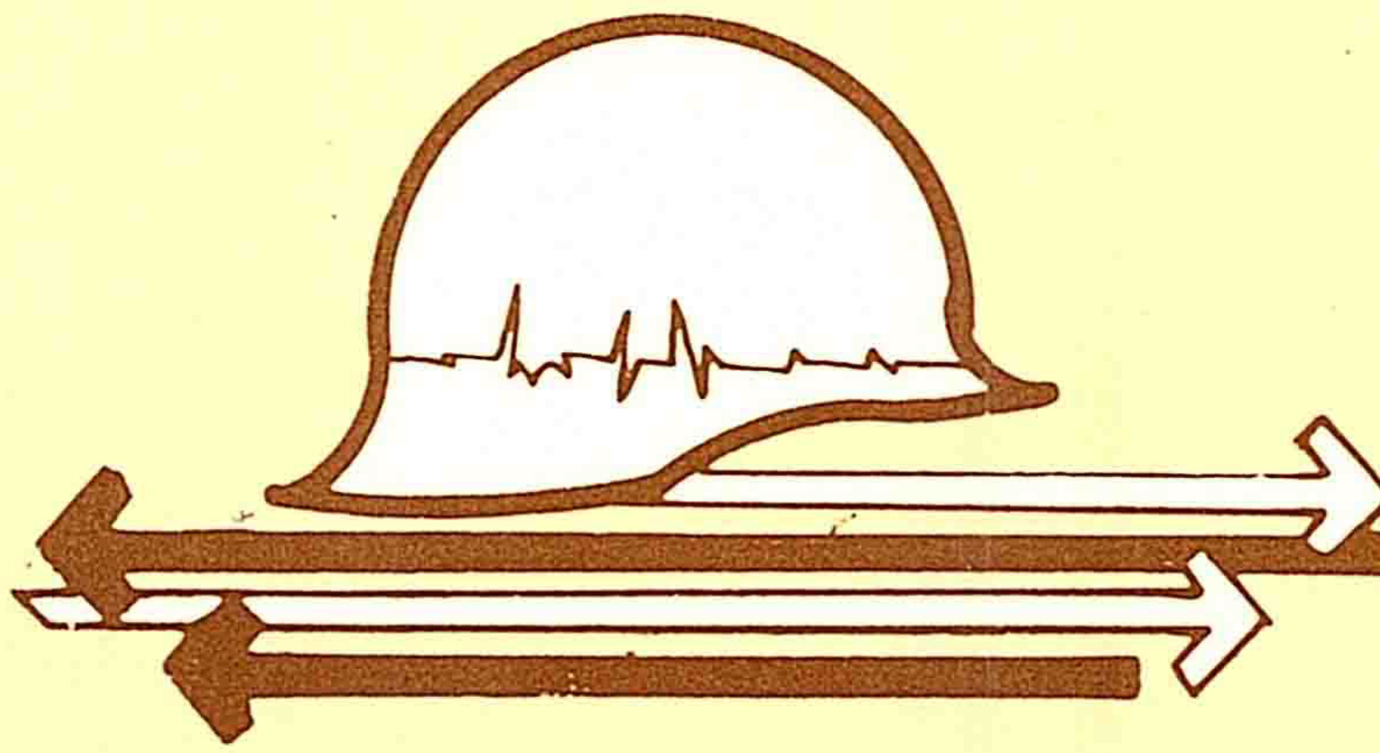


ونترنغهام وبلاشفورد - سنل

الأسلحة والتكتيكات

ترجمة: المقدم حسن بسّام



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الأسلحة والتكتيكات

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً . موكيالي بيروت . ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثانية

١٩٨٩

ونتر نغهام وبلاشفورد - سنل

الأسلحة والتكتيكات

ترجمة: المقدم حسن بسّام

المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

صدر هذا الكتاب بالانكليزية تحت عنوان

Weapons and Tactics

Tom Wintringham

J. N. Blashford-Snell

ان الجندية مضطرة ، أكثر من معظم المهن الاخرى ، الى الاعتماد على التفسير الذكي للماضي ، وصولا الى معالم وضع خريطة المستقبل . والعسكري ، وهو المحروم ابان السلم ، من فرصة التعلم الذاتي ، عن طريق الممارسة الفعلية لحرفته ، هذا العسكري ، يستغل ، لاقصى حد ، ما هو مسجل تاريخيا في تأكيد جاهزيته ، وجاهزية قيادته من أجل العمل بكفاءة في الحالات الطارئة . فيطبق الحقائق المستخلصة من التحليل التاريخي على ظروف الحاضر ، وعلى المستقبل الوشيك ، مطورا بذلك تركيبا لما يصح من أسلوب وتنظيم وعقيدة .

الجنرال دوغلاس ماك آرثر
من تقرير قدمه الى وزير الحربية في واشنطن ،
في ١٩٣٥/٦/٣٠ .

مقــدمة المعــــرب

لا ريب أن أصدق معيار لكفاءة أي قيادة عسكرية هو مدى نجاحها في الاستثمار المادي والمعنوي لما تتميز به القوات الموضوعة تحت تصرف هذه القيادة ، وخاصة تفجير الطاقات الكامنة في هذه القوات . ولا ريب أيضا أن كفاءة أي قوات تقاس بمدى الانجاز القتالي الذي يتحقق من خلال الدمج والتنسيق بين أهلية وتأهيل العنصر البشري والخصائص الفنية والتعبوية لما بين يدي هذا العنصر من أسلحة ومعدات . وفي هذا السياق ، يأتي العنصر البشري في المقام الاول . فهو الذي تتجمع لديه المعطيات والبيانات ، بأنواعها كافة ، وعلى اختلاف أحجامها ، ليحلل ويركب ما يتوافر له ، ويستنتج ما يتحتم عمله . . . انه هو الذي يقدر الموقف ، أو المواقف ، بناء على ما يتصف به من قدرة على الاستشفاف ، ويتخذ القرار المناسب ، في الوقت المناسب . . . وهو بالتالي الذي يكيف السلاح والعتاد ، تحضيرا وصيانة واعدادا واستخداما ، ويعطيها قيمتها الحقيقية في المعركة . وعلى هذا الاساس تصبح البندقية في يد الفرد اما عصا هشة ، واما « حية تسعى » .

اذا ، القيادة هي القمة . . .

والقيادة هي التي تنجز قمم الاعمال . . .

وما من قمة يبلغها متخاذل ، أو متواكل ، أو متلمس درب سهل .

لدى استعراض التاريخ العسكري ، قادة ووقائع (وكثيرا ما يصدق هذا على المجالات الاخرى) يتبين أن الحسم ـ أو التفوق ، على الاقل ـ لم يأت في يوم من الايام وليد فكر قيادي متحفظ ، ولا نتيجة واقعة أو وقائع تقليدية ، بل كان دائما ثمرة الاستخدام الصحيح بطرائق مبتكرة ، أو محصلة مجريات تتجمع وفق ترتيب غير مستحيل في سياقها الاجمالي ، ثم تتجاوزه في تتابع تفاصيلها ومفاصلها التقريرية .

فالبريطانيون هم الذين اخترعوا الدبابة ، ولكن الالمان هم الذين استغلوا قدراتها القتالية المعبر عنها بالصدمة والمرونة والوقاية . وبكلمة أخرى ان التنظيرات الفكرية تفتح الابواب ، وهذا مهم . ولكن الاهم هو ولوج الابواب . . . وهذا لا يتم الا بالتدريب الشاق والممارسة الجريئة .

من جهة ثانية ، لا يستطيع أي فكر أن ينظر الا اذا استوعب الماضي والحاضر ، وتبين الدروب المسدودة ، لينفذ عبر ما لم يستطع غيره استبصاره، أو يدرك ما لم يستطع غيره اقتحامه ، سعيا وراء أبواب جديدة . وما من فائدة في أي باب يفتح ما لم تتوافر همة مقدامة تتحداه . ولكن سرعان ما تعم التنظيرات الجديدة ، وتشرع الابواب أمام الجميع . وهنا تصبح الآية في كيفية العبور لا في العبور نفسه . ويصبح العبور الانجح هو ذاك الذي يتم بالطرائق المبتكرة . وهذا ما يعبر عنه بالمنحى التثويري : تثوير الاسلوب والاداة . . . وبالتثوير وحده « يمكن اعتصار » ما في الكائن البشري من طاقات وكفاءات ، وما في الاله من قدرات . . . بل وبه يمكن تصعيد هذه الامكانيات حتى مستويات لا يمكن أن يبلغها التحفظ ، عن طريق التفاعل فيما بين الكفاءات البشرية والخصائص العتادية .

لكن هذا يقود الى عقدة تستوجب الحل : فغالبا ما يكون التنظير ـ وهو ابن الخيال ، بالدرجة الاولى ـ أوسع من الطاقات المتوافرة . لذا ، سيتطلب الامر تأطير التنظير بما يتلاءم مع ما يمكن تأمينه ، من ناحية ، ومن ناحية ثانية الاستفادة القصوى مما يتأمن ، تحاشيا لضغط التنظير حتى الحدود التي يمكن أن تفقده مضمونه .

وفي المجال العسكري حصرا ، يقصد بالتحفظ ـ وما في حكمه ـ التشبث بما هو سائد حرصا على ما هو قائم ، دونما أي حسبان لعامل الزمن ومؤثراته ، ولا لتوسعات الفكر وتوجهاته وتطلعاته . وفي هذه الحالة ، يكون الفارق بين التحفظ « جريا على العادة » ، والتحفظ اصطبارا حتى التبين ، أو حتى التأكد من الساعة الفصل ، قريبا جدا من الفارق بين التخاذل والاقدام . ويكون التحفظ أو التقليد ضربا من التفكير السكوني ـ

أو الخمول الذهني ـ والسلوكية الرجعية ، ان لم تكن الانهزامية . وهذا من أبرز المؤشرات على تهاوي الكفاءة القتالية لاي قوة عسكرية ، وهو تهاو لا ينفصل ، ولا يختلف عن التخلف الاجتماعي العام .

ولربما كانت أخطر عواقب الفكر العسكري التقليدي أو المتحفظ ، هي تلك الناشئة عن حقيقتين : أولاهما حقيقة أن الخصم لا يكون غافيا ـ ولا يجوز اعتباره غافيا ـ عما يبيت له ، وبالتالي لا يجوز الافتراض الا ان عينيه مفتوحتان على وسعهما . وهذا يعني علمه ـ وربما مفصلا ـ بما يعد له ، وبأساليب ملائمة . وهذا ما يعبر عنه بفقدان المفاجأة ، التي هي من أهم المبادىء التكتيكية والاستراتيجية .

وثانية الحقيقتين أن الفكر العسكري المتحفظ ، أو التقليدي ، يعمل على حشر الحيوية الفردية في أقنية محددة ، واخمادها بالرتابة المألوفة ، كما يعمل على ربط القيادات الميدانية ، والقيادات الصغرى بشكل خاص ، بخيوط غير مرنة تكتم مباداءاتها الذاتية . وهذا يعني ، بالتالي ، دفع الزخم القتالي في أقنية ضيقة نسبيا . وأخطر ما في ذلك هو دفع الزخم في نطق عمل لها العدو ألف حساب .

وعلى هذا الاساس ، فان هذا النوع من التحفظ أو التقليد ، هو التخلف بعينه . وظاهرة كهذه ، وهي وليدة الخمول الذهني والجسدي ، لن تؤدي الا الى سلوكية متخلفة منشؤها المبالغة في الحذر ان لم يكن الجبن . لان التطوير والتجديد يتطلبان جهدا شاقا في الاطلاع والبحث ، ثم التصميم والتخطيط والتدريب . ويتطلبان نفاذ بصيرة ووضوح رؤيا وسعة خيال . وهذه صفات لا تتوافر الا في الطامحين ذوي الهمم العالية والجرأة الخارقة والحيوية الفائقة والقدرة على التحمل .

ولعل أقوم السبل الى تخطي هذه « العقبة » فتح بابين : باب يدخل منه ما هو بناء من نقد وتوجيه ، وتخرج منه « العنجهية » العسكرية التي ترى في النقد والتوجيه انتقاصا من هيبة البزة العسكرية ، ومساسا بكرامة الرتبة ، وتترجمها الى « خيانة » تستوجب « الرجم » في أبسط الاحوال ، و « الاعدام » في أعقدها . ويفتح باب آخر تدخل منه الافكار الجديدة ، الناشئة منها والمطورة ، ليوضع كل منها على المحك العملي والعملياتي ، فيستبقى صالحها مع التقدير لذويها ، ويستبعد فاشلها دون تشهير بأصحابها . وهذا يتطلب حكما ألا يوقف الاجتهاد على الزي العسكري بحجة « الخوف من هتك الاسرار » ، وتجاوز « عقدة » الحكم بأن أبعاد الامكانات مقاسة بحجم الرتبة . ان لحفظ السر العسكري طرقا

اجدى من « تخوين المدني » ، وان الكفاءات لا تقاس بالرتب ، ولا حتى بالاعمار . ومن هذين البابين يمكن أيضا التماس الطريق الى

- خروج الانفصام الاجتماعي بين المؤسسة العسكرية والكفاءات الفكرية التي ترتدي ثيابا مدنية ،

- التخلص من تفشي روح « التقوقع الرتبي » ،

- واعادة العلائق العسكرية باتجاه الموضوعية المطلقة

ويمكن اعتبار محتوى هذا الكتاب لفتة نحو هذه المفاهيم : فيه استعراض تاريخي مدروس ، وفيه تحليل ، منطقي في معظمه ، وغني بالفائدة . . .

وفي هذا الكتاب أيضا نقد بناء - وقد أفاد أصحابه فعلا .

وفيه عبر ، نحن كعرب من أحوج الناس الى ذلك

وفيه تطرح ، وبشكل موضوعي الى حد معقول ، العلائق العسكرية عموما : فيما بين للعسكريين ، بين العسكري والالة ، بين العسكري والطبيعة ، بين الالة والطبيعة ، بين العسكري والالة والطبيعة .

انه جدير بالقراءة والاستنتاج .

المعرب

ح . ب .

مقـــدمـــة المؤلـــف

قبل ألفي سنة كانت قوة مدرعة متجهة سيرا على الاقدام نحو مكان صار اسمه الان « سيدان » . كانت تلك ليجيونات[1] القيصر الاول ، وكانت في طريقها لغزو بلجيكا .
وقبل ألفي سنة اتجهت قوة مدرعة تمتطي الخيول ، بحو المكان نفسه ، من اتجاه آخر وكانت هذه بعضا من فرسان يحتمل أن كانوا مدينين بالولاء والطاعة للملك أوتو الكبير[2] ، أول ملوك الالمان ، وكانوا في طريقهم لتسوية قضية بسيطة نشأت عن انشقاق أوروبا شارلمان شبه الموحدة[3] . وقبل عامين اثنين ، بدأت قوة مدرعة ، محمولة على عربات ، تمر عبر سيدان بسرعة ، وهدفها غزو معظم انحاء أوروبا الحالية .والنكم هي

(١) الليجيون (Legion) : التشكيل الاساس في الجيش الروماني ، ويتكون من مشاة وخيالة ، ويتراوح تعداده بين ٣٠٠٠ و٦٠٠٠ عنصر ، وهو يقارب اللواء الحديث .

المعرب

(٢) أوتو الكبير (العظيم) Otto The Great (٩٣٦ - ٩٧٣) : من أشهر أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة .

المعرب

(٣) نتيجة لفتوحات شارلمان (٧٧٣ - ٧٩٦) التي كانت تهدف الى نصرنة أوروبا الغربية ، دخلت إيطاليا واسبانيا وألمانيا وشمال البلقان في طاعته ، الامر الذي أوجب مكافأته بأن توج امبراطوراً للغرب (٨٠٠) ، وهو اللقب الذي تحول فيما بعد الى « الامبراطور المقدس » .

المعرب

بعض العينات التي يتألف منها تاريخ الحرب .

ما زال هذا التاريخ للاسلحة والتكتيكات يكتب منذ حوالى ثلاث سنين . ولقد بدىء به في الوقت الذي كانت فيه الفرق الالمانية المدرعة تندفع كالعواصف نحو وارسو. . . المدينة التي خرج منها قبل حوالى ثلاث مئة عام آخر خيالة اوروبا المثقلين بالدروع، بقيادة سوبيسكي[٤] Sobieski، ليصدوا الاتراك. انه لكتاب يسطر في وقت تملأ فيه قعقعة الدروع آذان الناس جميعا. انه يستعرض الآلاف من سني الماضي ليوجه تفكيرنا نحو فهم فرق بانزر الحاضر. ويستهل هذا الكاتب بحصار طروادة بغية ايضاح المعنى العسكري لحصار ستالنغراد.

ان لهذا الكتاب هدفا واحدا فقط ، مفاده أن علينا أن نفهم الحرب ، ومن ثم نفوز في هذه الحرب . وما هو بتاريخ كامل للاسلحة والتكتيكات ، تلك المتغيرات التي يبدو أن لها تأثيرا على الحاضر ، على الثورة في الحرب ، الثورة التي حدثت خلال السنين الست والعشرين الاخيرة ، حينما شقت أول دبابة طريقها عبر أوحال سوم[٥] ، متخذة ـ بطفرة تاريخية ـ سيدان اتجاهها العام .

---

(٤) جون سوبيسكي (الثالث) J. Sobiesky III (١٦٢٤ ـ١٦٩٧): أحد ملوك بولندا المشهورين .

المعرب

(٥) معركة السوم The Somme (الحرب العالمية الاولى) (٢٤/٦ ـ ١٨/١١/١٩١٦) : نسبة الى نهر « السوم » الفرنسي . معركتان ، بدأ هجوم المشاة في أولاهما في ١/٧/١٩١٦ بعد اسبوع من التمهيد المدفعي . وقد اشتركت فيها ٤٠ فرقة فرنسية (هجوم رئيسي) والجيش الرابع البريطاني (هجوم ثانوي) ، ثم دعمه الجيش الخامس ، ضد القوات الالمانية المتمركزة بمحاذاة النهر . وفي هذه المعركة اصطدمت المشاة البريطانية بالمدافع الرشاشة الألمانية المتمركزة بشكل جيد ، ونتيجة لتكتل المشاة البريطانية ، وصمود المواقع الألمانية ، خسر البريطانيون ٥٧٤٥٠ قتيلاً (أعظم خسارة بريطانية سجلها التاريخ حتى ذلك الوقت) ، وفيها أيضاً أدخلت الدبابات (البريطانية) لأول مرة في تاريخ الحروب . ولكن الصدمة التي أحدثتها بادىء الأمر حققت بعض النجاح ، وسرعان ما انتهت ، وفقدت قيمتها تقريباً نتيجة لسوء استخدامها . وفي النهاية بلغت خسائر هذه المعركة ، التي لم يحقق فيها الحلفاء سوى تطهير ما مساحته ١٢٥ ميلاً مربعاً ، ١٢٦٥٠٠٠ قتيل (٦٥٠ ألف الماني ، ٤٢٠ الف بريطاني ، ١٩٥ الف فرنسي) .

وفي معركة « السوم » الثانية (٢١/٣ ـ ٤/٤/١٩١٨) حاول الألمان استرداد المبادأة بعد أن وصلتهم تعزيزات من الجبهة الروسية، وكان هدفهم الرئيسي فصل القوات الفرنسية عن البريطانية قبل وصول المزيد من القوات الأميركية . وقد اشتملت هذه المعركة على خمس هجمات قتالية غطتها قوة نارية من ستة آلاف مدفع ، وتلويث غازي مساحته خمسين ميلاً مربعاً . وقد حققت القوات الألمانية نجاحاً نسبياً (التقدم ٤٠ ميلاً) ، ولكنها لم تستطع القاء القوات البريطانية في البحر ، كما كان مخططاً . وخسر الحلفاء ٧٠ ألف أسير ، و ١٦٠ الف اصابة بين قتيل وجريح . وكانت خسائر الألمان قريبة من ذلك .

المعرب

واليوم ، غدت حاجتنا لفهم الحرب ملحة جدا . فنحن البريطانيين ، وبينما أنا أكتب في أواخر صيف العام ١٩٤٢ ، ما نزال مستمرين في الفشل فيما يترتب علينا في الحرب . وكنا نتوقع أن ننتقل الى الهجوم عام ١٩٤٢ . . . تماما كما كان الحال سنة ١٩١٦ ، حيث أصبحنا ، بعد أقل من عامين من القتال ، قادرين على حشد قوات مهلهلة في « السوم » كافية لضعضعة عدونا ، ودفعه لاتخاذ موقف دفاعي على طول الجبهة الغربية كلها . وكنا نتوقع أن تبرهن كتلة الاليات المدرعة التي صنعناها في العامين اللذين أعقبا « دنكيرك » ، على انها متفوقة في مواصفاتها على آليات العدو . وخاب أملنا ؛ ومن حيث لا ندري ، أعاقتنا آراء خاطئة عن الكيفية التي يجب أن نقاتل بها . وحتى الان لم تظهر قواتنا ، بشكل ما ، كفاءة مساوية لشجاعتها ، لا في مواجهة الالمان المثقلين بالدروع ، ولا في مواجهة اليابانيين الذين هم غير مدرعين تقريبا . هناك أشياء لا بد من تغييرها . ولئن يترتب علينا أن نقوم بالتغييرات بشكل جيد يتحتم علينا أن نخطط لها . وهذا يعني وجوب تأطير التغييرات في تصور عام للكيفية التي يجب أن نقاتل بها حاضراً ومستقبلاً . وهذا يعني أيضا وجوب أن يكون لدينا تصور عام للقتال في الماضي . ولو كنت اجرؤ لناديت بوجوب أن تكون لدينا نظرية . . . فعبارة « نظرية » غير محبذة كثيرا عند العديد العديد من البريطانيين ، وهم يعتبرونها « غير عملية » لدرجة تجعلني أتحاشاها قدر المستطاع ، رغم أنني شخصيا لا أستطيع أن أرى أنه من « العملي » جدا الاقدام على أمور دون معرفة بالنظرية التي تحدد كيفية الاقدام عليها .

ان أزمتنا لا تكمن بشكل رئيس في تصميم الاسلحة وصناعتها واستخدامها ، كما يُظن . ان معظم أسلحتنا هي أقرب الى الكمال من أسلحة العدو ، ان كان يُكتفى من « الاشياء بما هي عليه » . ان أزمتنا تكمن في أنظمة وأساليب استخدام هذه الاسلحة في المعركة ، وفي التكتيكات ، وفي تصميم الاسلحة الملائمة بشكل خاص للاستخدام في التكتيكات التي يمكن أن تثمر حاليا .

يبدو لي أن معظم الاسلحة الحديثة التي لي خبرة شخصية بها هي ذات بساطة متناهية من حيث استخدامها بشكل أو بآخر ، ولا يبدو لي أنه من الصعب التعامل معها بشكل مقبول تماما .

وحسب اعتقادي ، ان تسديد رصاصة على هدف صغير غالبا ما يكون أسهل من تسديد كرة قدم على هدف كبير . ومن المؤكد أنه أسهل من تسديد السهم . وان عملية رسم قصة « موديل » سوداء جميلة على ورقة بيضاء ، بوساطة سلاح رشاش ، أسهل من

رسمها بوساطة آلة طباعة . اما فيما يتعلق بالهاونات والمدافع المضادة للدبابات التي تستخدمها الجيوش الحديثة ، فان قابليتها للعطل تبدو أقل بكثير من قابلية شفاطة للغبار ، وخطورتها (على الانسان الذي يستخدمها) أقل بكثير من خطورة الدراجة النارية . فأنا شخصيا دربت رماة الرشاشات في ثلاث كتائب من « الالوية الدولية »[٦] في اسبانيا على استخدام طراز جديد من الرشاشات ، لم يسبق لهم ، أو لي ، أن رأيناها من قبل . ودربتهم خلال بضع ساعات من اليوم الذي توجهت فيه تلك الكتائب نحو الامتحان الصعب . وخلال تلك الساعات القليلة أظهر المتدربون أنهم كونوا فكرة أولية ، ولكن كافية ، عن تشغيل هذه الاسلحة ، وصاروا مهيئين للعمل عليها بشكل يكاد يساوي استعدادهم للعمل على النماذج الاخرى ، المتآكلة الى حد ما ، والتي كانوا أكثر تعودا عليها . وقليل من الجنود ، على ما أظن ، هم الذين يجدون صعوبة كبيرة في التدرب على الاسلحة ، وفي تعلم استخدام أسلحة اليوم . وحتى الدبابة ، ليس من الصعب قيادتها ، رغم ما في ذلك من اجهاد . ان الصعب هو تعلم أين ومتى تساق الدبابة ، أين ومتى تسدد الاسلحة وتطلق نيرانها . بل ان الاصعب من هذا هو تعلم كيفية التنسيق بين تأثير عدد من الاسلحة من نماذج مختلفة ، وبين تحرك الناس الذين يستخدمون هذه الاسلحة ويخدمونها ، وبين الاليات التي تحملها أو تجرها . ان التنسيق الفعال بين النار والحركة ـ وهذا ما سيكتشفه الجنود في تدريباتهم الاولية ـ هو المسألة الجوهرية في التكتيكات . فليس للاسلحة حول أو قوة بمعزل عن فن استخدام الاسلحة . وان تنفصل عن التكتيكات تتحول الى أجسام مملوءة بالنتوءات وثقيلة على رجال متعبين ، ملزمين بأن يحملوها أو يجروها . وان من المستحيل تعلم الاستخدام الصحيح للاسلحة دون تعلم التكتيكات في الوقت نفسه .

ويتعلم الجنود التكتيكات ، يتعلمون كيف يشبكون نيرانهم ، وكيف يتحركون تحت نيران العدو ، عن طريق الممارسة العملية في حقول التدريب وفي المعركة . ولكنهم يستطيعون أيضا أن يتعلموا من خلال القراءة عن الماضي .اذ ما من امرىء يعرف مهنته أو حرفته الخاصة بشكل جيد ما لم يعرف كيف تعود الناس أن يفعلوا الاشياء ، التي لا تختلف كثيرا في جوهرها عما يحاول هو أن يفعله ، في ظل ظروف العهود الماضية المختلفة جدا . فأثناء محاولات تعلمك الكتابة ، يعلمونك في المدرسة كيف كان الناس يكتبون في

---

(٦) الالوية الدولية The International Brigades : ستة ألوية من دول مختلفة شكلتها « عصبة الأمم » وأرسلتها لتحارب الى جانب الجنرال فرانكو في الحرب الأهلية الاسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) .

المعرب

الماضي . وأثناء محاولاتك لتعلم القتال ، لن يضيع وقتك سدى وأنت تتعلم شيئا ما عن الادوات والالات التي كان الناس يقاتلون بها في الماضي البعيد ، وتتعلم تغييرهم لطرق الاستفادة من هذه الاشياء .

ولا بد للكاتب، عند كتابة اي موضوع عن التاريخ، من أن ينتقي الوقائع الموصوفة، ويرتبها وفق الاهمية التي يعطيها لها. ولقد فعلت هذا، وعن عمد، لاثير نقاشا. وآمل، عن طريق هذا النقاش، أن أوضح الطريق نحو النظرية، أو نحو نظام للحرب متقدم على النظام النازي. . . أي أقرب منه الى الواقعية، وأكفأ في احراز النصر.

وبكلمات أخرى ، انني لا أرجو مجرد مساعدة الجندي أو الضابط الصغير على أن يفهم ، وبشكل أسهل ، استخدام الاسلحة الحديثة والتكتيكات التي تلقن له الان ، لمجرد أنه يستوعب أسلحة الماضي وتكتيكاته ، كما أرجو أن يصبح ايجازي للمتغيرات التي حصلت في الماضي ذا فائدة ، سواء في بريطانيا أو أميركا ، لأولئك الذين يرون أن النصر يعتمد على التفكير الجدي بفن الحرب وعلومها ، بقدر ما يعتمد على الشجاعة والاخلاص والطاعة والبداهة .

ويأتي بعض نقاشي العام حول تطور الحرب في الفصل الاول من هذا الكتاب ، وتأتي مطابقته للظروف الحديثة في الفصل الاخير . ولسوف يتساءل بعض العمليين من أصدقائي ، بمن فيهم بعض العسكريين الجيدين بالذات ـ وربما يسألونني أيضا ـ لم عليهم أن يتكبدوا مشقة التنقيب عن الفصول التاريخية عبر هذه الفصول كلها ؟ وردي ان ما من أحد يستطيع أن يستوعب علما ما ، أو فنا ما ، بشكل كامل ، ما لم يأخذ فكرة واضحة عن تاريخ هذا العلم أو الفن .

تعامل مع القتال ، اذا شئت ، كما لو كان جزءا خاصا من عمل وحسب . فهو عمل حاذق ، ويتطلب التعلم ، مثله كمثل اجزاء العمل كلها ، من ألفها الى يائها ، بدءا من العمل في الدعاية والاعلان وحتى العمل في حدائق الحيوان . واني لواثق من امكانية العثور على تاريخ للاعلان والدعاية ، لعلوم الفضاء ، أو لعلم الجبر في أية مكتبة . اما الحرب . . ؟ لقد كتب المؤرخ الكبير أومان[٧] عن فن الحرب خلال العصور الوسطى .

---

(٧) أومان Oman (١٨٦٠ ـ ١٩٤٦) ، مؤرخ بريطاني ، اكتسب شهرة واسعة في مجال التاريخ العسكري ، عن طريق كتابه : « فن الحرب في العصور الوسطى » .

المعرب

وكلاوزفيتز (٨) الضابط الالماني ، ضمن دراسته عن الحرب مقدارا كبيرا من تاريخ الحرب حتى زمن نابليون . ونحن بحاجة الى ما هو أكثر من ذلك بكثير . اننا بحاجة الى تاريخ أفضل مما أستطيع أن أكتب أنا ، أو يكتبه أي امرىء غيري، عندما تفرض الحرب علينا جميعا واجبات حيوية وفورية . ولكن ها هي بداية ما . . .

هذا الكتاب لم يكتب للعسكريين وحدهم ، ولم يكتب لهم بشكل رئيس . فالمدنيون لا يستطيعون فهم ما يجري ، ولا تقديم عون سياسي وعسكري لجهة النصر ما لم يكن لديهم هم أيضاً فكرة عامة عن الحرب . والحرب ، اليوم ، قضية تهم كل انسان ، ويقع وزرها علينا جميعا . انها تعمل على تغيير أعمالنا وطعامنا ، وكثيرا ما تغير أماكن عيشنا ، وتغير دائما طرق حياتنا . انها تعتم مدننا وتدمرها ، وفي كثير من الحالات تفرقنا عن أزواجنا وأطفالنا . وحرب مثل هذه التي تشغلنا الان لها علينا جميعا تقريبا تأثير وأهمية أكبر بكثير من تأثير معظم حروب الماضي وأهميتها ، تلك الحروب التي كانت تدور بعيدا ، ونادرا ما كانت تمس سطح الحياة اليومية لاولئك الذين كانوا في بيوتهم .

حتى الان ، ما زال في بريطانيا وأميركا بعض ممن يعتقدون بأن الحرب ما زالت كما كانت عليه ، ما زالت شأنا منفصلا بشكل ما عن حياة الشعب . وهي ، في الأصل ، مهمة أولئك الذين اختاروا مهنة السلاح . وهي شيء ما لا تستطيع الجماهير العريضة أن تفهمه . وتبدو الحرب لهؤلاء قضية تخص الخبراء . والمدنيون ، ومعهم الساسة الذين يمثلونهم عن حق أو زيف ، يجب الا يتدخلوا الا ضمن أضيق الحدود الممكنة بشؤون أولئك المتورطين في مهمة القتال . وهم يرون أن الانسان غير المدرب لا يستطيع ، بحال من الاحوال ، أن يدرك حتى الخطوط العريضة في فن الحرب المعقد ، هذا اللغز الذي يتوجب على الخبراء أن يهبوا لتعلمه أفضل سني حياتهم ، بل حياتهم كلها .

لقد مر على انكلترا زمن كان فيه العديد من حرفنا ومهننا ، منظما في تعاونيات مغلقة ، بعضها كان يسمى « غيلدز(٩) Guilds » . وكان على من يريد الدخول في مهنة ما أن يمر عبر فترة تدريب قد تطول حتى بضع سنين . وكان يفترض به ، خلال هذه الفترة ،

---

(٨) الجنرال كارل فون كلاوزفيتز Karl Von Clausewitz (١٧٨٠ - ١٨٣١): جنرال بروسي، وأحد كبار المنظرين الاستراتيجيين في العالم.

المعرب

(٩) غيلد (Guild) ، كانت في العصور الوسيطة تعني « التجمع » على شكل « اتحاد » للتجار وأصحاب المهن ، وصارت تعني « أي تجمع » لذوي المصالح والغايات المتماثلة .

المعرب

أن يتعلم « سر » الطباعة أو صنع الاحذية . وقد بلغ الامر بأجدادنا أن جعلوا حتى من صيد السمك وبيعه « سرا » . وكانت احدى أرقى التعاونيات الكبرى في مدينة لندن ـ وأوفرها ربحا ، بلا شك ـ هي الشركة « المبجلة » لتجارة الاسماك . وفي بريطانيا ، لا يزال الجيش يحافظ على بعض من خصائص هذه الشخصية المنفصلة ، التي يعود تاريخها الى العصور الوسطى . فهو لا يزال يرتدي ثيابا غير عادية في المناسبات التذكارية ، أو يتناول وجباته بطقوس صار أصلها شبه منسي . وتعليل الجيش لما يفعله مشابه جدا للمبررات التي يقدمها رئيس « الشركة المبجلة لتجارة الاسماك » (الحوت الشرعي) ، أو مهما يكن اسمه ـ لما يرتديه في المناسبات الهامة ، كالولائم الرسمية أو الحلقات الذهبية . . . وهي حلقات ليست ، كما قد يدور في الذهن ، رمزا لعبودية البحر القاسية ، بل على الاغلب ، رموز لصدق اعتماد كل رجل على الاخر، الاعتماد الذي جرت العادة أن يتجسد في «الغيلدز» .

ويذكر ، اختيارا لمقارنة أحدث ، أن الجيش البريطاني غالبا ما يبدو كبير الشبه بمجموعة من تلك الاتحادات المهنية التي تنجح بشكل أساس بين المهن الاكثر قدما ، والتي يمر فيها المتدربون ، وقد اصبحوا « أخوة محترمين » ، عبر اجراءات جوفاء معقدة من الطقوس التنسيبية التقليدية . وكجزء من هذه العملية يتعهد المنسبون ، ويقسمون على الا يكشفوا لغير المنتسبين أسرار مهنتهم المتوارثة . وفي جيشنا ، يبدو أحيانا وكأن هناك حرصا على الا تكشف قدرات رجال المدفعية أو الدبابات وأسلحتهم أمام رجال المشاة ، وحرصا خاصا على الا تكشف أمام المجندين ، وعلى ألا تكشف أبداً أمام المدنيين . . .

. . . ومر زمن كانت فيه العلوم كلها أمورا سرية أو شبه سرية . وقبل حوالى ثلاث مئة عام، كان اعضاء البلاط الملكي، وهم يحدقون الى المجهر الغليظ الذي ابتكره هولندي مهووس ـ كان يدعي بأنه يرى في نقطة الماء مخلوقات صغيرة جدا لم تذكرها التوراة، ولا ارسطا طاليس، لذا فهو فاسق ـ كانوا يبقون مناقشاتهم ضمن دائرتهم الذاتية الساحرة. «فالرعاع» والاميون لم يكن بوسعهم ان يفهموا، بل ولن يهتموا بالاسرار التي يتكون منها العلم.

لقد تغير العديد من الامور منذ تلك الايام ، ولا تزال هناك أسرار مهنية ، ولا تزال هناك مهارات حرفية . والعلم ما يزال يجد طريقة نحو الرؤى التي يصعب فهمها . لكن أي تلميذ ، ذي ميول ذهنية ميكانيكية ، يستطيع أن يقرأ أسبوعيا في الصحف المتخصصة بذلك عن مجمل تقنية صنع الاشياء وتحويلها والحصول عليها . وهناك شريط سينمائي ،

لا يمكن نسيانه ، يرينا ما يقوم به العاملون بفرد شباك الصيد وسحبها ، وهو العمل الذي كان ذات يوم جزءا من الفن النسري عند « الشركة المبجلة » ، وعندما يعمل رجل « كاينشتاين » على ضغط المكان والزمان ، وضغط المغناطيسية والحركة في معادلة جديدة صعبة جدا ، هي النسبية ، فان الصحف التي تتباهى بقرائها المليونين تحاول أن تشرح نظرية أينشتاين . . مركزة على جمل لا يتجاوز أي منها سبع كلمات .

بيد أن صحف الاحداث (الصغار) التي تصف ، وبأجمل وضوح ، عمل محطة للطاقة ، أو العمل في منجم فحم ، تصب اهتمامها على البطولة العاطفية وهي تكتب عن الحرب ، وبأسلوب من ذلك النوع الذي أصبح عتيقا الى حد ما منذ القرن الرابع عشر ، أو من النوع الذي يربك اليافع المتوقد بالهراء حول الاشعة القاتلة . . . والاسوأ من ذلك ، بالهراء حول مشاهد القصف التي تؤكد أن القنابل ستصيب أهدافها . أما بالنسبة لما تفعله الصحافة « بالراشدين » ، وهي تحاول وصف الحرب وتحليلها . . .فخير لي ألا أدلي بوجهة نظري في ذلك . . .

ان الرأي القائل بأن الحرب لغز ، وبأنها مهمة سرية ، رأي لا يتلاءم والديمقراطية . وإنه لمن السخف تحبيذ تشجيع الناس على تثقيف أنفسهم في طرق كسب رزقهم ، ثم تحبيذ ثني عزائمهم عن الاطلاع على ما يتعلق بالطرق التي قد يلاقون حتفهم فيها . وعندما تصبح الحرب هي الشغل الشاغل للرجال والنساء في قطاع بشري يعد بالملايين ، يصبح من الضروري لهم أن يكون عندهم ، فكرة عامة ، على الاقل عن هذا الشغل ، والا فان من الممكن أن تطيش طاقاتهم الفضلى ، وينحرف أبلغ ما لديهم من حماسة نحو العقم .

ما أوقف من طاقات الناس والشعوب على الجهد الحربي خلال الثلاثة آلاف سنة الماضية هو من الغزارة بحيث ان أقصر وصف لما حدث حتى الان يمكن أن يملأ عدة كتب في مثل حجم هذا الكتاب . وما نحاوله هنا هو شيء أصغر من ذلك ، إنه وصف الخطوط الرئيسة لتطور الأسلحة التي قاتل بها الناس ـ على اليابسة ـ خلال معظم هذه السنين الثلاث[١٠] ، وسرد لبعض الأسباب التي جعلت هذه الاسلحة تتغير ، ولماذا أحدثت تغيرات في أساليب استخدامها .

وهذا يسقط من الاعتبار أشياء كثيرة جدا كانت ، وما تزال ، هامة في الحرب .

---

(١٠) السنوات التي انقضت من الحرب العالمية الثانية حتى كتابة سطور هذا الكتاب عام ١٩٤٣

المعرب

فالقيادة أمر مهم ، وقد يتكرر هذا في الحاصر ، اعتقادات وعقائد ورغبات ، دينية وسياسية ، حثت الشعوب على بذل جهود حاسمة في الحرب . وهذه الامور لن تدخل الصورة التي نرسمها في هذا الكتاب .

وأيضا لن تكون هنا أية محاولة لاعداد لائحة بكل سلاح استخدم أو لا يزال يستخدم ، في الحرب . فهذا الكتاب ليس بيانا مصورا . اذ ان العديد العديد من الكتب التي تصف أسلحة الماضي مكونة من مجرد عرض للصور المعلقة كيفما كان مع بعض من الحكايا التائهة . وهذا الكتاب محاولة للشرح لا للتعداد .

واسقاط الحرب البحرية والاسلحة البحرية من هذا الكتاب غير ناتج عن سوء تقدير لاهميتها . انه ناتج عن تحديد حجم هذا الكتاب ، وعن عدم خبرة المؤلف بالحرب في البحر .

اذن ، أنا أكتب للمدنيين والعسكريين ، موقنا ألاّ بد، في ممارسة ديمقراطية الحرب ، من أن طرف الحرب المكلف بالاعمال القتالية ، وطرفها العامل في البيوت أو الوطن ، هما بحاجة لان يكون لديهما فهم موحد . اذ يتحتم عليهما أن يعملا معا كفريق ، حيث يترتب على المدنيين أن يدعموا القوات العاملة كما يدعم الظهير ومساعد الظهير خط الهجوم الذي يسجل الاهداف في مباراة بكرة القدم . ولن يتسنى لهم مثل هذا الفهم دونما معرفة بالحروب الماضية . فعتال السفينة وهو يقدر كيف سيلملم جزءا من حمولة سفينته ، ورئيس الوزارة وهو يتخذ قراره بشأن الاهداف التي يجب أن توضع أمام جيوش بأكملها ، كلاهما بحاجة الى التصور العام لنوع الحرب التي يخوضانها ، تصور الاولويات التي تتضمنها ، الاشياء الاولى التي نحن بحاجة لان نملكها ونفعلها . ولا يختلف الحال عن هذا بالنسبة الى ضابط الصف الذي يترك وحده ليتابع المهمة بعد أن يجرح ضابطه ، أو يفترق عنه في خضم المعركة الحديثة الذي لا يثبت على حال .

أنا لا أقول بأن قراءة التاريخ ومناقشة النظرية هما الطريقة الوحيدة ، أو الفضلى ، لتعلم الحرب . ان القتال هو خير الطرق . وكنت أكتب قبل أن نغزو أوروبا ـ وكنت متفائلاً بغزوها ـ لاسباب عدة ، منها الأمل ، اننا بذلك سنتعلم كيف نقاتل أفضل من النازيين ، ثم نطبق ما تعلمناه في تدريب ، واعادة تدريب ، قوات جديدة بالنصر النهائي .

ومع ذلك ، فان ما ينتظرنا من قتال ، مهما يكن ، ومهما يكن التدريب ، سوف ينفذ (القتال) بشكل أفضل ، ان يتبين عسكريونا العمليون مدى حاجتنا إلى النظرية . وهذا

هو سبب تحملي العناء في هذه النقطة . انني انكليزي ، اذن ، فأنا نفسي عملي . وأفضل تدريب القوات أو قيادتها على قراءة التاريخ بأكمله . ولقد ساعدت في إسبانيا على تدريب عدة كتائب من الألوية الدولية ، وتدريب عدد من الضباط لهذه الألوية . وفي وقت لاحق ، ساعدت على تدريب خمسة آلاف ضابط وجندي في « مدرسة أوسترلي للحرس الوطني » . وساعدت على تدريب ألوف أخرى في المدرسة الحربية ، « وور أفيس سكول » ، بعد أن احتلت « أوسترلي » . لكنني وجدت عيبا واحدا كبيرا في هذه المهمة العملية المجزية ، وهذا العيب هو غياب نظرية الحرب . . .

كيف يمكن تدريب القوات ، واصدار الأوامر اليها ، اذا لم يكن هناك وجهة نظر نظرية في الحرب وفي تطورها ؟ يبدو أن ذلك امر « ممكن » ، ولقد حدث ذلك . . . ولا يزال يحدث . وهذا ، دون سواه ، ما هو جار في معظم الجيش البريطاني . ولكن ، كيف يقوم المرء بذلك ؟ للحكم على هذا من خلال تجربتي الذاتية أقول : ان المرء يقوم به من خلال تصور مسبق لمجموعة من الافكار حول الحرب ، أفكار مشوشة ومتشابكة بعضها مع البعض الاخر ، دونما ترتيب أو منطق . وهو يفعل بعض الأمور التي يفعلها أي امرىء آخر ، حيث يطبق ما في الكراريس ، ويمكن أن يكون لديه بعض « الافكار المحببة » الخاصة به ، ويبذل « أقصى ما لديه من جهد » . ولدى هذا المرء بعض الخبرة الذاتية المكتسبة من أعمال قتالية ماضية ، خبرة « تلون » ـ وربما تبالغ في « تلوين » ـ صورة الحرب المكونة في ذهنه . ويعتمد على خياله . . . ـ وصديقنا « الخيال » هو خادم جيد وسيد سيىء . . . ـ وعلى ضوء المنطق يحاول أن يبت في اختياره من بين الافكار المختلفة ، أو « اللمحات » التي تخطر له .

وليس من العسير على أي امرىء أن يتبين أنه اذا ما باشر أحد ما العمل بهذه الطريقة ، فسيكون ، « المزيج » الناتج محتوياً على مقدار كبير من الماضي . فالتجربة الذاتية للمرء ، والتي قد تكون مستخلصة من حروب أو حملات ماضية ، والملاحظات الأولية الموجزة عن تجارب الآخرين السابقة ، والعبارة التقليدية القائلة « لقد تعودنا دائما أن نتصرف على هذا النحو . . . » ، هذه الامور كلها قابلة لأن تهيمن على ما يفعله المرء . . . فهل يفترض ذلك ؟

أنا أقول « لا » . . . ما لم تكن هذه الامور « ممنطقة » ومقومة بوساطة العقل . وفي هذا الكتاب ، تراني أرجع عبر الماضي ، بهدف استيعاب الماضي وفق ترتيبه الصحيح ، في ذهني أنا ، وفي أذهان الآخرين ، من أجل الافادة منه في تحقيق الغرض الصحيح . وهذا

الغرض هو تعلم طرق التغير . ولقد كان « فون مولتكه »[11] الأكبر (والأعظم) هو الذي تعود أن يردد : « في الحرب ، التغيير وحده هو الممكن قبوله . . . » .

ويفترض بالتاريخ أن يروي لنا كيف يحدث التغيير ، وما هي التطورات المحتملة في الحاضر والمستقبل ، وما هي الأنماط المحتمل تكرارها - مثل نمط الجنود المدرعين الذين توجهوا نحو سيدان راجلين ، ثم راكبين ، ثم محمولين على عربات - أنماط متكررة عبر فترات ،طول الواحدة منها ألف سنة . . . أو يمكن جعلها تكرر نفسها بألوان متغيرة ، أو بشكل معين جديد . فاذا كان تاريخي هذا يعمل بحال من الاحوال على تقريبنا من الادراك ، فسيكون جديرا بالجهد الذي بذل فيه .

ت . و

(١١) هلموت ڤون مولتكه Helmoth Von Moltke (١٨٠٠ - ١٨٩١) : أحد مارشالات بروسيا المشهورين .

المعرب

الجزء الأول

بقلم توم وِنْتِرْنْغْهَامْ

١) نظرية الشيء

معركة هيستنغز ، ١٠٦٦[١٢] ، تاريخ يعرفه كل امرىء في انكلترا. وهي لا تأتي مع بداية تاريخ الأسلحة والتكتيكات ، بقدر ما تأتي مع بداية تاريخ انكلترا . ولكننا نستطيع أن نستهل هذا الفصل بها لأنها تقدم لنا نموذجا عن عينة الأشياء المطلوب تفسيرها وصولا الى فهم الحرب . ففي تلك السنة تمكن الدوق وليام النورماندي من قهر هارولد[١٣] ، ملك انكلترا ، وقتله ، وأنجز عملية الغزو ، لم يحصل ذلك . . ؟

من خلال كتب التاريخ المدرسية ، يتكون لدى الصغار انطباع بأن القائد النورماندي كان ، كجندي ، أفضل من الانكليز ، وبأن أسلوبه القيادي وشجاعة

(١٢) معركة هيستنغز Hastings ، جرت ابان غزو النورمان لانكلترا (١٠٦٦) . وتعتبر أهم معركة جرت فوق الأرض البريطانية ، ولا يماثلها في ذلك الا « معركة بريطانيا » (الحرب العالمية الثانية) . وفي هذه المعركة لم تتمكن المشاة المسلحة بالفؤوس والحراب ، رغم شجاعتها وجرأة قائدها (الملك هارولد الثاني من الصمود أمام مرونة الخيالة التي كان يقودها الدوق وليام (الفاتح فيما بعد) .

المعرب

(١٣) الملك هارولد الثاني (Harold II) (١٠٢٢ - ١٠٦٦) أحد ملوك انكلترا المشهورين .

المعرب

النورمان الفائقة هما اللذان كسبا الحرب . ان هذا كله صحيح ضمن حدود معينة . لكن شيئا ما آخر أُسقط من الحسبان ، وهذا غالبا ما يُسقط حتى من كتب التاريخ الأفضل ، التي لم تكتب بأسلوب مبسط من أجل تلاميذ المدارس . فقد أُسقط ذلك ، مثلا ، من واحد من أفضل الكتب التي أرخت هذه الحقبة ، كتاب « غزو انكلترا » الذي ألفه جون رتشارد غرين . فالذي هزم انكلترا هو أن طريقة جديدة في القتال ، وأخرى جديدة في استخدام الاسلحة ، وثالثة أيضا جديدة في تأمين الوقاية لمن يستخدمون الاسلحة،هذه الطرائق الجديدة ـ وهي جديدة على انكلترا رغم انها كانت تتطور في أجزاء أخرى من العالم طوال مئات السنين ـ تلاقت وعملت على هزيمة طريقة عتيقة في الحرب .

صحيح تماما أن ويليام كان ، كجندي ، أفضل من هارولد ، رغم أنه لم يكن أشجع منه . وصحيح أيضا أن الجيش النورماني كان يتقن المناورة أكثر من الجيش الانكليزي ، لكن هذا كله لم يكن بحكم ذكائهم الموروث أو المكتسب ، بقدر ما كان بحكم حقيقة ان الجيش النورماني استخدم الخيالة المدرعة بدور قوات الصدمة ، في الوقت الذي كان فيه الانكليز يقاتلون راجلين .

وكانت ثمة أسباب وراء هذا الاختلاف . ومن يعد الى ما يكفي من الماضي يجد أن طريقتي الجيشين في القتال ناشئتان عن طريقتي حياتهما ، ناشئتان عن أنظمة المجتمع ، أو عن غياب هذه الانظمة ، أو عن خليط من هذه الانظمة وهذه الحالات كانت هي بدورها تختزن مجمل التاريخ السلمي أو الحربي للشعبين اللذين تشكل منهما الجيشان . بيد أن العلاقة بين طرائق الحياة وأساليب القتال ـ بين الفعاليات الاقتصادية والسياسية من جهة ، والحرب من جهة ثانية ـ ليست هي موضوع هذا الكتاب . وما يعنينا هو حقيقة أن الحرب كانت في تغير مستمر ، ومنذ زمن سابق للعام ١٠٦٦ ، حيث كان بمقدور الرجل الذي يمتطي الحصان أن يلبس درعاً أثقل ـ ويحمل أسلحة أثقل ـ مما كان بمقدور الرجل الراجل . وعلى هذا الاساس فان الرجل الراكب ـ الخيال ـ هو الذي قهر انكلترا .

آنذاك ، ساعدت الدروع على غزو انكلترا . وان تتعرض بريطانيا للغزو في الحرب الحالية ، فسيكون ذلك ، والى حد كبير ، بالدروع التي سيحاول الغزاة أن يقهرونا بها . فقد كانت أقدر على الحركة وأكفأ في التكتيك ، كما كانت ، كقوة ضاربة ، أقدر من المشاة الانكليز الذين لاقوا الهزيمة . وكان أولئك يتمتعون بقدر أكبر من الوقاية .

القدرة على الحركة ، والقوة الضاربة ، وتأمين الوقاية ، هذه هي الان ـ وكما كانت باستمرار ـ بعض مفاتيح النصر. وحيثما عملت امور أخرى، كالمفاجأة، أو الحشد في

الزمان والمكان الحاسمين ، أو المناورة الذكية ، على كسب المعارك ، فان هذه الامور كانت ناشئة ، بشكل مباشر ، عن التفوق في القدرة على الحركة ، وعن القوة الضاربة والوقاية المؤمنة ، أو عن التفوق في واحدة أو اثنتين من هذه الميزات .

وإنه لمن الحماقة التساؤل عن أي من هذه الميزات الثلاث هي الاهم . فلقد كانت ثمة أطوار في الحرب استحوذت فيها إحداها على الأهمية كلها ، بينما لم يكن للاثنتين الأخريين شأن يذكر . الا ان الغالب هو أن هذه الميزات كانت دائما متداخلة في جيوش « حديثة » تمكنت من تغيير أساليب القتال المألوفة . وهذا ما يجعل من الصعب فصل ماضي الحرب بعضه عن البعض الاخر . والحالة أسهل بكثير لو كان أهم الامور كلها متمثلا فى عامل واحد بارز ، أو في ميزة واحدة بارزة .

آنذاك ، يصبح في مقدورنا تحليل مجمل ماضي الحرب على ضوء التطور في هذه الميزة الواحدة . فلو كانت القدرة على الحركة ، مثلا ، هي الشيء الوحيد المهم لاستطعنا تحليل الصراع المسلح بناء على سرعة حركة القوات . ولكان لدينا ، أولا ، حرب اقدام مثقلة ، ثم حرب فروسية ، ثم حرب سكة حديدية ، ثم حرب نفط . ولكان بمقدورنا متابعة التطورات من خلال هذه التقسيمات أو التجزيئات للحرب : أي التدريب الذي مكن التشكيلات (الليجيونات) الرومانية من التفوق على أخصامها في تحمل مشاق المسيرات ، وكذلك فروسية الصليبيين والمغول ، وانهيار البلدان ذات الخطوط الحديدية المتخلفة أثناء « حرب السكك الحديدية » ما بين العامين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، (مثل صربيا ، رومانيا ، روسيا ، تركيا ، بلغاريا ، النمسا) وصولا الى تطوير المحرك « البترولي » ليسود الحرب الحالية . لكن الواقع أن القدرة على الحركة ليست ، دائماً ، هي الميزة الوحيدة الهامة في الحروب كلها ، وما صورته من تحليلات كله سوف يتهلهل لدى التأمل في حزب المشاة وحرب الخيالة .

ولم يكن الانتقال من السير الى الركوب سهلا وبسيطا . فقد عقدت هذا الامر مسألتا القوة الضاربة والوقاية ، اذ كانت هناك « عهود فروسية » متتالية ، لعبت الخيالة في كل منها دورا مختلفا الى حد ما . وكانت هناك عهود أخرى كان فيها للخيالة ، ولاسباب تتعلق بالقوة الضاربة وبالوقاية ، أهمية ضئيلة جدا .

وقد جرت احدى المحاولات لتحليل الصراع المسلح من منطلق أهمية قوة الجيوش الضاربة بشكل أساس ، وهي الميزة التي تحل في المقام الثاني حسب ترتيبنا « لمفاتيح النصر » الثلاثة ـ ولو ان وضعها في المقام الاول لا يغير شيئا من صحة هذا الترتيب . والذي قام

بهذه المحاولة هو الجنرال جي . اف . سي . فوللر[١٤] (Fuller) ، مقسما الحرب الى « دورات صدمة » متناوبة و« دورات اندفاع » . ومن يرغب من القراء في تتبع وجهة النظر هذه ، بدءا من العام ١١٠٠ ق . م . وحتى المستقبل (حتى العام ٢٠٥٠ ب . م .) ، سيجد هذه القرون كلها مضغوطة في ثلاث صفحات من كتاب الجنرال فوللر « أسنان التنين » (ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩) .

وتقسيمه هذا لفترات الحرب ، بين فترات ، غالباً ما يتصارع فيها الناس من مواقع متقاربة ، « وباسلحة الصدمة » ، وأخرى يتصارعون فيها أغلب الاحيان وهم متباعدون وبقذائف وصواريخ ، هذا التقسيم هو باعتقادنا ذو قيمة عظيمة . بيد أنه تقسيم ناقص ومضلل ، ان يُتخذ كدليل منهجي في دراسة تاريخ الصراع المسلح كله . وكان يفترض بهذا الدليل أن يقدم لنا نموذجا للحرب ، تتلازم فيها القدرة على الحركة والوقاية ومعهما القوة النارية ، لرسم صورة شاملة ومفهومة لفترات الحرب المتنوعة . وفي تقديري اننا سنجد الامر على غاية البساطة حين نستهل الصورة بالوقاية ، ثم نربط بها الميزتين الاخريين .

وربما يتراءى لي أن هذا هو النموذج المثالي المفسر للحرب ، لانني انكليزي ، ولانني كنت ، ولا أزال ، أعيش هذا الكتاب وأكتبه في بلد (انكلترا) مهدد بالغزو . وانه لمن الطبيعي ، بالنسبة الي ، أن أسترجع في ذاكرتي الغزوات الماضية . ولم تكن الغزوات التي تعرضت لها انكلترا من القارة الاوروبية ناجحة في أغلب الاحيان . وفي آخر غزوة قام بها الهولندي ، وليام أوف أورانج[١٥] ، ابان « الثورة المجيدة » the Glorious revolution[١٦] (١٦٨٨) ، رحب معظم الاهالي « بالغزاة » . لذا من الصعب تصنيفها على مستوى الغزو الأجنبي . أما الغزوات ذات الاهمية التي تعرض لها هذا البلد فهما غزوتا يوليوس قيصر ، والدوق وليام أوف نورماندي[١٧] .

---

(١٤) فولر (جون فردريك شارلز) J. F. C. Fuller (١٨٧٤ ـ ١٩٦٤) . جنرال بريطاني ، ومنظر استراتيجي مشهور .
المعرب

(١٥) وليام أوف أورانج ، وعرف باسم وليام الثالث (١٦٥٠ ـ ١٧٠٢) ، حكم انكلترا طوال الفترة ١٦٨٩ ـ ١٧٠٢ ، وهو هولندي الاصل .

المعرب

(١٦) الثورة المجيدة The Glorious Revolution : حركة اليعاقبة الانكليز (١٦٨٩ ـ ١٦٩١) التي تمكنوا فيها من خلع الملك « جيمس الثاني » ، وتنصيب صهره (١٦٨٩) وليام (الثالث) أوف أورانج ، دونما اراقة دماء .

المعرب

(١٧) وليام أوف نورماندي : أو (الفاتح) (١٠٢٨ ـ ١٠٨٧) احد ملوك انكلترا .

المعرب

قاد القيصر قوة مدرعة نحو هذه الجزر ، ووليام النورماندي قاد قوة مدرعة . وفي العامين ١٩٤٠ و ١٩٤١ ، كانت قوة مدرعة هي التي تهددنا . وهذه القوى المدرعة التي تعاقبت بفواصل زمنية مدة كل منها ألف عام ـ أو ما يقارب ذلك ـ وعلى ما بينها من اختلاف بين ، رغم تماثلها الكبير في بعض الاوجه ، هذه القوى تبدو لي وكأنها نقاط علام في تاريخ الحرب . . وهناك نقاط علام أخرى . ولكن هذه هي النقاط التي تلازم فكري حاليا في انكلترا .

وثمة ارتباط مبدئي بين القدرة على الحركة والوقاية قائم في النموذج المثالي للحرب فقبل ألفين من السنين كانت قوة مشاة مدرعة تلك التي جابت الدنيا . وقبل ألف عام كانت تلك القوة خيالة مدرعة . وفي الوقت الحاضر ، يترنح العالم أمام قوة من العربات المدرعة . وهناك علائق أخرى بين القدرة على الحركة والوقاية . ولكن العلاقة الاولى هي الابسط وذات المقام الاول . فالدروع تتزايد حتى يصبح وزنها أثقل مما يمكن أن يحمله المرء أو الحصان أو العربة في المعركة .

بيد أن العلاقة بين الوقاية بالدروع وبين القوة الضاربة هي أعقد من ذلك الى حد ما . وقبل أن نتناول هذه الناحية ، لنجرب أن نقسم الحرب الى فترات مؤشراتها نقاط العلام المدرعة هذه .

في البدء كان هناك زمن لا يعرف الناس فيه سوى القليل عن صناعة المعادن ، كان لا يملك الدروع سوى القلة . وما من ضرورة لان يُدخل ذلك الزمن ـ وهو قبل تاريخ الحرب ـ في الصورة التي نرسمها بشكل تفصيلي ، لان ما نعرفه عنه قليل ، وقليلة أيضا الاتجاهات الواضحة التي يمكن تبنيها في « أغوار ذلك الزمن وخلفيته » . وتنتهي هذه الحقبة بمعركة « بلاتيا »[١٨] التي طردت فيها الجيوش الاغريقية الفرس من أوروبا . وعلى هذا الاساس نضع فترتنا الاولى ، ومنها :

١) الفترة الاولى المدرعة ، من زمن ما قبل تاريخ الحرب وحتى العام ٤٧٩ ق . م . منذ معركة بلاتاري فصاعدا ، أصبحت الاهمية القصوى في الصراع المسلح لجندي المشاة

---

(١٨) معركة « بلاتيا » Plataea من الحرب بين الفرس والاغريق (٤٧٩ ق . م .) ، والتي تمكنت فيها قوة اغريقية متحالفة ، بقيادة « بوزانياس » ، ومكونة من قوات مشاة ثقيلة (هوبلايت Hoplite) ، مسلحة بالسيوف والحراب ، تمكنت من الحاق هزيمة منكرة بالقوات الفارسية ، وانهت محاولاتها لغزو اليونان .

المعرب

المدرع ، الى أن دُمرت الجحافل الرومانية في معركة « أدريا نوبل »[١٩] ، في عام ٣٧٨ م . وهذا يشكل المرحلة الثانية من تاريخ الحرب ـ حسب تصورنا .

٢) الفترة المدرعة الأولى ، من العام ٤٧٩ ق . م . حتى العام ٣٧٨ م . آنذاك أصبحت الخيالة السلاح الرئيس الذي كان يحقق النصر في المعارك . وغالبا ما كان يتكون من خيالة خفيفة الى حد ما ، أي غير مدرعة تماما . وكانت تقاتل بالمقذوفات أكثر مما تقاتل بالصدمة من مواقع متقاربة . بيد أن الدروع صارت تسترد أهميتها مجددا ، وليس بالامكان تحديد تاريخ دقيق لعودة مجد الدروع التي حقق بها شارلمان انتصاره في معركة « بافيا[٢٠] (٧٧٤) .

٣) الفترة الثانية غير المدرعة ، من العام ٣٧٨ حتى العام ٧٧٤ :

منذ ذلك الحين فصاعدا ، تسيد الفارس المدرع الثقيل ميدان المعركة . الا ان قيمة الرامي (بالسهام) « كسلاح » مساعد أخذت تتزايد تدريجيا إبان العصور المظلمة والوسطى البطيئة التغير ، الى أن اكتشف « البلانتا جينيون »[٢١] في القوس الويلزي الطويل « مساعدا » للدرع ، باستطاعته أن يبز الدرع . ونحن نؤرخ نهاية هذه الفترة المدرعة بمعركة « كريسي »[٢٢] (١٣٤٦) .

٤) الفترة المدرعة الثانية : من العام ٧٧٤ حتى العام ١٣٤٦ :

وقد تخللت هذه الفترة عدة اتجاهات . فهي الفترة التي سادها كلها مفهوم الصراع

---

(١٩) أدريا نوبل Adria nople (أو معركة أدرنة) ٣٧٨ ، احدى اكثر المعارك حسماً في التاريخ القديم ، حيث تمكنت فيها الخيالة الجرمانية من سحق المشاة الرومانية ، وقتل حوالي عشرين ألف روماني (من أصل ٣٠ ألفاً) . وبهذه المعركة اثبتت الخيالة المرنة تفوقها على المشاة الراجلة .

المعرب

(٢٠) معركة بافيا Pavia ، إحدى المعارك التي خاضها شارلمان ابان فتوحاته في اوروبا (٧٧٣ ـ ٧٧٤) ، وفيها اكتسحت الخيالة الفرنسية مواقع المشاة اللومباردية ، مما اضطر الملك « ديسيداريوس » الى الاحتماء ضمن بافيا . ولم يكن مع شارلمان « آلات » تمكنه من اقتحام البلدة ، فحاصرها حتى استسلمت في حزيران (يونيو) ٧٧٤ .

المعرب

(٢١) البلانتا جينيون PlantaGenets : أعضاء الأسرة المالكة التي حكمت انكلترا طوال الفترة ١١٥٤ ـ ١٤٨٥ .

المعرب

(٢٢) معركة كريسي Crécy (١٣٤٦) : احدى معارك « المئة عام » ، ومن اشد المعارك حسما في التاريخ العسكري القديم . وقد نشبت بين فرنسا وانكلترا ، ومن خلالها بدأ بروز انكلترا كقوة عسكرية عالمية ، بفضل « القوس الطويل » الذي زاد مداه عن مئتي متر ، والذي قلص دور « الفارس » الخيال .

المعرب

النسلح الحديث ، حتى النقطة التي بدأت فيها أهمية الدبابة بالظهور . وخلال هذه الفترة فتّم تطور الصناعة الحديثة تزايداً هائلاً في قوة النيران . وأصبحت الحرب تُشن من بعيد ، بحيث يندر أن يرى المحارب عدوه . غير أن الوقاية بالدروع عادت الى الصورة مع ظهور الدبابة ، في معركة « كامبري »[٢٣] التي هيأت للدبابة فرصتها الأولى . ومن هنا تأتي الفترة اللاحقة :

٥) الفترة الثالثة غير المدرعة ، من العام ١٣٤٦ حتى العام ١٩١٧ .

وأخيرا ، نصل الى الفترة الحالية ، حيث أصبحت العربة المدرعة هي السلاح الذي يتسيد الصراع على اليابسة ، ومن هنا نبدأ :

٦) الفترة المدرعة الثالثة من العام ١٩١٧ وحتى . . . ؟

وان نحن تجاوزنا حواشي النموذج المثالي للحرب ، وأسقطنا عهد ما قبل تاريخ الحرب ، ومعهما الزمن الراهن ، فها هي ذي شرائح ماض متوسط زمن كل منها ٥٠٠ عام . فهل بمقدورنا ايجاد توجهات محددة في تطور الصراع المسلح خلال كل من هذه الفترات ؟ وهل بمقدورنا ايجاد توجهات محددة ، ضمن كل منها ، تفسر تحولها الى الفترة اللاحقة ؟

أجل ، ان معظم هذا الكتاب يتألف من دراسات تتعلق بالتوجهات التي سادت كلا من هذه الفترات . لكن من الضروري ، أولا ، أن أعرف ، وبمزيد من الوضوح ، ما أنا بصدده ، كلما استخدمت عبارة « التوجهات في الحرب » . فأنا لا أكتب عن « مبادىء الحرب » فلقد جرى العديد من المحاولات لوضع قائمة بمبادىء الحرب الثابتة على « عدم تغيرها » ولقد عفا الزمن على هذه المبادىء كلها .

ولئن يكن اليوم أي امرىء من الطيش بحيث يضع قائمة بمجموعة « المبادىء » والقواعد الاساسية الثابتة لفن الحرب ، فان من المحتمل الا تصمد قائمته ، ان هي صمدت أصلا ، الا بضع سنين . فالحرب الحديثة تنطوي على عدد كبير من التقنيات الاخرى ، وتعتمد على التغير ، وكذلك على التغيرات في هذه التقنيات ، بحيث يجب

---

(٢٣) كامبري Cambrai : احدى معارك الحرب العالمية الاولى (١٩١٧) بين الالمان والبريطانيين وفيها استخدم البريطانيون الدبابات (٣٢٤ دبابة) ، لأول مرة في التاريخ ، كرأس حربة اقتحامي . ولكن سرعان ما فقدت الدبابات قوة صدمتها ، وتراجع البريطانيون بعد تقدم بسيط ، بعد ان خسروا ٤٣٠٠ جندي بين قتيل وأسير .

المعرب

تقويمها على أساس انها عملية تخضع لتطور مضطرد ، وقابلة في الوقت نفسه لان تتعرض للهدم في كثير من الاحيان .

في شهر أيلول (سبتمبر) من العام ١٩٣٩ ، صدرت في انكلترا ، وباللغة الانكليزية ، وثيقة هامة تحتوي على تسعة « مبادىء للحرب » ، صنفت فيها « القدرة على الحركة » في المرتبة التاسعة . وفي العام التالي برهنت الحرب الخاطفة النازية في « البلدان المنخفضة » ، وفي شمال فرنسا ، على ان مرتبة القدرة على الحركة ، في لائحة المبادىء هي أقرب الى الصدارة منها الى المؤخرة . . . وقد أتت ، على ما اعتقد ، في المرتبة الثانية أو الثالثة في لائحة مشابهة .

وعلى هذا الاساس ، فأنا لا أحاول أن أسن « مبادىء حرب » . وأنا أعرف المبادىء التسعة التي أدرجت ، وأعرف لوائح من النوع ذاته . ولم يأت وقت قدمت لي فيه هذه اللوائح مساعدة تذكر . وربما تكون أكثر نفعا بالنسبة لآخرين . . . ولو اني أشك في ذلك . وأنا على يقين تام من أن بعض « مبادىء الحرب » ، وهي على الشكل الذي جرت العادة أن تُعلم فيه ، هو خطير على العسكري المعاصر . ولنأخذ مثالا على ذلك أحد « المبادىء » التي وردت في كتاب رائج صدر مؤخرا عن الحرب المعاصرة :

يعتقد مؤلف الكتاب ، وهو الذي كان ذات يوم أحد محرري « مجلة الجيش والبحرية » الاميركية ، يعتقد بأن « ثمة مبادىء علمية معينة لفن الحرب . . . هي دائما قابلة للتطبيق . . . فهي مثل قوانين الرياضيات رسوخا . وكما أن أستاذ الجامعة وطفل رياض الاطفال ، سيحصل كلاهما على نتائج خاطئة ان لم يحسنا عملية الطرح ، كذلك قائد الجيش وعريف الجماعة ، كلاهما معرض للهزيمة ان هما أخفقا في حماية جناحيهما . . . »

هذا هو المبدأ « الراسخ » والقابل للتطبيق أبدا ـ المقدم على الصفحة الاولى من الفصل الاول في هذا الانتاج العصري . وبعد بضعة أشهر من نشر الكتاب وجه الجيش الالماني ضربته الى فرنسا . فهل كان الجيش الالماني « يحمي جناحيه » ؟

ومنذ شهر آذار (١٩١٨) ، حين طُبق الاختراق كأسلوب أساس في قتال الجيش ، سقطت ، أو تغيرت فكرة تحقيق الأمن عن طريق حماية الاجنحة . ولم تعد تحكم تكتيكات الهجوم . ووجهة النظر هذه ليست لها من ناحية تكتيكية غير قيمة محدودة ، في العمليات الدفاعية . . اذ ان الموقع الدفاعي الحديث ينظم على اساس الدفاع الدائري ، وليست له « أجنحة » بالمعنى القديم . والكلام عن « الاجنحة » فيما يتعلق بمثل هذا الموقع هو كلام

مضلل ، لانه يفترض سلفا فكرة وجود جبهة خطية ، ويفترض سلفا معرفة الاتجاه الذي ستتقدم منه قوى العدو .

ومن ناحية استراتيجية ايضا ، تختلف مسألة « حماية الاجنحة » ، والى حد كبير ، عما كانت عليه في العام ١٩١٧ . فالقوات التي تناور بالاليات (دبابات ، عربات ، شاحنات . .) ليست بحاجة الى حماية اجنحتها ضد قوات مقيدة بايقاع خطوات المشاة . وتستطيع القوات سريعة الحركة ان تنفذ هجماتها دونما خوف على أجنحتها ، لانها تتحرك بسرعة أكبر من أن تترك فرصة للقوات البطيئة كي تنال من هذه الاجنحة . وفي وقت لاحق ، وبعد أن تكون القوات السريعة الحركة قد نجحت في تحقيق الخرق ، فان اطراف الخرق أو اجنحته يمكن أن تصبح بحاجة الى « الترميم » بالمشاة والمدفعية .

وعلى هذا الاساس ، فان عبارة « حماية الاجنحة » لا تصح الان بالنسبة إلى العديد من العمليات الحاسمة في الحرب الحديثة . وعندما تصح فعلا ، والى حد ما ، بالنسبة إلى مثل هذه العمليات ، فان ذلك يكون من منطلق جديد ، منطلق يختلف عن ذاك الذي كان يُعبر عنه بمنطق العام ١٩١٧ .

لقد أوردت هذا المثال لأبين سبب رفضي لفكرة « مبادىء الحرب » التي لا تتغير . لكنني ، من جهة أخرى ، أكرر أن للحرب توجهات ، وان بالامكان تمييز هذه التوجهات وفهمها ، وان القوات المسلحة التي تستوعبها ، وتكون السباقة في تطبيقها ، هي التي ستهزم القوات المسلحة التي تتجاهل هذه التوجهات ، أو تفعل نقيضها .

ما هي هذه التوجهات بأوجز ما يمكن من عبارات ؟ انها تؤطر شوط النواس ما بين الدرع والمقذوف ، وهذا ما ذكرته سابقا ، عندما قسمت تاريخ الحرب الى ست مراحل ، وتحدد التزايد العام في القدرة على الحركة ، وهذا ما ورد في تصنيفي للفترات المدرعة : القدم ، الحصان ، العربة التي تسير بمحرك . والذي له صلة وثيقة بهذه التوجهات الاولية هو شوط النواس ما بين تطور « أسلحة الصدمة » اللازمة للقتال من مواقع متقاربة ، وأسلحة المقذوفات اللازمة للقتال من مسافات بعيدة . وفي حين تُخص الدروع بأهمية كبيرة في الصراع المسلح ، تظل أسلحة الصدمة ، في الحالات العادية ، أهم من أسلحة المقذوفات . اذ يستطيع الرجال « المدرعون » أن يتقربوا من خصومهم حتى التلاحم . لكن حقيقة أن معظم القتال يتم اليوم بأسلحة المقذوفات لا تلغي هذا التوجه . وبما أننا عدنا من جديد الى فترة مدرعة ، فقد عدنا لننحو باتجاه القتال من مواقع متقاربة ، وننحو باتجاه أسلحة كالرشاش الخفيف (تومي غن) والرمانة اليدوية ، وهما يتلاءمان مع هذا

الاسلوب في القتال . والدرع والقتال القريب رفيقان متلازمان طوال الصراع المسلح .

ورغم وجود فرق بسيط بين أسلحة الصدمة وأسلحة المقذوفات ، فانه لامر عادي أن يكمل الصنفان أحدهما الآخر . وقد يُستخدم أحدهما أحيانا في احدى مراحل القتال بينما يُستخدم الاخر في مرحلة أخرى . ومن الممكن أن نرى هذا النموذج الاساس والغالب من القتال في أي مجموعة من التلاميذ الذين يتقاتلون . فهم يبدأون بالتراشق بالحجارة ، أو « بالنقيفات » ، أو بكرات الثلج ، أو بأي جسم يصلح للرمي . بعد ذلك ، وعندما يكون القتال حقيقيا ، والطرفان متكافئان تماما ، يتوقف بعضهم عن قذف الاشياء ، ويتقاربون ليشتبكوا بالعصي والقبضات ، وربما بالاقدام . وعندما يُغلب أحد الطرفين ، يُبدأ التقاذف من جديد . وقد تستمر « المطاردة والقضاء على المقاومة » عن طريق « الاعمال الصدامية » . اما « الاعمال الوقائية » ، فيظل القتال فيها المقذوفات بالدرجة الاولى . وفي معارك هؤلاء الصغار لا يزال القتال ، من حيث جوهره ، هو نفسه ، كما كان في العهود المتنوعة التي سبقت القرن الماضي . ففي هذا الشكل من الصراع المسلح ، يعد قذف الاشياء ، أي استخدام المقذوفات ، وساطة مفيدة ، الا انها غالبا ما تكون غير حاسمة ، فتوجيه الضربات من مواقع قريبة ، فيما بين التلاميذ الصغار - وكما كانت العادة ، معظم الاحيان ، فيما بين الجنود - هو الوسيلة الحاسمة في القتال .

وفي وقت لاحق سنرى ، من خلال تاريخ الاسلحة هذا ، كيف أن تغيرا كبيرا قد طرأ عبر بضع مئات من السنين الماضية . وهو التغير الذي أدى الى أن يصبح استخدام المقذوفات هو الطريقة الرئيسة في القتال ، وأدى الى جعل مختلف الاسلحة التي تعود الناس أن يمزقوا ويشرحوا ويقتلعوا بها أحشاء بعضهم البعض من مسافات لا تزيد عن بضعة أقدام ، جعلها ، عمليا ، متخلفة وبلا جدوى . وأصبحت هذه الاسلحة من تحف الماضي . والسيف الذي لا يزال يتقلده الفرسان والضباط في أوقات السلم صار للزينة ، وصارت قيمته في ميادين المعارك الحديثة أقل حتى من قيمة القوس والسهم . والقناة التي كانت فيما مضى تدك الامبراطوريات ، والتي كانت ابان العصور الوسطى هي السلاح الرئيس بيد الفرسان المدرعين ، صارت في عهد الملكة فيكتوريا هي الرمح الذي تشرعه كتائب الخيالة الخاصة من أجل البيرق الخافق في رأسه ، أكثر مما تستخدمه في الطعن . وآخر هجوم شُن بالرماح كان في معركة أم درمان (١٨٩٨)[٢٤] . وفي نهاية الامر ، ألغي

---

(٢٤) معركة أم درمان ، احدى معارك حرب السودان (١٨٩٨) بين القوات السودانية (المهدية) والبريطانية ، والتي تم بعدها احتلال السودان بكامله .

المعرب

الرمح كسلاح في الجيش البريطاني بموجب قرار صدر عن وزارة الحربية عام ١٩٢٨ .

وسنتناول مسألة الحربة (السنكي) ، آخر أسلحة الصدمة ، عندما نصل اليها . اذ اننا مهتمون الان « بنظرية الشيء » ، وهي النقطة النظرية التي بدأنا معالجتها . فحتى عندما يتقاتل الناس - كما يفعلون حاليا - بأسلحة المقذوفات بالدرجة الاولى ، لا يزال هناك « شوط نواس » بين القتال من مسافات بعيدة (كمعركة المدفعية التي وقعت خلال ١٩١٦ - ١٩١٨) ، والقتال من مسافات قصيرة (مثال ذلك ، استخدام المشاة للرمانات اليدوية ضد الدبابات) . وخلال العامين ١٩٤٠ و ١٩٤١ ، لم يكن قتال الصدمة ينفذ بأسلحة الصدمة بشكل رئيس . فقد استخدمت أسلحة المقذوفات . . ولكن استخدامها كان من مسافات قريبة . ومن المحتمل أن يكون شوط النواس تراجعيا في الوقت الحاضر ، أي أن المسافات القتالية تطول . وهذه هي عينة الشيء التي يمكن لدراسة الماضي أن تجعلها شاملة ومفهومة بالنسبة الينا .

ان عملية التطور الرئيسة ، خلال الفترة التي تُعطى فيها الاهمية القصوى للدروع وأسلحة الصدمة ، تنمو في البدء باتجاه خلق جيش يستطيع الضرب كمطرقة ثقيلة واحدة . بيد أن ما اكتشف بعد فترة من الزمن هو أن مثل هذا الجيش سيكون اما مثقلا بالدروع والاسلحة بشكل مبالغ فيه ، واما أبطأ من أن يكون قادرا على المناورة بشكل ناجح في مواجهة عدو خفيف ورشيق . ومن هذا المنطلق يظهر تطور ثان ، يقسم فيه الجيش الى وحدات صغيرة ، لكل منها قائد منفصل ، وقادرة مجتمعة على تنفيذ مناورة « مركبة » . ومن هذا المنطلق كان « الليجيون » الروماني وحدة تنظيمية أصغر بكثير من « الفالانكس »[٢٥] الاغريقي الذي كان قبله . وبهذا التوجه نحو مفصلة القوات ، يوجد تزايد في أهمية الاسلحة أو الوحدات الثانوية ، مرافق للتوجه ، أو ناتج عنه .

اذن ، خلال كل فترة مدرعة نجد ، بادىء الامر ، توحيدا بسيطا ، أي صنع التجانس ، ثم نجد تعقيدا مشفوعا بالتناسق .

وخلال فترات الصراع المسلح غير المدرع ، وعندما تكون المقذوفات ، بشتى أنواعها ، ذات أهمية أكبر نسبيا من أهمية الاسلحة التي تستخدم في القتال التلاحمي ، تنحو الجيوش باتجاه زيادة الاعتماد أكثر فأكثر على القوات الخفيفة ، القادرة على الحركة . اذ

---

(٢٥) الفلانكس Falanx : تشكيل عسكري قتالي اغريقي الاساس ، يتالف من المشاة الثقيلة بالدرجة الاولى .

المعرب

يكون هناك نزوع للابتعاد عن التنظيم المغلق باتجاه التنظيم المفتوح . ويكون هناك توجه مستمر نحو انتاج أسلحة قادرة على ضرب العدو من بعيد ، قبل أن تتمكن أسلحة العدو من إحداث أي ضرر . وهذا ما سماه الجنرال فولر « العامل التكتيكي الثابت » . وثمة توجه آخر نحو تحقيق نيران سريعة . فان يتمكن القوس الطويل «Long bow » من أن يكونُ أسرع من القوس المتصالب « Crossbow » بثلاث مرات ، وله المدى نفسه ، يمكن أن تكون فائدة الاول ، كسلاح ، ثلاثة أضعاف فائدة الثاني . وقد استمر هذان المنحيان في التوجه الاول الى أن جعلت العلوم والصناعة الحديثتان من الممكن لكل رجل أن يحمل سلاحا يهيىء له فرصة قتل أي عدو يمكن أن يراه . كما أن الاسلحة الحديثة ، المصممة على شكل مدفعية بعيدة المدى ، ستقتل أيضا أعداء على مسافات أبعد من قدرة الرؤ ية عند الذين يرمون بهذه المدفعية . وهناك بعض من هذه الاسلحة الحديثة يمكن أن يطلق النار عشر مرات في الثانية الواحدة .

هذه الاشكال البسيطة تماما من تطورات الصراع المسلح تعقدها أشكال أخرى . فهناك مسألتا التحصينات والنقل . لقد تعلم الناس ، بعد أن كبرت المدن الرئيسة ، أشياء كثيرة عن البناء . وهذا ما جعل تطوير التحصينات أمرا ممكنا . وهناك فترات في الصراع المسلح تطورت فيها فنون التحصين بحيث صار تأثيرها على التكتيكات أكبر بكثير من تأثير فني صناعتي المعادن والاسلحة . والناس الذين ينتقلون من المدن واليها ، وما يُجلب اليها من سلع ، أمران خلقا الحاجة الى الطرق ، وجعلا النقل يتم على أطر . ولقد تأثرت التكتيكات دائما ، والى حد بعيد ، بتطور الطرق ، وبوقائع تاريخية حدثت ، وكان فيها مجال لاهتراء الطرق الجيدة . ولطالما تحكم النقل على أطر بالامداد . ولذا ، تحكم بحجم الجيوش وقدرتها على الحركة . وتأثير هذا الوضع هو أكثر من ذلك في هذه الايام .

لم يأت حين من الدهر كان فيه حجم الجيش معتمدا على قرار بسيط يتخذه ملك أو امبراطور ، يجيء فيه : « سيكون لدينا مئة ألف أخرى من الجنود . . » اذ يتقرر حجم الجيش ، بالدرجة الاولى ، بناء على الامكانات الزراعية ، وعلى المستوى العام لانتاج البلد المعني . وغالبا ما يتحدد مدى كبر الجيش الذي يمكن أن يزج في معركة ما بالتموين والاحتياجات الاخرى التي يتطلبها . ويتحدد بالمخزونات وبخدمات الامداد (النقل مثلا) التي يمكن توافرها .

ان ما أسجله هنا من عوامل سياسية واقتصادية ، أو « أشكال للحرب » ، هي « عوامل معقدة » ، أوردها من أجل أهداف ما أطرحه هنا . وينشأ بعضها ، كتلك التي

ذكرت ، عن الترابط الواضح بين مستوى التقنية في مجتمع ما ، ومهاراته المدنية ، وثرواته ، ومعارفه ، ومهنه ، وصناعته وزراعته ، وبين القوى القتالية التي تطورت أو انحكمت الى حد ما ، بفعل هذه العوامل الاقتصادية كلها . وينشأ البعض الإخر عن النضوج الاخلاقي أو السياسي في المجتمعات .

أحيانا ، يحكى ، أو يكتب عن الحرب ، على اساس انها مسألة بطولة ، ومثاليات وعلى أساس انها خدمة وشجاعة بالدرجة الاولى . ومما لا شك فيه ان هذا وارد في الصراع المسلح ، وغالبا ما يصبح أدعى للملاحظة أثناء الحرب ، مما يكون عليه أثناء الحياة المدنية المسالمة . . . رغم أهمية التذكير بأن الشجاعة كثيرا ما تكون عديمة الجدوى في مواجهة الاسلحة المتفوقة جدا . ومع ذلك ، فان للشجاعة أيضا مبررا « معقولا » في معظم الاحيان . وفي كثير من الاوقات ، يعمل تاريخ بلد ما ، وموقعه الجغرافي ، على جعل بعض الاهداف الحربية لهذا البلد ضرورية لحياته ونموه . وان تتغلغل هذه الاهداف في نفوس شعب هذا البلد ، ويتحسسها هو بأعماقه ، فان الجنود الذين يمثلون هذا الشعب في المعركة سيكونون مختلفين عن الجنود الذين لا يعرفون شيئا عما يقاتلون من أجله ، والذين ليست لهم مصلحة وطنية في حصيلة النزاع . . . بل سيكون الاولون خيراً من الاخرين . ومن جهة ثانية ، سيبذل الناس الذين يحسون بأنهم أحرار ، وقادرون بشكلٍ ما، على الاسهام في صنع القرار المتعلق بالحرب أو السلام ، سيبذلون المزيد من أنفسهم ، ويقدمون المزيد في القتال ، لانهم يحسون بان القتال أمر شاركوا هم في تقريره ، وهو مسؤولية اختاروها بأنفسهم . وبهذه الطريقة وبغيرها تؤثر سياسات المجتمع ، وبنيته الطبقية ، على معنويات جنوده ، وبالتالي على تكتيكاتهم

وثمة عامل مشابه آخر له تأثير مباشر على التكتيكات . فما دام الناس يطورون أدوات جديدة وأسلحة جديدة ، ويطورون طرقا جديدة في الحياة وفي القتال ، فان كل حرب ، بل وكل معركة ، يمكن أن تكون ذات شكل مختلف الى حد ما عما سبقها . وهناك بعض الانماط الاجتماعية التي تتغير ببطء شديد . فالممالك الآسيوية التي يحكمها ملوك أو أباطرة يُزعم بأنهم من سلالة هذا الإلـه أو ذاك ، هذه الممالك تقوم عادة على أساس الا يتغير شيء فيها : العادات القديمة كلها صالحة ، ويُفترض أن يُؤدى كل عمل كما كان يُؤدى في الماضي تماما .

وعندما يدخل الحربَ مجتمعٌ من هذا النوع ، يكون لدى قادته وعسكرييه الاخرين آراء متخلفة عما ستكون عليه الحرب . فهم لا يغيرون تكتيكاتهم وصولا الى الاستفادة

القصوى من الاسلحة الحديثة التي وفرتها لهم العلوم والصناعة . ويكون لديهم نظرية رجعية أو محافظة حول الصراع المسلح ، أو يمكن ألا تكون لديهم أية نظرية من أي نوع ، خاصة بالصراع المسلح ، بل يكتفون بالقتال بحكم العادة وفقا لتعليمات وُضعت بين أيديهم منذ عهد بعيد . ومثل هذه المجتمعات تنتج جيوشا غالبا ما تدمرها جيوش أمم أكثر استعدادا لتبني الاساليب الحديثة ، وأكثر استعدادا لمواجهة المتغيرات ، وتعلم استخدام الاشياء الجديدة بسرعة .

وبما أن الكثيرين من الناس يعتقدون في هذه الايام بامكانية قياس قوة الجيش في المعركة بمجرد حساب عدد الدبابات أو الفرق التي يمكن توافرها ، فان ما يجدر تأكيده هو أن مسائل التقنية ، ومسائل التكتيكات والاسلحة ، هي في أغلب الاحيان ، وفيما يخص الحرب ، أهم بكثير جدا من الحجم النسبي للبلدان المعنية ، ومن ثرواتها الانتاجية ، وتعداد أهليها الذين ينخرطون في الحرب . وثمة معلم عظيم لفن الحرب قال : « ان الله الى جانب الكتائب الكبيرة . . . » الا ان الشيء المدهش في الصراع المسلح ، عبر القرون الثلاثين الماضية ، هو كثرة تكرار انهزام الكتائب الكبيرة ، رغم تمتعها بميزة الكبر ، على أيدي قوى أصغر منها بكثير . فالمعارك لا يمكن أن تصبح مجرد قضية عد الرؤ وس في طرفي المواجهة الا عندما تتحول الحرب الى مجرد اجراءات تكرارية ذات نمط واحد ، وتعجز الجيوش المتحاربة عن حشد القوى التي تعوض عن التغير والتطور في الشعوب التي تشكلت منها هذه الجيوش . آنذاك ، وفي هذا النوع من الحروب الراكدة والبليدة ، يمكن أن يتأمن النصر ، لان بضعة رجال يبقون أحياء في أحد الطرفين ، بعد أن يفني الذبح المتبادل الطرف الآخر ، أو ينهكه بما فيه الكفاية .

لقد فضلت تناول عدة طرق من تلك التي تؤ ثر فيها الفعاليات الاقتصادية والسياسية على الصراع المسلّح ، على اعتبار انها « عوامل معقدة » ، لسبب بسيط ، هو انني أردت تمييز عدد قليل من التوجهات التي أعتقد بأنها كامنة في طبيعة الحرب ذاتها ، تمييزها عن مسألة المعركة البالغة التعقيد . وهي تبدو لي توجهات تشكل المادة الصميمة للصراع المسلح ، وأنها تحكم « العوامل المعقدة » الاخرى ، سواء باستخدامها أو رفضها . ولنأخذ كمثال على ذلك ، التوجه الذي يسميه الجنرال فولر : « العامل التكتيكي الثابت » ، وهو العامل الذي سبق أن قيل بأنه انتاج أسلحة تقتل من أمدية أبعد . ان هذا التوجه طبيعي للحرب وكامن فيها . لذا فأنا أتفق مع الجنرال فولر بأنه توجه مهم ، رغم ثقتي بأن هناك توجهات أخرى مساوية في أهميتها ، وهي تتلاءم معها أو تتضارب . وهذا الدافع نحو انتاج واستخدام أسلحة تقتل العدو ، وهو لا يزال بعيدا ، « قبل أن يستطيع النيل منك . . » ،

يحكم ويعبىء الكثير من المهارات المدنية في الشعب الذي يعد للحرب . وهو ينتج اليوم قاذفات قنابل بعيدة المدى . وقبل ألفي عام أو أكثر ، كان ينتج رماحاً أطول من تلك التي كان يراها العالم قبل ذاك . ومهما يكن وضع المجتمع ، أو مستواه التقني ، فان هذا « ثابت » ورغم هذا ، فان الناس غالبا ما يكونون في معارك اليوم أكثر التحاماً مع أخصامهم ، ويقاتلون من مسافات أدنى مما كانت عليه قبل خمس وعشرين سنة . وهذه مفارقة لا يمكن البت فيها الا عندما تكون هناك « عوامل تكتيكية ثابتة » أخرى قائمة ، عوامل تتداخل مع ذاك الذي سبق ذكره . . . مثال ذلك ، التوجه (الذي ذكر آنفا) نحو زيادة الدروع حتى أقصى حد ، مع الابقاء على امكانية حملها بفاعلية . . . بل وربما تجاوز هذا الحد الاقصى .

وقد جرت العادة أن يُفاجأ العسكريون بالتوجهات التي تتحول الى جزء من الصراع المسلح . . . ففي الوقت الذي تتطور فيه هذه التوجهات ، فان العسكريين يرون فيها مظهرا بشعا « لمكر خسيس » يلجأ اليه العدو . وهي لم تخطر على بال احد . إنها حيل وتقنيات ليس بوسع أحد أن يتصدى لها . وفي بعض الاحيان ، يدين الرؤ ساء المدنيون في العسكريين « رؤ وسهم اليابسة » ، من أجل هذا السبب بالذات . الا ان بعد النظر أمر صعب جدا بالنسبة الى العسكريين ، لان الحرب نوع خاص من العلوم يندر أن تتكرر فيها التجارب ضمن أي حد من الدقة ، وفيها اكتشاف الموثوق من المبادىء والتخطيط والعمل شأن غريب في صعوبته . فلنقارن الحرب بالهندسة ، على سبيل المثال . . .

ان علم الهندسة يتغير ، لان مواد جديدة تُكتشف ، ولان فيه عمليات جديدة . وقد يصير انتاج المهندسين أقوى ، أو أسرع أو تزيد اقتصاديته . وقد يصبح أقل كلفة في صنعه ، أو يعطي نتائج أفضل . ورغم احتمال وجود تريثات تتخلل هذه العملية ، فان هناك خطاً معقولاً من التقدم المستمر . وفي الوقت نفسه ، فان كثيرا من الاشياء الاساسية المعروفة عن الهندسة لا يمسها التغير . فهناك « ثوابت » .

ان مبدأ العتلة يبقى دونما تغير ، رغم استحداث عتلات أفضل لتحتل مكان العتلات البدائية . والمبدأ الذي تعلمناه في المدرسة ، والمسمى « قانون حفظ الطاقة » ، ينطبق على أحدث محرك ديزل كما كان ينطبق على أول محرك بُخاري . وكل ابتكار أو تبدل في التقنية مبني على هرم من الحقائق المجربة والمبرهنة ، والمكتشفة من قبل . وهذا علم . والحرب ليست علما الا في جزء منها . إنها لا تتضمن سوى عدد قليل من « الثوابت » .

وهناك الآلاف من أعوام الصراع المسلح المحكومة بافتراضات بسيطة ، مثل

افتراض ان الناس المدربين على التعاون سيقهرون عددا مماثلا من الناس غير المدربين على التعاون ، أو أن رجالا مدرعين سيهزمون عددا مساويا لهم من رجال غير مدرعين ، أو أن رجالا مسلحين بأسلحة تستطيع أن تصيب من مسافة بعيدة سيتغلبون على مثل عددهم من رجال مسلحين بأسلحة ذات أمدية قريبة . لكن هذه الافتراضات دائما معقدة ، وتعقدها ، في كل معركة منفصلة و « حقيقية » ، مسائل القيادة والروح المعنوية ، مسائل خور العسكريين أو طاقتهم ، مسائل التموين والراحة التي توافرت لهؤلاء العسكريين ، مسائل ما يطرأ من ظروف الطقس والاراضي المفتوحة . والمهندس الذي يكون قد صمم محرك الطائرة واختبره قادر على مراقبته وهو يتآكل . وبيقين ، يتعرف عن طريق محركه على بعض نقاط الضعف فيه ، ومن ثم صنع محرك أفضل . أما القائد المتوجه الى خضم المعركة المهمة ، فيحتمل الا تسنح له فرصة ثانية . وليس بمقدوره القيام بتدريب ـ بروفة ـ فعال يتضمن مجمل الحقائق المعلومة والمجهولة لديه . ويستطيع هذا القائد أن يحرك الدبابيس على خريطة ، أو يعلمها بقلم رصاص ويستطيع أن يمثل لعبته الحربية أو يدرب جنوده بالمناورات . لكن اختبار المعركة الفعلي يوافيه ، كل مرة ، على شكل تصنيف غير معروف للفرص والمخاطر . وقد تتضمن الاوامر الصادرة اليه مبادىء واضحة يعتقد بأنه يعمل على تنفيذها . بيد أن هذه الاوامر ستبدو في وقت لاحق ، وبالنسبة الى المراقب الحيادي ، مجرد تقديرات تقريبية جداً بالنسبة الى الواقع . فالمعركة ليس لها تجربة (بروفة) . . . وحتى لو كانت معركة لا تسير بموجب مبادىء . وهي ، بهذا المعنى ، فن وفن ذو صعوبة خاصة .

تتمرن مجموعة الراقصين على الباليه في شروط مشابهة تماما للشروط التي سيؤدون فيها رقصتهم على المسرح ، ولكن الجيش يتمرن على الحرب في ظل شروط هي حتما غير واقعية . ويقال ان الجيش الالماني قام ذات مرة بمناورة تدريبية استخدم فيها ذخيرة خلبية مخلوطة بعدد قليل من الذخيرة الحية ، بهدف سماع أزيز الرصاصة الحية بين الفينة والفينة وقد هيىء لهذا الجيش فرصة معقولة للتقرب من الواقع ، فرصة ثمنها عدد قليل من الخسائر . ولقد رأيت الشيء نفسه ينفذ ، وبشكل مفيد ، في المدرسة البريطانية « للتدريب على المعركة » . ورقصات الحرب التي تؤديها بعض القبائل البدائية هي أيضا خطرة في بعض الاحيان ، ولكنها تدريب ناجح . بيد أن معظم الجيوش تتدرب على المعركة في ظروف مختلفة جدا عن الظروف التي سيخوضون المعارك في ظلها . وهذا ما يجعل الحرب فنا هو من أكثر الفنون بعدا عن التوازن . فبامكان المرء أن يعتمد على الراقصين والمغنين في اعادة تقديم تمثيلياتهم الليلة بعد الليلة ، وبمستوى يقرب جدا من الابداع . أما الجيوش فلا « تعرض بضاعتها » الا في المناسبات ، وتعرضها دائما بأوضاع

غير مدرب عليها ، وكثيرا ما تعرض في أوقات غير متوقعة .

وكون الحرب عملية غير مستمرة هو بالضبط سبب كونها صعبة على الفهم ، وعلى التطور بشكل منطقي . . (وهذا لا يعني أن الحرب يجب أن تكون عملية مستمرة) . وليس هناك معيار دقيق تقاس به الاسلحة والتكتيكات القديمة ، أو الحديثة ، خلال الفواصل الزمنية فيما بين الحروب . فللصناعة معيار يدل عليه الربح أو الانتاج ، وللطب معيار يدل عليه معدل الوفيات أو عدد الحالات المرضية . أما العسكري فليس له مثل هذا المؤشر . اذ من النادر جدا ان يُطرح عليه وجوب أن يستهدف استثمار الحد الاقصى لما يتميز به شعبه كله أثناء السلم ، من مهارات مدنية وامكانات وتقدم ، استثماره في الصراع المسلح . وهذا ما يأتي بنا الى النقطة الاخيرة التي يجب ايرادها في هذا الفصل .

لقد حاولت تتبع بعض التوجهات المتضمنة في الحرب ذاتها ، والتي تحكم الصراع المسلح كله ، وتقسمه الى عدد من الفترات حدثت في كل منها تغيرات مختلفة في الدرجة ولكنها متماثلة في النمط . وحاولت ، بعد ذلك ، رسم الخطوط العريضة لهذه التوجهات ضمن نمط كل فترة ، مدرعة أو غير مدرعة . ويترتب علي الان أن أحاول عرض الاسباب الموجبة للتغيرات المؤدية من فترة الى أخرى ، والاسباب الموجبة للتوقفات أو الانقطاعات أو الثورات في تاريخ الحرب . ويأتي في طليعة هذه الاسباب السبب المتضمن في طبيعة الحرب ذاتها ، وهو ما عرضناه قبل قليل ، أي صعوبة الحكم أثناء السلم على الشكل المحتمل للحرب القادمة .

ولقد سبق لي أن أشرت الى أن المجتمعات المحافظة تبني على الماضي آراءها حول الكيفية التي يجب أن تقاتل بها ، وتتجاهل خطوط التغير . وكانت جيوش الماضي ، وفي معظم المجتمعات ، هي بعض المكونات الاشد محافظة في تلك المجتمعات . . . وهذا أمر طبيعي بسبب التعليلات التي جهدت في عرضها . وتصبح الطرق القديمة مزمنة ، إن ظلت ناجحة مدة طويلة . وظل الرجل « المدرع » بشكل خاص ، الذي يكاد لا يقهر ، ظل ناجحا ، حتى بدا الامر وكأنه سيظل دائما ناجحا . ثم تأتي الوقفة ، فالتغير . وتأتي الوقفة لاسباب منها أن الرجل ظل ينجح حتى لم يعد يشعر بالحاجة الى التغير ، أو الحاجة الى مواكبة الزمن . وفاتته الحاجة الى أن يفعل ما هو جديد . ولئن كان كذلك تفشل الطرق القديمة ، فكيف تنجح الطرق الجديدة ؟ وأين الجذور الحية لذلك النمط الثوري من التغير في الاسلحة والتكتيكات ، النمط المختلف في سمته عن التطورات التدريجية التي تحدث عبر كل فترة من فترات الحرب ؟

أعتقد بأن الجذور الايجابية في هذا النوع من التغير تكمن خارج التطور العادي للصراع المسلح . والتغيرات التي هي من هذا النوع ليست ، في جوهرها تطورات تقنية متضمنة في الحرب . انها تنشأ عن « العوامل المعقدة » للفعاليات الاقتصادية والسياسية أكثر مما تنشأ عن الحرب كعلم مستقل . اذ أن التغير من فترة مدرعة الى أخرى غير مدرعة ، أو العكس ، يحدث بشكل طبيعي ، عندما تجد الشعوب التي تتكون منها الامة ، أو عندما تجد عدة أمم ، لنفسها ، أشكالا جديدة من التنظيمات الاجتماعية ، تطلق طاقات شعبية جديدة ، أو عندما تنطلق هذه الطاقات بأية طريقة أخرى .

وغالبا ما يأتي هذا التغير لينتج أسلوب حرب جديداً، لان الناس يعبرون عن أنفسهم بطريقة ديمقراطية أو شعبية أو ثورية . ويأتي دائما بسبب تدخل مدني ، أو تدخل غير المحترفين ، في عملية الصراع المسلح . وهو لا يأتي من الجيوش المنعزلة عن باقي الشعب بحكم حرفتها . ان هذه الطروح هي بمثابة تحديات . اما بالنسبة الي شخصيا ، وفيما أنا أكتب ، والجيوش الفاشية التي انتفخت بما ابتلعته ، وصارت ، بمعنى ما « دولا فاشية » ، ما تزال « في الأوج » ، فإن هذه الطروح هي بمثابة آمال أيضا .

٢) بعض القول عن الاسكندر

ليس ثمة أهمية كبرى ، بالنسبة الينا ، في أن ندرس الفترة الاولى غير المدرعة من الصراع المسلح ، ولا في أن نحاول تتبع التوجهات والتطورات في خلال تلك الفترة . لذا ، سنكتفي ، في هذا الفصل ، بملاحظة الخصائص الاساسية لتلك الفترة ، ومن ثم الانتقال الى الفترة المدرعة الاولى ، وهي الفترة التي تبدأ بهزيمة جيوش ملك فارس العظيم على أيدي مواطني الدويلات الاغريقية المثقلين بالدروع .

كانت أسلحة الجنود الاوائل هي بلا شك ، الاسلحة التي كان الناس يتصيدون بها الوحوش البرية منذ آلاف السنين . وكان الناس يتعلمون التعاون كجماعات من خلال صيد الوحوش ، سواء من أجل الطعام أو الامن أو الرياضة . ثم تحولت هذه الجماعات ، عندما أصبح الناس يتصيدون الناس ، الى أول أشكال الجيوش ، أو الى وحدات في جيوش . وتغيرت الاسلحة ببطء . وكانت السهام المسننة بشرائح من حجر أو صوان ، كتلك التي كان يستخدمها انسان الكهوف ، عبر الماضي السحيق ، في تصيد الذئاب ومطاردته للغزلان ، تلك السهام ، كانت هي التي لا تزال مستخدمة من قبل « المساقين لخدمة العلم » الذين تشكل منهم جزء من الجيش الفارسي الزاحف على اليونان في العام ٤٨٠ ق . م . وكان بعض من فصائل ذلك الجيش مسلحا بجريد غمست رؤوسها بالنار لتقسو ، وفصائل أخرى مسلحة بمقاليع تقذف بحصى أوزانها في مثل وزن كرة

الكريكت . (وثمة جيش من عهد غابر ، ذكرته التوراة ، كان معه ٧٠٠ مقلاع ـ من بين ٢٧ الف رجل مقاتل ـ ترمي ما هو بعرض الشعرة ولا تخطئه) . ولسبب ما ، كان رماة المقاليع هؤلاء عسرا . . . ربما لان أيمانهم كانت تحمل أسيافا . . . ومما لا شك فيه أنه كان من بين فصائل جيش فارس للعام ٤٨٠ ق . م فصائل أفضل تسليحا . فرماة المقاليع الذين أتينا على ذكرهم كانوا من جزء من العالم أقدم ، وأكثر تخلفا ، من ذاك الذي كان الفرس يغزونه . ولا بد أن تكون تلك نماذج عما كانت عليه الاسلحة كلها في الماضي السحيق ، قبل أن يكون هناك أي تاريخ مدون .

ولا بد أن تكون جيوش هذا الماضي البعيد مكونة بالدرجة الاولى من فصائل خفيفة . ولم تكن تدرب أو تنظم . كانت تقاتل كرعاع أو قطعان . وكانت تقاتل بالمقذوفات بشكل رئيس . ولئن كانت تلتحم ، فالارجح أن ذلك كان بفؤوس من حجر ، أو هراوات من حطب ، لان الناس ما عرفوا آنذاك استعمال المعادن ، وبالتالي لم يكونوا قادرين على صنع وسائط الطعن الفعالة . وحتى عندما توصلوا فيما بعد الى بعض المعادن ، فلم يكن بمقدورهم شحذ أنصالها : كانوا يستخدمون القدوم (Toma leauk) أو ما يماثلها من الاسلحة .

صيادو العهد الغابر وجنوده كانوا دائما يفتشون عن أفضل نوع من الحجر يبرون به سهامهم وحرابهم . ولن تتسنى لنا معرفة من كان الاول في اكتشاف طريقة روز الحجر الحاوي على المعدن ، ومن ثم تحميته في النار حتى ينصهر المعدن فيمكن طرقه . ولكننا نعرف ، طبعا ، أن أول المعادن التي عالجها الانسان ، والتي صنع منها أسلحته وأدواته وأوانيه ، هي المعادن الاكثر لينا ، كالذهب والفضة والنحاس وما شابهها . . . ومن بين المعادن ، نعرف أن الذهب والفضة هما ألين من أن يصنع منهما أي شيء غير النقود وأواني الزينة . . . ولو أن القوات الملكية في بعض الممالك الاسيوية كانت تملك حراباً استعراضية أسنتها مطلية بالذهب أو الفضة . لكن الممكن تصنيع البرونز في رؤوس حادة تماما تسنن بها الحراب والسهام ، وفي نصال قاطعة للسيوف القصيرة . وكان المفضل أن تكون النصال سميكة الى حد ما ، كونها كانت تتثلم بسهولة ، وتنحني بيسر تام . لذا محال أن تصنع سيوف طويلة من البرونز. ومن ثنايا الفترة التي بدأ ينقشع فيها الضباب ـ ولو قليلا ـ عن الماضي ، والتي منها بلغتنا الحكايات والاشعار التي هي بمثابة بدايات التاريخ ، نكتشف أن الشعوب الاكثر تقدما كانت تخوض حروبها بأسلحة برونزية . وقد شرع هؤلاء بارتداء لأم من البرونز .

من شأن أي نوع من الدروع المعدنية ، ولو كان مصنوعا من معدن طري ، أن يقي لابسه من المقذوفات الخفيفة أو الكليلة ذات السرعة البطيئة . وفي عهد مضى ، ويوم حوصرت طروادة ـ ربما قبل المسيح بألف سنة ـ كان يبدو الرجل المثقل بالدروع وكأنه قادر على التقدم رغم معظم أنواع المقذوفات التي كان يحتمل أن تواجهه . وكان باستطاعته ، إن هو شاء ، أن يصل الى قتال التلاحم مع خصمه . وكان الجيش في ذلك الوقت يتكون من عدد قليل نسبيا ، من الرجال الاشداء الذين يمتلكون الدرع ، تلك العدة النادرة والمكلفة ، ويتكون من أعداد أكبر من « التكلة » ذوي السلاح الخفيف الذين كانت سهامهم وحرابهم المقذوفة لا تزال هي الاسلحة الرئيسة . وكانت تكتيكاتهم هي التي لا تزال تسود ساحات القتال . ولان المثقلين بالدروع كانوا قلة ، فغالبا ما كانوا يتنازلون فردا لفرد . ولكن كان من النادر آنذاك أن يتحرك أولئك في جماعات ذات تشكيلات محددة . . . ولو أن هناك في الياذة هوميروس ما يأتي على ذكر : نسق من الرجال يقفون بانتظام ، « كالجدار » .

وإن شئنا أن نصدق هوميروس ـ رغم ، أو بسبب كونه شاعرا ، وكان أيضا مراسلا حربيا ينقل صورا حية ـ فان المعركة النموذجية في تلك الفترة كانت تبدأ بالجيوش المشكلة في انساق غير مستوية يواجه بعضها البعض الآخر . وكان القائد الطروادي « يهز رمحه في الهواء» ، متحدياً أياً من الاغريق ليتقدم منه منازلاً . . . » كان يتحدى الاشجعين من العرق الاغريقي . . . » .

وكان واحد من الاغريق يقبل التحدي . وتصيب الطروادي نوبة عصبية ، فيحاول الاندساس والاختفاء بين صفوف جيشه . لكن أخاه يسخر منه ، فيسترد رباطة جأشه . . وبعد قدر كبير من اللغو والتهويش ، يتقرر أن يقرر هذان مصير المعركة كلها ، بنزال واحد . ثم يضرب الطرفان القرعة لتقرير من منهما سيبدأ برمي الرمح . وبعد أن ترمى الرماح ، يتبين أن البطل الطروادي قد خسر بفارق كبير ، فيتناول طروادي آخر قوسه المصنوع من قرون تيسين شدت بعضها الى البعض الآخر ، ويسدد على البطل الاغريقي فيصيبه ولا يرديه . ويخيب أمل الطرواديين الاخرين ، لان شر هزيمة لحقت ببطلهم ، فيندفعون الى الحرب هائجين . . . » وبذا يصبح القتال شاملا ، حيث يحشد كل قائد رجاله ، وتساق العربات في دوائر حول الساحة . . . لكن معظم الضباط الذين تدرج أسماؤهم في لوائح الخسائر اللاحقة ، هم أولئك الذين قتلوا ، أو جرحوا ، برماح سددت عليهم بقوة كانت كافية لاختراق دروعهم أو خوذهم . أما نصيب السهام من القتلى

والجرحى فقلة ، وكانت ثمة حالات يتأذى فيها أفراد من جراء حجارة كبيرة قذفوا بها ، أما عدد أولئك الذين كانوا يصابون في القتال القريب فقليل قليل .

وفي هذه الحالة ، قلما استخدمت العربات من أجل العمل الصدامي ، اذ كانت مجرد منصات يطلق منها الجندي رمحه ، أو يترجل منها ليخوض صراعا حقيقيا . وفي أجزاء أخرى من العالم ، وخلال الحقبة التي سبقت بداية التاريخ الحقيقي ، ورد ذكر العربات كوحدات القتال المفضلة لدى الملوك العظام . . . وغالبا ما كانت الخيالة هي القوة الرئيسة الاخرى في هذه الجيوش . فالاسرائيليون الذين كانوا فارين من أرض مصر لم يكونوا خائفين من رماة فرعون ولا من رمّاحية، بل من عرباته وخيالته . وبعد مئات السنين « عندما أطبق الاشوريون كما يطبق الذئب على قطيع من الخراف » كانت عرباتهم هي صاحبة الانطباع المؤثر على ناقل الخبر . ويبدو من المؤكد أن العربة صارت تستخدم ، ومنذ فترة مبكرة جدا ، كسلاح صدمة ، حيث كانت تدفع ، وبشكل مباشر ، نحو الجيش الخصم ، ومقصود بها أن تخترق صفوف ذلك الجيش ، فتبطح ، أو تهرس كل من كان يقف في طريقها ، وكانت العربات أكثر فائدة بكثير من خيالة تلك الفترة من أجل هذا الغرض . ولم يكن ليتسنى للخيال ، وهو على سرج بدائي ، وبلا لجام بين شدقي حصانه ولا ركاب ، ان يسيطر على راحلته بشكل يمكنه من شن هجوم حقيقي . فالحصان الذي يحمل راكباً سيطرته على مطيته ضعيفة سيحيد عن انساق العدو في اللحظة الاخيرة من الهجوم . لكن سائق العربة ، بسنده لنفسه بأجناب عربته ، وتحكمه بعنانها الطويل ، الموصول بالرشمة ، ان لم يكن باللجام ، هذا السائق ، بوسعه أن يضبط خيله بقوة ، وبوسعه التغلب على خوفها من الحاجز الذي يقوم امامها .

ظلت العربات ، وطوال شتى الازمنة ، أسلحة مناسبات خاصة ، أسلحة يندر استعمالها ، وما لها من فعالية الا في المكان والزمان المناسبين. وبما أن الاحصنة تمثل أهدافا كبيرة ، ومن الممكن اخراجها من المعركة بثلة من سهام ، فليس من الممكن ابقاء العربات تحت نيران العدو ولأن العربات تحتاج الى أرض ممهدة للعمل فوقها ، فلطالما كانت سلاحا ملاءمته للصحاري والسهول أكبر من ملاءمته للصراع المسلح في الاراضي الوعرة. وما أن ازدادت معرفة الناس باستخدام المعادن الصلبة ومعالجتها حتى صار من المألوف تجهيز أعجال العربات ـ ومحاور الاعجال ـ بأنصال منجلية . ويصف الشاعر الروماني ، « لوكر يتوس » ، هذه الانصال بطريقة مرعبة جدا ، حيث يقول :

« انها تبتر الاطراف بدرجة من الفورية يُرى فيها ما يبتر مرتعشا على الارض قبل أن يحس من يُبتر طرفه بأي ألم ، فهذا امروء لم يدرك ان الاعجال والانصال الشرهة قد اجتثت

ذراعه اليسرى بما عليه من درع وغيره ، ثم ألقت به فيما بين سنابك الخيل . وذاك آخر لم ير ، وهو يتقدم عنوة ، ذراعه اليمنى وقد انفصل عنه . وذلك ثالث يحاول أن ينهض عن الارض بعد أن فقد ساقه ، بينما ترتعش قريبا منه أصابع القدم التي تنازع[٢٦] . . . »

ولكن رغم أن هذا الشاعر يجعل الامر يبدو وكأن العَرَبة المفترسة شيء يستحيل على الجندي العادي أن يتصدى له بنجاح ، فان مواطني هذا الشاعر المنخرطين في القوات الرومانية تعودوا أن يحتقروا تلك العربات ، ويعتبروها سلاحا لا كفاءة فيه ولا ضمان ، سلاحا اعتماده على الارض أقوى من أن يجعله ذا قيمة ثابتة . ونادرا ما كان القادة الرومان يعتقدون بأن اصطحاب العربات في العمليات أمر ذو شأن يذكر ، وكثيرا ما كانوا يحتفظون بها للاحتفالات بالنصر .

كانت المسألة الاساسة في المعركة ، وبعد مئات السنين من حصار طروادة ، لا تزال ضمن المرحلة التي تتسيدها المقذوفات ، وتتسيدها ، ولكن ضمن حدود أضيق ، الخيالة والعربات . ومع التزايد في انتشار الحديد والبرونز ، وتزايد مهارات الناس في معالجة المعادن ، أصبح من الممكن تجهيز الجيوش الصغيرة بدروع كاملة ، كفاءتها تجعل القليل من المقذوفات قادرا على اختراقها ، وتجهيز الجيوش برماح أسنتها من معدن صلابته لا تمكن الخيال غير المدرع من مواجهتها . وكان من المستحيل تجهيز الجيوش الجرارة التي تعبئها أنظمة الحكم المطلق في آسيا ، تجهيزها بعدد تدريعية كاملة . ولم تكن ممكنة الوقاية الحقة الا بالنسبة الى القادة . بيد أن معظم مواطني الدويلات الاغريقية كانوا قبل العام ٥٠٠ ق . م . يملكون العدة الكاملة الخاصة بالمشاة الثقيلة الاغريقية (الهوبلايت) . وكانت هذه العدة تتضمن خوذة كبيرة تغطي مؤخرة العنق ، وأحيانا الذقن والخدين ، بالاضافة الى قمة الرأس . وكان معظم الخوذات الاغريقية مزينا بريشة ، مأخوذة من عرف حصان ، أو مصنوعة من مادة قاسية تجعل العسكري يبدو فارع الطول مخيفا . . . وهذا الايحاء لا يزال محتفظا به عن طريق القلابق والقبعات المريشة المفروضة على العساكر المعاصرين عندما يرغمون على ارتداء ملابس « تنكرية » تسمى « بزة نظامية » (مناسبات) .

كانت المشاة الثقيلة الاغريقية (الهوبلايت Hoplites) ترتدي صفيحتين ثقيلتين ،

---

(٢٦) انظر « لوكريتيوس » ، « دوريروم ناتورا » الثالث ، ص ٦٥٠ - ٦٦٢ .

Lucretius, de Rerum Natura III, P. 650-662

احداهما للصدر والاخرى للظهر ، مصنوعتين من المعدن ، وموصولتين على جانبي لابسهما ، ومفصلتين لتلائما بنيته . وكانت هاتان الصفيحتان مصنوعتين كقطعة واحدة متعبة الى حد بعيد ، وخانقة في الطقس الحار . ويبدو انه كان من الطبيعي بالنسبة الى الجندي الاغريقي أن يرافقه رفيق يحمل عنه الدرع ، ويساعده في ارتدائه عندما تأزف ساعة القتال . ولم تكن قامة الفارس تدرع عند الخصر ، أو ما تحت الخصر وحتى الركبة . وكان الاغريق يكسون سيقانهم ، من الركبة حتى الكاحل ، بما يمكن أن يسمى واقية الساق (كاسية ساق) وكانوا يسمونها « درع الساق Greaues » . وكان كل جندي يعلق في ذراعه الايسر ترسا كبيرا ، غالبا ما يكون مستدير الشكل ، يحاول أن يصد به رأس أي سهم أو حربة متجها نحوه .

وبوسع أي جندي مجهز على هذا النحو أن يواجه معظم الاسلحة المقذوفة المعروفة حينذاك ، وبوسعه عادة أن يتابع تقدمه حتى الوصول الى مسافة الطعن برمحه . وكان الرمح الاغريقي العادي ، عام ٥٠٠ ق . م . عبارة عن جريدة طويلة من الدردار أو من خشب صلب آخر ، طولها ثمانية أقدام ، ورأسها ملبس بالحديد . والجيوش الاغريقية التي هزمت مرات عديدة جيوشا فارسية أكبر حجما ، كانت تحقق ذلك بالدرجة الاولى من خلال قدرتها على التلاحم مع أعدائها الاقل وقاية ، وقتلهم بوساطة الرمح أو السيف القصير .

كان الدرع الاغريقي عاملا واحدا من عوامل نجاحهم . وكانت ثمة عوامل أخرى ناتجة عن تسييس حياة الأغريق ، لا عن فعالياتها الاقتصادية . وكان من الأمور التي تشيع البهجة في نفوس الاغريق الأحرار - وكانوا احراراً إذا ما قيسوا بخصومهم - شيئان : الرقص والجمباز (الرياضة) . وقد استطاع الاغريق أن يطوروا هذين المجالين أكثر بكثير من أي شعب آخر . لذا فقد اكتسبوا عادة التحرك المنضبط في النظام المنضم ، الذي هو أساس التدريب . وقد افترض أحد المؤرخين ، وهو يصف المعركة الحاسمة - معركة « بلاتيا Plataea » (٤٧٩ ق . م .) - بأن الفرس كانوا حتما يراقبون ، بمنتهى الدهشة ، مشاة أثينا واسبارطة وهي تنحدر من سفوح التلال لتهاجمهم . ولا بد انهم كانوا يعتقدون بأن هؤلاء الاغريقيين العجيبين كانوا يؤدون نوعا جديدا من رقصات الحرب . فقد كان كل جندي اغريقي يتحرك في خط مواز تماما لجاره ، وكانت دروعهم جميعا على مستوى واحد ، بحيث كانوا يشكلون جدارا قائما مستقيما . ولتحقيق ذلك بفاعلية ، كان على الاعريق أن يضبطوا خطاهم ، وكان هذا الضبط للخطى ، بالنسبة الى جيوش الفرس المشكلة من شتى الشعوب المغلوبة التي كانت ترص ، دونما استواء ، بوساطة سياط

الضباط ، كان شيئا لم يحاوله الفرس ، وربما لم يشاهدوه قط .

والعامل الثالث الذي جعل الاغزيق ، كعسكريين ، أفضل بكثير من معظم الجيوش الفارسية هو معنوياتهم . ولقد كان هناك ، في بعض الاحيان ، ادعاء بوجود تضارب بين حرية الفرد والفاعلية في الصراع المسلح . وتبين بعد ، من التاريخ ، أن الحكومات التي كان يهمها أن تخفي عجزها ، أو تبرر مراوغتها وتضليلها ، كانت تصر على وجوب أن يضحي المواطن بحقه في أن يطلع ويناقش ، وذلك حفاظا على وحدة الصف في الحرب . لكن الشيء الفعلي هو أن الاغريق ، وشعوبا أخرى زامنتهم ، برهنوا وبما لا يقبل الشك ، على أن هذه الحرية هي جزء من « العدة » المعنوية اللازمة للشعب الحريص على تحقيق النصر في الحرب ، بحيث بُدىء منذ زمنهم فصاعدا بالتحقق من أن العبيد هم ـ نسبيا ـ عديمو الجدوى في الصراع المسلح . كما ثبت أن الانظمة الاستبدادية مضطرة لان ترعى ـ من أجل أهداف الصراع المسلح ـ فئة من المواطنين الذين يحسون داخليا بأنهم أحرار . وكانت رعاية مثل هذه الفئة جزءا من سياسة الامبراطورية الرومانية ابان سني قوتها ، مثلما كان الحال قبل ذاك بالنسبة الى الجمهورية الرومانية .

كانت معنويات الجنود الاغريق مبنية على حريتهم النسبية ، كما كانت حريتهم هذه هي التي تغذي معنوياتهم ، وتمدهم بالشجاعة الكافية اللازمة للاقتحام والاشتباك يدا بيد . وبوسع أي تلميذ مدرسة سبق له أن اشترك في معركة من ذلك النوع الذي يحدث بين اليافعين ، بوسعه أن يدرك أن قذف الاشياء ، والمراوغة من أمام الاشياء التي يقذف بها ، يتطلبان شجاعة دون تلك التي يتطلبها الاندفاع الى خضم المعركة ، والبدء في استعمال القبضات والاكواع . وعلى ذلك ، فان الناس كانوا بحاجة الى جرأة خاصة في هذه الفترة من الصراع المسلح لكي يقاتلوا كما كان الاغريق يقاتلون .

كان أسلوب الاغريق في القتال جديدا . ولذا ، كان أسلوبا أدانه العديدون من عسكريي تلك الايام المحترفين السابقين ، أدانوه على أساس أنه وحشي وبدائي جدا . والقائد الفارسي الذي ألف الجياد والعربات ، وألف الحركة السريعة للقوات الخفيفة ، هذا القائد عرف تاريخيا بكلماته المعبرة عن ازدرائه للمجازر الهمجية الساحقة التي كان يقترفها الاغريق . . . وبالتالي للاساليب البدائية التي ذبحت فيها قواته .

لقد طور الاغريق تكتيكاتهم الصدامية العادية من خلال الصراعات المسلحة فيما بين مدنهم هم . وقد جرت العادة أن تحاط هذه المدن بأسوار . كما كانت أمنع من أن يُستولى عليها بسهولة . ولكن كان من الممكن تجويعها حتى النهاية من قبل جيش مدينة أخرى ، اذا

استطاع الجيش المعادي احتلال البقاع الخصبة القليلة التي تزود المدينة المحاصرة بالطعام . وعلى هذا الاساس ، لم يكن بمقدور الجيش الاغريقي أن يمكث طويلا خلف الحصون . كان عليه أن يخرج ، ويواجه القوة التي تعيث فسادا في حقوله .

وفي الوقت الذي كانت فيه حالات حصار كثيرة جدا تتخلل الحروب الاغريقية التي وقعت ابان القرن الخامس قبل الميلاد ، كان من النادر أن تطول حالة الحصار لاكثر من موسم هجومي واحد . أما في العام ٤١٣ ق . م . فقد أُرسل جيش أثيني ليحاصر « سيراكوزة » ، احدى مدن جزيرة صقلية ، التي كانت في الاصل مستعمرة اغريقية . وفي هذا الحصار الطويل ، وكان من الاهمية بمكان عظيم ، بالنسبة الى أثينا وحلفائها وأعدائها في اليونان ، لم يكن الاثينيون يتعاملون مع مجرد مدينة صغيرة عادية ، يُكتب عليها أن تموت جوعا اذا انتُهكت ونُهبت حقولها . فسيراكوزة كانت مركزا تجاريا ضخما ، حلفاؤها وروافدها في أماكن عديدة من صقلية ، وفي محطات تجارية منتشرة بين العديد من الموانىء . وكانت تستمد قسما كبيرا من تموينها عن طريق المياه . وكان في سيراكوزة مخزونات كبيرة ومستودعات واسعة . وحاول الاثينيون أن يخربوا الريف المحيط بالمدينة . ولكنهم أخفقوا في تجويعها رغم انهم هدروا قرابة عام في محاولتهم هذه ، وذلك لان الامدادات كانت تصل من أجزاء أخرى من صقلية ، وتصل أيضا من الخارج . وعلى هذا الاساس ، حاول الاثينيون أن يعزلوا المدينة عن بقية البلاد ببناء جدار يحوطها من اليابسة ، على أن يقوم أسطولهم بسد المنافذ البحرية . وكانت هذه الفكرة من أوائل محاولات حرب المواقع على نطاق واسع ، وهي الحرب التي نعرف نحن عنها الكثير . . . (الحرب التي تعتمد على التحصينات التي هي ليست أسوار المدن) . والذي لا شك فيه أنه كان لدى الاغريق بعض الخبرة في هذا النوع من الصراع المسلح . وكانوا قد بنوا ، منذ أيام حصار طروادة ، حصونا من نوع يقي سفنهم في الموانىء . وفي وقت لاحق ، بنى الاثينيون الذين تبعد مدينتهم عدة أميال عن البحر ، سورين طويلين من تحصينات تصل المدينة بمرافئها ، لكي تتمكن أثينا من التزود بالمؤونة عن طريق البحر عندما تحاصر .

ومن المحتمل أن حصار سيراكوزة هذا ، وهو الذي لقي الاثينيون الهزيمة عنده قبل أن يكملوا بناء الجدار الذي قُصد به سد المنافذ الى المدينة ، من المحتمل أن يكون هو الذي أدى الى أول تطوير « لمدفعية » . . . من نوع ما . . . وكان من المعروف أن « ديونيسوس » ، طاغية سيراكوزة ، كان يملك ، قبل بضع سنين من هذا الحصار ، عددا كبيرا من آلات خشبية تسمى « الرواجم » (Ballistae) والقواذف . وكانت هذه الرواجم ترمي الحجارة الخفيفة على مسافات معينة وبشكل مستقيم تماما . وكانت « القواذف »

تطلق الحجارة الاثقل وزنا في الهواء لتحط ضمن مسافات أقصر. وفي وقت لاحق « جدا » ظهر « ديونيسوس » آخر ليخترع الة تطلق السهام ، الواحد تلو الاخر ، بدراكية سريعة . . . اذن ، كان في العالم القديم من الاسلحة ما يناظر مدفع الميدان والهاون أو القذاف ، ويناظر المدفع الرشاش .

سنقدم فيما بعد، وصفا لتلك الالات المصنوعة من الخشب . اذ انها تحولت ، وبسرعة ، لتصبح هي السلاح السائد في حرب المواقع ، في أثناء حصار المدن ، وفي الدفاع عن الاسوار . لكن تأثير تلك الالات على قتال الحركة ظل طفيفا . وكانت ، شأنها شأن العربات ، « أسلحة مناسبات » تتطلب أرضا ممهدة . ولم يكن بوسعها أن تنتقل بسرعة مماثلة لسرعة الخيالة أو العربات ، ولا حتى لسرعة المشاة المدربة جيدا . وكان من النادر أن تستطيع التلاؤم مع الحرب العادية .

أُدخل هذا النوع من الاسلحة ذات الامدية الطويلة الى اليونان من سيراكوزة حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، وقوبلت آنذاك بالتأسي المعتاد الذي تلاقيه الاسلحة المستجدة . وعندما رأى القائد الاسبارطي ، أرشيديموس ، لاول مرة ، القاذفة (المنجنيق) وهي تسقط كتلة من الصخر على رجل يقف بعيدا ، الى حد ما ، زمجر قائلا : « واهير كوليس ، لم يبق لشجاعة الانسان مكان . . » لكن الواقع أن الصراع المسلح في الحقول الفسيحة ظل مستمرا ، وبطريقة مشابهة جدا لما كان عليه دائما ، وظلت الشجاعة ضرورية كسمة عسكرية . . . ولو انها كانت أحيانا تعطى أكثر مما تستحق . . . .

كان التشكيل الدارج أكثر من غيره في الجيش الاغريقي ، خلال القرن الرابع قبل الميلاد ، يتضمن نسقا بسيطا من الرماحين المصطفين بعمق يقارب الثمانية أقدام . وغالبا ما كان قطر الترس الاغريقي يتراوح بين ٣ ـ ٤ أقدام . ويبدو أن نسق الرمّاحين كان يسير منضما جدا ، بشكل قصد به أن يقي ترس كل جندي جزءا من جاره الايسر . وكان المنحى في الجيوش الاغريقية أن تنحرف نحو اليمين بشكل يصبح فيه الكتف الايسر نحو المقدمة أثناء التقرب من العدو ، ذلك لان الترس كان دائما يحمل باليد اليسرى . ومن يمش وذراعه وكتفه الايسران نحو الامام يضطر لان ينحرف نحو اليمين قليلا . ومن الطبيعي أيضا أن كان هناك اتجاه لان يكره الاغريق تطويق جناحهم الايمن ، لان هذا هو الجانب غير المحمى نسبيا ، أي الجانب الذي لا تسهل وقايته بالترس . بيد أن الجيوش الاغريقية الاولى كانت تخلو الى حد كبير مما يشير الى قدرتها على المناورة . وكان وجود التكتيكات نادرا . كان هناك الانتظام في أنساق ، فالهجوم من الحركة ، ثم الالتحام الى أن يُرغم العدو على الفرار ، وأخيرا الالتفات هنا وهناك لرؤ ية ما اذا كان هناك المزيد من القتال في مكان آخر . وكانت

التقسيمات الفرعية الوحيدة في الجيش الاغريقي العادي هي أن كل مدينة كانت تضم عددا من القبائل ، وكانت عادة هذه القبائل أن تقاتل مجتمعة ، ولكل منها قيادتها الخاصة .

وكان للاسبارطيين ، خيرة جنود الاغريق ، تقسيمات فرعية أكثر منطقية ونفعا ، وهي تقسيم الجيش الى وحدات تشبه الكتائب والسرايا الحالية ، وكل منها ذات عدد محدد . وعندما تعلم الاغريق المزيد عن الصراع المسلح ، بنوا وجهة نظر تكتيكية بسيطة تماما ، ولكنها مفيدة جدا : وهي أن توقف العدو ، أو « تثبته » بجزء من القوات ، ثم تهاجمه بالجزء الاخر من حيث لا يتوقع . غير أنهم لم يخصصوا أسلحتهم وقواتهم وفق هذا « التثبيت » وهذا « الضرب » .

هذه اذن « الفترة المدرعة الاولى » ، وقد تم تكونها . فماذا عن التوجهات في تلك الفترة ؟

كان التوجه الاول نحو حشد القوة لتحقيق تفوق مكاني مؤقت في جزء ما من المعركة . وفي السابق ، كان مثل هذا الحشد يحدث بالصدفة ، أو وفق اختيار قائد ما لتشكيله الهجومي . وفي هذه الفترة ، جرى ولاول مرة ، تخطيط الحشد وتنظيمه قبل بدء المعركة . وكان ايبا مينونداس (Epaminondas) أول قائد رأى وجوب أن يكون الجيش - كقاعدة وليس كاستثناء أو بمحض الصدفة - في جزء منه أقوى مما هو عليه في جزئه الاخر . . . وكان هو الذي ابتكر فكرة « الفلانكس (Phalanx) »

وفي البدء ، كان « الفلانكس » ، جناحا ، أو قسما من الجيش المرصوص بعمق ستة عشر قدما بدلا من ثمانية . وبما أن هذا التشكيل أكثف من التشكيل الثماني المقابل له ، فقد كان بوسع الفلانكس أن يخترق صفوف العدو ، وبالتالي بث الفوضى فيها . وسنرى أن فكرة الفلانكس قائمة في الصراع المسلح بدءا من أيام جندي المشاة المدرع وحتى أيام العربة المدرعة .

وعمل ايبا مينونداس أيضا على استخدام أسلوب تكتيكي آخر . فغالبا ما كان يضع الفلانكس ، قوته الضاربة الرئيسة ، على أحد جناحي الجيش ، « ويحرم » الجناح الاخر ، حيث كان يؤخر عن الاشتراك في المراحل الاولى من القتال ، اما بحرفه عن اتجاه العدو ، ضمن زاوية معينة ، أو بادخاله الى المعركة ليتقدم بوتيرة أبطأ من وتيرة الفلانكس . ولم يكن هذا الجناح الاضعف ليصطدم بقوات العدو وجها لوجه قبل أن تكون هذه القوات قد تضعضعت وتخلخل تشكيلها القتالي بفعل زخم الفلانكس . وهذه المناورة ، التي كان يُخطط لها قبل الدخول في القتال ، مشابهة تماما « للنظام المائل » الذي به حقق فريدريك

الاكبر الفوز في العديد من معاركه . ولهذه المناورة ما يوازيها اليوم في الهجوم الخاطف الذي يُشن على جبهة ضيقة ، حيث لا يشن الهجوم على الجبهة الاعرض قبل أن يتم اختراق مواقع العدو .

في شمال اليونان ، تولى عرش مقدونيا الملك فيليب الشهير ، الذي استثمر تكتيكات الصدمة عند الاغريق حتى تحقيق النتائج المنطقية المرجوة منها . فكان هذا الملك يشكل قواته الثقيلة في كتلة عمقها ستة عشر قدما ، بحيث يتكون من مجموعها فلانكس قادر ، إن هو التقى بجيش اغريقي عادي ، على شق صفوف ذلك الجيش ، بوساطة ثقل كتلته . وكان يجهز رجاله هؤلاء برماح خطلة ثقيلة (بايك Pike ، رمح أطول من الرمح الاغريقي وأثقل وزنا منه) . ولم تكن هذه الساريسا (Sarissa) ـ حسبما كانوا يسمونها ـ رمح قذف محولاً إلى سلاح صدمة ، كما كان الامر بالنسبة الى الحربة الاغريقية . وكان طول الساريسا أربعة وعشرين قدما . وكانت تسدد بطريقة تسمح بأن يظل منها جزء طوله ثمانية عشر قدما مشرعاً أمام حاملها . وكان كعبها الثقيل المدود خلف حاملها يساعده على حفظ توازنها . ولكن لا شك في أنها كانت تعيق حركته أو مناورته .

وكان الملك المقدوني ، فيليب ، يدرب جنوده على ان يتحركوا بنظام متقارب (منضم) جدا ، بحيث لم يكن العمق بين كل جندي وآخر أكثر من قدمين اثنين . وكان كل خمسة رماح طويلة من النسق الثاني تبرز أمام جندي النسق الاول ، وكل عشرة رماح من النسق الثالث الموجودة خلف الخمسة البارزة تظل مرفوعة بميل نحو الاعلى لضيق المسافة بين النسقين . وهكذا كان هناك ستة رماح تغطي دائرة ترس واحد . وعند الالتحام كان رمح النسق الثالث (العشرة) يتقدم ليملأ أي ثغرة تحدث في النسق الثاني . أي أنه كان كلما سقط رماح من نسق اندفع آخر من النسق الذي يليه ليملأ مكانه ، وتبقى قوة الصدمة على حالها . وكان بالتالي تشكيل هذا الفلانكس قادرا على ملاقاة وتحطيم كل مواجهة تعترضه . وبهذا الشكل ، سرعان ما أصبحت المملكة المقدونية هي القوة العظمى في اليونان .

والتوجه الاول في هذه (الفترة المدرعة) هو أن يكون الجيش كمطرقة ثقيلة ، أي التكامل البسيط . وسيلي هذا التوجه مباشرة التوجه نحو التركيب المنسق .

أدرك الملك فيليب أن هذا الجيش « القنفذي » الثقيل الذي أوجده، هو جيش يعوزه الاتقان الى حد ما . لذا قسمه بحيث صارت كل وحدة كبيرة فيه تشكل لواء (الفلانكس) منفصلاً ، تفصله عن جاره في المعركة مساحة خالية . ولئلا تصبح أجنحة

هذه الوحدات مكشوفة ومهذدة. فقد مال شكلها نحو الخلف بحيث أصبحت التروس والرماح على شكل ضلع مائل مقاطع للجبهة بزاوية حادة ، كما كانت الوحدة أحياناً تتخذ شكل الاسفين .

أما الاسكندر الشاب ، الابن الالمعي للملك فيليب ، فقد شكل هذه المشاة الثقيلة في ألوية ، ثم قسم الالوية الى كتائب وسرايا . وكان يدرب جنوده على أساس أن تتمكن كل سرية ـ وهي ثمانيّة الأنساق ـ من أن تنقلب الى جناح ، أو تغير اتجاهها حسب أوامر قائدها ، دون أن تغير موقعها . وما هذا بهين والناس متراصون ، ويحمل كل منهم رمحا طوله أربعة وعشرون قدما ، أو عندما يكون هناك احتمال بأن تدعو الحاجة الى رص سريتين أو ثلاث الواحدة خلف الاخرى . وفي الاحوال الطبيعية كانت كل كتيبة تتحرك نحو المعركة بشكل منفصل ، لكن الفراغات بينها كانت تسد بقوات خفيفة ، مهمتها حماية الاجنحة من الخيالة أو العربات المعادية . وكان من المحتمل تكليفها بالثبات في مواقعها أثناء اجتياز منطقة وعرة ، حيث كان من عادة القوات الثقيلة في الفلانكس أن تلتف حول منطقة كهذه . وعندما كان يحين أوان ضم الفلانكسات أو الالوية استعدادا للهجوم ، أو حين التعرض لهجوم كثيف من قبل الخيالة ، كانت العادة أن تسحب القوات الخفيفة نحو الخلف ، أو يفسح لها مجال فيها بين السرايا الثقيلة لتتخذها أسوارا تحتمي بها .

وأضاف الاسكندر الى قواته الثقيلة عناصر الرمي ، رمي السهام والمقاليع والحراب ، بالاضافة الى عدد من الخيالة . وكانت خيالته الثقيلة مدرعة ، وجياد الخيالة محمية . وكانت الخيالة تحمل رماحا طويلة وسيوفا ثقيلة . وكانت خيالته الخفيفة من النّبالة بالدرجة الاولى . وكان هؤلاء يُستخدمون في الإشغال أو المناوشات .

كما كان يحمل معه الى المعركة عددا معينا من الرواجم الخفيفة ، ويستخدمها كنوع من مدفعية الميدان . ومن خلال رغبته الجامحة في تقبل الافكار الجديدة ، جعل الاسكندر من جيشه حقل تجارب لشتى أنواع الاسلحة التي كانت معروفة في عصره . وكان يدمجها كلها مع قواته الثقيلة التي كانت هي قوته الرئيسة التي يعتمد عليها .

لم تنجب العصور التي تلت عصر الاسكندر سوى قلة مع العسكريين الذين يمكن أن يكتب عنهم بقدر ما كتب عن الاسكندر .

تلك ، اذن ، هي الاسلحة المساعدة ، وغاية ظهورها دعم الفلانكس المدرع . فالاسكندر ، عندما التقى الملك الفارسي ، داريوس ، في معركة « أربيلا Arbela » (٣٣١ ق . م .) لم يكن معه الا جيش تعداده سبعة وأربعون ألفا ، ويتكون من العناصر

التي سبق ذكرها. ورغم التحفظ الذي يجب ان يؤخذ في الحساب بشأن تعداد الجيوش الاسيوية، فان عدد جيش داريوس كان لا يقل كثيرا عن المليون. وان نحن شبهنا هذا الجيش بصفحة من هذا الكتاب، فإن جيش الاسكندر لا يبلغ مقدار سطرين منها.

ولم تكن القوات الفارسية هي الاقوى بكثير من حيث التعداد وحسب ، بل انها كانت تملك سلاحين خاصين أيضا : أحدهما العربات ذات العجلات المجهزة بانصال منجلية . وثانيهما تشكيل يتألف من خمسة عشر فيلا . ولم يسبق للفيلة أن استخدمت في الحروب خارج الهند ، بل ومن المحتمل أن تكون قلة من الجيش الاغريقي فقط هي التي سبق لها أن رأت مثل هذه الحيوانات . والذي لا شك فيه أن رعب جنود الاسكندر من مظهر الفيلة كان مساويا تماما لرعب الجنود الالمان لدى رؤ يتهم أولى الدبابات البريطانية في العام ١٩١٦ . لكن هذه الدبابات كانت ذات نفع محدود في المعركة . والفيلة حيوانات عاقلة ترغب في العيش بضع مئات من السنين . لذا فهي تتحاشى الاوضاع الصاخبة والمزعجة . ومن الارجح أن تجفل أثناء المعركة . فما الذي يضطرها الى مواجهة نسق من الجنود الذين تلمع حرابهم ودروعهم ، ويصرخون بأصوات عالية ؟ وليس من الواضح ما الذي حدث للفيلة في أربيلا ، فيما عدا أن الفيلة ذعرت بشدة . . . في مناسبة لاحقة ، اتت بعد مئات السنين من أيام أربيلا ، وعندما استخدم هانيبعل الفيلة في آخر معركة مهمة له ، جفل العديد من هذه الحيوانات لدى سماع الطبول الرومانية . . . وبذلك دمرت ترتيب قتال الخيالة الافريقية التي كانت مع هانيبعل نفسه ، مهيئة الفرصة للخيالة الرومانية الاضعف لتطردها من أرض المعركة .

في أريبيلا، قاد الملك الفارسي جيشه الضخم الى بقعة فسيحة نظفت تماما من الصخور وغيرها من الموانع. وكان في بال الملك الفارسي امكانية استخدام العربات في تلك المساحة الممهدة . ولكن بعد يوم قضاه الاسكندر مستطلعا ، أصدر لجيشه أمرا بالتحرك بنظام مائل ، متقربا من جناح الفرس الايسر بشكل منحرف . وكان في تلك الحركة من التوجه المباشر لدرجة أن الكتلة الرئيسة في قواته بدت وكأنها كانت ستتجاوز الارض الممهدة الصالحة لعمل العربات ، قبل أن يحدث التماس بينها وبين جناح الفرس . وهذا ما أرغم الملك الفارسي على أن يباشر بدفع خيالته ، ثم عرباته ، للاشتباك قبل مسافة طويلة من خط الاشتباك الاساس الذي حدده هو ، أي الى حيث لم يعد باستطاعته دعم خيالته وعرباته بما تبقى لديه من قوات .

كان بوسع العربات أن تحدث أضرارا بالغة في صفوف الفلانكس الثقيل لو انها كانت قادرة على مهاجمة الرمّاحيْن المقدونيين دون أن تتصدى لها أي مقاومة أخرى . لكنها

حالما بلغت السهل الممهد، وهي تهدر هدرا، دفع ضباط الاسكندر قوات خفيفة السلاح لتتصدى لها. وصبت هذه القوات سهامها على الخيول وعلى راكبي العربات ، وراحت تراوغ العربات وتحاوطها ، وتضرب سيور شدها بالجياد ، ووصل الامر الى التعلق بأعنتها . ولم يستطع المرور عبر تلك القوات الخفيفة ، التي كانت تشبه غمامة من البعوض ، الا عدد قليل من العربات . وظل عدد أقل ضمن حد معقول من سيطرة السائقين . وأخيرا ، وعندما اقتربت العربات من الفلانكس ، انضمت الصفوف ضمن كل لواء ، بحيث انفتحت فيما بين الالوية ممرات اندفعت عبرها الخيول المذعورة ، واندفع بعض العربات فيما بين المشاة المقدونية دونما ضرر يذكر ، ومن ثم قامت خيالة الاسكندر بالاستيلاء عليها في مكان بعيد ، قريبا من مؤخرة الجيش .

لا بد أن هذه المعركة كانت ، في معظمها ، عملا مختلطا عاصفا ، فيه هجمات الخيالة ، والقتال المفتوح غير المنظم الذي خاضته القوات الخفيفة ،واندفاع عربات فُقدت السيطرة عليها ، والذعر الذي دب في الفيلة . ويكاد هذا كله يخلو من أي تكتيكات لم تستخدم في المناوشات التي جرت حول طروادة . ولكن كان هناك عامل واحد مكون من النظام والدقة . وكان هذا هو الشيء الاساس في قوة الاسكندر . . . أي قوة الفلانكس المتراصة . وكان من الممكن ألا تؤدي وحدها للفوز ، ومن المحتمل أن كانت أكثرية خسائر الفرس ناتجة عن رماح الخيالة الاغريقية ، لا عن حراب الفلانكس . أما ما حطم التشكيل الفارسي ، وحطم معه أعصاب القائد الفارسي ، فكان الزحف الحثيث المتواصل ، الذي نفذته خمسة ألوية فلانكسية ، ثم الانحراف نحو الداخل باتجاه الارض الممهدة ، وباتجاه كبد القوة الفارسية ، في الوقت الذي استنفذت فيه قوة العربات .

وبعد مرور أجيال عديدة على معركة أربيلا ، ظل التنظيم الفلانكسي ، قوة لا تقهر . لكن أشباه الاسكندر في العالم قلة ، ولو أنه يزخر بالذين يعتقدون بأن التدريب والانضباط يشكلان الاساس الوحيد للجندية . ومن جديد تحول الفلانكس في أيدي هؤلاء الى جسم جامد . وظل على طوله وعرضه نفسيهما ، كما ظل هو الصورة العسكرية في أذهان قادة ميادين العرض . ولكن ليس من السهل المناورة به ، ولا من الممكن تقسيمه في وحدات ، أو دمجه مع القوات الاخرى على طريقة الاسكندر .

وحاول ورثة الاسكندر الذين تقاسموا امبراطوريته أن يخلقوا جنودا من نوعيات متخلفة ، بل ومن الرقيق . وحاولوا أن ينفذوا تكتيكات الفلانكس . لكن هؤلاء الجنود كانوا مجردين من تقاليد المقدونيين وروحهم المعنوية ، ولم يكن بوسعهم العمل الا

«كقنافذ» من الرمّاحين الضعفاء، ليس بينهم دعم متبادل، ولا يملكون كفاءة الاندماج مع الاسلحة الاخرى . وكان دمج الاسلحة المختلفة والمتعددة قد صار حتى أثناء تلك الفترة المبكرة ، أمرا حيويا في التكتيكات . وعندما كان الدمج بسيطا ، أو (بليدا) ، كان لا يعني أكثر من مجرد اضافة وحدات الى أخرى . أما نوع الدمج الذي كان ينفذه الاسكندر ، فكان يعني مضاعفة (ضرب) كل قوة بالقوى الاخرى .

وكان يصدف ، خلال تلك الفترة ، أن يلتقي فلانكس رمّاحة مع فلانكس آخر في معركة ما . وكان النصر عادة في هذه الحالة من نصيب الجانب الاوفر حظا ، أو الى جانب من يملك عددا أوفر من الجنود الثابتين في تشكيل أكثر صلابة . وكانت الحرب تتأرجح بشكل مؤقت، بين تشكيلات الاسكندر المختلطة المرنة وتشكيلات الجيوش الثقيلة والشبيهة بالمطارق غير المصقولة.

بيد أن الفلانكس التقى خير من يقوده في معركة خاضها المقدونيون في ايطاليا . فقد تهيأت الفرصة لفلاحي وسط ايطاليا القساة ، الذين كانوا قد اكتسبوا خبرتهم من خلال سلسلة الحروب التي خاضوها ضد جيرانهم ، وضد غزاتهم من قبائل الغال ، فرصة الخروج بأسلوب قتالي مختلف الى حد ما . فألفوا تماما أوزان الاسلحة نفسها التي كانت لدى القوات المقدونية . وألفوا الترس الاكثر فعالية ، لكنهم كانوا يدربون عناصرهم على المناورة السريعة ضمن وحدات صغيرة ، وبشكل يمكنهم من التماس مع جناح أي كتلة متماسكة من الرماحة كانت تواجههم ، أو من بعثره أي هجوم بالخيالة . وكان اعتمادهم على السيوف القصيرة أكبر من اعتمادهم على الرماح الطويلة ، لان المناورة السريعة في اتجاه مغاير كانت غير ممكنة مع مثل هذه الرماح . كما كانت أنساقهم الامامية تستخدم حرابا ثقيلة مقذوفة . وفي تلك الفترة كانت الليجيونات الرومانية في طور التكون .

في البدء ، كان بوسع الفلانكس المقدوني ، ان هو تماسك ، أن يجر هؤلاء ، الرومان نحو أجزاء ساحة المعركة الاكثر نعومة ، ولن يكون بوسع التشكيلات الرومانية الاخف ، ورماحهم الأقصر أن تواجها الساريسا (القنا) الطويلة ، التي كانت تستخدمها الكتل المتراصة من الجنود المدرعين . ولكن لم يكن بمقدور الفلانكس أن يطارد الرومان ، أو أن يشتت وحداتهم الصغيرة المرنة ، ولا حتى أن يجرهم من الأرض الأكثر وعورة أو من الاحراج وسفوح التلال . وبعد أن يكون الفلانكس قد أمضى زمنا معينا وهو يقاتل ، سيكون بعض الذين يتشكل منهم الفلانكس قد سقطوا جرحى بوساطة حراب الرومان المقذوفة ، أو أحسوا بالانهاك من ثقل رماحهم الطويلة ، وفقدوا تماسكهم إلى حد ما .

آنذاك ، ينبرى الرومان بسيوفهم ، وهي الاسلحة الارشق من الرماح الطويلة من أجل « خلط الحابل بالنابل » . ومن هذا المنطلق ، حقق الملك بيروس (Pyrrhus) ، المقدوني ، عدداً من الانتصارات على الرومان ، لكن كل انتصار كلفه من الخسائر أكثر مما قدم له من أرباح . ومنذ ذلك الحين صار يعرف كل انتصار مكلف جداً بالأرواح والمعدات « بالانتصار البيري » .

كانت الليجيونات الرومانية ، بعد أن اكتمل تشكيلها ، « فوات ثقيلة » . وكانت تقاتل بترتيب قتال منظم ، فيه تنضم التروس لتشكل غطاء مضادا للمقذوفات . وكان الرومان يزيدون من اعتمادهم على الحراب المقذوفة . وقد حقق هذا التوحيد بين تكتيكات الصدمة وأسلحة المقذوفات ذات الامدية القصيرة ، حقق لهم تميزا كبيرا . فكانوا يدمجون الترتيب والانضباط اللذين تميز بهما الفلانكس الاغريقي مع « القوة النارية » المتفوقة . ولم يكن بالامكان قذف الحربة الرومانية (بيلوم Pilum) لمسافة بعيدة ولكنها كانت قادرة على جرح أي رماح قبل أن يقترب منها حتى المسافة التي يمكن أن يستخدم فيها أكثر رماحه طولا .

وكان الرمح الروماني ثقيلا ، لان أكثر من نصف طوله كان مصنوعا من الحديد . وكان السنان الحديدي مكملا لقناة حديدية تتجاوز الاقدام الاربعة في طولها . وكانت هذه القناة مدكوكة بعصا خشبية طولها أربعة أقدام . وكان طول الرمح الاجمالي يصل الى سبعة أقدام . وكان من الممكن استخدام هذا السلاح كرمح عادي ضد الخيالة والقوات الخفيفة . ولكنه كان يقذف ضد المشاة المتراصة . وقد خفف الرومان وزن رمحهم (البيلوم) وقصروا طوله بشكل تدريجي ، بعد أن أدركوا أن من الضروري « الطعن قبل أن يتمكن الطرف الاخر من الطعن » ، وأدركوا بالتالي أنهم بحاجة الى مدى أطول « لمقذوفاتهم » . فأصبح طول القناة ثلاثة أقدام أو أقل ، وقصرت أيضا العصا الخشبية .

وكان من عادة المشاة الرومانية أن تقاتل في ثلاثة أنساق متعاقبة . وفي البداية كان النسق الامامي وحده هو المسلح بالحراب المقذوفة ، وكان النسقان الثاني والثالث مسلحين برماح طعن طويلة . . . وهذا من مآثر الفلانكس الاغريقي القديم . وفي وقت لاحق ، صار سلاح النسقين الاول والثاني هو الحراب المقذوفة . . . ثم صارت هي سلاح الانساق الثلاثة . وغالبا ما كانت الانساق غير مستمرة ، اذ صار التشكيل العادي كثلاثة صفوف من المربعات السوداء ، تتخللها مربعات بيضاء خالية ، ومنظره العام كرقعة الشطرنج . وكان من الممكن زيادة التباعد فيما بين الوحدات .

كان الليجيون المؤلف من ستة آلاف جندي مقسما في عشر كتائب (Cohort) ، يضم كل منها ثلاث سرايا (Maniple) ، أولاها في النسق الاول ، والثانية في الثاني والثالثة في الثالث . أي أن السرايا كانت تنتشر بالعمق . وعندما كان الدعم يأتي من الخلف ، كان يأتي من جنود الوحدة نفسها ، أي من جنود بينهم وبين ضباطهم سابق معرفة ، وهم ضباط الانساق المدعومة أنفسهم . وهذا الوضع ، ومعه التشكيل المفتوح الذي يشبه رقعة الشطرنج ، والذي كان يسمح بتحريك الوحدات الاحتياطية نحو الجناح ، أو يسمح لها بسد الثغرات في النسق الامامي ، كان يمكن القائد الروماني من السيطرة الكاملة على مرؤ وسيه جميعا . فكان باستطاعته أن ينشرهم للالتفاف على أجنحة العدو ، أو يحشدهم ليخترق بهم صفوفه . وبهذا التشكيل ، كانت حتى ألوية الاسكندر وكتائبه وسراياه تبدو داجّة اذا ما قورنت بليجيونات (ألوية) الرومان وكتائبهم وسراياهم .

وعندما كان الجيش الروماني يجرد من هذه المرونة الناتجة عن تشكيله ، كان يفقد الكثير من كفاءته القتالية . لذا كان على قادته أن يوجهوا عنايتهم نحو الاجنحة ، لان من شأن الهجوم على جناح الرومان أن يضغط الجيش بحيث تصبح سراياه عاجزة عن المناورة . وكان التشكيل القتالي العادي للجيش الروماني يتألف من قوة خيالة على أحد الجناحين ،مهمتهاصد الهجوم المعادي الجانبي زمنا حده الادنى التحام الالوية مع الكتلة الاساسية في جيش الخصم .

وفي كانّه (Cannae) ، انهزم الرومان ، على يد هانيبعل ، في معركة لا تزال حتى الان ذروة أحلام كل قائد . كان جيش هانيبعل لا يكاد يوازي في قوته أربعة أخماس القوة الرومانية . ولم تكن أسلحته الخاصة ذات تأثير مختلف عن غيرها . . . ولو أن معه الفيلة التي كان في اصطحابها مشقة بالغة ، وهي تخترق جبال الالب ، مرورا باسبانيا وجنوبي فرنسا . لكن خيالته كانت قوية . ففي تشكيل المعركة دفع قلب قواته ـ وهي من المشاة ـ نحو الامام . وفي الوقت الذي كانت فيه الليجيونات الرومانية تتقرب لتشن هجومها ، كان قلب قوات هانيبعل يتراجع ببطء . وكان مركز خط المواجهة يتراجع أكثر من تراجع المجنبات . وهذا الاحجام عن المواجهة في صدام حاسم هيأ للخيالة القرطاجية الموجودة على الجناحين فرصة طرد وحدات الخيالة الرومانية ـ الاضعف ـ من أرض المعركة . بعد ذلك ، التفت قوات هانيبعل الخفيفة ، التي كانت قد اشتبكت ، أو لحقت بالخيالة القرطاجية ، التفت نحو الداخل ، وأطبقت على المشاة الرومانية من ناحية جناحيها . وبذلك انضغطت الليجيونات الرومانية التي كانت تتقدم أكثر فأكثر عبر قلب تشكيل العدو الذي كان يتراجع أمامها ، انضغطت حتى انحصرت في مساحة أضيق من أن تسمح

لها بالمناورة . وهنا لم يعد بوسع رماة الحراب الذين نفذت حرابهم أن يحصلوا على غيرها . ثم صارت الثغرات في الانساق الامامية تسد بجنود جرحى أو منهكين لم يعد بمقدورهم التراجع نحو المؤخرة بسبب الطوق المحكم من الخلف . وأخيرا ، أطبقت عليهم من الخلف خيالة هانيبعل الظافرة . لقد تم اغلاق الشبكة ، وكانت مجزرة الرومان التي لم يتبق بعدها ما يمكن أن يسمى جيشا .

ومن تلك المعركة ، تعلم الرومان تكتيك « المغلف » . ومنذ ذلك الحين فصاعدا صارت الامنية العادية لكل قائد روماني ناجح أن ينفذ تكتيك الكانّة ، أي الاطباق المزدوج على جناحي العدو . . . تماما كما هو الحال لكل قائد ألماني في هذه الايام . . . (فكم من مراسل ألماني في هذه الحرب ـ العالمية الثانية ـ استخدم عبارة « زوسامين بريسن Zusammen Pressen » ليصف تطويقا ناجحا . .) اذن ، تعلم الرومان خدعا حربية أخرى كثيرة من شعب قرطاجة الذي صقلت موهبته التجارة والبحر .

ولقد تعززت قوة الليجيون الروماني الى حد كبير خلال « الحرب العالمية » التي شبت بين روما وقرطاجة ، عندما غزا الرومان اسبانيا ، وطوروا هناك سلاحا جديدا . ففي ذلك الوقت توافر الحديد الخام الاسباني ، الذي لا يزال منذ ذلك الحين وحتى اليوم ، أفضل معدن في العالم لصنع الأسلحة .

ان خاصية هذا المعدن ، ومهارة الناس الذين يعالجونه ، جعلتا من الممكن أن يصنع السيف الاسباني أحد نصلا وأدق رأسا ، بالاضافة الى أنه أخف وزنا من الاسلحة التي كان يحملها الرومان قبلا ، ويحملها آخرون من جنود تلك الفترة . ولم يكن السيف الاسباني مستقيما (Rapier) طويلا ، كذاك الذي يستخدم الان في المبارزة . كان أقصر من السيوف التي كان يستخدمها العديد من القوات آنذاك . لكن قدرته على النفوذ من خلال مفاصل الدروع ، ورشاقته الناتجة عن خفة وزنه ، وتوازنه الجيد ، هذه المميزات كلها ، جعلته هو السلاح السائد لفترة طويلة ، من أجل القتال القريب . ولم يكن يتثلم أو يكل أو يعوج بسهولة . ومعظم ما كان معروفا من سيوف تلك الفترة لم يكن يصلح لاكثر من ست ضربات قوية . أما هذا فيصلح لقتال يدوم أعواماً . وقد عرف الجيش الروماني السيف الاسباني عن طريق سقيبيون الافريقي (Scipion Africanos) القائد الذي تمكن من قهر قرطاجة .

كانت قرطاجة امبراطورية تجارية . وكانت قوتها في ثروتها وسفنها وحيازتها على موانىء محمية منتشرة في مساحة واسعة من شواطىء البحر الابيض المتوسط . ولم يكن فيها

١

طبقة واسعة من المواطنين الاحرار ، الذين تستطيع أن تشكل منهم جيوشا لها . فمعظم مواطنيها الاحرار كانوا موظفين في بحريتها . واكتشفت ، كما اكتشف العالم القديم كله ، أن العبيد يشكلون جنودا ضعفاء . وعلى هذا الاساس ، أوجدت قرطاجة ، وربما لاول مرة في العالم ، جيشا محترفا على مستوى كبير . فمعظم جنود هانيبعل كانوا يقاتلون بأجر . . . ولم يكونوا كأولئك الذين يرغمون على القتال باسم الزام وطني أو إقليمي . كما لم يكونوا متطوعين ، دوافعهم الأساسية الدفاع عن بلدهم أو توسيع سلطانه .

كان المرتزقة الذين ساروا خلف هانيبعل رجالا اكثر تحررا من أولئك الذين كانوا مرتبطين بحكم القانون أو العادة كي يتبعوا حاكما ما ، أو يشكلوا جزءا من جيش ما . وكانت حريتهم هذه تمدهم بجزء من براعتهم ، أي حرفتهم في الحرب . كان هؤلاء أعداء خطرين .

في النظام الاجتماعي الخاص بالجمهورية الرومانية ، كان لا يزال هناك ـ في البدء ـ الكثير من بواقي النظام الاجتماعي المطلق (باتريارkال Patriarchal) ، حيث كان يفترض بالشبان جميعا أن يخضعوا كليا لاوامر أكبر أعضاء الاسرة سنا . ولكن كان على الرومان ، بعد أن جوبهوا بذلك الجيش القرطاجي ، وقاسوا ما قاسوه من مهاراته وقدرته على المناورة ، كان عليهم أن يتخلوا عن هذا النظام القديم المعيق الذي سحق روح المبادأة لدى شباب المجتمع ، ولم يترك لهم أي حافز على العمل من تلقاء أنفسهم . وصار يُسمح للجندي الروماني ـ وكان آنذاك من المواطنين أبدا ـ بحكم العادة ثم بقوة القانون ، بأن يتملك شكلا من أشكال المتاع الخاص به ، سمي آنذاك : « ما يمكن تملكه في المعسكر » ، (Peculium Castrense) . وكان هذا أول اطار قانوني اعتُرف بموجبه بحق الافراد في ملكية منقولة . . . غير تلك التي يملكها الاباء ، أو تملكها الاسرة .

وبهذه الطريقة ، أصبح أفراد الليجيون الروماني كتلة من مواطنين ذوي حقوق خاصة بهم . وقد مُنحت لهم قبل أن تُمنح لمن هم في مثل أعمارهم من المدنيين . وأصبح المنتمي لليجيون ، من ناحية اقتصادية ، حرا تماما ، مثله في ذلك مثل أي فرد في العالم الروماني . وبهذا الاعتزاز بالذات ، الذي أتى مع الحرية ، وبهذه الروح المعنوية ، التي تغذت جيدا ، استطاع الجندي الروماني ، سواء كان فلاحا وطنيا أو فنانا ، أن يقهر القرطاجيين .

آنذاك ، أو فيما بعد ، حين توسعت روما في حقول غزوها ، أصبح الجندي الروماني جنديا محترفا لمدة طويلة . وأصبح يخضع ، أثناء سني خدمته ، للتدريب الجدي العنيف

الضروري لتكتيكات الصدمة . وكان يدرب على المسير الاطول والاسرع من أي مسير كان ينفذه أي ممن سبقوه . وصار يحمل في سيره أوزانا أثقل من أي حمل فرض على الجنود حتى العام ١٩١٥ أو ١٩١٦ . وكان يصطحب أحيانا عربات نقل، لكنه غالبا ما كان مضطرا لان يسير مئات الاميال ومتاعه على ظهره . كان درعه وأسلحته من الثقل بمكان . وكان على كل جندي أن يحمل ، بالاضافة الى عدته ، بعض المؤونة ، ووتدين كبيـرين أو ثلاثة من تلك اللازمة لنصب الخيام . وطبيعي أن الكفاءة في السير والانضباط والحمل تعتمد ، والى حد كبير جداً ، على الروح المعنوية . وكانت معنويات أفراد الليجيون ناشئة عن « الحس الوطني» . . . فكان لسان حال كل فرد «أنا مواطن من روما» cuvis Romanus sum) . إذن، كانت كفاءته في القتال تعتمد، وإلى حد كبير، على وضعه كمواطن حر من أعظم مدينة في العالم . وكان شعار الليجيون (النسر) يحمل الحروف S. P. Q. R. ، التي تعني : « مجلس شيوخ روما وشعبها » . وعندما لم يعد الليجيون مكونا في معظمه من مثل أولئك الرجال ، بدأ انحداره نحو القاع .

في الفصل التالي ، سوف نناقش نهاية هذه الفترة المدرعة ، وهي انهيار الليجيون . أما هنا ، ونحن نستذكر الماضي من الحاضر ، حيث الناس من فرق البانزر ومن الروس ، من القوى المدرعة الاميركية والبريطانية ، لا يملكون مجرد قوة خاصة وحسب ، بل يملكون أيضا كبرياء خاصة بكونهم نخبة من الجيوش ، نستذكر هذا فنستذكر الليجيونات الرومانية ، ونفهم المنتسبين اليها ، وندهش للانجازات التي حققوها . ولم يكن الليجيون شيئا لا يقهر . فقد رزىء في أوقات ما ـ بهزائم مرة : كلما تولاه قادة غير أكفاء ، أو كلما كان بدون الخيالة الضرورية لحماية أجنحته ، أو في مواجهة عدو أقدر على الحركة ، أو استخدم في أرض غير ملائمة . وذات مرة ابتليت جيوش روما بأن يقودها رجل شق طريقه نحو السلطة في روما بوساطة ثروته وحسب . وهذا الرجل ، كراسوس Crassus ، ساق الليجيونات الى هزيمة ساحقة على أيدي الخيالة السقيتية (Scythian[٢٧]) ، الذين ندر أن استخدموا أي سلاح غير القوس . وهؤلاء النبالة لم يخوضوا أبداً معركة ضارية منظمة ، ولكنهم استحثوا خطى الليجيونات الراجلة مسافة مئات الاميال ، عبر فياف مفتوحة شبه صحراوية ، قادها اليها « كراسوس » بلا ترو ولا فطنة . هناك حدود لما يستطيع أي جيش أن يفعله ضد عمل العصابات . وقد لاقت الليجيونات الرومانية حدودها في أعماق غابات

---

(٢٧) نسبة الى « سيقيته » (Scythie) في غرب الاتحاد السوفياتي ، حيث كانت تسكن قبائل « السيقيتيين » ، وهي من بربر شمال آسيا الغربية وأوروبا الشرقية .

المعرب

ألمانيا ، كما لاقتها في الهضاب الفارسية الجرداء . لكن تلك كانت حروبا تدور رحاها فوق حواف العالم المعروف . وكان سيف روما ودرعها وحربتها المقذوفة أسلحة تكاد لا تعرف الهزيمة في طول وعرض المساحة التي كانت متمدينة آنذاك . . . (أم أن مدنيتنا ـ وهنا نخرج الصين من الحسبان ـ مفصولة عن العالم بصحارى وجبال وجهالة) .

ومنذ قرن واحد قبل بداية العهد النصراني ، وحتى القرن الرابع بعد الميلاد ، كان الجنود الذين فرضوا سلام روما على معظم العالم المعروف آنذاك، هم الجنود الأقوياء، القادرون على السير الشاق، والراجلون ذوو الدروع الثقيلة. . . الذين كانوا هم عناصر الليجيونات.

٣) كان الفرسان جسورين

فيما بين الطفرتين العظيمتين ، اللتين ظهرتا في الحروب المدرعة عبر الماضي ، أي ما بين ليجيونات القيصر ، وهي تمخر عباب القناة الانكليزية ، وفرسان الملك رتشارد قلب الاسد ، وهم يتوجهون براياتهم نحو الارض المقدسة ، تكمن قرون عديدة من التبدلات في الحرب . ويأتي في طليعة هذه التغيرات انهيار الليجيون الروماني ، منهيا بذلك الفترة المدرعة الاولى . ثم تأتي الفترة الثانية غير المدرعة ، أيام مجد الخيالة الخفيفة . وفي وقت لاحق ، تعود ، وللمرة الثانية ، الخيالة المدرعة الثقيلة لتسود العالم من خلال الاطار الجديد للنظام الاقطاعي . وهذه التغيرات الثلاثة هي موضوع هذا الفصل .

طبيعي أن كانت هناك متغيرات سياسية ، خارجة عن نطاق الحرب ، كامنة وراء انهيار الليجيون الروماني . بيد أن هذه المتغيرات كثيرا ما كانت تعبر عن ذاتها من خلال الحرب . وفي مكان ما ، بعيد ، كان الرحّل في سهوب آسيا الوسطى وسيبيريا يمرون بمتغيرات مناخية ، أو تزايد سكاني ، أو ظهور قبائل جديدة . ويتحولون الى شعوب ينشأ معها وجوب شن غارات ضاغطة على « البرابرة » الذين كانوا يعيشون على طول حدود الامبراطورية الرومانية . وأخذ هؤلاء البرابرة الرحل ، شعوبا وقبائل ، يتحولون الى ضغط ثقيل ومركز على تلك الحدود منذ العام ٢٣٥ م تقريبا . وفي الوقت نفسه ، كان تمركز السلطة غير المنضبطة ضمن الامبراطورية الرومانية ، ومعه أسباب أخرى ، يؤدي الى

حروب أهلية متواصلة . فخلال الاعوام الستين التي تلت العام ٢٣٥ ، سقطت عروش ستة عشر امبراطوراً رومانيا ، وثلاثين امبراطورا منتظرا ، قتلوا اغتيالا ، أو في ميادين المعارك . ولم يعد مواطنو روما كافين ، من حيث العدد ، لتشكيل الجيوش اللازمة . . . وصار لا بد من قبول « البرابرة » في عداد الليجيونات . وصارت الليجيونات تحارب بعضها بعضا ، تحارب ضد أباطرتها ، أو لتغيير أباطرتها . وأخيرا ، تمكنت قبيلة متوحشة ، أو شعب متوحش (القوطيون) ، من أن تخترق الليجيونات المدرعة ، وتبلغ مركز الامبراطورية ، حيث لم يكن هناك سوى احتياطي قليل . وتمكن هؤلاء القوطيون من نشر الدمار في كافة المقاطعات . وثارت الاقاليم الرومانية ضد روما ، ودار القتال بين شرقي الامبراطورية وغربيها . ولمواجهة ضغوط هذا الصراع المسلح شبه المتواصل ، تشتتت الليجيونات هنا وهناك ، الامر الذي أفقدها احساسها بكبريائها ، وتماسكها كوحدات عسكرية . ولربما ارسلت كتيبة الى بريطانيا ، واخرى الى المانيا . . . ولربما سيقت ثالثة نحو روما ، بقيادة جنرال رأى سانحة لكي يصبح قيصرا .

ورافقت هذه المتغيرات في الحقل السياسي متغيرات أخرى ذات طابع عسكري . فقد اضطرت الحاميات الصغيرة المنتشرة ، بلا عمق ، على طول الحدود ، والمحرومة من الاحتياطات الخلفية ، الى الاعتماد على أشكال من الصنوف والاسلحة لم يُعهد لها مثيل من قبل . فمن أجل الدفاع عن نفسها ، زادت اعتمادها على « المدفعية » ، أي الآلات التي ترمي السهام أو الحجارة الكبيرة . ولكي تهاجم البرابرة المغيرين ، صارت تعتمد أكثر فأكثر على الخيالة ، بسبب قدرتها على الحركة .

ومن الخبرة المكتسبة عن طريق ما لا يحصى من الغارات والمناوشات ، أو عن طريق المعارك الضارية فيما بين الليجيونات ، اتضح أن خطورة سلاح المدفعية على المشاة المدرعة التي تدب على أقدامها ببطء ، وضمن انساق متراصة ، اكبر بكثير من خطورتها على الخيالة التي تتحرك بسرعة ، وبتشكيلات اكثر انتشارا . لذا ، فقد صعّد الاعتماد على المدفعية ، من أجل الدفاع ، التوجه نحو استخدام الخيالة من أجل الهجوم .

وانخفضت قدرة الليجيون على الحركة ، الى حد ما ، عندما صار يصطحب معه ، سواء الى ميدان المعركة ، أو الى معسكره المؤقت ، مدفعيته التي كانت متمركزة في مواقع الحاميات . ولم يعد قادرا على التحرك بسرعة تكفي للحاق بالفئات المغيرة من القوط أو الجرمان أو الفايكنغ (الاسكندنافيين) . وعلى هذا الاساس ، نشأت ، مرة أخرى ، ضرورة وجود المزيد من الخيالة التي تستطيع فعل ذلك .

ولم يعد هناك تمايز واضح بين مواطني روما الاحرار والناس الآتين من الولايات المقهورة . فقد كثرت أعداد أبناء الولايات المهزومة المنخرطين في الليجيونات ، وفي القوات الاحتياطية. وتزايدت هذه الاحتياطات عددا . وتضاعفت أعداد وحدات الحرس الامبراطوري ، وكان معظمهم من المشاة الخفيفة ، أو من الخيالة . وصاروا يُعدون أكثر أهمية من الليجيونات .

وبرهن « البرابرة » ، متطوعين أو مرتزقة ، وهم في الجيش الروماني ، وسواء كانوا في صفوف الليجيونات ، أو مُستخدمين كخيالة وكقوات خفيفة ، برهنوا على أنهم لم يكونوا كجنود ، أسوأ في المعركة مما كان عليه جنود الليجيونات الرومان . أما القول بأنهم لم يكونوا كالرومان شجاعة أو مهارة ، فسيظل خرافة . . لكنهم كانوا تُبّعا لمن يدفع أجرهم ، أو كانوا يرافقون أي دعي أو مغتصِب يمنيهم بفرصة نجاح ، يمنيهم بغنيمة أو سلطة . ولم يعد لديهم احساس المواطن بانتمائه الروماني ، وبالطمأنينة الرومانية التي جعلت من ليجيونات الجمهورية ، ومن باكورة الامبراطورية شيئاً محصناً نسبياً ضد مغريات النظام القيصري . ولم تعد الليجيونات ، كما كان حال الليجيونات ، الاولى ، بالدرجة الاولى ، وفي غمرة الحروب الاهلية ، ليجيونات أخرى تماثلها تماما من حيث تسليحها . ولهذا السبب ، صارت تتخلى تدريجيا عن الحربة الثقيلة (البيلوم) التي كانت ـ ولو انها تقذف ـ نظيرا لاي مقذوف آخر من حيث انها سلاح صدمة . وصارت تتسلح برمح مقذوف أخف وزنا ، لبلوغ مدى أطول ، من أجل « السبق في إصابة الشخص الآخر » . وقد أدى هذا التغيير الى اضعاف قوة الليجيون في التعامل مع الهجمات الثقيلة ، والتعامل مع هجوم الخيالة العنيد بشكل خاص . . . لهجوم الذي كانت العادة أن يتصدى له الليجيون باستخدام « البيلوم » كما لو كانت رمحا طويلا (بايك) . كانت الحربة الاخف وزنا أبعد مدى ، ولكنها لم تكن رمحا طويلا ، وكانت عديمة الجدوى الا ان تقذف .

وفي الوقت نفسه ، زادت قوة أعداء الرومان المحتملين . ففي أيام روما الاولى ، قال تاسيتوس (Tacitus) ، وهو يصف الجرمان لاول مرة : انهم كانوا « بلا خوذ ولا دروع ، ومعهم تروس ضعيفة ، مصنوعة من الاغصان الطرية ، ومسلحين بالجريد فقط . . . » وبكلمة أخرى ، كان الجرمان لا يزالون في مرحلة الصراع المسلح التي يستخدم فيها المقذوف البدائي ، ولا يزالون غير منظمين ، وغير قادرين على القتال بأسلحة صادمة . ولكنهم استطاعوا بعد ثلاث مئة سنة من الاحتكاك بالامبراطورية الرومانية ، أن يتعلموا الكثير . فقد خدم الالاف منهم كرومان مرتزقة . وكانوا يتجّرون عبر حدود الامبراطورية . وكانوا يتلقون الحديد والاسلحة مقابل الفراء وأواني العنبر . وفي الوقت

الذي بدأوا فيه بانتهاك حدود الامبراطورية الرومانية ، كان معظم جنودهم يملكون تروسا ثقيلة مصفحة بالحديد ، وسيوفا طويلة قاطعة تصل الى أبعد مما كان يصل اليه الرومان . . . (كانت صناعة المعادن قد تقدمت ، وصارت أكثر توافرا . الا أن السيف الروماني ، على ما يبدو ظل هو نفسه منذ العام ٢٠٠ ق . م . وحتى ٣٠٠ ب . م .) .

كان بعض الجرمان قد طور سلاحا فتاكا استخدمه جنودهم بمهارة خاصة . وكان هذا السلاح هو « الفرانسيسكا » (Francisca) ، وهو كناية عن فأس حربية (Axe) أو قدوم (Tomahawk) ، من المعدن ، يستطيع ، إن يُقذف ، أو يُضرب به ، أن يشق ترس الروماني ، وينفذ من درعه . ورغم ما كان عليه أولئك الجرمان من خطورة ، فقد استطاعت الليجيونات ، بتفوقها في الانضباط والقيادة ، أن تصدهم ، حتى أتى وقت دمرت فيه الخيالة القوطية في أدريانوبل Adrianople (٣٧٨ م .) مجمل أساليب القتال الرومانية .

وهنا تحولت الخيالة ، ولاول مرة ، الى قوات صدمة ذات شأن . لقد سبق للخيالة أن كسبت بعض المعارك ، من خلال اندماجها بصنوف أخرى ، ولكن نادرا ما كانت تحسم المعارك بوساطته وحدها . لكن القوط ، بجثثهم الضخمة فوق جياد ضخمة ، والمسلحين برماح ردينية ثقيلة ، سحقوا مشاة الرومان ، وحولوها الى كتلة من الاناس المضطربين المتكتلين حتى الاختناق ، وبحيث لم يستطع أي روماني أن يرفع ذراعه ليضرب . . . ولحظة كان القائد الروماني وضباطه الكبار ، ومعهم أربعون ألفا من الجنود ، خارين صرعى على ساحة المعركة تلك ، كانت هي اللحظة التي انتهى فيها الليجيون ، وكانت اليوم الذي بدأ فيه عهد الرجل راكب الحصان . ومنذ ذلك الحين ، وحتى حوالي ألف سنة أعقبته ، ظل الرجل راكب الحصان هو المتحكم بالصراع المسلح .

ما هي الاسباب الجذرية لهذا التغير الكبير في الحرب ؟ لقد رأينا في الفصل السابق أن التحول الى جندي المشاة المدرع قد أتى مع الاغريق ، الذين كانوا جميعا يرتدون الدروع ، ويقاتلون ككتل متراصة . وكان من أسباب ذلك أنهم كانوا سواسية في مواطنيتهم . وكانت فكرة المساواة في ظل الملك أو القانون ، أو في نظر الارستقراطية الحاكمة ، أو ممثلي السلطة ، التي تسير سياسات المدن الاغريقية ، هي أيضا التي تسير التقنية العسكرية . ولربما كان الاغريق هم أول الجيوش ذات المستوى التدريبي العالي ، لانهم هم الذين كانوا ايضا طليعة الجيوش التي تتشكل من اناس احرار. وليس في الامر مفارقة كما قد يبدو في هذه الايام . . . اذ ان الناس يفعلون الاشياء بشكل أفضل وأسهل

عندما يكون العمل بمحض اختيارهم عما لو كان الزاميا . ومن هذه الصفات التي تميز بها الاغريق ، أتى أول خروج عن تقليدية الحرب . فهل أتى الخروج الثاني ، أي الخروج عن تقليدية الدروع ، لاسباب من النوع نفسه ؟ أجل ، فقد كانت جذور هذا التغير من النوع نفسه ، ولو أنها ، طبعا ، لم تكن مماثلة كليا . وقد أدى انحلال روما وتنامي النظام القيصري الى هشاشة الامبراطورية . وكان « البرابرة » يموجون خارج خطوطها الدفاعية المشحونة الى هشاشة بالاحقاد ، وهم محكومون « بشبه ديمقراطية » العشيرة والقبيلة ، أي بنظام قاس بدائي فوضوي . وكانوا قد تعلموا من روما ، الا انهم لم يتعلموا كيف يشكلون ليجيوناتهم الخاصة بهم ، وكيف يصبحون قوات مشاة مدرعة ومدربة ومتماسكة ، بل تعلموا كيف يجعلون خصائصهم الاجتماعية الذاتية تقول كلمتها في الحرب ، وتعلموا كيف يتحولون الى خيالة غارات واقتحام ، تستطيع أن تقهر قوات الصدمة بتكتيكات الصدمة ، سواء كانت دروعها ثقيلة أم خفيفة . وكانوا يملكون ، بالاضافة الى ذلك ، الاسلحة المقذوفة التي سبق وصفها .

وسرعان ما استحوذت الاسلحة المقذوفة على الاهمية كلها .

يقول أومان في كتابه « تاريخ فن الحرب History of the Art of War » ، وهو يصف هذه العملية : « لقد ولى زمن السيف والرمح القصير (بيلوم) ، ليحل محله الرمح الطويل (لانس) والقوس » ثم ينقل عن فيجيتيوس[٢٨] (Vegetius) ذلك المعجب بالليجيون ، قوله الذي يتأسى فيه على التخلي عن الدرع ، فيضيف : « وهكذا خرج عسكرنا للقاء القوط دونما وقاية للرأس والصدر . وقد هلكوا تحت رحمة مقذوفاتهم . . . اذ ما المنتظر أن يفعله جندي راجل ، مسلح بقوس ، وبلا خوذة أو غطاء للصدر ، وحتى غير قادر على تدبر أمر الترس والقوس معا . . . ؟ » . ويمضي اومان إلى القول :

« من السخف ، طبعا ، الافتراض بأنه في الوقت الذي كانت فيه الخيالة تدثر بدروع أقرب الى الكمال ، كانت المشاة تهملها (الدروع) لمجرد الكسل والوهن . والحقيقة الفعلية أن الجيش القديم المشكل من ليجيونات مدرعة قد اختُبر في ميدان المعركة فوُجد أنه بحاجة الى شيء ما . . . فحول العسكريون الرومان انتباههم نحو الافادة الفضلى من الاسلحة المقذوفة في تسليح مشاتهم ، وهو زيادة أعداد خيالتهم وكفاءتهم . . . » .

---

(٢٨) فيجيتيوس : (القرن ٤) احد كتاب روما العسكريين ، وكان لكتاباته تأثير كبير على التكتيكات الاوروبية ابان العصور الوسطية .

المعرب

في خلال هذه الفترة ، الفترة الثانية غير المدرعة ، كان هناك توجه نحو بناء جيوش كاملة من الخيالة ، وتتكون كلها تقريبا من الرماة . وقد أصبح الهياطلة (Huns) بقيادة « أتيلا »[٢٩] (Atilla) مرعبين لدرجة أن اسمهم لا يزال عالقا في الذهن الاوروبي كرمز للوحشية في الحرب . اذ كانوا شعبا من راكبي الجياد الذين يستطيعون الامطار بشآبيب من السهام وهم راكبون . وقد عزا القائد الكبير (بيليزاريوس[٣٠] Belisarius) ، الذي حافظ على تماسك الامبراطورية البيزنطية ، عزا انتصاراته على القوط الى « حصانه الروماني النظامي ، وإلى حقيقة أن حلفاءه الهياطلة كلهم خيالة رماة أشداء ، بينما لم يكن لدى أعدائه أية معرفة ـ الاماندر ـ بالرماية . وعزاه الى أن الفرسان القوط كانوا يستخدمون السيف والرمح الطويل فقط ، بينما كانوا دائما يسحبون رماتهم راجلين نحو الخلف تحت حماية الفصائل الثقيلة . . . » وغالبا ما كان الرامي الخيال الذي أصبح « مقذوفه » هو سيد أسلحة تلك الفترة ، يلبس درعا من نوع معين ، وُخصمه حامل سلاح الصدمة ، والرمح الطويل ، يلبس درعا من نوع آخر . الا أن هذه الوقاية كانت في كثير من الاحيان خفيفة وناقصة . أما فيما يتعلق بالجيوش التركية الاولى ، المعدة للاصطدام بجنود بيزنطية ، فكان الدرع غائبا نهائيا . . « كانت الجحافل التركية تتألف من زمر لا تحصى من الخيالة الخفيفة التي تحمل الجريد والسيف المحني . ولكنها لم تكن تتكل على الدروع لتحقيق النصر . . »

لقد نَقَلْنا الاتيان على ذكر الاتراك ، قبل الاوان ، الى ما بعد الفترة التي تغيرت الحرب فيها من جديد ، الفترة المدرعة الثانية . وهنا لا بد من التأكيد على أن التواريخ جد كيفية . فأساليب القتال لا تتغير عبر العالم كله خلال العام نفسه . ففي بلاتيا ، وحين تمكن الاغريق المدرعون من تدمير جيش «الملك العظيم»، آنذاك، لم تنتهِ في الحال أساليب القتال القديمة كلها ، لتبدأ آساليب جديدة في كل مكان . وفي هذا السياق نفسه ، لم يكن هناك إبطال فورى وتام للتكتيكات ، ولا تغير في الاسلحة خلال العام الذي وقعت فيه معركة أدريانوبل ، (٣٧٨ م) . فقد استغرق تغير هذا الوضع في البقاع الاوروبية والاسيوية التي كانت هي آنذاك « العالم المتحضر » ، استغرق حوالى قرنين من

---

(٢٩) أتيلا Attila : أحد ملوك الهون (٤٣٢ ـ ٤٥٣)

المعرب

(٣٠) بيليزاريوس Belisarius ، قائد بيزنطي (حوالى ٤٩٤ ـ ٥٦٥) ، انتصر على الفرس (٥٣٠) ، وعلى الفاندال (٥٣٣) وأنقذ القسطنطينية من هجمات الهون (٥٥٩) .

المعرب

الزمن ، أي من العام ٢٥٠ وحتى العام ٤٥٠ م . وفي اجزاء أخرى من العالم ـ ولربما كانت عمليا على المستوى « الحضاري » نفسه أو أكثر ، كالصين مثلا ، يحتمل أن تكون التغيرات التي سبق ذكرها قد حدثت في أزمنة أخرى . . . وربما لم تحدث نهائيا .

بيد أن الشيء الرئيس ، الذي نحاول تتبعه ، هو تطور الاسلحة والتكتيكات في أوروبا وآسيا ، التطور الذي كان يؤدي وفق تسلسل مباشر الى حرب معاصرة . وهنا ، لا بد لنا من ملاحظة أن التوجه أحاط بمركز الحضارة خلال : « الفترة الثانية غير المدرعة » ، كان ، والى حد كبير ، نحو الجيش المكون من رماة / خيالة ، أو نحو جيش يلعب فيه الرماة الخيالة الدور المهيمن . وبلغ هذا التوجه أكمل تطور له بعد مرور زمن طويل على الوقت الذي اكتمل فيه تطور أسلوب قتالي مدرع ثان في أوروبا الغربية ، أسلوب تنفذه الخيالة .

وبالمغول ، وفي جيوش جنكيز خان ، بلغ الجيش المؤلف من رماة / خيالة أكمل تطور له . وقد رأى المعلقون الاميركيون المعاصرون في تكتيكات جنكيز خان واستراتيجيته توازيا مع الحرب الخاطفة عند النازيين . فهناك تماثل كامل في استخدام الخداع ، والطابور الخامس ، واستخدام المفاجأة والمباغتة في الهجوم ، واستخدام استراتيجية الخرق والالتفاف ، واستخدام القدرة على الحركة . ولكن هنا ينتهي التشابه . فتكتيكات الحرب الخاطفة هي تكتيكات قوات مدرعة ثقيلة تقاتل من مسافات أقصر من المسافات التي كانت مألوفة في هذا النوع ذاته من الحروب السابقة . وكانت تكتيكات المغول هي تكتيكات خيالة خفيفة جدا تقاتل ، ومن أبعد مدى ممكن ، بالاسلحة المقذوفة الخاصة بعصرهم .

وقبل أن يظهر المغول من آسيا ، كانت الحرب قد تأرجحت عائدة مرة أخرى ، في اوروبا الغربية ، نحو الدروع . وأيان تكن الدروع قوية بما فيه الكفاية ، يكن بوسع مرتديها من راكبي الجياد أن يهجموا ، عبر السهام ، ويصلوا حتى قتال التلاحم مع الاعداء . فعندما نعود الى العام ٤٥١ م . نجد أن جيش الهياطلة ، بقيادة أتيلا ، قد صُد وكُفىء على أعقابه في شالون Chalons بتكتيكات صدمة نفذتها خيالة أثقل . وفي العام ٧٣٢ انهزمت خيالة المغاربة (The Moors) الخفيفة التي لم تكن تلبس الدروع الا فيما ندر ، انهزمت وهي تغزو فرنسا من اسبانيا في معركة « تور » Tours . وهزمتها مشاة مسلحة بالسيف ، وخيالة ثقيلة ، مدرعة بشكل جيد تماما ، وسلاحها الرمح وحسب . وفي كل من هذه الحالات ، يبدو احتمال أن الجيوش الغازية كانت تجهد خيولها قبل الدخول في المعركة . وكانت هذه الجيوش تمتطي حيوانات ملائمة لسهول جنوبي روسيا ، أو للاراضي المفتوحة في شمالي أفريقيا . ولكنها لم تكن من الثقل بحيث تلائم الحقول والممرات الرخصة في فرنسا .

وحث هذا النصر الاخير الفرنج على تطوير دروعهم . وسرعان ما ظهر من بينهم قائد كبير هو (شارلمان) أتت أولى القوانين التي سنها لتعالج ، وبشكل حثيث ، مسألة الدروع من حيث تجميعها و « الاقتصاد » في استعمالها .

منع شارلمان ، ملك الفرنج ، التجار جميعا من تصدير الدروع الى خارج المنطقة التي كان يحكمها . وما العقوبات القاسية التي كان يفرضها على المخالفين الا دليل على اللهفة التي كان يسعى بها الناس للحصول على هذا المفتاح للنصر في الحرب . وفي العام ٨١٤ ، وصف أحد المؤرخين شارلمان وجيشه ، وهم ممتطون خيولهم باتجاه شمالي ايطاليا ، فكتب :

. . . ثم ظهر الملك الحديدي ، متوجاً بخوذة حديدية ، وبكمّين من الصفائح الحديدية يغطيان ذراعيه ، وصدره العريض محمي بلأمة (Byrnie) حديدية ، في يسراه قناة حديدية ، ويمناه حرة كيما تستل سيفه الذي لا يُقهر . وكان فخذاه محاطيْن بصفائح حديدية . . . وساقاه ، كسيقان أفراد جحفله كلهم ، محميان بكاسيتين حديديتين . وكان ترسه من الحديد الصرف ، شعارا ، وأداة ، ولونا على حد سواء . وكان يحف به ، من أمامه ومن خلفه ، رجاله المتطون صهوات جيادهم ، وكلهم مسلحون مثله تقريبا ، باذلين أقصى ما لديهم من جهود ليظهروا على شاكلته . وهكذا ، كان الحديد يملأ الحقول والدروب . وكانت أشعة الشمس تنعكس عن دروعهم من كل زاوية . وصرخ أهالي بافيا المذعورون بهلع : « حديد . . . حديد في كل مكان . . »[٣١] .

ربما كان مؤرخ الاخبار هذا مغاليا . غير أن بداية الفترة المدرعة الثانية قد استكملت بشارلمان . ولكن لم تكن خيالة شارلمان كلها قادرة على ارتداء بزة كاملة من الدروع . والارجح أن تكون النخبة في حاله فقط هي المدججة بالمعادن حتى قمم رؤوسها . والمحتمل أن يكون لدى كل من الاخرين قبعة معدنية مؤطرة بجلد سميك يغطي الاذنين والرقبة . اذ كانت هذه هي أولى النماذج لتغطية رؤوس الفرسان ، وكان اسمها الهاوبيرك (Hauberk) . ولكن بعد وقت قصير ـ أي خلال القرن التالي ـ صارت القطعة المدلاة من القبعة المعدنية تصنع من حلقات معدنية رقيقة ، أي من خواتم صغيرة محبوكة بعضها مع البعض الاخر . وصارت تُمد حتى تغطي الذقن والرقبة . وكان طرفها السفلي يدس تحت

---

(٣١) انظر « فن الحرب في العصور الوسيطة » ، تأليف « أومان » .

اللأمة المعدنية أو يبكل فوقها . وكان هذا الزي يشبه الصدرة العادية الحديثة في قِصَره . ثم أصبحت فيما بعد بطول « الكنزة » . وفي وقت لاحق ضمت هاتان القطعتان الواحدة الى الاخرى ، وتحولتا الى جبة . وأضيف على « القميص المعدني » (اللأمة) قلنسوة (قبع) من صفيح معدني يغلف « القبعة المعدنية » ، ويغطي الرأس بالكامل ، فيما عدا فتحة صغيرة للرؤ ية والتنفس .

ورغم أنه لم يكن بوسع جنود شارلمان أن « يتدرعوا » حتى هذا الحد ، كما تسنى ذلك فيما بعد بالنسبة الى الفرسان (Knights) ، فاننا نستطيع اتخاذ تاريخ معركته في بافيا (٨١٤ م .) مؤشرا على بداية الفترة المدرعة الثانية .

وفي القرن العاشر أخذ الرجال يرتدون واقية (شريحة) من الحديد القوي متصلة بالخوذة ومنحدرة من فوق الانف . وكانت هذه لحماية الوجه من الضربات التي تنزلق عن الخوذة . ومن المحتمل أن ظلت هذه الواقية قيد الاستعمال ، ولاكثر من مئتي عام ، الى أن أتت أيام مجد الفروسية ، وفيها صارت الخوذة ذات القناع المتحرك تغطي مجمل الرأس والوجه . وهذا القناع الذي كان بالامكان رفعه من أمام الفم والعينين ، عندما لا يكون الفارس مشتبكا في القتال ، كان فيه بعض الثقوب التي يمكن أن يتنفس الفارس منها ويرى . وهذا هو أكثر نموذج خوذ معروف لدى معظم الناس الذين شاهدوا دروع القرون الوسطى في المتاحف أو في الافلام السينمائية .

ايام شارلمان ، كان من النادر أن تؤمن وقاية فخذي العسكري العادي المدرع . أما بعد مئتي عام ، فصار من المألوف ان يُزاد طول اللأمة حتى تغطي الركبتين. وطبيعي انها كانت مفصلة لتجعل الركوب ممكنا . ولم يبدأ ارتداء السراويل المعدنية التي لا شك كانت تجعل من الركوب عذابا أليما ، الا بعد ذلك بزمن طويل .

وكاد الترس المستدير يختفي . ولم يعد يحمله غير الدانمركيين ، وبعض من جنود المشاة . ولكن لم يكن من المريح لراكب الحصان أن يحمل ترسا كبيرا ، ما دام لا بد من استعمال يده اليسرى لامساك العنان ، واليمنى لاستعمال الرمح أو السيف . لذا اكتفى بترس صغير مدور يحمل ـ كما يفترض بالخيال أن يحمله ـ مربوطا فوق المرفق الايسر ، ولا يغطي سوى جزء من الجسد ، وهو الجزء المحمي فعلا باللأمة ، أي انه لا يقي الاجزاء السفلى الاكثر عرضة وحساسية ، وهي أجزاء الخيال التي يمكن أن تتعرض لطعنة رمح أو ضربة سيف من على الارض . وعلى هذا الاساس ، صُمم ترس أوائل العصور الوسيطة على شكل طائرة الورق التي يلهو بها الصغار ، ليُحمل بحيث يمكن لطرفه السفلي الطويل

أن يغطي الركبة اليسرى ، أو يوضع بشكل متقاطع مع السرج .

في الوقت الذي كانت فيه الدروع تتزايد على هذا النحو ، التي قاربت في وزنها أثقل حد يمكن أن يحمله الحصان القوي ، فان التغيير في الاسلحة كان أقل . وكان الفرنج والدانمركيون ، باعتبارهم مشاة ، يستعملون من أجل شق الدروع فأسا يستخدم بكلتا اليدين . وزاد طول السيف . لكن رمح الخيال ، خلال الفترة المبكرة من العصور الوسطى ، نادرا ما كان سلاحا طويلا وثقيلا . وفي معركة هيستنغز ، كان فرسان النورمان أحيانا يستعملون رماحهم للقذف وللطعن على حد سواء . وكان الناس لا يزالون في طور تعلم صناعة سروج وركب جيدة . فبدون السرج والركاب الجيدين هذين يصبح الرمح خطرا . . . ان يحكم الفارس غرس مثل هذا الرمح في خصمه ، من المنتظر بدونهما ، أن يتابع الحصان عدوه ، بينما ينزلق ، « الفارس المنتصر » من فوق ذيل راحلته .

كان درع الفرنج أمتن من أن يخترقه السهم العادي . ويعود الفضل في هذا الدرع الى شارلمان الذي أنجز شيئا لم يستطع الرومان انجازه قط . ولم يقدر أي حاكم أعقبه أن يبذل ما بذله من محاولات . . . باستثناء ما بذله ، ولفترة محدودة ، كل من نابليون وهتلر . لقد وحد شارلمان فرنسا وألمانيا في دولة واحدة . وفي الوقت الذي تمزقت فيه تلك الدولة الموحدة ، بعد موته ، كانت أطر الحرب في اوروبا الحالية آخذة في التشكل .

في معركة هيستنغز ، التي يمكن اتخاذها نقطة ملائمة ، منها يرى التطور الاول لنظام الاقطاع في أكمل صوره ، كان الانكليز يجسدون الشكل الاكثر « بدائية وتخلفا » للصراع المسلح خلال تلك الفترة ، الشكل الخالي من ملامح هذا التطور الاقطاعي . كانوا جنود مشاة ، وكانت دروعهم خفيفة ، وأسلحتهم هي السيوف والجرائد والهراوات والفؤوس وقليل من القسي القصيرة . وكانوا يقاتلون في كتلة متراصة عمقها من ستة انساق الى اثني عشر نسقا ، ومن خلف خندق منخفض ، ومانع مكون من شجيرات برية وأسيجة غشيمة مرصوفة كيفما كان ، ومغطاة بالتروس . وكان الانكليز يقبعون خلف هذا الجدار من التروس طلبا للوقاية مما يقذف من الايدي عندما كانت تقترب خيالة الرومان .

كان الجيش الروماني من نظام مختلف جدا . اذ لم يكن ، كالجيش الانكليزي ، مؤلفا من اناس استدعوا بموجب نظام « التجنيد الالزامي » البدائي (السخرة) ، النظام الذي يفرض على كل أسرة تملك مساحة معينة من الارض (كذا فدان) أن ترسل رجلا منها ، مع ما يلزمه من معدات المشاة ، أو أن ترسل رجلا بعدة بدائية ان كانت تملك مساحة أقل . وصار الدوق وليام النورماندي يصطحب معه المزيد من نبلاء (بارونات)

تلك المقاطعة، ويصطحب أعدادا غفيرة من مغامري الاقطاعات ، منهم « الساعون وراء الارض ، ومنهم الباحثون عن المال » . وكانت عداتهم هي تلك المستخدمة لدى فرسان عصرهم .

من جهة ثانية ، لم يكن جيش الدوق وليام مؤلفا من الخيالة الثقيلة وحسب . كان النسق الاول في كل من فرقه مؤلفا من نبالة بينهم بعض ذوي الاقواس المتصالبة . وكان النسق الثاني من الجنود الراجلين (من الغلمان واتباع الفرسان ، والمغامرين المعدمين) الذين كان معظمهم يرتدون الدروع القصيرة (القمصان) ، مختلفين بذلك عن أغلبية المشاة الانكليز ، الذين قدموا من خلف المحراث مباشرة بجراكنهم الجلدية التي تعودوا أن يرتدوها . (الجركينة Jerkin جلباب طويل ضيق بلا كمين) .

وكانت تلي هذه القوات الثانوية قوات وليام الضاربة ، أي الفروسية (Knight ـ hood) المدرعة .

كان وليام يباشر المعركة برماة السهام ، الذين لم يكن بيد الانكليز حيلة للرد عليهم . ولكن عندما كان هؤلاء يتقدمون حتى مدى فؤوس الانكليز وجرائدهم التي تقذف بالايدي ، كانت تنهال عليهم شآبيب من هذه المعدات ، فينكفئون للاحتماء بمشاة النورمان التي كانت تقترب برماحها وسيوفها . وكانت هذه المشاة تصد الانكليز الذين كانوا قد انحدروا نحوها قليلا (ليصبح رماة النورمان ضمن أمدية مقذوفاتهم) تصدهم وتعيدهم الى ما وراء متاريسهم . ولكن لم يكن لمشاة النورمان تأثير يذكر في مواجهة التشكيل الرئيس لمشاة الانكليز المتفوقين جدا من حيث الغدد . وكان الأرجح ان تتراجع مشاة النورمان قليلاً تحت تأثير ما يقذف عليها ، وتحت تأثير رماح (Pikes) الانكليز ، عندما تنحدر عليهم خيالة وليام بأقصى سرعة ممكنة . ولا بد أن يكون هؤلاء الخيالة قد اكتسحوا جموع الانكليز في العديد من النقاط ، دون أن يتمكنوا من التوغل عبر مشاة الانكليز العنيدين ، الذين كانت فؤوسهم تشق التروس وتنفذ الى الدروع فتخترقها ، وتبطح الخيول وتبتر الأطراف . وبعد أن يكون قد اختلط الحابل بالنابل ، وبشكل عنيف ، كان قلب هجوم وليام وجناحه الايمن يتراجعان قليلا لاعادة تنظيمها . وكان جناحه الايسر ينكفىء هاربا .

وسواء كان هذا الفرار ، مناورة متعمدة ، أم لم يكن ، فقد كان يؤدي مباشرة الى هزيمة الانكليز . اذ كان هؤلاء يلاقون الأمرين من السهام التي لم يكن بيدهم حيلة ملموسة للرد عليها . فقد سبق لهم أن واجهوا مشاة النورمان وصدوها بلا عناء . والان ، وبعد قتال

تلاحمي عنيف ، صار الانكليز ، وهم في الجهة الغربية من ميدان المعركة ، صاروا يشاهدون خصومهم يتقهقرون ، مذعورين على صهوات جيادهم ، ويرون هذه الخيالة وهي تتوغل بشكل عشوائي ، وتزيح وحدات مشاة النورمان التي كانت قد زحفت ، خلف الخيالة المتقدمة . وكان من الطبيعي بالنسبة الى هذا الجيش الانكليزي البدائي الذي ليس فيه قائد مهم يضبطه سوى مليكه ، أن يندفع في مطاردة الجيش المهزوم .

غير أن وليام لم يكن منهزما . كان يعمل على تجميع قلب جيشه ، واعادة تشكيله . اذ كان يراقب الانكليز وهم ينحدرون من على يساره حتى أسفل التلة ، دونما تشكيل قتالي ، ومن غير الوقاية التي كانت مؤمنة لهم عن طريق المانع المكون من حائط الجذوع والتروس . آنذاك ، كان وليام يحول خيالته لتندفع بينهم وهم يتقدمون . وبذلك لم تعد خيالته تعاني من صعود السفح ، بل كانت تجري بشكل مواز له . ولم يعد خصمه مكونا من أنساق عنيدة عمقها اثنا عشر صفا ، بل كان مكونا من خط مبعثر يتراكض أفراده بشكل مقاطع لجبهته . وما كاد الدوق وليام ينهي هجومه ذاك حتى كان حوالي ثلث الجيش الانكليزي ممزقا .

ولم يكن الثلثان الآخران قد تحركا . فأمر وليام بشن هجوم شامل آخر دمر فيه المانع حتى آخره تقريباً . وغص الخندق الضحل بجثث الرجال والخيول . وقد أفلح الهجوم الثاني اكثر من الأول ، حيث قُتل فيه شقيقا الملك الانكليزي ، وتكبد الانكليز فيه خسائر فادحة . إلا أن الخط الطويل المكون من تروسهم وفؤوسهم كان لا يزال ملتصقاً بقمة التلة .

آنذاك ، أظهر وليام قيمة القدرة على الحركة التي يتميز بها الجنود الراكبون ، وقيمة القدرة على المناورة ، إذ أمر قسماً كبيراً من قيادته بأن تدور على نفسها ، مدعية الفرار . ومرة أخرى ظن الانكليز ان عدوهم قد انكسر . ومن جديد اندفعت كتلة كبيرة منهم خلف العدو ، متخلية عن خطها الدفاعي . ومن جديد أيضاً هاجم وليام جناحها ، وللمرة الثانية صارت خيالته تدهس الحراثين الانكليز المبعثرين .

أما قلب جيش الملك هارولد المكون من قواته الخاصة الأفضل تسليحاً وانضباطاً من الجنود الململمين من المقاطعات الانكليزية ،فكان لا يزال متمسكا بمواقعه . وظل بضع ساعات يقاتل في ظروف كان اليأس فيها يتزايد باضطراد . والتفت خيالة وليام حول الكتلة المتراصة التي استقر عليها التشكيل القتالي الانكليزي ، وشن وليام هجوما مركبا من الهجمات أرغمت الانكليز على التقوقع والانضغاط بفعل شآبيب السهام التي قلما كانت

تخطىء أهدافها . وبعد بضع ساعات من الضغط المتواصل ، امتلأت أنساق الانكليز بالجرحى الذين لم يكن بوسعهم شق طريقهم نحو المؤخرة بسبب صفوف رفاقهم المتراصة خلفهم . ولم يعد مع الانكليز ما يمكن قذفه من حراب وفؤوس . كما لم يعد لديهم سلاح يردون به على السهام اللاذعة . « وكانت هذه المعركة ذات أسلوب عجيب . . . » ، حسب رأي أحد المؤرخين ، « حيث كان أحد طرفيها يعمل بحركة مستمرة ، ويشن هجمات متلاحقة ، بينما لم يكن بوسع الطرف الاخر أكثر من أن يتحمل بسلبية ، وهو يقف مغروسا في التربة. كان السهم والسيف النورمانيان يعملان ويعملان . . . ولم يكن في الصفوف الانكليزية الا حركة الاجساد وهي تهوي بلا حراك . أما الاحياء فكانوا أيضا وقوفا بلا حراك . . .[٣٢] »

رغم هذا التنكيل الخالي من الرحمة ، ظل الانكليز صامدين حتى المساء . آنذاك ، وكآخر ما في الجعبة ، أمر وليام رماته بأن يطلقوا سهامهم نحو الاعلى ، في الجو ، وبحيث تسقط من علو على الانكليز ، الذين كان بعضهم حتما أوهى من أن يرفعوا تروسهم فوق رؤوسهم ، والبعض الاخر متلاصقين بشكل لا يمكنهم من ذلك . وأصاب أحد هذه السهام الملك هارولد بجرح مميت . وفي الهجمة الاخيرة ، اخترق النورمان الانكليز ، وتوغلوا فيما بينهم حتى بلغوا قواعد رايات الملك ودمروها .

لقد تحقق النصر في تلك المعركة . بيد أن الانكليز ، رغم ذلك الفوز ، انتقموا لانفسهم الى حد ما . اذ كان السفح الخلفي للتلة التي كانوا يتمركزون فيها شديد الانحدار . واستمر العديدون من فرسان وليام في مطاردتهم للفلول الانكليزية حتى دهمتهم الكارثة عند جدول صغير ذي ضفتين حادتين منخفضتين . وكان الوقت غسقا . فلم تستطع الخيل ، ولا من عليها من مدججين أن يتحكموا بأقدامهم . ولدى العودة ، ارتدت عليهم شراذم الانكليز ، وأمسكت بهم ، وقضت عليهم وهم في ذلك المكان الضيق ، يتخبطون في عددهم الثقيلة . وكاد هذا الهجوم المعاكس الشرس ، الذي حسب النورمان أنه آت حتما من تعزيزات انكليزية جديدة ، كاد يبث الذعر في صفوف المنتصرين . وقد حث واحد من كبار مساعدي وليام ، على التراجع من أمام هذه القوة المعادية الجديدة . غير أن الدوق وليام كان خيرا من أن يخيب الظن به ، فجمع خيالته

---

(٣٢) نقلها « وليام أوف بواتييه » عن « أومان » : « فن الحرب في العصور الوسيطة » .

المؤلف

وحركها باتجاه سفوح أكثر أمانا . أما الانكليز ، وقد قتل قادتهم كلهم تقريبا ، وقتل معهم أكثر من ثلثي الجيش ، فقد تسللوا عبر الاحراش .

هذه الخيالة المدرعة التي كسبت يوم هيستنغز ، والتي تسيدت الصراع المسلح في أوروبا وحتى زمن طويل أعقب تلك المعركة ، صار من النادر أن تستخدم بأسلوب معبر عن أهمية « استراتيجية » قدرتها على الحركة . ولم تعد مهمتها الالتفاف من حول الجيش المقابل لها وتطويق جناحه ، ولا أن تتحرك بسرعة نحو قسمه الضعيف ، وتكيل له ضربة قاصمة قبل أن يعزز ذلك القسم . ففي ذلك الوقت ، لم يأت في فن الحرب غير القليل عن « التثبيت والضرب » ، أو عن التغليف (الكماشة) . وكانت المهمة الرئيسة لفرسان العصور الوسطى أن يعملوا كقوات صدمة ، تخترق التجمع الرئيس للجيش المقابل وتدهسه .

في الوقت نفسه ، كانت الفروسية (Knighthood) تمتلك القدرة على المناورة التكتيكية . وكانت هذه القدرة أكبر من قدرة أي قوة من المشاة . وكان المثال عن قدرة الحركة تلك الهجمات من الدوق وليام على الاجنحة ، تلك الهجمات التي أطبقت على الجيش الانكليزي ودمرت أقسامه التي تخلت بلا روية عن معقلها .

وكان بعض القادة الاكثر تخلفا في تلك الفترة ، يستخدمون الخيالة الثقيلة ، وهي السلاح المهيمن ، وحدها ، أو بشكل يقرب من ذلك . وقد أصبح المستوى الأرفع للقيادة خلال النظام الاقطاعي هو ذاك الذي كان يستخدم الرماة ليقلق ويخلخل التجمع الرئيس للجيش المواجه ، ويستخدم المشاة للتمسك بالمواقع ، ولازالة العراقيل من قطع الارض الوعرة ، حيث لا يستطيع الفرسان التقدم بسهولة ، ولتهيئة الطرق من أجل اقتحام الفرسان ، ولتشكل لهم نقطة استناد متماسكة ان هم اخفقوا في هجومهم . . . أي الذي كان يستخدم هذه الاسلحة المعاونة بتنسيق ناجح مع الخيالة الثقيلة . وقد أظهر وليام الاول ، من خلال استفادته من رماته ، وبشكل خاص من خلال الرمي بزوايا عالية ضد هدف متراص ومتماسك ، أظهر ادراكا خارقا لاهمية التنسيق بين الاسلحة المعاونة والتشكيل الرئيس . وتاريخ حرب العهد الاقطاعي مشحون بحالات الفشل في تحقيق مثل ذلك التنسيق . وكان فرسان أوروبا الغربية يلاقون الهزيمة تلو الهزيمة أثناء الحروب الصليبية ، لان قادتهم كان يعتمدون على الرجال الراكبين دون غيرهم . ولكن كان هناك بضع حالات برهن فيها الجندي الراجل على أنه كان أكثر من معاون . . . بل كان مفيدا ، وقد يتعذر الاستغناء عنه . . . ولكنه لم يكن القوة الرئيسة في المعركة .

في المجتمع الاقطاعي ، وبشكله التقليدي ، كان المفروض أن تكون الارض كلها ، باستثناء ما تستولي عليه الكنيسة ، (وحتى بعض ما هو تابع للكنيسة) ، من ممتلكات الملك . وكان الملك يكتسب ، مقابل ما يمنحه من الارض ، حق الحصول على خدمات متنوعة الاشكال من المنعم عليهم ، بما في ذلك الخدمة العسكرية . وان تكن الاقطاعة كبيرة ، تكن الخدمة لا تلك المفروضة على الممنوح أو على فرد ما من تلك الاسرة فحسب بل تلك التي تتوجب أيضا على الوكلاء والمستأجرين الذين هم بدورهم ملزمون بحكم قانون الاقطاع ، وبحكم العادة ، أن يخدموا كجنود ، اما لفترة متعارف عليها ، واما حسب الطلب ، وأن يكونوا بأمرة سيدهم (الممنوح) .

لقد نشأ مجتمع الاقطاع عن الحاجة الى بعض الامان والسلطة والحماية ، خلال قرون الغارات والسلب التي اعقبت انهيار السلام الروماني . ولم يكن ليؤمن لاي مجتمع معرض لغارات الفايكنغ أو الفاندال Vandals سوى حماية طفيفة من امبراطور بعيد جدا . وكان حصن سيد المنطقة ، ذو الجدران القوية ، أفضل مأوى لمثل هذا المجتمع . وكانت سلطة السيد في انشاء قوة محلية هي أمله الوحيد في العمل المجدي ضد المغيرين . وكان من الطبيعي لمثل هذا المجتمع ، المؤسس وفق هذه المتطلبات ، أن يحشد معظم ما يتوافر له من أسلحة ودروع بين يدي السيد الذي أصبحت مهمته الاجتماعية أن يوفر حدا من الطمأنينة « لشعبه » .

وأول ما حرص عليه السيد أن يؤمن التجهيزات الكاملة لنفسه ، ولمن هم « تحت السلاح » من رجاله . ولم يكن هذا ضروريا من أجل الوقاية فحسب ، بل أيضا من أجل « حكم » المنطقة . كان السيد « محترفا » . وكانت رياضته أو حرفته هي الصراع المسلح . ونادرا ما كان الاناس الاخرون بحاجة الى الاسلحة ، باستثناء القلة التي كانت ترافقه الى المعركة . وهذا النظام الاجتماعي كان ملائما بشكل خاص لانتاج جيوش صغيرة نسبيا ، ومؤلفة من خيالة ذات دروع ثقيلة جدا . وظلت هذه « الفروسية » ، ولبعض الوقت ، محصنة بشكل يكاد يكون تاما ، ضد الاسلحة العادية التي كان يستخدمها الجنود المشاة .

تتكون الذكرى الخالدة لهذه الحضارة الاقطاعية من القلاع التي خلفتها . بيد أننا سنأتي على ذكر تطورات هذه القلاع ، وتطورات الالات التي كانت تستخدم ضدها ، في فصل لاحق .

ورغم أننا اتخذنا من غزو بريطانيا بوساطة تلك الخيالة المدرعة نموذجا يتناسب مع سردنا التاريخي ، فقد حققت تلك الخيالة توسعات أخرى أعظم شأنا . ففي الوقت الذي

كان فيه النورمان يكسبون لانفسهم اقطاعات ، Baronies في انكلترا ، كان فرسان الكاستيل (Castille) يستردون اسبانيا من المغاربة المسلمين . لقد ظل المغاربة والاتراك والايوبيون على أسلوب الحرب السابق والقديم . لقد ظلوا ، في المقام الاول ، خيالة ذات دروع خفيفة ، تقاتل بأسلحة مقذوفة . وهذا هو السبب الذي مكن فرسان أوروبا من تحرير اسبانيا ، وغزو أفريقيا وآسيا ابان الحروب الصليبية .

لكن الفترة المدرعة الثانية ، وكما هو الحال في الاولى ، حملت معها بذور دمارها الذاتي . وفيما ذكرناه عن معركة هيستنغز ، نوهنا بقيمة الرامي بالنسبة الى قوات الصدمة ، التي هي الخيالة . وكان تطور هذا السلاح المعاون هو الذي سدد الضربة القاضية الى الفارس ، سددها من خلال تغير كان هو أيضا نهاية النظام الاقطاعي ، وبداية العالم الحديث .

٤) الرماة المساعدون

« . . . هكذا سقط الفرسان في أول معركة فرنسية ، سقطوا مذبوحين ، يتلوون ألما ، ودون أن يتبينوا تماما الناس الذين ذبحوهم . . . »

بهذه الكلمات وصف أحد المؤرخين مصير الفرسان المدرعين على أيدي الرماة من انكلترا وويلز ، في معركة كريسي ، عام ١٣٤٦ ، التي نعتبرها نهاية فترتنا المدرعة الثانية . وها نحن نلج الزمن الذي صار يُقتل الرجال فيه على يد أولئك الذين لا يستطيعون رؤيتهم . انه العصر الحديث الذي يدور فيه القتال من مسافات بعيدة ، والذي يتضمن من العالم المعاصر قدراً كبيراً جداً ، بحيث انه يحتم ملء العديد من فصولنا .

عرف القوس والسهم منذ آلاف السنين . وقد ظهرا في أولى المعارك التي نكاد لا نعرف شيئاً عنها. ولقد سبق لنا أن أتينا على ذكر التغير الذي حول القوس من سلاح ثانوي الى سلاح رئيس في الصراع المسلح، الذي كان يجري خلال الفترة الثانية غير المدرعة. واستعاد القوس دوره كتسليح رئيس على أيدي الجيوش الآسيوية «القبلية» التي تمسكت بذلك الأسلوب الحربي غير المدرع، ولم تصل الى ما وصلت اليه الفروسية المدرعة في غربي أوروبا. ولكن القوس اختفى من أوروبا الغربية حقبة من

الزمن، لأنه كان بلا جدوى، الى حد ما، في مواجهة الدروع الجيدة. وقد ظهر القوس المتقاطع (Crossbow) كبديل عنه.

وكان رومان فترة الليجيونات يملكون سلاحا مشابها جدا للقوس المتقاطع ولكنهم لم يكونوا يعيرونه كبير أهمية . ويبدو أنهم خصوا به القوات الخفيفة والثانوية . ولربما يجدر بنا اعتباره اكثر اشكال « المدفعية » قدرة على الحركة ، المدفعية التي ظل الرومان يجهزون انفسهم بها حتى حوالي نهاية فترة الليجيونات . ويبدو أن نسيان القوس قد تم فيما بعد ، خلال العصور المظلمة .

أثناء الفترة الثانية غير المدرعة ، لم يكن القوس قيد الاستخدام في أوروبا الغربية وآسيا ، اذ كانت هذه الفترة هي للرامي / الخيال . وكان القوس المتقاطع أثقل وأكثر ارباكاً من أن تستعمله الخيالة.

خلال القرن العاشر أو الحادي عشر ، وفي مكان ما ، بعثت فكرة « الآلة اليدوية » الصغيرة التي يمكن أن تستخدم بوساطة « جندي راجل » واحد . وكان باستطاعتها أن تطلق مقذوفا أثقل وزنا ، لا يخلو من الفائدة في مواجهة الدروع . وربما كان هذا بالذات هو سبب ظهور تلك الآلة في ذلك الحين .

وكان القوس المتقاطع يتكون اساسا من ذراعين خشبيين قصيرين ، والأخمص مصنوع بشكل غشيم . وذراعا ذلك القوس أقوى بكثير من ذراعي القوس العادي . ولا يمكن للرجل الذي يشد الوتر أن يرجعها اكثر من بضع بوصات . ولتهيئة القوس المتقاطع لاطلاق المقذوف توضع نهاية الأخمص على الارض ، ثم يستخدم الرامي ثقله كله لكي يضغط الوتر نحو الاسفل حيث يثبت بشق خاص . ويثبت السهم في ثلم طولاني على الاخمص . ويطلق هذا القوس المتقاطع بشد خيط موجود في شق تثبيت الوتر ليندفع المقذوف على طول الثلم .

وفي أحد نماذج هذا القوس المتقاطع. ـ استخدم في وقت لاحق ـ وكان يسمى « القوس الدفعي » (Arbalest) ، صار الوتر أشد ، وقد تأمن ذلك بنوع بدائي من السقاطات ، ومعها مقبض لسحب الوتر نحو الخلف حتى أقصى نقطة ممكنة . وكان لا يزال من الضروري سند الاخمص بالارض لكي يضغط الرامي بثقله كله وهو يشد الوتر . لذا لم يكن الاطلاق بهذا القوس سريعا كالاطلاق بالقوس العادي .

كان القوس الدفعي احد الاسلحة الرئيسة لدى الصليبيين . وكان رتشارد قلب

الاسد مولعا به بشكل خاص ، وكان ينفق قسطا كبيرا من دخله على المرتزقة المهرة في استخدامه .

وتضاءلت أهمية القوس العادي ، الذي كان يتراوح طوله بين أربعة أقدام الى خمسة ، لدرجة أنه لم يدرج في العام ١١٨١ ضمن ما كان يسمى في انكلترا « تفقد الاسلحة » . . . (التفتيش على جميع المجندين من الاقطاعات للتأكد من أنهم يقتنون الاسلحة والمعدات التي كانت تعتبز ضرورية) . بيد أن سهاما من ويلز استطاعت في السنة التالية أن تخترق بابا من خشب البلوط سماكته أربع بوصات . واستطاع سهم ويلزي آخر أن يثقب طرف لأمة أحد الفرسان ، وكان هذا الطرف تحت الصفيحة المعدنية التي تستر فخذه ، ثم يخترق اللوح الخشبي الذي كان يشكل جزءا من السرج ، ويقف فيه مسمرا الفارس بالسرج على ظهر جواده . وقد أطلقت تلك السهام من أقواس طويلة مصنوعة من خشب الدردار ، حجمها حوالى ضعف حجم الاقواس العادية . والمؤرخ الانكليزي الذي نقل تلك الحرب الويلزية وصف هذه الاقواس بقوله : « أسلحة بشعة تبدو غير مكتملة الصنع ، ولكنها قاسية وكبيرة وقوية حتى درجة مدهشة . . . »

ظل الملوك الانكليز المحافظون ، طوال مئة سنة أخرى تلت ، ظلوا يعتقدون بأن القوس المتقاطع سلاح أفضل من القوس الطويل . وكانوا لا يستخدمون الرماة الويلزيين الا فيما ندر . . . غير أن المحتمل أن لم يكن لدى أولئك الرماة الويلزيين سبب خاص يدفعهم للقتال من أجل ملوك انكليز . وعلى هذا الاساس ، لم يكونوا جنودا موثوقين بما فيه الكفاية . ونحن نعرف من جداول الرواتب لاحدى القلاع الانكليزية في ويلز ، أن رامي القوس المتصالب كان يتقاضى عام ١٢٨١ أربعة بنسات يوميا ، بينما لم يكن رامي القوس الطويل يتقاضى سوى بنسين اثنين .

ولقد تعلم الانكليز استخدام القوس الطويل من خلال حملاتهم الطويلة المكثفة ضد زعماء الويلز المتوقدين . ولكنه لم يتحول الى سلاح مهم ـ الا فيما ندر ـ حتى بدأ ادوارد الاول ، أول ملك بلانتاجيني ، غزو اسكتلاندا . وكانت أول غزوة لذلك البلد عملية سهلة ، اذ لم يكن لدى الأسكتلنديين غير حفنة قليلة من الفرسان المدرعين الذين يمكن أن يتصدوا للجيش الانكليزي . وقد فضل بعض هؤلاء أن ينحازوا الى الجانب الانكليزي .

بعد ذلك بوقت قليل ، حدث تمرد شعبي بقيادة والاس ، الفارس المغمور ، الخارج على القانون ، القادم من مستنقعات غالووي (Galloway) . وقد استطاع هذا الفارس

أن ينتزع الاراضي لواطئة كلها من القائد الغبي ، ابن الثانية والستين من عمره ، الذي خلفه ادوارد ليضبط الامور في اسكتلندا .

وفي العام التالي ، تمكن الملك ادوارد ، في فولكيرك (Falkirk) من تدمير جيش والاس الذي كان كله تقريبا من المشاة ، بعد أن تخلى عنه نبلاؤه الخيالة ، قليلو العدد ، الذين لم يكونوا ، حتى في تلك الايام ، يحبون الانتفاضات الشعبية . ولم يعتمد ادوارد على فرسانه ، دون غيرهم ، في تدمير الحشود الاسكتلندية المسلحة بالقنا . فعندما صُدت أولى هجمات فرسانه ، قدم رماته ليصبوا سهامهم على الصفوف الاسكتلندية . ولم يكن بوسع هؤلاء أن يردوا ، ولم تجرؤ مشاتهم على الانتشار لكي تلاحق الرماة الانكليز . وبذلك ، تكررت المرحلة الاخيرة من معركة هيستنغز . وقد لاحظ أحد الفرسان الاسكتلنديين ، ويدعى « روبرت بروس » R. Bruce ، وكان مع الجانب الانكليزي في تلك المعركة ، لاحظ ضعف المشاة في مواجهة تشكيل مركب من الخيالة الثقيلة والرماة .

واستمرت الانتفاضة الاسكتلندية . وانضم اليها « بروس » ، وأصبح قائد اسكتلندا ومليكها . وبدأ حرب مغاورة . . . مصدر قوة الحركات الوطنية والشعبية عبر شتى العصور . وكان يشير على جنده بأن يقاتلوا بكل ما تقع عليه أيديهم ، في الاحراش ، لا حول القلاع ، وبالمباغتات الليلية وبالكمائن . وكان يقاتل بطريقة « الارض المحروقة » ، مشعلا المحاصيل ليجعل الجيوش الانكليزية تنفق جوعا ، وبالتدريج ، حرر بلاده كلها حتى لم يبق في يد الانكليز الا ثلاث مدن فقط .

مات ادوارد الاول . وفي العام ١٣١٤ ، توجه ابنه الغر نحو شمال البلاد ليتولى أمر بروس . والتقت الجيوش عند بانوكبيرن (Bannockburn) . وكان بروس قد اختار لقواته موقعا محميا بالاحراش والمستنقعات بشكل لم يبق معه سوى جبهة ضيقة معرضة لهجوم الانكليز . وكان يواجه تفوقا انكليزيا بنسبة تتراوح من ضعف الى ضعفين . وكان عليه أن يعتمد على المشاة لمواجهة خيالة الانكليز الثقيلة . بيد أن الانكليز تناسوا مجمل الدرس الذي تلقنوه في الحروب الويلزية والاسكتلندية . . . الدرس الذي ظهرت فيه قيمة القوس الطويل عندما يعمل بتنسيق مع القوات المعدة لتكتيكات الصدمة . وفيما سبق ، لم يضع ادوارد عناصر رماة في الثغرات ما بين تشكيلات الفرسان ، بل رتبهم في الخلف . وكان الفرسان الانكليز ، وهم في النسق الاول ، أغبى وأجرأ من أن ينسحبوا ويحاولوا شن هجمة جديدة ، بعد أن أخفقت هجمتهم الاولى ، ولم يعد بمقدورهم التقدم صعودا على سفح التلة ، وهم في مواجهة الحراب الاسكتلندية . والاكثر من ذلك ، انهم لم يفسحوا المجال لتقدم نسقهم الثاني . فقد اكتفوا بالتكتل أمام الحراب ، ومضوا في تخبطهم

العشوائي ، بينما ظل النسقان الثاني والثالث الانكليزيان عند أسفل المنحدر ، دون أن تسنح لهما فرصة الاشتراك في المعركة .

وبعد لأي ، تم تذكر الرماة المنسيين . ولكن بعد العجز عن تقريبهم من الاسكتلنديين ، بسبب كل تلك الكتلة التي دبت فيها الفوضى ، والمكونة من « سادة » محشورين في مكان ضيق ، أمام أولئك الاسكتلنديين . وصدر الامر للرماة باطلاق سهامهم نحو الاعلى في محاولة لاصابة الاسكتلنديين من فوق رؤ وس الفرسان الانكليز ، فأصابت السهام من ظهور الانكليز أكثر مما أصابت من صدور الاسكتلنديين . وكانت النتيجة أن فر الملك الانكليزي ، مصحوبا بفريق كبير من حرس الشرف . وكانت نسبة النبلاء الانكليز الذين تركوا أمواتا على ساحة بانوكبيرن ، أكبر من أي نسبة منهم قضي عليها في أي معركة جرت قبل بانوكبيرن أو بعدها .

من هذه الحرب التي دارت رحاها في اسكتلندا ، وخصوصا من الخسائر في معركة بانوكبيرن ، تعلم الجيش الانكليزي أن استخدام القوس الطويل بحكمة أمر جوهري في المعارك ، وأن من شأن ذلك أن يشكل عامل الحسم بين النصر والهزيمة . وكان تطبيق هذا الدرس في كريسي (Crecy) ، بعد اثنين وثلاثين عاما ، هو بداية القضاء على النظام الاقطاعي ، وعلى الفارس المدرع ، وعلى مجمل هذه الفترة من الحرب ، التي هي « الفترة المدرعة الثانية » .

كانت الحملة التي أدت الى معركة كريسي غارة نموذجية عن تلك التي كانت تُشن ابان العهد الاقطاعي ، ولم تكن تستهدف احتلالا نهائيا ، بقدر ما كانت تستهدف سلب المدن الفرنسية وتحقيق المغانم عن طريق أخذ النبلاء أسرى حرب ، أسرى جمعت في تلك الايام ثروات عديدة كبيرة من وراء فدياتهم . والغارة التي قادها ادوارد الثالث كادت تصل الى أسوار باريس ، لولا أن راهن آنذاك على تراجع متسرع أمام جيش أكبر بكثير من جيشه ، كان الملك الفرنسي قد حشده لمواجهته . وقد عمل اجتياز نهر السوم (Somme) على تأخير ادوارد مدة كانت كافية لمجندي الاقطاع الفرنسيين البطيئي الحركة ، من أجل ادراك ادوارد بمجرد عبوره النهر . وكان التفوق على ادوارد لا يقل عن نسبة ثلاثة الى واحد . ولكنه اختار موقعا دفاعيا قويا على أرض ذات انحدار بسيط ، حيث تمكن رماته من استخدام أسلحتهم أفضل استخدام .

وكان جيش ادوارد ، من حيث كونه جيشا اقطاعيا ، ضعيفا جدا بالفرسان المدرعين ، وقويا جدا بالرماة . ولربما كان معه أقل من أربعة آلاف رجل مدرع مقابل اثني

عشر الفا أو أكثر من الفرنسيين . لكن رماته كانوا أكثر من أحد عشر ألفا ، بالاضافة الى خمسة آلاف من المشاة الويلزيين الذين كان من بينهم ، بلا شك ، بعض الرماة ، وكانوا يواجهون ستة آلاف من الفرنسيين المأجورين المسلحين بأقواس متقاطعة ، بالاضافة الى كتلة متدافعة من المشاة الفرنسيين المسلحين بأسلحة بدائية ، لم يكن بينهم الا حفنة من النبالين .

انتظم الرماة الانكليز في تشكيل كانوا قد تعلموه من الحروب الاسكتلندية والويلزية . . . تشكيل ترتيبه كلوحة الشطرنج ، كثيرا ما يقارنه مؤرخو تلك الاحداث بالطريقة التي تنتظم فيها أسنان المسحاة . وكان تشكيلا مفتوحا نسبيا ، بحيث يتوافر لكل جندي حقل للرؤية ، ولاطلاق سهامه من خلال الثغرات التي تفصله عمن يجانبه أو يتقدمه .

ويبدو أن العديدين من الرماة كان يرافقهم مساعدون لخدمتهم ، مساعدون يحملون المعدات أثناء المسير ، ويزودونهم بكميات كبيرة من احتياطي السهام اثناء سير المعركة . وكان الرماة ومساعدوهم ، وهم ينتظرون الفرنسيين ، يحفرون امامهم حفرا صغيرة عمق كل منها قدم واحد ، ومساحتها قدم مربع واحد ، على أمل أن تتعثر بها حوافر خيول الفرسان الانكليز عندما يهاجمونهم .

ولم يكن هؤلاء الرماة يُنشرون على عرض جبهة الموقع كله ، بل يُكثفون على كل جناح بشكل تميل فيهخطوطهم نحو الامام قليلا بحيث تتقعر جبهتهم نحو الداخل . وفي الوقت نفسه ، كان هناك أيضا مجموعة قوية من الرماة تتموقع فيما بين كتلتي « المعركة » الرئيسة المكونتين من الجند المدججين الذين كانوا يشكلون خط الجبهة الانكليزية ، وخلفهم احتياطي الملك الراكب .

وعندما تلقى الملك الفرنسي انباء ظهور الجيش الانكليزي ، كانت قواته منتشرة في مواقعها القتالية ، وبجبهةعمقها، من المقدمة حتى المؤخرة عشرة أميال ، أو اثنا عشر ميلا . وحاول أن يوقف القوات المتقدمة . لكن النبلاء الاقطاعيين كانوا لا يملكون أية فكرة عن الانضباط . . « لم يرغب أي منهم في النكوص ، لان كلا منهم كان يتمنى أن يكون السباق في الميدان . كانت المقدمة قد توقفت ، لكن الذين خلفها تابعوا حث خيولهم على التقدم ، مرددين ضمنا انهم يرغبون في الوصول حتى الجبهة ، كما فعل زملاؤ هم . وكان ذلك بلا نظام أو ترتيب ، بل لمجرد العنجهية والغيرة . وعندما رأت الاجنحة اندفاع الاخرين ، لم يطب لها أن تُترك في الخلف ، فزحفت هي أيضا الى الامام دونما نظام أو ترتيب ، الى أن

أصبحت على مرأى من الانكليز . . . » هكذا كان وصف « فرواسارت » (Froissart) لبداية المعركة .

كان برفقة الملك الفرنسي ، ملك بوهيميا الاعمى ، وابنه شارلز ، الذي كان يسمي نفسه « ملك الرومان » . وكان هناك أيضا ملك ماجوركا (Majorca) المتوحش ، وحشد من « الرجال العظام » ، الذين لم يسبق لهم أن تلقوا أي أوامر طوال حياتهم . وكان مظهر النظام والانضباط الوحيد في الجيش الفرنسي ممثلا برماة الاقواس المتصالبة الجنويين ، الذين كان عددهم ستة آلاف رام . وقد تحرك هؤلاء المرتزقة نحو المقدمة ، وسووا صفوفهم ، وبدأوا المعركة برشقة من سهام قصرت عن أهدافها . وبما انهم كانوا يطلقون مقذوفات ثقيلة تماما بعكس انحدار التلة ، فقد أخطأوا في تقدير المسافة .

ورد الانكليز بأقواسهم الطويلة ، فكانت أسلحتهم أدق وأشد تأثيرا من أقواس القرون الماضية . ورغم انها كانت تقذف سهاما أخف بقليل من سهام الاقواس المتقاطعة ، كان معدل رميها لا يقل عن ثلاثة أضعاف معدل الاقواس القديمة . وكانت تماثلها في قوة اصابتها ان لم تكن أقوى ، نظرا لانها ذات « سرعة ابتدائية » أكبر . وبدا الامر وكأن عاصفة ثلجية تضرب الجنويين ، عندما كانت السهام تخترق المعاطف الجلدية والخوذات المعدنية التي كان يرتديها رماة الاقواس المتقاطعة .

لم يكن الحرف الصغير الذي كان يقف عليه الانكليز ، يزيد في علوة عن مئة وخمسين قدما فوق الوادي الضحل الذي كان أمامهم . ولكن الارض منحنية بشكل ملائم تماما للاسلحة المقذوفة . ومعظم الارض ، بالنسبة الى الراصد من الموقع الانكليزي ، يبدأ بسفح يميل قليلا نحو الاعلى ، ثم يأخذ هذا الميل بالتصاعد التدريجي ، ثم تعود الارض فتنبسط . والمقذوف ، أو السهم ، الذي يطير بانحدار متزايد في الوقت الذي تتناقص فيه سرعته ، من شأنه أن يوازي السطح العلوي للسفح ، على ارتفاع ثابت فوق سطح الارض ، حتى يصل الى المساحة المنبسطة . . . أي أن الرماة كانوا يستخدمون « النيران السافة » .

أخذ الانكليز ، ومن خلف الصخور المطلة على الوادي ، يمطرون المرتزقة الجنوبيين بزخّات متزايدة من مقذوفاتهم ، في الوقت الذي يكون فيه المرتزقة منهمكين بعملية حني أقواسهم المتقاطعة وتهيئة أوتارها . ودبت الفوضى بين الجنويين ، تلك الفوضى التي أطارت صواب الفرسان الفرنسيين المتربصين خلف رماتهم ، مما حدا بهم الى محاولة استعادة المبادأة ، بعد هذا التوقف الاول ، بهجمة فورية ، داسوا فيها قسما لا بأس به من مرتزقتهم . ونجح

البعض من هؤلاء الخيالة المدرعين بالوصول الى ميمنة الانكليز . الا أن تأثير رشقات السهام كان من الشدة على أعدادهم بحيث لم تسفر هجمتهم الا عما يكاد لا يذكر ، فيما عدا اسقاط أمير ويلز الشاب عن حصانه . وتخلخلت جميع الصفوف الامامية للخيالة الفرنسية: فسقطتْ الخيول أو جفلت فرمت مَن عليها مِن خيالة. وكان العديدون من الفرسان المدرعين مطروحين على الأرض بلا حول ولا قوة.

لم تدرك الخيالة الفرنسية أن الرماة الانكليز كسبوا المعركة . فشنوا الهجمة تلو الهجمة ، كما لو أن مجرد أوزان الجياد والجنود كافية لاحراز قصب السبق ، رغم الفوضى ، ورغم استمرار السهام القاتلة المنصبة من الاقواس الطويلة . وكل هجمة كانت تُشن ، كانت تلقى دفاع المقذوفات ، فتنكسر ، مكثرة كتل الموتى والرواحل المجنونة ، ومكثرة المطروحين من الجنود والفرسان .

ووصلت احدى الهجمات الى طرف التشكيل الانكليزي ، حيث اصطدمت بحاجز من العربات ، ولم تفلح في اختراقه . وأخيرا ، قاد الملك الفرنسي بنفسه كتلة كبيرة من جيشه باتجاه كبد القوات الانكليزية . ولكن لم يستطع هو ، ولا أي من أتباعه ، أن يقحم حصانه عبر وابل النيران المنهمر من المشاة الانكليزية . وظل الرماة ثابتين في مواقعهم حتى اطباق الظلام ، دون أن ينقطع تزويدهم بالذخائر ، والتعويض عن خسائرهم القليلة .

وولى الباقون من الفرسان الفرنسيين الادبار . وزحفت الصفوف الانكليزية لجمع الغنائم ، وليتفحصوا وجوه الموتى . وليلة السبت الواقع في السادس والعشرين من شهر آب عام ١٣٤٦ ، انتهت معركة « كريسي » ، بعد أن سقط ألف وخمسمائة فارس فرنسي .

هذا النصر في كريسي ، ونصر آخر لاحق أُحرز في بواكتيه (Poictiers) ، جعلا صيت الانكليز القتالي يعم القارة الاوروبية . وفيما سبق ، كان القادة العسكريون في تلك القارة ، يقللون من قيمة الانكليز من حيث كونهم جنودا ضعفاء . وفي هذا المجال يقول بترارك الايطالي : « أيام شبابي ، كان سكان الجزر البريطانية ، الذين يسمون بالانكليز أو بالانجلز ، يحسبون أجبن الامم المتخلفة (البربرية) . أما الان فهم أشبه ما يكونون بالامم المحاربة . وتمكنت انكلترا من هدم أبهة فرنسا العسكرية من خلال انتصارات، كثرتها وتحقيقها غير المتوقع جعلا أولئك الذين كانوا ، وحتى عهد قريب ، متخلفين عن الاسكتلنديين البائسين ، جعلاهم يقلبون الامور بقوة احتمالهم ، واحتمال المملكة كلها ،

حتى انني ، أنا ، الذي طفت البلاد من خلال عملي ، كان من الصعب علي أن أقنع نفسي بأن هذا هو البلد نفسه الذي سبق ورأيته من قبل . . .[٣٣] »

ويبدو الامر لنا كما لو أن الفترة المدرعة الثانية قد هلت ، لان إفرنج عصر شارلمان كانوا لا يزالون بعيدين عما كان يسمى آنذاك مركز الحضارة ـ بيزنطة وما يحيط بها ، بالاضافة الى امبراطورية أتباع محمد ـ . . . وأصبح هؤلاء الفرنج ، المعزولون الى حد ما في طرف أوروبا الخاص بهم، أصبحوا أول دولة قومية حديثة، موحدين بين الصفات التي تعلموها من خلال الاحتلال الروماني الطويل وبين صفات «البرابرة» الذين هزموا روما. ولربما كانت الفترة المدرعة الثانية قد انتهت بالطريقة ذاتها، لأن الويلزيين والاسكتلنديين، وهم أكثر عزلة وراء بحرهم الضيق، قد تعلموا سراً، أو علانية، لعبة خاصة بهم، جعلت القوس أفضل بكثير جداً مما كان عليه سابقاً.

وكان افضل الرماة / الخيالة البيزنطيين تدريباً قد تعلموا أن يشد وتر القوس حتى الاذن ، وليس حتى الصدر أو الكتف . فعندما يشد الوتر حتى الأذن ، تستطيع العين أن تسدد بوساطة جسم السهم . وهذا مع ما تعلمه الايوبيون أيضاً . غير أن أقواس الرماة / الخيالة قصيرة . وعندما أصبح الدرع من القوة بحيث يستطيع مقاومة معظم أنواع السهام، قل اعتبار الرماة، ومن ثم خيم النسيان على هذه الطريقة في التسديد. والخيال لا يستطيع حمل قوس طويل ، كما لا يستطيع أن يستغل قوته بسهولة كي يشد القوس وهو على ظهر حصانه .

واكتشف الويلزيون والانكليز من جديد سر التسديد الدقيق . وكانوا يستخدمون أثقل أنواع الاقواس الطويلة المعروفة آنذاك . وقد ظلوا يتدربون عليها حتى تمكنوا من أن يوجهوا سهامهم بدقة على أقل الاجزاء تصفيحا في أهدافهم . وغالبا ما كانت سهامهم قادرة على اختراق الدروع العادية ، لا بسبب « السرعة الابتدائية » العالية التي تميز بها مقذوفهم فحسب ، بل أيضا لان الدرع أصبح « مشذبا » أكثر من اللازم . فقد أخذ يتكامل بشكل تدريجي ، حتى صار يغطي الخيال كله ، ويغطي جزءا كبيرا من حصانه . لكن هذا التكامل أتى على حساب تخفيف مادة الدرع . فللحصان حد فيما يستطيع حمله ، فاذا اتسعت مساحة الدرع لتغطي جسد الراكب وجزءا من جسد المطية ، فلا بد من أن

---

(٣٣) « فيلد » في كتاب « العصور القديمة تحت السلاح » .

يصبح الدرع أرق . وصارت الدروع الحلقية رهيفة . واستبدلت مساحة كبيرة من درع الفارس بالصفائح المعدنية ، لكن ما بين هذه ثغرات قد تكون خطرة ، رغم انها قد تكون ، بحد ذاتها ، أقوى من الدروع الحلقية .

صار الرماة الانكليز يسجلون المزيد من الاصابات ، وخصوصا في خيول القوات المعادية ، رغم حقيقة أن هذه الحيوانات صارت محمية أكثر من ذي قبل . ورغم قلة المعلومات الصحيحة التي نملكها ، يبدو من المحتمل أن الخيالة الثقيلة التي هزمها أولئك الرماة كانت محملة بدروع لم تمكنها من الجري بسرعة تزيد عن الخبب . ولم يعد بوسعها شن الهجوم عدوا ، كما كانت تفعل الخيالة الثقيلة في الازمنة الغابرة . ولئن يكن هذا الامر غير مؤكد ، فان الواضح تماما أن الدرع أصبح من الثقل بحيث أن كل فارس يسقط عن حصانه يصبح غير نافع للمضي في القتال .

وقد يصبح أي فارس يسقط منبطحا على ظهره غير قادر على النهوض من جديد ، بسبب ثقل عدته وتصلبها . والفارس المتحول الى شيء « مدروز » بالمعدن قابل لان يصطدم بالارض بعنف يفقد معه « وعيه » حتى حين . وغضاضة مظهر الفارس المتكربس من ظهر حصانه ، المثيرة للشفقة ، والمشابهة جدا لغضاضة مشهد حيوان بحري مكردس ، تبدت في لقاء تال مهم جرى بعد كريسي . . . انه لقاء بواكتيه (١٣٥٦)

في هذه المعركة ، توجه الفرسان الفرنسيون كلهم تقريبا نحو ميدان القتال . لكنهم فيما بعد ، ترجلوا ، وحاولوا الفرار على أقدامهم . وبما أنهم كانوا يتقدمون ، سيرا على الاقدام ، وببطء شديد ، كانت كل فرقة من جيشهم تدخل المعركة وحدها ، بعد أن تكون الهزيمة قد حلت بسابقتها . ويبدو أن العديد من أولئك الفرسان كانوا جد منهكين جسديا من المشي قبل أن يسددوا أية ضربة .

وفي معركة « أوري » Auray (١٣٦٤) ، الاصغر حجما ، ترجل كلا الطرفين . وكان الطرف الفائز هو ذاك الذي كان يحتفظ باحتياطي بسيط ، مؤلف من مئتي راكب شاكي السلاح . وهؤلاء ، على ما يبدو ، كانو على ظهور خيولهم وهم يتقربون تكتيكيا من ساحة المعركة ، ثم ترجلوا لخوض القتال ويقول « أومان » في هذه المعركة : ان « كالفرلي » (Calverly) ، قائد هذه القوة الاحتياطية ، أوعز لجنوده « بخلع كاسيات أفخاذهم (Cuissarts) ، ليتمكنوا من التحرك بسهولة أكثر . . . » وهذا دليل على أن التدريع الكامل للفارس قد أصبح حينئذ من الثقل بحيث يجعل التحركات كلها صعبة ، بعد أن يكون لابس الدرع قد أنهك من طول القتال . ولولا هذه المبادرة لما تسنت لهذه القوة

الاحتياطية القدرة على الحركة ، بحيث أمكن استخدامها في كل موقع من مواقع التشكيل ، ذلك انها كانت معرضة بشكل متواصل لخطر احتمال اجتياحها .

وبهذه الصدامات ، لم يعد الرجل راكب الحصان هو سيد الصراع المسلح . وفي الوقت الذي كان ينهزم فيه أمام القوس الطويل ، صار يتوجه نحو سلاح جديد في سويسرا ، حيث كان مواطنو المقاطعات المستقلة يشكلون اتحاداتهم وولاياتهم (كانتونات) من خلال نضالهم لتحرير أنفسهم من نير نبلاء الاقطاع الجرمان . وقد خاض هؤلاء معارك متعددة ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ضد الامبراطورية الجرمانية وضد البورغانديين . وكان المقاتلون السويسريون من رعاة البقر وسكان المدن البسطاء ، أو كانوا ، حسب الرأي الفظ الذي أصر عليه الامبراطور مكسيميليان ، « اناسا فلاحين سيئين ، خشنين وذوي أحوال مزرية . . . » ولكنهم برهنوا ، على الرغم من هذه المثالب الاجتماعية ، على أنهم من أشد مقاتلي أوروبا مراسا .

بعد أن وجد السويسريون أن رماحهم كانت ذات فائدة محدودة في مواجهة رماح الفرسان الاثقل وزنا ، استطاعوا ابتكار سلاح جديد ، هو المِطْرَد (halberd) . وكان هذا السلاح مزيجا من الفأس والحربة ، له رأس مدبب حاد لتوجيه الطعنات الى الفوارس ، وفأس ثقيل للطرق على خوذة رأسه ، وخطاف معقوف ينتره به عن راحلته . وكان هذا الهالبيرد أول سلاح خاص بالديموقراطية . فقد امن للولايات السويسرية استقلالها ، وأعطى الشعب السويسري تقليده ، الذي لا يزال ساري المفعول ، والذي منح بموجبه الحق لكل سويسري بأن يحتفظ بسلاحه الخاص في بيته . وأصبح الهالبيرد هو السلاح الذي يحمله الحرس الملكي في شتى أنحاء أوروبا الغربية ، لانه كان السلاح الذي ساعد على تدمير سلطة نبلاء الاقطاع ، وساعد بالتالي على جعل السلطة الملكية سلطة حقيقية .

رغم أن قادة الانكليز والسويسريين كانوا في تلك الفترة من النبلاء ، فان العلاقة بين الجنود وقادتهم لم تكن ولاء اقطاعيا كليا . وكانت في معظم الحالات أقرب الى العلاقات الحديثة : أي علاقة « الفلوس » . وصار مجندو القطاعات ينقرضون بتزايد مضطرد أمام الرماة وحملة الهالبيرد ، الذين كانوا جنودا محترفين مأجورين ، يقاتلون من أجل الاجر ، وينظرون بازورار الى مفهوم عفا عليه الزمن ، ولا يزال يقضي بأن يستثمر المجد أسيادهم وحسب .

ثم ظهر البارود ليكمل عملية اعادة تكوين أساليب الحرب ، ولينهي بالتدريج

استخدام الدروع . وقد اكتشفت أوروبا استخدام البارود في القرن الثالث عشر ، بوساطة « روجر بيكون (R. Bacon) ، حسب زعم البعض ، وظهرت أول « بندقية » أو « سلاح يدوي » في القرن الخامس عشر . وعمل البارود الذي استخدم في الاسلحة الكبيرة على نسف أسس ذلك المعقل الاقطاعي ، الذي هو القلعة . ولم يعد بالامكان اخراج الفارس من المعركة بوساطة بندقية أو كرة مدفع فحسب ، بل أصبح السيد الاقطاعي واناسه معرضين للخطر وهم خلف حصونهم . صار البارود أداة تسوية . فقد أصبح ساكن المدينة ، والتاجر ، والحرفي أو المتدرب والفلاح والجندي المحترف متساوين في المعركة مع السيد الاقطاعي . وصارت أيام الفروسية تولي بسرعة ، وكثيرون هم الذين كانوا من بين الفرسان الذين صاروا يتوقون الى أيام دون كيشوت :

« . . . مباركة تلك الازمنة السعيدة التي كانت تجهل الغضب المرعب لهذه الالات الشيطانية ، التي هي المذفعية . اني على يقين من أن مخترعها يرقد الان في جهنم ، لينال جزاءه على هذا الابتكار الملعون ، الذي غالبا ما يكون السبب في أن يدا حقيرة جبانة تنتزع حياة أشجع السادة ، وفي أن رصاصة طائشة ـ ربما كان قد أطلقها فار ، وهو خائف من الومضة نفسها التي صدرت عن تلك القطعة المؤذية التي انطلقت صدفة ـ آتية ، ولا أحد يدري كيف أو من أين ، لتضع حدا لحياة امرىء وتطلعاته الشجاعة ، امرىء كان يستحق أن يعيش أعواما كثيرة لاحقة . ويحدث هذا في خضم الحماسة والتصميم اللذين يبعثان الحيوية في الجسورين ويلهبان عزائمهم . ومن خلال هذا الاعتبار ، بوسعي القول بأن الاسى يحز في قلبي لاني ارتضيت لنفسي مهنة « تابع الفارس » هذه ، في زمن حقير كهذا . اذ رغم أن الخوف لا يعتريني ، فان ما يؤثر على تفكيري هو ما اذا كان البارود والرصاص لن يحرماني من فرصة احصول على الشهرة ، ومن أن أصبح معروفا عبر العالم كله بقوة ساعدي وبفضل سيفي . . . »(٣٤)

عداء الفئة الحاكمة لانواع الاسلحة كلها دام طويلا . وفي الوقت الذي صار يغير فيه البارود سيماء الصراع المسلح كله ، خطوة فخطوة ، كان سراة القوم والمحافظون العنيدون في تلك الايام يخوضون معاركهم الخاسرة بشكيمة جديرة بنتائج أفضل . وكان هؤلاء ، مثلهم مثل معظم الذين يحتقرون التجديد ، يعتقدون ـ أو متأثرين بما يجعلهم يعتقدون ـ بأن المجددين كانوا بلا أخلاق ، أو كفرة . وحتى في العام ١٦٧٦ ، استهل أحد

(٣٤) عن « أومان » المرجع السابق .

الكتاب الانكليز موعظته الطويلة «أضواء على فن المدفعية»، على الشكل التالي: «السبب الوحيد الذي من أجله جعلت أول حديث لي يتناول المدفعيين هو أنه كثيرا ما يحدث أن يكون معظم المعنيين كمدفعيين غير هيابين من خشية الله ..»

كان يجدر بي أن أكره المجازفة بالتخمين فيما يتعلق بصحة هذه العبارة . ولكن من الواضح صحة أن المدفعيين ظلوا يحسبون ، من خلال أجيال وأجيال من الرجال المقاتلين ، اناسا فظيعين بشكل متميز ، ولا يستبعد أن يكونوا متحالفين مع الشيطان . وكان صحيحا أيضا أن الجنود المدرعين المقاتلين حاولوا بكل طريقة ممكنة أن يخضعوهم أو يأخذوهم بالخدعة . وظل الناس متعلقين بدروعهم طوال قرون أعقبت فقدانها لقيمتها القتالية . ففي العام ١٨٠٧ ، استخدم قيصر عموم روسيا ، في بولندا ، ١٥٠٠ من جنود الباشكير (Bashkirs)(٣٥) ، المرتدين الدروع الحلقية ، والمسلحين بالاقواس والسهام ، ضد جيوش نابليون . وكانت عديمة الجدوى في القتال ، تماما كما هو حال رماح نائب الملك ، هذه الايام ، في الهند .

كان من بين الجنود الدمى ، التي كنت ألعب بها وأنا طفل ، خيال متكبر متعجرف الى حد بعيد ينتمي إلى «حرس الحياة». وكان حرس الحياة، وكذلك أعداؤهم الطبيعيون ، أي الفرسان الفرنسيون المدرعون (Cuirassiers) يرتدون صدريات فولاذية . وكانت أمنية طفولتي المثيرة أن أرى الحياة تُبعث في هذه الدمى ، وتصبح كبيرة جدا ، وذات جلبة مؤثرة ، وتنحدر من قصر باكنغهام قبل نشوب الحرب العالمية الاولى . ولكنها كانت مجرد دمى . فعندما رأيتها عام ١٩١٢ ، كانت الفترة العظيمة للجندي المدرع ، الراكب حصانه ، بعيدة مسافة خمس مئة سنة . وكان آخر فرسان أوروبا المدرعين قد هاجموا الاتراك قبل ثلاث مئة سنة .

---

(٣٥) نسبة الى «بشكيرية» Bachkirie ، احدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، الواقعة في جنوب جبال الاورال ، شمالي بحر قزوين .

المعرب

٥) القلعة والبارود

أحد الاشياء التي أجلناها عمدا ، في هذا الكتاب ، حتى هذا الفصل ، هو التحصين . فكثيرا ما كانت حالات الحصار ، طوال تاريخ الصراع المسلح ، من بين أهم أنماط المعارك الحربية . وكثيرا ما كانت هذه الحالات حاسمة . أما وقد وصلنا في هذا التاريخ الى بدايات عهد البارود ، فمن المفيد أن نعود عبر الفترات الماضية ، ونلاحظ بعض المتوازيات ، في تطور فن الحصار ، مع التوجهات التي وصفت آنفا .

بدأ ظهور المدينة المسورة والمحمية مذ بدأ ظهور المدن ذاتها ولربما كانت بداية نمو المدن ، في الحقيقة ، ناشئة عن الحاجة الى الدفاع بقدر ما هي ناشئة عن متطلبات اجتماعية أخرى . وكان يبدو من المحتمل ، خلال الفترة الاولى غير المدرعة ، أن المدينة ، أو البلدة الصغيرة المسورة ، هي مجرد حصن عادي ، ولم يكن هناك سوى القليل من التحصينات الدائمة . فالاغريق ، وهم يحاصرون طروادة ، بنوا حواجز من نوع ما لحماية سفنهم وحماية المعسكر الذي أقاموه موازيا لطروادة . ولكن هذه « التحصينات الميدانية » كانت نادرة . ولم تكن تُنشأ عادة الا في حالات الحصار .

في هذه الفترة ، كان اقتحام التحصينات دائما صعباً . وكانت العادة أن يؤخذ الحصن بالحيلة ـ مثل حصان طروادة ـ أو بالاندفاع المباشر نحو البوابة ، أو نحو الاسوار .

ولا بد أن تكون كباش[٣٦] التحطيم قد استخدمت في تاريخ مبكر ، وكانت تستخدم عادة لتحطيم البوابات . بيد أننا بقينا نجهل تماما « الآلات » الاخرى ، حتى دخلنا في الفترة المدرعة الاولى .

لقد سمح الدرع للقوة المهاجمة بأن تزيد تقربها من المدافعين . وطبيعي أن كان المدافعون محتمين بالاسوار . وكان الدرع يؤمن للمهاجمين حماية مشابهة ، ولو أنها أقل . والتطور الاول الذي يترتب علينا أن نلاحظه ، خلال فترة الجندي الراجل المدرع ، هو التروس المتراصة التي كانت تغطي مجموعة الرجال الذين كانوا يتقربون من السور أو البوابة تحت هذا الساتر . وسرعان ما تحول هذا الساتر الى « الغطاء المتحرك » أو « ظهر السلحفاة » ، أي التشكيل العسكري النظامي المُتخذ لتنفيذ المهمة . وكانت هذه التروس تبدو في تلاصقها كأغلفة السلاحف . وفي وقت متأخر جدا ، صارت الغاية نفسها تُرتجى عن طريق سقيفة ، أو كوخ متحرك ، كان في الغالب يصنع من جلود الحيوانات ، ثم صار يُصنع فيما بعد من عوارض خشبية ، وصفائح آجر تطلى بالطين . وكان هذا يستخدم كسقف واق يستر القوى المهاجمة من السهام والسوائل الحارقة والحجارة الثقيلة التي تنهمر عليها من فوق الاسوار .

كانت القوى المهاجمة ، محمية بتروسها ، أو بأية استرة مماثلة ، تأتي بكبشها الذي كان يُحمل ويُؤرجح بأيدي الجنود وحسب . وكان يكفي أن يُؤتى بأكبر شجرة في الريف أو قرب المدينة . وفي وقت لاحق ، وُجد أن فاعلية أكبر تتحقق من خلال سند ثقل الكبش على دعامتين عاموديتين ، وحبال أو سلاسل تربط فيهما ، الامر الذي يقلل من عدد الرجال اللازمين لارجحة الكبش ، ويمزيد من التأثير .

وبالاضافة الى الكباش ، كان هناك « محركات » أخرى سنصف بعضها فيما بعد . وكان من الصعب نقل تلك المحركات . وغالبا ما كان بناء هذه المحركات في أماكن توضعها للدفاع عن المدينة أهون من بنائها في أماكن أخرى بقصد مهاجمة المدينة . ولقد سبق لنا أن أتينا على ذكر تطوير هذه الالات الذي تم حوالي العام ٣٠٠ ق . م . ، وعلى ذكر استخدام بعضها ـ كمدفعية ميدان ـ من قبل الاسكندر الكبير . وبينما كانت الفترة

---

(٣٦) الكباش Rams ، دعامات خشبية قوية تدق بها أبواب الحصون حتى تتحطم . وقد تكون كتلا قوية تركب في مقدمة السفن لتحطيم السفن المعادية عندما تصطدم بها :

المعرب

المدرعة تتحول من التوحد البسيط للجيش المتجانس باتجاه المزيد من التركيب والالحاق ، كان هناك تزايد ملحوظ في أعداد هذه الالات وأهميتها . ففي العام ١٤٩ ق . م . ، حين استسلمت قرطاجة ، زعم الرومان أنهم استولوا على ألفي منجنيق كانت تخص الجيش القرطاجي . وهذه نسبة مدفعية عالية جدا في القوات . ولمجرد المقارنة نذكر أنه كان مع جيش ولنغتون في ووترلو مدفع واحد لكل أكثر من أربع مئة جندي .

ولربما كانت قرطاجة تملك هذه الكمية الكبيرة من المدفعية ، لانها كانت امبراطورية تجارة ومقايضات ومهن وآلات . . . والالات هي الثمرة الطبيعية للحرف والمهن ، وهي المنتوجات على مستوى واسع من أجل التجارة والمقايضة . وسرقوزة ، قبل قرطاجة ، كانت هي أيضا مدينة تجارية كبيرة . ويبدو أن المدفعية كانت قد بدأت تحتل مكانتها الهامة في سرقوزة نفسها . وفي الوقت الذي دمر فيه الرومان قرطاجة ، كانوا ، على ما يبدو ، لا يملكون غير القليل من المدفعية . ولكن عندما احتلت روما مكانة منافستها كمركز للتجارة العالمية ، والمحتكرة لمعظم منتوجاتها المتقدمة ، بدأ الرومان بتوزيع المزيد فالمزيد من « الالات » على عساكرهم . وبعد سقوط قرطاجة بحوالى مئتي عام ، صار يتألف التجهيز الكامل لكل ليجيون تعداده ستة آلاف مقاتل ، من عشر قطع منجنيق ، وستين قطعة كاروباليستا « Carrobalista » . (وهذه مدافع صغيرة مركبة على عجلات ، وكان الليجيون يصطحبها معه حيثما كانت تستطيع عجلاتها أن تتحرك) . ومن جهة اخرى كانت المجانق هي الآلات الأثقل . وكانت تستخدم عادة في الدفاع عن الحصون ومهاجمتها .

كانت أولى التحصينات المحمولة ، ذات الاهمية في الصراع المسلح ، هي الاوتاد التي كان يحملها الليجيون الروماني . وكل ليجيون في المسير كان يحمل وتدا خشبيا قاسيا وطويلا . وعند التعسكر ، كانت الليجيونات تغرس أوتادها في الارض لتجعل منها سياجاً أو حائطا . كما كانت (ان سمحت الظروف) تحفر خندقا عميقا محيطا بهذا السياج من الخارج .

وكان المعسكر الروماني المخندق جزءا محددا من تكتيكات الرومان . وكان سور المعسكر يشكل قاعدة آمنة تستطيع القوة الرومانية كلها أن تستريح فيها ، وتستطيع أن ترسل منها المفارز ذات المهام الخاصة ، وفيها تتخذ تشكيل المعركة ككل . وغالبا ما كان عمق الخنادق المحيطة خمسة عشر قدما ، وعرضها عشرين . وفي بعض الاحيان ، كان يُحفر خندق خارجي آخر ، يُترك بينه وبين الخندق الداخلي درب يستطيع الرومان أن يحركوا

قواتهم على طوله ، ان هم رغبوا في ذلك . ومع مرور الزمن ، امتد نظام مترابط من هذا النوع من التحصينات ، لحماية الامبراطورية الرومانية من الغزوات الجرمانية ، امتد بطول ٣٧٥ ميلا ، من نيوويد New wied على نهر الراين ، وحتى راتيسبون Ratisbon على نهر الدانوب . وكان هذا « الخط الجرماني » Limes Germanicus بمثابة خط ماجينو عصره . وقد دام أكثر من خط ماجينو ولكنه لم يدم الى ما لا نهاية .

وعندما أقام يوليوس قيصر معسكره على جبل سانت بيير Saint Pierre ، في غابة كومبيين Compiegne:

« . . . جعل سدا ترابيا ينتصب بارتفاع بلغ اثني عشر قدما ، سوّى فيه مسندا ، وأمر بأن يُحفر أمامه خندقان عمق كل منهما خمسة عشر قدما . ثم بنى عددا كبيرا من الابراج الثلاثية الطوابق ، تتصل فيما بينها بجسور ، ومنصات دائرية مغطاة بستائر من الاغصان الطرية ، جعله على شكل يُصد فيه تقدم العدو بخندق ثنائي ونسقين من المدافعين . وكان النسق الاول مصفوفا على المنصات العلوية ، حيث كان الجنود ، وقد تأمنت لهم حماية أفضل ، واشراف على الاخرين ، يقذفون بحرابهم وسهامهم الى مسافات أبعد ، وهم بمزيد من الاطمئنان . وكان النسق الثاني منشورا خلف المسند ، وأقرب الى العدو ، محميا من سهامه وشوكه ، بوساطة أولئك الذين يقاتلون من المنصة العليا .

وفي موضع آخر ، لجأ يوليوس قيصر ، عندما أراد أن يحدد خط صد أحد جيوش الغال عن مدينة أليسيا Alesia ، لجأ الى حفر خندق خاص عمقه خمسة أقدام ، وزرع قاعه بأوتاد خشبية مدببة ، وأمر بتجهيز حفر كاذبة أمامه بعمق حوالي ثلاثة أقدام ، وتمويهها بحيث لا يبرز من كل وتد فيها سوى قدم واحد . ثم أوعز بأن تزرع الارض بالورود البرية ، وبالنباتات والاعشاب الاخرى ، بحيث غطت الاوتاد عندما نبتت . وكانت النتيجة أن صار الوضع مشابها تماما لوضع موانع الاسلاك الشائكة التي تُخبأ وتحمى جيدا في النزاعات المسلحة الحديثة . ولا بد أن يكون جنود القيصر قد أزاحوا حوالي مليوني متر مكعب من التربة لحفر هذه الخنادق . . . »

ونادرا ما كان الليجيون الروماني يتعرض لهجوم من قبل خصومه ، عندما كان يتخندق بشكل جيد . لذا كان يتميز ، والى حد هائل ، بكونه قادرا على الانتظار ، وهو آمن ضمن معسكره ، حتى يصبح بالامكان شن هجوم تحويلي ، وشق القوى المعادية ، أو ايصال قوة اضافية الى القائد الروماني .

ولم يوقف الرومان استخدام أوتادهم على بناء المعسكرات التي كانت بمثابة حصونهم

العسكرية الرئيسية ، بل كانوا يستخدمونها أيضا من أجل مهام تكتيكية أقل شأنا ، مثل سد المخاضات أو تضييقها . وان يكن أحد من الحماقة بحيث يذهب منذ الغد ليسبح في بقعة ضحلة موحلة منّ نهر التيمز (Thames) ، قريبة من برنتفورد ، وفي المياه الواطئة جدا ، فلا يستبعد أن تصطدم قدمه بوتد خشبي مقسى بالنار (مشوي) . اذ لا يزال هناك بعض من هذه الاوتاد في مجرى النهر ، وهي مما كان قد نصبه الجنود الرومان هناك قبل حوالي ألفي عام . ففي ذات يوم كان هذا الجزء من النهر يصلح كمخاضة ، كما يدل على ذلك اسم المكان ، (مخاضة برنت Brent Ford) . وكان الخفراء الرومان قد أُرسلوا لحراسة هذه المخاضة ، عندما كانت الليجيونات تندفع عبر بريطانيا ، وقد ضيقوها بأوتادهم لئلا يتمكن العدو من عبورها في نقطة واحدة فقط . وعندما استقر وضع الامبراطورية الرومانية ضمن حدود دائمة تماما ، على طول « الخط الجرماني » ، تبدلت وجهة النظر في التحصينات الرومانية ، من المعسكر ، المنظم على أساس الدفاع الدائري ، الى الدفاع الخطي المبني من الاوتاد ، أو الخنادق الممتدة على شكل قشرة طولانية رقيقة ، ولمسافات تتجاوز مئات الاميال .

ومن سبق له أن زار خط ماجينو في العام ١٩٣٩ ، كان سيجد هناك اوتادا مشابهة تماما لهذه الاوتاد الرومانية ، ولكنها مصنوعة من مادة جديدة ، ومنسقة أصلا بالطريقة نفسها . وثمة جزء من هذا الخط مدعم « بالزنابق الحديدية » ، أي انساق طويلة من العوارض الفولاذية ، المثبتة في الارض بالاسمنت ، وبشكل تبدو فيه رؤ وسها كالاوتاد المثلمة . وكانت هذه حواجز مضادة للدبابات . ولم تكن منظمة كما كانت الحواجز الرومانية ، أي على أساس الدفاع الدائري عن مساحات يمكن أن تنطلق منها القوة الضاربة ، بل كانت منظمة على شكل التحصينات اللاحقة التي صارت تصممها الامبراطورية المنهارة . . . على أساس خط نحيف بالدرجة الاولى . وكان هذا الخط يفقد قيمته بمجرد اختراقه .

كان الرومان قد بنوا أسوارا عبر انكلترا واسكتلندا الجنوبية ، تماما كما كان الصينيون قد بنوا ، قبل قرنين أو ثلاثة ، السور العظيم ليمنع عنهم غارات القبائل التي كانت تأتي من الشمال . ولكن لم تكن هذه الاسوار في البدء ، مبنية على أساس أن تظل محمية بحيث تبقي العدو دائما بعيدا عنها . فقد كانت موانع دائمة في وجه أي مغير . الا أن قيمتها العسكرية الاساسية هي في كونها تمنع أي فئة مغيرة من العودة الى موطنها ومعها غنائمها . كان المغيرون يحاولون العودة وقد أثقلهم ما سلبوه من المواشي والمخازن ، فيلقى عليهم القبض من قبل مفارز الحاميات المتمركزة على جوانب كل نقطة نفذ المغيرون منها . وعندما

أصبح المغيرون من القوة بحيث تحولوا الى غزاة ، وعندما لم يعد القوط والجرمان يكتفون بتخطي حدود الامبراطورية ، بل غدوا يريدون الاقامة فيها ، فقدت تلك الاسوار الكثير من قيمتها ودلالتها . ولكن بما أن الذين ابتكروها باتوا يتكلمون عليها أكثر فأكثر ، فقد غدت ـ خلال تلك الفترات نفسها ـ نسبة كبيرة من القوات الرومانية المدافعة مشدودة الى تلك الاسوار الخطية ، ممثلة كل ما في الدفاع السلبي من عيوب .

وعندما تحول الليجيون الروماني الى « سور حامية » ، بلا أهمية ـ نسبيا ـ كان مصيره التدمير . وبانتهائه انتهى المعسكر . كما ان سخرية التاريخ أبت الا أن تأتي نهاية المدفعية التقليدية (الكلاسيكية) ، في الموعد نفسه ، بعد أن كانت قد تطورت الى حد بعيد . وكانت المدفعية هي أحد العوامل التي « نفت » (حسب التعبير الفلسفي) الليجيون الروماني . وقد « انتُفي » هذا العامل نفسه بانتهاء الليجيون الروماني .

كانت المدفعية غير مناسبة لمرافقة الرماة / الخيالة ، وأثقل من ان تُحرك على الطرق في وقت أخذت تختفي فيه الطرق الرومانية الجيدة . ولم تعد تجد أهدافا ملائمة ، اذ كانت الخيالة ، بتشكيلها المفتوح ، أهدافا صغيرة وسريعة الاختفاء . ولم يعد هناك العديد من التحصينات المهمة التي يمكن أن تدكها المدفعية . ولم يبق من التحصينات غير المدن . وحتى هذه صارت ـ ابان انهيار السلام الروماني ـ مدنا صغيرة ، فقيرة . ومن النادر أن يُطمع بنهبها .

بعد ذلك ، « . . . ومن الارض المستهلكة والمهملة ، تنشأ المدن من جديد . . » ويأتي الكبش في مقدمة ما يعاد الى الصراع المسلح ، ثم تعقبه آلات أخرى مبتكرة ، أو معادة من زوايا النسيان ، لتستخدم في اقتحام المدن ، ولتستخدم فيما بعد للهجوم على قلاع العصور الوسطى .

كان الكبش ، باستمرار ، آلة سخيفة ، وغير قادرة عادة على فتح ثغرة الا في خط واحد من التحصينات . وان يكن هناك خط مزدوج مكون من سور خلف الاخر ، يكن من المنتظر أن يلاقي حاملو الكبش صعوبة جمة ، بمجرد انتهائهم من شق السور الاول . وعندما تكون المدينة أو القلعة محصنة بشكل جيد ، يكون الجدار أو السور الداخلي أعلى من الخارجي ، ومن شأن المهاجمين أن يظلوا معرضين لنيران ما في يدهم حيلة للرد عليها . وغالبا ما يصبح الجنود الذين يحاولون استخدام كبش الهدم ضد المدافعين عن السور الثاني ، معرضين للنيران من ثلاثة جوانب . وكان ملاذهم المعتاد ، في مواجهة مثل هذا النظام من الاسوار ، بناء كبش يجعلهم على المستوى نفسه الذي يقف عليه المدافعون ، أو

بناء أبراج متحركة أعلى من الاسوار لكي تُصب النيران على المدافعين من قمم الابراج . ولكن كان لا بد من صنع الابراج من الخشب ، وهذا يجعلها قابلة للاشتعال .

عندما استخدمت الاكباش في حصار القدس (١٠٩٩) ، استخدم المدافعون عوارض مروسة بشوك لازاحة الاكباش جانبا ، أو نحو الاسفل ، كيما تصعب على المهاجم ارجحتها . واستخدموا أيضا وسائد من خيش يدلونها من أعلى الاسوار بالحبال لتعمل كمخففات صدمة . وكانت الاكباش تنطح هذه الوسائد بدلا من أجزاء الجدار التي تكون قد خلخلتها الضربات السابقة .

عمل تطور الكبش ، وظهور المثقب « Bore » (دعامة طويلة ذات رأس حديدي حاد ، تدار فتخرق السور) ، على أن يصبح من الضروري أن تتكون التحصينات من محيطين قويين أو أكثر حول مركز موحد . والمألوف أن مدن العصور المظلمة ، وبدايات العصور الوسطى ، كانت أفقر من أن تتحمل ، وحتى من أن تحاول احاطة نفسها ببناء مثل هذا التحصين المزدوج المتين . لذا ـ اصبحت القلعة ،(The keep) أو الحصن ، المقام ضمن المدينة أو قريبا منها ، ومن أجل معظم الاهداف العسكرية ، أصبح أكثر أهمية من أسوار المدينة نفسها . وكثيرا ما كان الحصن ، كما هو الحال في « لنكولن »، من الاتساع بحيث يتمكن أهالي المدينة من اللجوء اليه كلما ظهر عدو مغير ، كان يحتمل أن يخترق أسوار المدينة . وحين تنامى نظام الاقطاع ، صار النبلاء الاقطاعيون يبنون حصونهم الذاتية ، إما حيث كانوا هم أنفسهم يقيمون ، أو على نقاط استراتيجية في مقاطعاتهم . وبالامكان اعتبار هذه التحصينات ، بتنظيمها على أساس الدفاع الدائري ، الشكل العسكري الطبيعي للتحصينات خلال الفترة التي كانت فيها أية قوة صغيرة ضاربة ، مكونة من فرسان مدرعين ، هي العنصر الاساس في المعركة . لذا كانت ، من وجهة نظر عسكرية ، ومثلها مثل المعسكرات الرومانية ، قواعد آمنة ، منها تستطيع القوة الضاربة أن تظهر في اللحظة المناسبة من المعركة .

هذا ، اذن ، تناظر صارخ بين الفترتين المدرعتين اللتين كنا بصددهما : ففي كل حالة يكون « بيت القصيد » في التحصين العسكري هو المعسكر أو الحصن المنظم على أساس الدفاع الدائري ، والمصمم لكي يصمد حتى فترة ما كلما أحاط به العدو . وما هو بخط ، بل « جزيرة مقاومة » . وسنرى أن هذا المبدأ في التحصين سوف يعود ، عندما نصل الى الفترة المدرعة الثالثة ، أي فترة الدبابة .

حتى الان ، أتى ذكر سلاحين ، هما الكبش والمثقب ، المسؤولين بالدرجة الاولى

عن تثنية أسوار العصور الوسطى . وقد فرضت أسلحة أخرى المزيد من التطورات . فبرج الحصار ، بمن فيه من رماة الاقواس المتصالبة . أو بما كان يجهز به من مناجق صغيرة ، تستطيع أن تصب نيرانا مؤثرة على المدافعين المتمركزين على قمم أسوار عالية ، هذا البرج ، فرض ضرورة زيادة المسافة بين السورين الاول والثاني . وقد أسهب المؤلف لودفيغ رين (Ludwig Renn) في توضيح هذه النقطة في كتابه عن علاقة الحرب بالمجتمع ، حيث قال : « في الوقت الذي تحسن فيه مدى الاسلحة التي ترمي المقذوفات ، صار لا بد من زيادة المسافة بين السورين . فالواقع أن سوري الدفاع عن مارينبيرغ ، احدى القلاع المبنية في بروسيا الشرقية ، وفق النظام الفروسي ، أكبر من ذلك بشكل ملحوظ ، لان هذه القلعة بنيت حوالى نهاية العصور الوسطى ، يوم كان القوس المتصالب ، الذي يتجاوز كثيرا أي قوس عادي من حيث مداه ، لا يزال قيد الاستخدام . والمسافة بين سوري الدفاع عن نورمبيرغ أكبر من الاخريين كلتيهما ، لان قلعتها بُنيت في زمن وُضعت فيه الاسلحة النارية قيد الاستعمال . . . » ثم يخلص رين الى القول : « وهنا ، لدينا مبدأ تحصينات لا يزال ، حتى اليوم ، يحتفظ بصحته ، وصالحاً من أجل الدفاعات التي تبنى على شكل أنساق متوالية ، المسافة بين كل نسق وآخر محددة وفق مدى نيران المهاجم[٣٧] . . . »

كان لدى اناس العصور المظلمة والوسيطة ، الى جانب القوس المتقاطع ، ولربما قبله ، آلة أكبر وابشع منه بكثير ، ومصنوعة على النمط نفسه . كان وتر هذه الآلة يشد الى الخلف بروافع (Winches) يدوية صغيرة . وكانت تقذف سهاما قصيرة غليظة أو حرابا طويلة ذات محارك مستقيمة الى حد كبير . وكان هناك نمط آخر ، أقرب الى المدفع القذاف (Howitzer) ، هو المانغون « Mangon » (من أنواع المنجنيق) ، وهو تطوير للالة التي كان يسميها الرومان القدماء « أوناجر » « Onager » (الاخدري : نوع من الحمر الوحشية) ، ربما سمي كذلك لانه كان « يقفز بأربعته » عندما يُطلق . وكان يتألف من قاعدة خشبية يبرز منها عامودان قويان غليظان تصل بينهما حزمة من الحبال (٢ ـ ٤) مجدولة . وتُعقد بالحبال دعامة بحيث إن يشد أحد طرفيها نحو الخلف ينشأ عن جديلة الحبال قوة هائلة كافية لبرم الدعامة . وأحد طرفي الدعامة مجوف على شكل الملعقة ، أو موصول بمقلاع ، يضع فيها الرامي المقذوف (حجر كبير أو كرة رصاصية) . وعندما

---

(٣٧) انظر « رين » Reen : « الصراع المسلح ، علاقة الحرب بالمجتمع » .

كانت تطلق الالة ـ بتحرير الدعامة المشدودة ـ تعمل الحبال ، من خلال انفكاكها ، على قذف المقذوف نحو الاعلى ، من فوق الاسوار المهاجمة .

وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، أصبحت احدى الالات الاكثر دقة الى حد ما ، والمسماة « تريبوشيه Trébuchet » (نوع من المجانق) ، أصبحت هي آلة الحصار الرئيسة . وكانت تتألف من دعامة طويلة أفقية مستوية على محور مسنود بركيزتين مثبتتين بشكل أقرب بكثير الى طرف الدعامة الغليظ منها الى الطرف الاخر . وهاتان الركيزتان ترفعان الدعامة عن الارض مسافة معينة . وكان الطرف الاخر (طرف العمل) ، وهو جزء الدعامة الاطول ، يشد نحو الاسفل ، حتى الارض ، ويثبت بماسكات ، ثم يوضع المقذوف في التجويف المشابه للملعقة ، أو في مقلاع . وكان الطرف الغليظ يحمل بأوزان ثقيلة من الحديد والحجارة المعبأة في نوع من الصناديق أو العلب المربوطة على الدعامة بالحبال . وعندما تحرر الماسكات ، تضغط الاوزان الطرف الغليظ نحو الاسفل ، فيطرح الطرف الاخر من هذه « الارجوحة » See-saw) بالمقذوف نحو الاعلى ، والى مسافة بعيدة .

ونادرا ما كانت الاطراف القائمة بالحصار تستخدم الخنادق في تلك الايام ، بل كانت تستخدم أسيجة متحركة ، علوها حتى الصدر ، ومصنوعة على عجل ، ومغطاة عادة بطبقة من جلود الحيوانات ، وتقام كممرات مغطاة للتقرب نحو « بطاريات » العدو أو أسواره . وصارت « الالغام » و « الالغام المضادة » تلعب دورا متزايدا في فن الحصار ، حيث تحاول القوى القائمة بالحصار أن تحفر كهفا تحت جزء من السور ، وتدعم سقفه بجذوع الاشجار الغليظة ، ثم تشعل النار بهذه الجذوع على أمل أن ينهار جزء من السور . وقد سبق لفيليب المقدوني أن استخدم هذا الاسلوب الهجومي في حصاره للقسطنطينية (٣٤٠ ق . م .) ثم استخدم الصليبيون ، في بعض الاحيان هذا الاسلوب بالضبط ، بعد فيليب بخمسة عشر قرنا . بيد أن اللغم لم يصبح مهما حقا ، الا عندما فهم الناس البارود ، وصار بوسعهم استخدامه من أجل هذا الغرض . ففي العام ١٥٠٣ ، نجح بيتر أوف نافار (Navarre) في نسف جزء من قلعة نابولي بوساطة البارود . وبقي اللغم عملية مليئة بالصدف والمخاطرة ، اذ كان على المهاجمين أن يحفروا عميقا تحت القلعة والخندق المحيط بها . وكان من المحتمل أن يُغرق المدافعون ما يحفر بالماء ، أو أن يعمدوا الى الحفر من الجهة المقابلة ، ليلتحموا مع المتسللين في الظلام .

جرت العادة أن تكون أضعف نقطة في أي حصن هي مدخله الطبيعي ، أي

بوابته . وكان الكبش يستخدم ضد هذه البوابة كلما أمكن ذلك ، كما كان مستطاعا اشعال النار في بوابات العصور الوسطى الخشبية ، أو أن يُحفر « لغم » تحت ابراجها . وعندما وُضع البارود في الاستخدام تم ابتكار شكل من الالغام المحمولة الخاصة بنسف البوابات . وكان يسمى « بيتارد » Petard ، ومكون من قدر معدني ثقيل ، على شكل القبعة الكبيرة ، وكان يُملأ بالبارود ، ويُسمر على بوابة الحصن الخشبية ، أو يُطرح عليها مسنودا بالخشب أو الحجارة . وعندما يُشعل الفتيل تنسف قوة انفجار الشحنة البوابة نحو الداخل . . . ووعاء اللغم (البيتارد) نحو الخارج باتجاه المهاجمين . وكان « المهندس » المهمل الذي يبقى قريبا من اللغم أكثر من اللازم ، أو يتأخر في الابتعاد أطول من اللازم ، بعد اشتعال الفتيل ، كان معرضاً لأن « يطير مع لغم وضعه هو . . . » .

حتى في أيام اليزابث ، « عندما كان العالم جديدا بما فيه كله » ، وعندما كانت القيادة العسكرية العليا جديدة ، وغير معادية للاسلحة الجديدة ، آنذاك مضت قوة بريطانية للقتال وفق هذا الوصف الذي جاء في هذه الاهزوجة التي كانت منتشرة آنذاك ، مضت :

في سفن جديدة ، وعليها قائد جديد ،

وفيها أمير بحر نبيل جديد ،

ومعها آلة جديدة لتهدم الجدران العتيقة ،

وألغام جديدة تعمل على نسف البوابة(٣٨) .

وقبل أن نمضي في الحديث عن البارود ، يجدر بنا الاتيان على ذكر « النيران الاغريقية » . وقد وُصفت هذه النيران بأنها « نيران رطبة » . وقيل بأن مبتكرها شخص اغريقي اسمه كالينيكوس Callinicus ، عاش في القرن السابع . وكانت في الاساس مركبة من الكبريت والكلس الحي ، وكان المركب الذي يقذف من مثعب (Siphon) أو أنبوب مسلوب الشكل ، كان يشتعل بمجرد ملامسته للرطوبة. وفي بعض الاحيان ، كانت السهام تغمس في هذا المركب قبل أن تُطلق ، أو كانت أوعية كبيرة مملوءة به تدلق على أسطحة سفن العدو . وكان من الصعب للغاية اطفاء الحريق الذي يسببه . فعندما كان الصليبيون يحاصرون عكا (١١٩٠) تمكن « مهندس » دمشقي من احراق وسائط حصار الغزاة كلها ، بقذفها بأوانٍ معبأة بهذا السائل . وفي وقت سابق ، في العام ٧١٧ ، كان

---

(٣٨) أهزوجة من كتاب فيلد « العصور القديمة تحت السلاح »

القائذ العربي العظيم ، « مسلمة » ، شقيق الخليفة سليمان ، يقوم بمهاجمة القسطنطينية ، في إطار حملة لنشر حكم الاسلام . وحاول أن يهاجمها من البر ، ولكنه اكتشف أن ذلك غير مجد بسبب التحصينات التي أقامها « المهندسون » البيزنطيون . لذا ، عسكر مسلمة جيشه ، وأحاط معسكره بخندق عميق ، مقررا أن يرغم ليو الثالث (Isaurian) ، امبراطور بيزنطة ، على الاستسلام ، عن طريق محاصرة القسطنطينية . وكتب مسلمة الى أخيه سليمان بأن يبعث له بمجموعة من السفن يشق بها طريقه عبر مضيق البوسفور ، ليقطع عنها الامداد الذي كان يأتيها من البحر الاسود .

وصلت مجموعة السفن في شهر أيلول (سبتمبر) من العام ٧١٧ ، وكانت مبحرة في طريقها نحو شمال « القرن الذهبي » . وكان أسطول ليو الثالث يكمن في ذلك المرفأ ، محميا بسلسلة ضخمة معلقة من طرفيها بين أربعة أبراج قائمة على جانبي مدخل الميناء . وبينما كانت سفن الحصار تلتف حول رأس سكراغليو Scraglio ، فاجأها تيار عنيف أخرجها عن خط سيرها . وعلى الفور ، أمر ليو بانزال السلسلة ، وأبحرت سفنه الكبيرة لتصب النيران الاغريقية على سفن مسلمة ، مدمرة عشرين سفينة ومستولية على سفن أخرى . وكان هذا الهجوم من التوفيق في قيادته وحسمه بحيث أسهم الى حد كبير في فك الحصار عن القسطنطينية .

كانت النيران الاغريقية سلاحا دفاعيا ممتازا ضد المحاصرين ، وكانت تستخدم كرد على الحجارة وكرات الرصاص التي كانت تقذف بالمجانق من فوق جدران القلاع ، وتقذف بآلات الحصار القديمة ، مثل الباليستا (الراجمة) والتريبوشيه . وبقيت هذه الوسائط هي الأسلحة الكبرى في « مدفعية » الحصار ، الى أن تم اختراع البارود . آنذاك ، أتت فترة القصف « بالهاونات والمدافع . »

صارت « القواصف » تستخدم كأسلحة حصار ، ترمي مقذوفاتها بمحارك عالية من فوق الاسوار ، وتستخدم المدافع كأسلحة ذات محارك سافة ، تقذف عبواتها ضد واجهة الاسوار . وكانت المدافع بحاجة الى مقادير كبيرة من البارود ، كما يجب أن تجهز بسبطانات طويلة. لذا، أتى تطورها بطيئاً. وحوالي نهاية العصور الوسطى صارت المدافع تستخدم في ميدان المعركة. ففي معركة كريسي استخدمت الجيوش الانكليزية مدفعين اثنين، ويتبين من الوثائق انه لم يكن في كل جيش اكثر من اثني عشر سدين مدفعية. وفي الحرب التي شُنت ضد سويسرا، استخدم دوق بورغندي Burgundy مدفعية محمولة على عربات. لكن نصيبها من النجاح لم يكن كبيراً. وفي منتصف

القرن الخامس عشر، أخذت الجيوش الشرقية تظهر مميزات «القدور» أو «القواصف» الجديدة في المحاصرة.

في العام ١٤٥٣ ، قام الاتراك ، بقيادة السلطان محمد الثاني (الفاتح) بمحاصرة القسطنطينية . وكانت « مدفعية » هذا السلطان رائعة . وكان سباك مدافع هنغاري ، اسمه أوربان (Urban) ، قد سك له خيرة « قواصفه » . فكانت هذه المدافع ترمي مقذوفات حجرية قطرها ثلاثون بوصة (٧٦ سم) ، وزنتها من ١٢٠٠ - ١٨٠٠ رطل (٥٤٤ - ٨١٥,٥ كغ) وكان كل « مدفع » يحتاج الى ستين ثورا لجره ، والى مئتي رجل يمشون بمحاذاته لتثبيته في مكانه ، والى مئتين آخرين لتمهيد الطريق أمامه .

كان مجموع ما يملكه محمد الفاتح أربع عشرة بطارية ، تضم ثلاث عشرة « قاصفة » ، وستة وخمسين من الاسلحة الصغيرة من شتى الانواع . وقد ساعدت هذه « المدفعية » ، الى حد كبير ، في الفتح التركي للقسطنطينية ، ودامت زمنا طويلا . وظل أحد مدافع العام ١٤٥٣ التركية صالحاً للاستعمال حتى العام ١٨٠٧ ، حيث دمرت الكرة التي قذفها (٣٢٦ كغ) احدى صواري سفينة قيادة أمير البحر ، دكوورث Duckworh ، خلال الحروب النابليونية .

وعرفت آنذاك مقذوفات أثقل وزنا . فقد أنتج البندقيون ، خلال القرن الرابع عشر ، قنبلة تتألف من نصفي كرة من الحجر أو البرونز ، محشوين بالبارود ، ويُفجران بوساطة صمامات بدائية مركبة في القنبلة ، تصدر أزيزا خاصة أثناء مرورها في الجو . وكانت أوزان هذه القنابل تصل أحيانا الى ٣٠٠٠ رطل (١٣٦٠ كغ) ، حسب بعض الوثائق التي أقرها المؤرخون.

وفي القرن الخامس عشر ، استخدمت القنابل الحارقة أيضا ، لاضرام النار في المباني الخشبية . وكانت تُطلق المشاعل أحيانا لانارة تشكيلات العدو امام الرماحين . واستخدمت ايضا الكرات النارية لاعماء العدو . وكانت هذه كرات معدنية جامدة ، تحمى في الافران قبل قذفها . وكان بعض هذه « القنابل » مصمما على أساس أن يتفتت الى قطع صغيرة عندما يصطدم بالهدف . وبالاضافة الى ذلك ، كانت هناك أشكال من القذائف الانفلاقية ، وأعداد كبيرة من الكريات الصغيرة التي تطلق كرمايات مباشرة على المشاة .

وبينما صار المدفع يؤدي مهمة الكبش القديم ، صار الهاون ، أو القاصف ، نموذج التريبوشيه الذي يعمل بالبارود . وكان الهاون ، عادة ، ذا سبطانة قصيرة غليظة ، ويبدو كالقدر ، وتكمن ميزته الرئيسية في خفة وزنه نسبيا . وفي معظم الاحيان ، كان الرمي المؤثر

من فوق قمم الاسوار ، واصابة الداخل بأضرار ، أسهل من تدمير الاسوار العالية بمثابرة الطرق على خارجها .

ولقد سبق أن رأينا كيف لقي نظام الاقطاع ، المؤسس على قوة الخيالة المدرعة أولى هزائمه على أيدي الرماة التبّع . وهؤلاء الجنود ، وقد كانوا يعملون مقابل أجر ، وجنودا محترفين أكثر مما هم خدم اقطاع ، كانوا هم طلائع قوى اجتماعية جديدة ، وطلائع طبقات جديدة ، مهيأة لتدمير عالم الاقطاع ، واعادة بنائه من جديد . لكن نهاية النظام الاقطاعي ونهاية الدروع لم تحلا بسرعة . فقد كان جنود كرومول « ذوي أجناب حديدية » ، يرتدون صدريات معدنية مصممة لمقاومة طلقات المسدسات . وفي الفترة نفسها ، كان جون سوبيسكي « Sobiesky » ، الذي أصبح ملكا على بولندا بفضل انتصاراته على الاتراك ، كان يخوض القتال بخيالة مدرعة ثقيلة ، يرتدي بعض أفرادها « اجنحة » معدنية مصممة على أساس أن تصدر جلبة عالية أثناء الجري . وكان المقصود بهذه الجلبة اخافة العدو . وكان بعض هؤلاء الفرسان البولونيين محزمين على سروجهم بحيث لا يمكن سقوطهم عن خيولهم ولو أصيبوا بجروح . وقد استخدمت هذه الخيالة الثقيلة كقوة صدمة ، بوسعها اختراق أي تشكيل مشاة يواجهها .

ولكن قبل ذلك بكثير ، وفي أماكن « أقل عزلة » من بريطانيا أو بولندا ، كانت الاسلحة النارية في بداية تفوقها على الدروع ، وتفوقها على القلاع في الوقت نفسه . وجاء أول اثبات للنتائج الاجتماعية الناشئة عن هذا التفوق في كتاب فريدريك انجلز « الرد على دوهرينغ » Anti-Duhring ، حيث قال :

« صارت الاسلحة النارية تتطلب تصنيعا وأموالاً . وكان كلاهما في أيدي سكان المدن . وعلى هذا الاساس ، كانت الاسلحة النارية ، ومنذ البدء ، هي أسلحة المدن ، وأسلحة الانظمة الملكية الناشئة التي تستمد دعمها من المدن ضد طبقة النبلاء في الانظمة الاقطاعية . وسقطت قلاع النبلاء ذات الاسوار الحجرية ، التي كان الاقتراب منها غير ممكن آنذاك ، سقطت أمام مدفع سكان المدن ، واخترقت رصاصات « قرابنهم » (arquebuses) (طراز بنادق قديم) دروع الفرسان . وبتحطيم خيالة النبلاء الاقطاعيين المكسوة بالدروع ، تحطمت أيضا هيمنة النبلاء الاقطاعيين . ومن خلال تطور البرجوازية ، صارت المشاة والاسلحة النارية ، وبشكل متزايد ، هما نموذجي الاسلحة الحاسمة . . . »

في الفصل التالي ، سنتناول البندقية ومدفعية الميدان . وفي هذا الفصل الخاص بفن

الحصار ، لا نجد ضرورة للقول بأن استخدام البارود قلّص ، وبشكل تدريجي ، أهمية القلعة . غير أن تنامي ثروات المدن في الوقت نفسه ، زاد ، وحتى فترة ما ، من أهمية المدن المحصنة بشكل قوي . لكن الحماية القوية للمدن الكبرى ، مثل لندن أو باريس ، لم تعد مستطاعة، اذ كانت أوسع من أن تحمى، وصارت تمتد باستمرار الى ما وراء الأسوار. أما المدن الصغرى المستقرة المحصنة، مثل تورني (Tournay)، أو باداجوز (Badajoz)، فقد تصاعدت أهميتها، وصارت ـ وحتى حين ـ هي نموذج التحصين الوحيد، تقريباً ذا الأهمية الكبيرة في النزاع المسلح. وفي البدء، تطورت دفاعات هذه المدن باتجاه أو تكوين تحصينات خارجية معقدة. ولم يكن مستطاعاً توجيه نيران مدافع المدافعين بسهولة نحو أسفل الأسوار من على الشرفات الصغيرة المبنية خارج هذه الاسوار، وذلك لما كانت عليه الأسلحة من بدائية. وعلى هذا، كان من الضروري بناء نتوءات بارزة أمام الاسوار. وكانت هذه نقاطاً قوية تسمى «التحصينات القرنية» أو «الريدان Redan». ومن هذه الحصون، كان بوسع مدفعية المدافعين ان ترمي أجنحة العدو الموازية للأسوار، وتمنع المهاجم من التقرب نحوها. ومع الزمن، صار من المستحيل توقع أن تستطيع الأبنية الحجرية العادية الصمود أمام التأثير التدميري للمدفعية المتطورة. وقد أوضح نابليون بونابرت، في مقال كتبه عن حروب يوليوس قيصر، أن «أسلحة العالم القديم. . . كانت تُستدعى من أجل النقاط القوية البارزة في الابراج العالية والاسوار. وجعلت الاسلحة الحديثة من الضروري وجود قلاع واطئة، مغطاة بسفوح ترابية تغلف المبنى. ».

وبهذا التطور نصل الى بداية التحصينات الحديثة ، التي سنتناولها في مكان لاحق من هذا الكتاب .

٦) البندقية والحربة

ليس ثمة فائدة راهنة ـ بالنسبة الينا ـ الا للقليل مما أتينا على ذكره من الأسلحة ، حتى الآن . فالهاونات والمدافع الحديثة تطورت بشكل مباشر عن أولى « القواصف » والمدافع القديمة ، لكن السيف والرمح والفأس وسائط ولّت ، وطواها الزمان ، وولّى السهم . . . وولت مع هذه الاسلحة تكتيكات وتشكيلات الجيوش التي كانت تستخدمها . وهنا ، ونحن على عتبة الحرب الحديثة ، حرب الاسلحة النارية ، والمشاة ومدفعية الميدان ، نرى ألّا خير في اعادة القول بأن بعض انماط الحرب الحديثة متواز مع أنماط الماضي : أي أن العملية نفسها تمضي حتى تصل الى نتائج مماثلة ، ولكن بأشكال جديدة ، وأكثر تعقيدا . وكانت العملية الاولى في الفترة الحديثة غير المدرعة ، التي آن لنا أن ننظر فيها ، هي التطور البطيء ، للجيش الذي يمكن أن يضرب كمطرقة ثقيلة واحدة .

لقد سبق أن رأينا هذه العملية من قبل ، خلال الفترات المدرعة . اذ بدأ تكوين مشاة العصور الكلاسيكية المدرعة ، أو فرسان العصور الوسطى المدرعين ـ وقتال هؤلاء بأسلحة الصدمة بالدرجة الاولى ـ بدأ بتجميع القوات في « فلانكسات » قادرة على خرق أي تشكيل مجابه لها . فما سبب عودة هذه العملية من جديد في فترة غير مدرعة ، مع انه لم

يكن هناك مثل هذه العودة بعد هزيمة الليجيون في الفترة غير المدرعة السابقة ؟ ! أما الاجابة ، فهي ، على ما يبدو ، بسبب أن الاسلحة الجديدة كانت أثقل وأدج من أن تُحمل على ظهور الخيل ، وان القليل منها فقط كان يمكن أن يُجر على عجلات . وعلى هذا الاساس ، كان التحول عن تكتيكات الصدمة التي تتميز بها الفترة المدرعة يتم بشكل تدريجي ، ولم يكتمل ذلك التحول الا بعد مرور ثلاث مئة أو أربع مئة سنة . وخلال تلك السنين ، ظهرت « الصدمة غير المدرعة » . وقد عملت هزيمة الفارس المدرع ، ومعها التزايد المضطرد في أهمية المشاة ، على فرض تقليص القدرة الحركية التكتيكية . وكان الرامي / الخيال ، إبان الفترة غير المدرعة السابقة ، يتميز بالقدرة على الحركة التكتيكية . أما رامي البندقية (Musketeer) فمرونته أقل بكثير . وهناك تحول آخر جعل أسلحة الصدمة ذات أهمية ملحوظة خلال الوقت الذي كانت فيه الدروع آخذة بالزوال . وحلت البندقية ذات معدل الرمي البطيء محل القوس الذي كان يرمي السهام بسرعة . . . . كان بوسع اليد الماهرة ، عندما ترمي بقوس طويل ، أن تبقي عدة سهام في الجو ، الواحد في أثر الاخر .

كانت هناك معارضة قوية للتحول من القوس الى البندقية . وكمثال على ذلك ، رسالة العقيد « جـون سميث » الى مجلس الشورى البريطاني (١٥٩١) ، التي جاء فيها : « ان القوس سلاح بسيط ، والاسلحة النارية أشياء معقدة جدا ، تصعب السيطرة عليها في كثير من الحالات . . . وهي سلاح ثقيل جدا ، ينهك الجند أثناء المسير . وفي الوقت الذي يستطيع فيه رامي القوس اطلاق ست رميات مصوبة في الدقيقة الواحدة ، فان رامي البندقية لا يستطيع أن يطلق اكثر من رمية واحدة كل دقيقتين . . . » وهناك عقداء آخرون كثيرون كانوا يحملون الشعور نفسه ، وهو عدم الثقة بالاسلحة الجديدة .

ولم يكن امام الجنود المسلحين بالاسلحة النارية البدائية الاولى سوى فرصة الرمي مرة واحدة ضد العدو الذي يهاجمهم . وكاد الدفاع بوساطة النيران ينحصر في الدفاع بوساطة القوس الطويل دون غيره . فعندما غدت الاسلحة النارية هي الاسلحةالاساسية في الدفاع ، صار لا بد من تعزيزها جيدا بأسلحة الصدمة ، لتُستخدم في القتال القريب ، والا أصبح من المرجح أن يُفاجأ نسق رماة البنادق أثناء تعبئة بنادقهم دون أن يتمكنوا من اطلاق النار .

في هذه الفترة ، كان الرمح هو سلاح الصدمة الاساس ـ ولم تكن الحربة تُستخدم من أجل الطعن ، كما كانت سابقا ، بل كانت على الاغلب « كتحصين » محمول . وكانت مشاة جيوش العصبور الوسيطة تضم أيضا عددا من الرماحين . ولكن النسبة بين الجنود

المسلحين بالاسلحة المقذوفة ، والاخرين المسلحين بأسلحة الصدمة ، هذه النسبة تغيرت عندما استُغني عن القوس الطويل ، واحتلت مكانته الأسلحة النارية الفعالة الباهظة التكاليف . وفي البدء ، كانت الاسلحة النارية قليلة ، وكانت الرماح كثيرة . لذا ، تبدت في مستهل الفترة غير المدرعة من الحرب الحديثة بعض خصائص الفترة المدرعة : أي أهمية أسلحة الصدمة، وتنامي «القوى الثقيلة» المتجانسة المدربة، تلك القوى التي حولت القوى الخفيفة إلى قوى معاونة. وهذه، بأوجز اختصار، هي الفترة الممتدة من بدء ظهور الأسلحة النارية وحتى ظهور جيش فريدريك الكبير.

وكما ذُكر سابقا ، لم تكن الاسلحة النارية الاولى محبوبة من قبل العسكريين الكبار في تلك الايام . وقد اتخذ الفارس بيارد Bayard موقفا صريحا تماما منها . وبيارد هذا لا يزال اسمه رمزاً للجندية النبيلة. وهو أول من نطق عبارة «بلا خوف ولا عار. . .» وكان يعتبر أن من الصواب، ومما لا يتعارض مع النصرانية، أن تقطع جندياً بالسيف أو تغرز فيه الرمح. فلطالما ارتكبت هذه الأفعال. ولكن من رجس الشيطان أن ترميه من بعيد. وان لمن الظلم أن يقدر فظ نكرة، بأنبوب حديدي وحفنة بارود وقطعة رصاص كبيرة، على ازهاق روح فارس قبل أن يعي الفارس ما يدور حوله. . . وعلى هذا الأساس كان هذا الفارس يشنق دونما تردد، كل أسير تدل عدته أو ملبسه على انه كان يحمل سلاحاً نارياً.

كان السلاح الناري الاول مكونا من أنبوب معدني قصير معه سيخ مستقيم مناسب الى حد ما . ولدى اطلاق النار ، كان يوضع السيخ تحت الابط . وكان السلاح ـ كما يقال الآن ـ « يطلق من الورك » . وكان يطلق عمليا بوضع السيخ بين الابط والورك . وكان للسلاح اليدوي ، الذي صار يُسمى فيما بعد « القربينة » ، ثقب صغير في جانب السبطانة من خلاله تُدك قبصة البارود بعد أن تُعبأ من الفوهة . وكان تلقيم السلاح « حرفة » : كان على الجندي أن يمسك سلاحه بشكل عامودي ، ويذر فيه مقدارا معينا من البارود الخشن ، ثم يحشر فوقه سطاما سميكا ، ثم يسقط رصاصة أو كرة غير منتظمة الشكل عادة ، حيث لا بد من حشرها عنوة بمدك خاص . وفي أكثر الاحيان ، كان من الضروري حشر سطام آخر فوق هذه الحشوة كلها ، ان كان المقذوف لا يزال يتخلخل في السبطانة ، والا كان من المحتمل ان ينزلق ، وقد يسقط ، عندما يُحرك السلاح أو يُسدد .

وكانت العادة ان يُحمل البارود في قرن . وكان لا بد من التخمين لتحديد وزن عبوة البارود . ولم يكن هناك أغلفة صغيرة أنيقة يحتوي كل منها على الوزن الصحيح للحشوة

الدافعة . لذا كان انتظام مدى السلاح نادرا جدا . وقد يكون البارود رطبا ، فلا يتولد عنه أكثر من فقعة بلا طائل .

كانت السرعة الابتدائية للسلاح بطيئة ، حتى وان كان البارود جافا ، والعبوة صحيحة شكلا وحجما . لذا كان لا بد من تكبير حجم العبوة . فالرصاصة الصغيرة ، المنطلقة بسرعة ابتدائية بطيئة ، لا يمكن أن تخترق الدرع . ولهذا السبب كان عيار القربينة القديمة ، ثم عيار البندقية التي أتت بعدها ، أكبر بكثير من عيار البندقية الحديثة . وكان عيار القديمة أقرب الى عيار بندقية الصيد (الجفت ١٢ مم) .

كان بوسع القربينة عادة أن تدفع مقذوفها الثقيل مسافة تتراوح بين ١٨٥ ـ ٢٧٥ مترا . وكان هذا هو المدى الاقصى . وكان من الممكن أن يُستخدم هذا المدى لمسافة تقل في العادة عن خمسة وخمسين مترا . وكان بوسع الرامي الماهر أن يصيب كومة قش صغيرة ، أو أربعة فرسان ، متراصفين ، من مسافة ثمانية عشر مترا . ثم اكتُشف ان بالامكان زيادة مدى الرمي ودقته ان زيد طول السبطانة ، وحجم شحنة البارود ، وان يُسك المقذوف بمزيد من الدقة . وجاء الاسبان بأول بندقية حقيقية ، حوالي منتصف القرن السادس عشر . وكانت تطلق رصاصة زنتها حوالي ٤٣ غراما .

كان عيار البندقية أثقل بكثير من عيار القربينة . . . وكانت أطول أيضا . للتمكن من استثمار قوة الشحنة الدافعة كلها ، التي كانت تحترق ببطء ملحوظ . لذا كان هذا السلاح ، في البدء ، أثقل من أن يستطيع رجل واحد اطلاقه دون بعض العون . وكان لكل رام في البندقية مساعد يحملها قبل بدء القتال ، وفي مجراه يساعد الرامي في سندها على دعامة مصنوعة خصيصا للبندقية ، تُغرز احدى نهايتيها في الارض . وأجريت بعض التجارب على دعامة ذات ساقين ، كالمنصب الذي يحمل الرشاش الحديث . وتبين انه لن تتحقق الفاعلية المبتغاة من توازن سلاح على دعامة متصلة به في نقطة مركز ثقله ، اذ كان هذا يسبب رخاوة السلاح وميلانه بسهولة شديدة . لذا صارت توضع نقاط الارتكاز هذه قرب نهاية السبطانة البعيدة ، ليتحمل الرامي نصف وزن « آلته » . وسرعان ما اتضح ان الاسهل عليه وجود حجرة الانفجار ، التي تُشعل الحشوة منها ، في أعلى السلاح بدلا من أسفله . وبذا يتحتم عليه أن يسند سلاحه بكتفه بدلاً من تثبيت احدى نهايتيه تحت ساعده . وعلى هذا الاساس جُهزت البنادق المبكرة بالأخامص الاولى ذات الشكل الغشيم . بيد أن السلاح كان لا يزال من عدم الدقة بحيث لم يكن من المجدي كثيرا متابعة النظر في التسديد ، ولذا لم يُصمم الاخمص بشكل توضع فيه السبطانة على مستوى عين الرامي

لن ننسى ان التطور الكامل للقوس والنشاب لم يأت الا مع القوس الطويل، الذي كان من العلو بحيث يترتب على راميه أن يشد الوتر حتى مستوى العين أو الأذن ، ومن ثم يستطيع التسديد بوساطة طول جسم السهم . وبالطريقة نفسها ، لم يأت التطور الكامل للبندقية الا بعد أن طال استخدام هذا السلاح ، وبعد أن حاز على رضى طبقة « النبلاء والاشراف » ، ومن ثم صار يصنع كآلة صيد أنيقة مزخرفة ، ينشد منها صيد الطيور بشكل خاص . ومن أجل الرمي على هدف متحرك ، صار لا بد للصياد من أخمص مصمم بشكل صحيح ، لاجهاز تسديد . . . وحتى أسلحة الصيد الحديثة تكاد تخلو مما يمكن أن يسمى حقا جهاز تسديد . ونادرا ما يحاول المهرة من رماة هذه الاسلحة استخدام هذه الاجهزة . ولكن لديهم فعلا سبطانة السلاح المركبة بحيث تتمكن العين ، بشكل طبيعي ، من النظر على طولها حتى الهدف . وقد حصل هذا التطور في البندقية تدريجيا ، خلال عدة قرون ، وبحيث اقتضي ان يصبح الاخمص ذا زاوية وشكل معينين .

وحصل تطور آخر في جهاز الاطلاق . في البدء ، كان من الضروري وجود ، « عود ثقاب » مشتعل تولع به قبصة البارود الصغيرة القريبة من « ثقب الاشعال » . وكانت عملية الاشعال بالعود تخل بأي محاولة تسديد . ولم يكن مما يفي بالغرض ، أن يحمل المرء معه قطعة من مادة حارقة أنى ذهب ، اذ كان من المحتمل جدا أن تنطفىء في اللحظة الحرجة ، وتحت أي « زخة » مطر . وان تحفظ في القبعة ، كما جرت العادة ، فمن السهولة بمكان أن تشعل القبعة والشعر معها . وكان لا بد من أن ينفخ عليها لتشتعل تماما قبل أن تُستخدم . وكان هذا يتطلب نفخة أو نفختين ، وربما يستغرق وقتا ما . ولكن رغم هذه المساوىء كلها ، فقد ظلت هذه البنادق التي تُقدح بالثقاب قيد الاستخدام زمنا كبيرا . ثم ظهر فيها فتيل الاشعال . وكان فيه قطعة معدنية صغيرة على جانب السلاح تضم الثقاب المشتعل ، (المصنوع من القطن المشبع بالملح الصخري ـ نترات البوتاسيوم) . وعندما يشد الزناد يتماس الثقاب المشعل والبارود . وكان هذا يسمح بمزيد من الدقة في التسديد . وفي وقت لاحق ، أخذ يظهر « جهاز اطلاق حَلَقي » في كل من ألمانيا واسبانيا ، وفيه دولاب معدني مركب بجانب حجرة انفجار الشحنة . وهناك قطعة من البوريطس مسننة (كبريتور الحديد) وملتصقة بالدولاب . وكان الزناد يدير الدولاب ، أو يحرر نابضا يديره ، فتنطلق الشرارة من اصطدام الدولاب بالبوريطس . لكن هذه الالة كانت من التعقيد بحيث لم تستطع أن تحل محل جهاز الاطلاق بالثقاب ، بالنسبة الى جندي المشاة العادي . ولم يختف هذا الجهاز الا بعد ظهور الجهاز الصواني . وهذا هو الجهاز المألوف الذي شوهد في العديد من أسلحة الرياضة . وهو عبارة عن حصى صوان قائمة فوق حجرة الانفجار . والضغط على الزناد المزود بنابض يجعل الصوان يطرق

بسرعة غطاء معدنيا يقي عبوة البارود من الرطوبة . وعندما تعمل الصوانة على دفع غطاء حجرة الانفجار المتحرك ، والمصنوع من الفولاذ ، يتعرض البارود للشرارة المتولدة من عملية الطرق .

وخلال القرن السابع عشر ، أخذت البنادق الصوانية (ذات آلية الاطلاق الصوانية) تأخذ تدريجيا محل غيرها من نماذج البنادق . وفي مطلع القرن التاسع عشر ، ابتُكر الزناد الطرقي ، الذي يتّم الاطلاق به حين يتم الطرق « بشاكوش » البندقية . لكن الجيش البريطاني لم يستخدم هذا النموذج الا بعد سنين عديدة من اختراعه . وفي العام ١٨٣٥ ، وبعد تجارب مطولة أجرتها السلطات العسكرية ، تم تبين هذا النموذج . ومع حلول العام ١٨٥٠ ، لم يعد بوسع التحفظ البريطاني أن يصمد أمام ظهور البنادق المحلزنة ، ولو أن العديد من الوحدات العسكرية البريطانية التي اشتركت في حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) كانت لا تزال مسلحة بالبنادق الصوانية المسماة « براون بيس » Brawn Bess . وبعد العام ١٨٥٥ ، لم تعد البندقية ذات الجف الاملس مستخدمة في الجيش البريطاني .

اكتُشف مبدأ حلزنة الاسلحة في مطلع القرن السادس عشر .

كانت البنادق الاولى (الملساء) أدق من القرابن ، ولكن دقتها لم تكن كافية . فالمقذوف في الجف الاملس يقفز نحو الخارج كيفما كان ، لان الغازات المتولدة عن احتراق الشحنة والدافعة تقذفه وتتسرب من حوله بشكل عشوائي . ويتخذ المقذوف لدى خروجه من الفوهة المسار نفسه الذي تكون السبطانة موجهة عليه لحظة « قفز » المقذوف من الجف . وفي جيل لاحق من البنادق الملساء ، صارت الكرة الرصاصية تطلى بطبقة من الشحم أو الشمع الكثيف ، أو تغلف باللصوق ، لئلا تبقى شديدة الخلخلة . لكن الحلزنة هيأت للمقذوف توضعا أكثر ميكانيكية ، وأفضل ، في خطوط تحفر عبر الجدار الداخلي للسبطانة ، وصار المقذوف ينطلق من البندقية المحلزنة بشكل أدق ، لان الحلزنة وفرت له عملية الدوران . وهذا الدوران يمكنه من المحافظة على اتجاه انطلاقه .

يتم تلقيم البندقية المحلزنة واطلاقها بشكل أبطأ من البندقية العادية . اذ لا بد من أن تلائم الرصاصة خطوط الحلزنة بشكل محكم حيث لا يمكن حشرها من الفوهة الا بعناء كبير . ولا بد لسيخ الدك من أن يكون أثقل وأقوى ، وغالبا ما يكون هناك اضطرار لادخال الرصاصة عنوة باستخدام مطرقة ثقيلة لدق رأس السيخ . وهذا ما دفع الى تطوير البنادق المحلزنة الاولى من أجل الصيد ، ومن أجل الرياضة . ولم تدخل هذه البندقية الحرب الا

بعد أن أخذ الرجال الذين يحصلون على علة معاشهم عن طريق الصيد ، وهم مستوطنو جورج واشنطن ، أخذوا يستخدمونها كقناصة . لكن هذه قصة سيأتي دورها فيها بعد .

كان من الممكن أن تحمل البندقية القديمة غير المحلزنة كثيرا من الخطورة على مسافة ٣٦٥ مترا (٤٠٠ ياردة) ، الا أنه كان من أسوأ ما يمكن أن يحدث للانسان هو أن تصيبه هذه البندقية من مسافة تقل عن ذلك بكثير . وكانت من سوء الدقة في التسديد بحيث لا يمكن للرامي بها أن يصيب بشكل مؤكد رجلا متحركا الا من مسافة تقل عن ثمانية عشر مترا (٢٠ ياردة) . ولدى التأمل في ذلك ، قد يبدو غريبا أن تبقي الجيوش على تنظيماتها المنضمة ، المألوفة بالنسبة اليها ، في وقت تحمل فيه الدروع ، وتستخدم أسلحة الصدمة . فلم لم يتوزع الجنود ، ابان عهدي تيودور وكرومويل في وحدات صغيرة ، أو ينتشروا كمقاتلين افرادياً ، لئلا تتمكن أسلحة خصومهم من اصابتهم . . . الا بالصدفة ؟ ويمكن الرد على ذلك بحقيقة سبق تأكيدها ، الا وهي ان البطء في معدل رمي البندقية ولد ضرورة أن يبقى رماة البنادق تحت حماية الرماحين . فلم يكن هناك أي سلاح مشاة قادر على صد هجوم الخيالة ، وما كان ليستطيع هذا سوى الرمح ان يتراص الرماحون معا في صفوف منظمة وعلى عدة انساق .

والحركات المعقدة في عملية التلقيم ـ والضروري منها حوالي ستين حركة ، تُنفذ بأكثر من ثلاثين ايعازا ـ كان من الممكن أن تُنفذ بأقصى سرعة ممكنة في حال التدرب عليها حتى تصبح مألوفة تماما . لذا ، أصبح التدريب ، ومن ورائه صف الضابط المدرب ، ذا أهمية عسكرية كبرى . وطبيعي أن يُدرب الجنود على الحركات الواقعية التي يمكن أن تنفذ في المعركة ، لكن هذا التدريب كان أعقد من وزن الخطوة ، ومن التراصف والترادف . وهذه كانت أسس التدريب أيام الاغريق والرومان . ولم يكن على رامي البندقية أن ينفذ مهمته بسرعة واتقان فحسب ، بل كان عليه ايضا أن ينفذها في مكان محاط بالرماح من كل جانب . كما كان لا بد من تدريب الرماحين حتى جعلهم يجسدون سياجا معدنيا مدببا تجفل منه كل خيالة .

كان رماة البنادق أولئك ، وهم مشاة عصرنا البدائية ، أناسا يستخدمون نوعا من الالية في المعركة . وصاروا يتمرنون تدريجيا على أن يتحولوا هم انفسهم الى آلات . فالنصر منوط بمدى زحفهم المتواصل نحو الامام ، تحت النيران ، حتى يصبحوا ضمن مسافة يتيح قصرها امكانية ان تدب اسلحتهم الداجة الفوضى في صفوف العدو . وسلامتهم أمام هجمة العدو متوقفة على تأخير فتح النار حتى اللحظة التي تصبح فيها خيالة العدو على بضع امتار منهم . وآنذاك ، وكرجل واحد ، يطلقون رشقة مقذوفات من شأنها أن تكسر شوكة

الهجوم المعادي . وخلال هذه الفترة كلها ، والتي كانت لا تزال فيها الصدمة ذات أهمية عظيمة ، صارت خيرة المشاة هي تلك التي تقترب أكثر فأكثر من الالية ، إلى أن اكتملت صناعة هذا الانسان ـ الالة على يد البروسي العظيم ، أستاذ التدريب ، فريدريك الكبير .

وفي الوقت نفسه ، أخذت الخيالة تقلل من اعتمادها على الصدمة . وظلت حتى بعض الوقت تزيد من اعتمادها على التوحيد بين النيران والصدمة . فكان مسدس الخيال (Horse-pistol) الذي كان يحمله « ديك توربين » Turpin ، مثلا ، هو أحد الاسلحة الرئيسة في خيالة كرومويل . وكان بوسع الخيالة أن تقترب ، وبشيء من الاطمئنان ، حتى مسافة قريبة من تشكيل المشاة التي كان من الطبيعي الا تفتح نيرانها ، لانها تخشى ان تتزامن اعادة تلقيمها لاسلحتها مع هجوم الخيالة . وآنذاك يصبح بمقدور الخيالة أن تصل حتى مستوى رؤوس الرماح ، وتفرغ مسدساتها الداجة في وجوه الجنود المترجلين . وكان راكبو الخيل يأملون في تشتيت صفوف خصومهم ، أو ارغامهم على أن يولوا الادبار ، عندما يصبح باستطاعتهم أن يداهموهم بسيوفهم المشرعة . وحتى عندما كانت خيالة كرومويل تهاجم خيالة أخرى ، كانت غاية كرومويل أن يبدأ فرسانه بافراغ مسدساتهم بشكل مجد ، ومن ثم استثمار ثقلهم وتراصهم لتحقيق صدمة الهجمة . لذا ، كان الانضباط ضروريا جدا بالنسبة الى المشاة التي يمكن أن تصبح فريسة لهجوم الخيالة . وسرعان ما أصبح من المفيد أو الضروري لاي مجموعة عمل أن تتخذ موقعا فيما بين التشكيلات المتنوعة ، أو الوحدات الفرعية في رماة البنادق ، وبشكل يستطيع جزء منها أن يطلق النار ، ويبقى الاخر جاهزا للرمي في حال حدوث هجوم الخيالة . وفي القرن السادس عشر ، تم التوصل الى أسلوبين في اطلاق النار طبقهما رماة البنادق . فعندما يكونون قلة ، وبحيث يمكن أن يتمركزوا جميعا ضمن الانساق الاولى ، وكل منهم بين رمحين ، فلن تنشأ أي مشكلة . ولكن هذا يؤمن غزارة نيران خفيفة . وعندما زاد تصنيع الاسلحة النارية ، زاد العدد النسبي لرماة البنادق . وقد استخدم الاسلوب الاول في اطلاق النار من أجل تقدم القوات ، بحيث يفتح النسق الاول نيرانه عندما يصبح ضمن مسافة الرمي على العدو ، ثم يتوقف ، مفسحا المجال أمام النسق الثاني ليتقدم عبره ، ويطلق رشقته . وبعد وقت قصير صار رماة البنادق يُنظمون في ثلاثة أنساق . وصار يتقدم النسق الثالث عبر النسقين الاول والثاني ، ثم يتراصف ، يشعل ثقابه . . . الى آخر اجراءات الرمي المعقدة . في هذا الوقت كان يعمل النسق الاول على اعادة تعبئة بنادقه ، ليكون جاهزا لمتابعة التقدم ، واطلاق رشقة أخرى .

كان هذا الاسلوب يفرض على المشاة وتيرة تقدم أبطأ مما كان عليه الحال من قبل . أما الاسلوب الثاني فكان مماثلا للاول ولكن بشكل معكوس . وقد طُبق في القوات التي تكون في وضع دفاعي ، ولكنه لم يف بالغرض لانه يضطر النسق الاول الى التراجع بعد الرمي . وكان من الممكن أن تتحول هذه الحركة الخلفية الى تقهقر ، كما كان من الصعب المضي في مثل هذه « الرقصة » ، التي يتراجع فيها النسق الاول ليتقدم النسق الثاني في الوقت نفسه ، ويحتل المكان نفسه الذي كان فيه ، لذا ، جُربت حركات أخرى متعددة . ففي معركة بوين Boyne[٣٩] (١٦٩٠) ، انبطح النسق الاول بعد أن أطلق نيرانه ، مفسحا المجال للنسق الثاني كي يطلق نيرانه من فوقه . ثم جثا النسق الثاني ليسمح للنسق الثالث بالرمي . ولكن هذه الطريقة لا تخلو من شيء معيق : وهو أن الانساق الثلاثة مضطرة لاعادة تعبئة البنادق في وقت واحد ، مما جعل نظام الرمي هذا غير فعال في الدفاع . والوقت الوحيد الذي كان ينجح فيه هذا الاسلوب هو عندما تكون المشاة في وضع الاستعداد للاقتحام ، فتنطلق فورا بعد رمي رشقاتها . وحتى هذه أيضا كانت طريقة بطيئة ومربكة ، لأن بعض القائمين بالهجوم يكونون جاثين على ركبهم أو منبطحين على بطونهم .

وكان من شأن نشر رماة البنادق في صف واحد أن يجعلهم على شكل خط خال من العمق الذي يمكنه من مقاومة هجوم تشنه الخيالة أو المشاة المتراصة الكثيفة . ولم يكن بوسع هؤلاء الرماة أن يطلقوا نيرانهم من فوق رؤوس بعضهم بعضاً ، كما كان يفعل النبالون ، « باسلوبهم الانضباطي القديم الغث » ، قبل مئتي عام أو أكثر . وعلى هذا الاساس تسللت أولى التقسيمات الفرعية عبر الجيش المتجانس المدرب ، وأدخل هذا التقسيم على فصائل رمي الرشقات .

وبهذه الطريقة في الرمي ، قسمت كل كتيبة الى فصيلين أو أربعة ـ أو الى أقسام كبـيرة ، كما كانت تسمى أحيانا . وكان النسق الاول في كل من هذه الوحدات الفرعية ينفذ الرمي بايعاز من الآمر ، ثم يتأخر ليعيد التلقيم خلف النسق الثاني مباشرة الذي يكون في وضع الرمي . وهذا هو الوصف الكامل لمجمل هذه العملية بعد أن اكتمل تطورها قرب نهاية القرن السادس عشر :

---

(٣٩) معركة « بوين » Boyne ، احدى معارك مقاومة « الثورة المجيدة » في انكلترا (١٦٩٠) ، بين جيمس الثاني « المعزول » ووليام الثالث . وقد مني جيمس بهزيمة مرة ، فر على أثرها الى فرنسا .

المعرب

. . . « دعنا نفترض ان كتيبتنا انضمت الى الجيش في ميدان المعركة ، وتشكلت في ثلاثة أنساق ، وحرابها مركبة على فوهات بنادقها ، ورماة الرمانات موزعون على الأجنحة ، والضباط مصطفون في المقدمة ، والعقيد ، أو المقدم في حال غياب العقيد ، (وهو الذي كان يقود المعركة على ما أعتقد) ، مترجل وسيفه مشرع بيده ، ويتقدم قواته بثماني خطى أو عشر ، قبالة الوسط ، وبجانبه طبال خبير . ويُفترض أن يبدو طلق المحيا ، هادىء الحركات أبداً ، رابط الجأش كلياً . كما يُفترض به أن يلقي أوامره برزانة كبرى وبحضور ذهني كامل .

وأول ما يجب أن يفعله العقيد هو أن يأمر الرائد أو مساعد الكتيبة أن يقسم الكتيبة الى أربعة أقسام كبيرة » . وبما أن قائد الوحدة معرض لنيران جنوده بقدر ما هو معرض لنيران العدو ، فعليه أن يبدي حرصا خاصا على أن يبقى قبالة فصيلي الوسط ، بينما تمضي الوحدات الاخرى من الكتيبة في الرمي . كما عليه أن يبدي حرصا كبيرا مماثلا على أن ينزاح هو والطبال جانبا من أمام فصيلي الوسط عندما يأتي دورهما للرمي ، ثم يعودا الى مكانيهما حالما ينتهي رمي الفصيلين ، والا فمن المؤكد أن يسقطا بنيران فصيليهما .

ولدى الايعاز « سر » ، يتحرك الضباط الى ما وراء الفواصل بين الوحدات ، بحيث يتخذ النقيب الاقدم موقعه في الوسط ، على مسافة ٨ ـ ١٠ خطوات من النسق الخلفي ، والضباط الاخرون على مسافة أربع خطى من النسق نفسه ، مقتسمين الفراغ فيما بينهم . ويقف الملازمون وحملة الرايات في النسق الاوسط ، على يمين ويسار فصيلي الوسط ، ويقف ضباط الصف على رأس الاجنحة وفي الخلف ، فيما بين الضباط . وتقسم الطبول في ثلاث مجموعات ، في اليمين واليسار وخلف فصيلي الوسط . ويجب ان يكون هؤلاء جميعا متراصفين مع صف الضباط ، ويكون الرائد ومساعد الكتيبة على الجانحين .

أما وقد تحدث العقيد الى رجالة بمثل هذا المرح ، فلم يبق عليه الا أن يصدر الايعاز « سر » . ومع الايعاز يقرع الطبل ايقاع المسير . وعندما تصبح الكتيبة على مسافة ٤ ـ ٥ خطوات منه ، يستدير باتجاه العدو ، ويسير بهدوء حتى يبدأ جنوده باطلاق النار من فوقه . آنذاك ، يأمر الطبال بايقاف القرع ، ثم يلتفت الى الكتيبة ، ويعطي الايعاز « قف » ثم يأمر الطبال بقرع ايقاع « الاستعداد » ، الذي به تتهيأ الافصال الستة المعينة للرمي . . . وهكذا . . . الخ

من واجب ضباط هذه الأفصال وصف ضباطها أن يحرصوا كثيرا على أن يراصف الجنود أسلحتهم بشكل جيد كيما تكون نيرانهم مؤثرة على العدو ، وعلى أن ينبهوهم الى

وجوب التقيد بالاشارة التالية التي ستصدر عن الطبول .

أما وقد قُدمت الافصال للعقيد ، فلم يبق عليه الا أن يوعز للطبول بأن تقرع ايقاعا (اصطلاحيا) آخر ، عليه تطلق الافصال نيرانها ، وتجانب أسلحتها فورا ، ثم تخطو نحو الخلف لاعادة التلقيم في أسرع وقت ممكن . . . وهكذا دواليك[٤٠] . . . »

في معركة دتنجين Dettingen (١٧٤٣) التي انتصر فيها البريطانيون وأهالي هانوفر على الفرنسيين ، استطاعت المشاة البريطانية التي كانت تستخدم بنادق محسنة أن تتصدى للفرنسيين الذين كانوا يستخدمون المدفعية ، ويعدون أنفسهم لشن الهجوم . فقد اقترب رماة البنادق حتى مسافة ستين خطوة من العدو ، ثم اذاقوهم المر . وكانت نتيجة نيرانهم ، وفقا لما وصفها به أحد ضباط « قوة البنادق الويلزية » Royal Welsh Fusiliers ، في مذكراته التي جاء فيها :

« قبل الاشتباك ، وعندما كنا على حوالي مئة خطوة من بعضنا البعض ، قبل أن يبدأ القتال ، أطلق جيشنا صيحات دبت الذعر في صفوفهم ، حسبما سمعناه من بعض الفارين . وشنينا هجوماً على كتيبة النافار Navarre ، احدى كتائبهم الكبرى ، وقد سار شعبنا بجرأة وفخار على خطى أسلافه ابان الحرب الاخيرة ، حيث كان يتقدم بنظام متراص ، صامدا كالجدار . ولم تُفتح النيران حتى أصبحنا على مسافة ستين خطوة من العدو ، وكنا ماضين في زحفنا . . . وعندما انقشع الدخان قليلا شاهدنا القتلى حولنا أكواما ، بدلا من أن نرى انفسنا بين أحيائهم . وعملت رشقة النيران الثانية على جعلهم يولون الادبار فورا ، مبتعدين جرياً . واشتبكنا مع كتيبتين أخريين ، الواحدة بعد الثانية ، لم تصمدا الا أمام رشقة نارية واحدة . أما الحرس الفرنسي الراجل الازرق ، فقد فضلوا الفرار دون اطلاق أي طلقة . . .

ورغم اشتباكاتها الطويلة ، لم تتكبد كتيبتنا سوى خسائر قليلة . ولقد منحنا جيشنا كله شرفا عظيما حقا . . . فالذي حمانا هو بقاؤ نا في تنظيم متراص ، وتقربنا من العدو قبل أن نرميه . والعديدون الذين بادروا باطلاق النار فجأة من مسافة مئة خطوة خسروا الكثير من أفرادهم ، وأوقعوا خسائر أقل في صفوف الفرنسيين الذين كانوا قادرين على مواجهة

---

(٤٠) من حملات كين ، ١٦٨٩ ـ ١٧١٢ « الواردة في كتاب « فيلد » . .

النيران البعيدة ، ولو أنه كان من الواضح أنهم لا يستطيعون مقابلة الرجال وجها لوجه . . . .[41] »

يُستنتج أن البندقية كانت لا تزال غير دقيقة الى حد بعيد ، ولكن بامكانها احداث تأثير خطير ان هي اطلقت على كتلة متراصة من قوات العدو ، وضمن مدى يقل عن مئة ياردة . وفي خلال هذا الوقت ، كان من المستطاع أن يُسلح أفراد القوات كلهم بالبنادق . ولم تعد الرماح ضرورية . ولكن كان من الضروري وجود حاجز من « الفولاذ البارد » في وجه خيالة العدو التي تهاجم لحظة يكون العديدون من رماة البنادق يعيدون ملء أسلحتهم ، أو في وجه المشاة المهاجمة ، ولو أن ذلك كان نادرا . بيد أنه أصبح من الممكن الان اقامة هذا الحاجز بوساطة رماة البنادق أنفسهم . . . لقد تم اختراع الحربة (Bayonet) .

كان الرمح والبندقية كلاهما سلاحين ثقيلين ، ولم يكن من الممكن على الرجل الواحد أن يتدبر أمره بكليهما . كان الوزن العادي للبندقية خمسة عشر رطلا (٧ كلغ تقريباً) أو أكثر . وفي العام ١٦٥٧ ، كان هناك رجل اسمه « بوسيغور Puysegur ، من بلدة « بايون » Bayonne ، في جنوب غرب فرنسا ، وكان يقود قوة فرنسية تدافع عن ايبير (Ypres أو Ieper) . وكان هذا ، حسبما كان يبدو مألوفا في تلك المناطق ، بحاجة الى جنود ، وينقصه بشكل خاص رجال يمكن الاعتماد عليهم كرماحة . ولم يكن بوسعه الحصول على أي احتياطي .

ولربما كان هو نفسه من بين الذين كانوا يحملون خناجر قصيرة ذات مقابض مستديرة كانت تصنع آنذاك في « بايون » . ولا بد أنه حاول حشر واحد من هذه الخناجر في فوهة بندقية مكسورة ، ووجد انها ملائمة وتصلح كبديل معقول للرمح . فأرسل الى « بايون » يطلب كمية من الحراب . وعندما وصلت ، وزعها على رماة البنادق عنده ، بعد أن علمهم كيف يركبونها في فوهة أسلحتهم بعد اطلاق النار . وكانت هذه الخناجر معروفة باسم البلدة التي كانت تصنع فيها ، أي بايونيت Bayonnettes . وما أن حل العام ١٦٦٣ - وربما قبل ذلك بقليل - حتى كان الجنود الانكليز يستخدمون الحراب المركبة على الطريقة نفسها .

وبحلول العام ١٦٧١ ، كانت هذه الحراب معممة على شتى الكتائب الفرنسية

---

(٤١) انظر « فيلد » ، « أصداء الحروب القديمة » .

المسلحة « بالغدّارة » Fusilier . وكان من الصعب الاعتماد على هذه الحراب ، لانها كانت تتخلخل في السبطانة المحشورة فيها لدى الطعن بها للمرة الاولى . وعلى هذا الاساس حُسنت في العام ١٦٨٧ بحفر محجر صغير في خشب المقبض يُركب فيه اسفين يثبت كل شيء في مكانه . وسرعان ما تبنى الجيش الفرنسي هذا التغيير الذي استحدثه ڤوبان . Vauban . وما أن أتى العام ١٧٠٣ حتى كانت الرماح ، عمليا ، بحكم المستغنى عنها في فرنسا .

كان من المستحيل الرمي بالبندقية والحربة ـ من النموذج المحشور أو المجهز باسفين (محشورة في فوهة السبطانة) . ففي العام ١٦٨٩ ، هُزمت قوات مليكي انكلترا ، « وليام » و « ماري » ، أمام قوات المرتفعات الاسكتلندية ، التي كان يقودها « دندي » Dundee ، في كيليكرانكي ، لان حراب الانكليز كانت مركبة على بنادقهم سلفا ، وفي وقت كان يُفترض بها أن تطلق النار ، ومن ثم الاضطرار الى الرمي بها أو اعادة ملئها قبل اقتحام القوات الاسكتلندية بوقت غير كاف . فداهمتهم قبل أن يتمكنوا من اعادة تركيب حرابهم . وكان من الطبيعي تماما أن يتحتم على قائد القوات المهزومة التفكير باستنباط نماذج اخرى من الحراب .

وظهرت الحربة الحلقية ، التي كانت تثبت حول سبطانة البندقية بوساطة حلقة معدنية كبيرة . وقد سمحت هذه الطريقة بالرمي وباعادة الملء والحربة مركبة . وأصبح بوسع المشاة أن ينفذوا الرمي والاقتحام في وقت واحد . ونُسّق الرمح نهائيا . ولكن حكم العادة ـ كما هي العادة ـ أبقى هذا السلاح مدة طويلة بعد ابطال استخدامه . وحتى وقت متقدم من القرن الثامن عشر ظل الجيش الانكليزي يحتفظ « بحرس شرف » مكون من أربعة عشر رمحا في كل سرية . ثم عاد الرمح الى الظهور ـ ويا للاسف ـ في العام ١٩٤١ .

بقيت الحراب الحلقية في الخدمة العامة الى ما بعد اختراعها بحوالي مئة سنة . وكان عيبها في صعوبة تركيبها ، وفي كونها تصبح رخوة ان تعرضت الحلقة لاي تمدد مهما كان سببه . وفي العام ١٨٠٥ ، ابتكر السير «جون مور» J. Morre، الذي كان يعمل آنذاك على تثوير تكتيكات الجيش البريطاني، ابتكر حربة يمكن تركيبها بسرعة، ثم تأمينها بوساطة مثبت مزود بنابض... وهي الطريقة المستخدمة حتى عصرنا الراهن.

وبينما كانت تتزايد القوة النارية للبنادق إبان آلقرن السابع عشر ، بسبب التحسن التدريجي الذي كان يُدخل على الاسلحة ذاتها ، وبسبب التدريب الافضل ، وبسبب

اختراع الحربة واختفاء الرمح ، كان هناك نوع آخر من « القوة النارية » التي أخذت تتزايد أهميتها . اذ كان مدفع الميدان آخذا في التحول نحو المزيد من الرشاقة والدقة . ولم يعد شيئا ثقيلا مربكا مهمته محصورة في أغراض الحصار ، لا يستخدم في حرب الحركة الا صدفة . وأخذ يطرأ على المدفعية نوع من التفريق أو « التقسيم في العمل » ، بحيث صار لدى الجيوش « أنظمة حصار » مكونة من مدافع ثقيلة لا تخرج من قواعدها الا لعمليات الحصار ، و « أنظمة ميدان » مكونة من مدافع أخف تُستخدم في الاشتباكات العادية .

في أوائل القرن السابع عشر ، حقق « غوستافوس أدولفوس » ، ملك السويد ، انتصارات ضمنت للمذهب البروتستانتي حتمية الاستمرار ، حققها بالدرجة الاولى عن طريق المهارة في استخدام مدافع الميدان الخفيفة كأسلحة داعمة . وكان هدفه الاكبر باستمرار هو المحافظة على الخفض في أوزان مدافعه ، بحيث كان المدفع عيار رطل ونصف الرطل من أحب المدافع اليه . وصارت المدافع تُصنع بمزيد من الدقة والعناية . ففي البدء ، كان بعضها يُصنع على شكل براميل مجمعة من « شرائح » معدنية محكمة التلاصق بحلقات ملفوفة حولها . وفي وقت لاحق ، صارت المدافع كلها أو معظمها ، تُسك ككتلة معدنية جامدة ، ثم يُجوف قلبها لتكوين السبطانة وحجرة الانفجار . وكان لدى الملك غوستافوس بعض القطع المصنوعة من الجلد المقوى جدا بالمعدن . ولكن مثل هذه المدافع لم يكن ليتحمل ـ الا فيما ندر ـ سوى بضع قنابل ، رغم ضعف البارود وقلة كمية الشحنة المستخدمة في تلك الايام .

ورُكبت أولى القطع الميدانية المتحركة على عربات . وما كان توجيهها مستطاعا الا بتدوير العربة ، كما كان يتم تحريكها شاقوليا ، من أجل المدى ، بطرق بدائية بطيئة . وكان بعضها مجهزا بأسافين على جانبي السبطانة تطرق نحو الاسفل لتحريك مقدمة السلاح نحو الاعلى ، وبعضها الاخر مجهزا « بآلات » أشبه ما تكون بالعوارض التي يستخدمها الرياضيون في القفز العالي ؛ حيث ترفع العارضة الافقية أو تخفض على أوتاد أو مسننات في العوارض الشاقولية ، فترتفع أو تنخفض سبطانة المدفع التي تستند على العارضة الافقية . وكانت المدافع غير مجهزة بآليات تراجع أو اخماد ، كما كانت عرباتها خالية من النوابض . لذا كان كثيرا ما يتخلخل هذا السلاح وينفرط الى قطع بعد بضع من الطلقات .

وفيما بعد ، صارت المدافع تصنع بعجلات ذاتية ، وتصنع لها عربات ترتكز خلفها على الارض . وكانت العربة هي التي تتحمل حركة السلاح التراجعية بانزلاقها نحو الخلف . وبوساطتها صار من السهل رفع العربة وتدوير السلاح بالاتجاه . أما الحركة

الشاقولية فكانت لا تزال تتم بشكل بطيء مربك ، عن طريق الاسافين ، الى أن ظهرت طريقة بزالية قاسية ، حيث كان يدار البزال يدويا ، فتتغير زاوية ارتفاع السلاح مع كل دورة .

بيد أن عدد مدافع الميدان كان لا يزال ابان القرنين ١٦ و ١٧ ، وأوائل القرن ١٨ قليلاً جداً بالنسبة الى احجام الجيوش . فلنتذكر أن القرطاجيين الذين كانوا يخوضون حرب مواقع دفاعية عن مدينتهم ، كانوا يستخدمون « آلة » واحدة ، أو « قطعة مدفعية » واحدة ، لكل مئة جندي . وفي معركة بلنهايم (١٧٠٤) كان لدى « مارلبورو » مدفع ميدان واحد لكل ٩٠٠ عسكري ، وكان مع نابليون ، في معركة بورودينو (١٨١٢) ، مدفع واحد لكل ٢٤٠ جندياً . وفي هذه المعركة الكبيرة التي نشبت على أبواب موسكو ، تم على ما يبدو أكثف تركيز للقوى النارية عرفه عهد نابليون . وكان الروس متفوقين على نابليون مدفعياً ، ومتفوقين حتى في نسبة المدافع الى القوى البشرية . وفي معركة واترلو ، كان لدى ولنغتون ، كما لاحظنا سابقاً ، حوالي مدفع واحد لكل ٤٠٠ جندي . وكان نابليون أفضل تسليحاً ، حيث كان لديه مدفع واحد لكل ٣٠٠ جندي .

لكننا دخلنا ، من خلال الحقبة النابليونية ، طورا جديدا من أطوار الصراع المسلح ، طورا أصبحت فيه المدفعية أهم مما كانت عليه طوال القرون الثلاثة السابقة . فخلال تلك القرون الثلاثة لم تكن المدفعية غير أسلحة داعمة ، نادرا ما كانت ذات أثر حاسم ، ولو أن أهميتها كانت في تزايد مضطرد .

خلال هذه الفترة ، ظهر سلاح آخر ليؤدي مهمة المدفع نفسها . وهذا السلاح هو « الرمانة اليدوية » ، التي سميت « غرينيد » Grenade بسبب تماثل شكلها مع شكل « الرمانة » . وبما أن البنادق لم تكن دقيقة ، وكان على القوى المهاجمة أن تتقرب من خطوط العدو حتى مسافة قريبة جدا قبل أن تتمكن من الرمي ، ثم الاستعداد للاقتحام ، كان من الممكن أن يتقدم الجنود عدواً ، وبيد كل منهم قذيفة ذات فتيل مشتعل يرميها على صفوف العدو . وكان هذا عملا صعبا ، ولا يخلو من المجازفة . . لذا ، كان رماة القنابل اليدوية يُنتقون من بين أقوى الجنود وأطولهم . ويرجع تاريخ استخدام وحدات خاصة لرمي القنابل اليدوية أو تفجيرها الى حوالي العام ١٦٦٠ . وما أن قرب العام ١٧٤٠ حتى كان لدى الروس كتائب مستقلة من رماة الرمانات . ولكن من الصعب تقرير ما اذا كان هؤلاء جميعا يُسلحون فعلا بالرمانات . فقد أصبحت عبارة « رامي رمانة » لقبا يحمل معنى الشرف .

شكل نابليون ألوية وفرقا كاملة من قاذفي الرمانات ، لكن هؤلاء كانوا يُسلحون كجنود المشاة العاديين . وبما أن أطول الرجال وأقواهم هم الذين يُنتقون أصلا ليكونوا «رماة رمانات» ، ولان مكان هؤلاء كان موقع الشرف ، أي « على يمين التشكيل » ، فقد تحولت عبارة « رامي رمانة » الى مجرد لقب . و « حرس الشرف الرماة » البريطانيون ، الذين كانوا يعرفون سابقا باسم « حرس الشرف المشاة » ، نالوا لقبهم بعد العام ١٨١٥ ، كتكريم لشجاعتهم في معركة واترلو . وهؤلاء ، بلقبهم الجديد ، لم يغيروا من أسلحتهم أو تكتيكاتهم .

ظلت سرايا قاذفي الرمانات ، الذين كان بعضهم مسلحا برمانات يدوية ، وبعضهم الاخر بمعدات المشاة العادية ، ولكنهم هم « قوات العاصفة » في وحداتهم ، ظلت موجودة في الجيش البريطاني حتى العام ١٨٥٨ . وعندما حلت البندقية المحلزنة محل الملساء لم يعد بوسع سرايا قاذفي الرمانات بكاملها أن تدهم خطوط العدو ، وتدحرج أو تلقي الرمانات فيما بين سيقان خصومها . اذ صار باستطاعة رماة البنادق المحلزنة ـ وحتى رماة البنادق الملساء ، ذات الدقة المعقولة ـ أن يتصيدوا رماة الرمانات ، الواحد تلو الاخر ، قبل أن يبلغوا مسافة قذف الرمانة . كما صار يعمل المكلفون بالمناوشة على منعهم من التقرب حتى خطوط العدو الرئيسة . لذا بُدىء بالتخلي عن الرمانة اليدوية خلال الفترة النابليونية ، فظلت طوال القرن اللاحق شبه غائبة عن الصراعات المسلحة ، الى أن استردت حياتها بحرب الخنادق عام ١٩١٤ .

بلغ الطور الاول من الحرب الحديثة ، وهو الطور الذي بدأنا بمعالجته ، بلغ ذروة تطوره بظهور جيش الملك البروسي ، فريدريك الكبير . فعندما أتى زمن فريدريك ، كانت الخيالة قد أصبحت بلا أهمية نسبياً في المعركة . ومن خلال العديد من الحملات ، بما فيها بعض حملات فريدريك نفسه ، اكتسبت الخيالة لقب « السلاح الحاسم » ، بسبب تكتيكاتها الصدامية ، أو توحيدها بين النيران والصدمة ، وهو السبب الذي كانت تحقق به عمليا النصر في المعارك ، بعد أن تكون المشاة قد أضعفت أو خلخلت تنظيم أحد الجيوش المعادية . لكن الواقع أن قتال المشاة هذه هو الحاسم : فلم يكن دور الخيالة الا أن يبت بأمر لاحت نهايته . وفي بعض الحملات ، مثل حملات كرومويل ، لم يكن ثمة شك في أن الخيالة كانت هي السلاح الحاسم . وعندما أتى زمن مارلبورو ، لم يكن قد بقي للمشاة تلك القيمة العظيمة عندما يُراد استخدام النيران والصدمة . اذ كانت قوة نيران المسدس أقل من اللازم ، وكانت قوة نيران المشاة المسلحة بالبنادق والحراب كبيرة جدا . لذا ، كان من شأن الخيالة التي تتوقف لترمي أن تعرض نفسها لرشقة مهلكة يطلقها جزء من المشاة

التي تهاجمها هذه الخيالة . فمارلبورو لم يسمح لخيالته « الا بثلاث عبوات من البارود والكرات لكل جندي خلال الحملة الواحدة ، وذلك لحراسة جيادهم فقط أثناء رعيها ، لا لتستخدم في الاعمال القتالية » . لكن الخيالة ظلت ذات قيمة كبيرة في عمليات الصدمة البحتة . فبعد أن كان مارلبورو يثبت العدو في مكانه بهجمات مشاة قوية ، كان يقذف بخيالته على هذا العدو ليشتت شمل تشكيلاته .

الخيالة هدف كبير . وكانت قوة نيران المشاة التي تزايدت أمام فريدريك ، هي التي قللت من شأن الحصان ، وجعلت دوره مكملا . . . ودور مطاردة فقط . ولكن تشكيلات المشاة بقيت على تراصها المبالغ فيه ، بحكم استمرار العادة من جهة ، ومن جهة ثانية بسبب الحاجة الى الصدمة التي تحدثها المشاة لاتمام ما بدأته قوة النيران . وكان فريدريك يدرب مشاة جيشه كله على الحركة وكأنها رجل واحد .

وخلال القرون الثلاثة التي سبقت فريدريك ، شهد الصراع المسلح العديد من التطورات التي لا مجال لمحاولة سردها هنا . فقد تطور نظام الخنادق في شمالي فرنسا ، وتطورت تحصينات فوبان المتينة ، وظهر البطء المتناهي في عمليات الحصار ، واختلفت عادة المكوث في المعسكرات شتاء اكتفاء بشن حملة واحدة كل سنة . ومن خلال هذه العناصر وغيرها ، استطاعت الانظمة الملكية الفردية في أوروبا أن تنشىء « نظام قتال » جسّده فريدريك ، وساعد في الوقت نفسه على تدميره .

كان « نظام » حرب القرن الثامن عشر البطيء نتيجة مباشرة للاهداف السياسية للمتخاصمين ، وللعلاقات الاجتماعية فيما بين الدول والجنود التابعين لها . وفي هذه الفترة لم يكن هناك سوى القليل من الحروب ذات الطابع الوطني : اذ كانت الحرب مكملة لسياسة النظام الفردي الذي كان يحاول أن يكتسب أي مقاطعة أو مدينة . وكان لدى الحكام العدائيين مشاعر ذاتية فيما يتعلق بممتلكاتهم الخاصة : فهم حريصون جدا على ألا يخسروا أيا من مدنهم ، في الوقت الذي هم فيه راغبون جدا في انتزاع أي من مدن الاخرين . لذا كانوا ينشرون جيوشهم على شكل حاميات تغطي جبهات واسعة . ونادرا ما كانوا يحشدونها من أجل المعارك ، وان فعلوا فببطء . وكانوا يتحاشونها قدر المستطاع ، ويأملون في تحقيق أهدافهم المحدودة ، وبأقل تكاليف ممكنة ، عن طريق المحاصرة والمناورة اللتين تُمارسان ضد مواصلات العدو .

وجنود تلك الفترة كانوا عادة من القيان أو الفلاحين المساقين ، الذين ليست لهم مصلحة تذكر في الحروب التي كانوا يخوضونها . وكان يُفرض عليهم البقاء في معسكرات أو

مخيمات خوفا من فرارهم . ولم يكونوا مؤتمنين على تدبر شؤون تموينهم وامداداتهم الاخرى من ضواحي المدن المعادية. لذا، كان لا بد من تأمين لوازمهم كلها من مستودعات خلفية. وكان يتحتم ألا تكون تلك المستودعات بعيدة، فالطرق كانت رديئة، والعربات بطيئة وداجـة . وان يكن المستودع بعيداً، كان لا بد من أن تنطلق العربات امزودة بما تحتاجه جياد الخيالة. ولكن قبل أن تصل العربات، تكون خيول أو بغال الجر قد التهمت ما كانت تجره كله. لذا كان لا بد لأي جيش سينتقل الى مكان بعيد من أن ينشىء خلفه عدداً من المستودعات، بحيث تلحق به احتياجاته على مراحل متعاقبة، ومن مستودع الى آخر، حتى تبلغ القوات المقاتلة.

ومسألة الامداد هذه ، كثيرا ما أثرت ، والى حد بعيد جدا ، على الاستراتيجية والتكتيكات . وما زال الامر كذلك حتى يومنا هذا . ولكن ربما لم يسبق ان كان هناك نظام حربي خاضع لتحكم الامداد المطلق أكثر من خضوع نظام القرن الثامن عشر . . . على الاقل ، في أوروبا . وفي آسيا ، وفي أغلب الاحيان ، لم تكن الجيوش تُثقل بضخامة حجم الامدادات ، فحسب ، بل أيضا بمئات الالوف من « حاشية » كل معسكر . وقد وصف كاتب فرنسي جيش أحد أباطرة المغول على الشكل التالي :

« شكلت الخيالة الجزء الاساس ، ولم تكن المشاة بالحجم الذي أشيع عنها ، الا اذا كان هناك خلط بين القوة القتالية وبين الخدم وباقي الناس الآتين من الحوانيت والاسواق ، والذين يلحقون بالجيش : اذ في هذه الحالة يمكن تصديق تقدير العدد المرافق للملك وحده ، وهو من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ألف نسمة ، وربما أكثر أحيانا . . . مثال ذلك : عندما يتأكد أن الملك سيغيب عن مدينته الرئيسة . ولن يبدو مثل هذا الامر غريبا جدا بالنسبة الى من يعرف مدى حجم العمل الذي تتطلبه الخيام والمطابخ والملابس والاثاث . وغالبا ما يكون هناك نساء ، وهناك الفيلة والجمال والثيران والجياد والحملة والعلّافة والباعة وتجار شتى أصناف السلع والخدم . . . وهؤلاء يمشون في أثر الجيوش ، أو لن يكون هذا عجيبا بالنسبة الى من يدرك خصوصية الدولة والحكومة في ذلك البلد ، أي في المملكة ، حيث الملك هو وحده ، دون سواه ، مالك أرض المملكة كلها . وعن ذلك تنشأ نتيجة حتمية هي أن جميع سكان عاصمة مثل دلهي ، أو مدينة رئيسية مثل أغرا (في شمالي الهند) ، يعتمدون في علة معاشهم بشكل كلي تقريبا ، على الجيش ، وهم بالتالي مرغمون على اللحاق بالملك ان هو يتوجه نحو ميادين القتال ، مهما يطل زمن ترحاله . فهذه المدن لا تشبه في شيء مدناً مثل باريس، ولا تستطيع ان تكون كذلك بحكم كونها أقرب إلى الثكنات العسكرية ولا تختلف عنها إلا من حيث انها ذات موقع أفضل من

الأراضي المفتوحة، وأكثر منها ملاءمة لكي تكون معسكراً. . .».

خلال القرن الثامن عشر ، كان من النادر أن تتمكن الجيوش الاوروبية من اصطحاب هذا القدر من « مؤسسات الامداد » . لكن غايـدباي Guideby يأتي في كتابه « تاريخ حرب الاعوام الثلاثين » على ذكر جيش تعداده ٣٨ ألف مقاتل ، كان يتطلب ١٢٧ ألفا من النساء والاطفال والباعة والطهاة ، وآخرين من أتباع المعسكر . كما أن أحد الجيوش الفرنسية ، التي كانت تقاتل ضد فريدريك ، خلف بعد تراجعه « حاجيات ضباطه من المراهم والعطور والمساحيق وقمصان النوم وحقائب الشعر المستعار والمظلات والببغاوات ، بينما كان هناك حشد من الجلاوزة النائحين والطباخين والمزينين والممثلين والعواهر ، الذين أرغموا على ترك المدينة ، ليلحقوا بأسيادهم المدللين . . . »

يتضح أن جيش القرن الثامن عشر ، الـذي كانت تتهدد مواصلاته أو مستودعاته ، كان يتعرض لخسائر كبيرة . لذا صارت الحرب ، ولفترة ما ، نوعا من المناورة البطيئة ، فيها يعد قطع ثمانية أميال يوميا تقدما جيدا ، واحتلال ثلاث مدن خلال الحملة الواحدة يشكل انجازا .

ظل فريدريك الكبير ، في حربه ضد امبراطوريات قوية ، بقوى غالبا ما تكون دون قوى خصومه ، ظل ـ والى حد ما ـ ضمن قواعد هذه اللعبة . ولكن كان عليه في النواحي الاخرى الحيوية أن يكسر هذه القواعد . كانت الحرب بطيئة ، ولكنها كانت ، في النهاية ، مسألة صدمة ، ولو أن النيران كانت ذات دور كبير في جعل الحسم بوساطة الصدمة أمرا ممكنا . وكان قرار فريدريك ، منذ البدء ، أن يغير أساليب الحرب تلك . . . فكان عليه أن يبني جيشا قادرا على التحرك بسرعة . وكان عليه أن يخلق مشاة قادرة على الرمي بسرعة . ولكنه حقق ذلك عن طريق التقيد بالحدود المنطقية لما كان عليه التدريب في أيامه . فتدربت قواته على السير بالخطوة السريعة ، وعلى الرمي بسرعة أكبر من سرعة خصومه . وكان فريدريك يتباهى بأن جنوده قادرون على اطلاق النار بسرعة تساوي ثلاثة أضعاف سرعة جنود الخصم . وعلم جيشه أن يغير تشكيله بسرعة كبرى من رتل يسير على طول طريق الى نسق احادي يتجه نحو الجناح . وكانت الجيوش التي قاتلها تتخذ تشكيلاتها ببطء شديد ، وكانت كتب التدريب غير المعقولة ، السائدة آنذاك ، تكاد توثقهم بالارض التي يقفون عليها . وربما كان بوسع كل وحدة أن تتقدم أو تتراجع ، ولكنها لم تكن لتستطيع التشكيل بشكل مواجه أو مائل ـ ضمن زاوية ما ـ بالنسبة الى توضعها الاساس ، الا بأقصى صعوبة ، وبهدر زمن كبير . أما فريدريك فقد درب جنوده

على ذلك ، ودربهم أيضا على استثمار قوة النيران حتى الحد الاقصى ، من خلال توضعهم على نسق منتشر على عرض كبير ، وبدون عمق .

ومن خلال تفوقه في القدرة على الحركة ، كان يستطيع فريدريك أن يحرك في ميدان المعركة نفسها ، احد جناحي جيشه ، أو جيشه كله تقريبا ، ليلتف حول جناح الخصم ، ومن ثم مهاجمته بشكل مائل ، وبحيث تتركز نيران جنوده على نقاط الازدحام في التشكيل المعادي ، الواحدة بعد الاخرى . وفي كتاب « المعارك الحاسمة » Decisive Bottles ، كتب الجنرال فولر Fuller عن فريدريك :

« . . . في معاركه الاولى ، كان يعتمد على الحربة أكثر من اعتماده على الرصاصة ، ولكن سرعان ما أدرك خطأه ، حيث أخذ في معاركه التالية يبذل ما في وسعه لتطوير قوتي بنادقه ومدفعيته معا ، فكان هو مبتكر أول مدفعية خيل (مجرورة) ظهرت الى عالم الوجود ، وهي السلاح الذي لم يكن يحظى باهتمام يذكر . ومنذ العام ١٧٥٩ وحتى ثلاثين سنة تلت ، ظلت بروسيا البلد الوحيد في أوروبا الذي يملك سلاح « مدفعية خيل » . والاهم من ذلك انه كان من المؤمنين جدا بقيمة القذاف (الهاوتزر) ، لان النمساويين الذين كانوا ينفذون الاعمال الدفاعية بشكل تقليدي ، كانوا متمسكين بابقاء احتياطاتهم خلف سلاسل التلال التي تحتلها أنساق الرمي في جيشهم . ومع ذلك ، ورغم كونه مدفعيا واضح الرؤ ية ، فلم يستوعب قط القيمة الكاملة للمشاة الخفيفة المدربة ، وهذا مما يزيد الدهشة ، لان مسؤ ولية هزائمه في معارك كولين (Kolin) وأوستيان كروتس (Austian Croats) وباندورز (Pandours) . . تقع بالدرجة الاولى ، على هذه الناحية»..

ليس المقصود « بمدفعية الخيل » تلك التي تجر ببطء الى ميدان المعركة وبدجيج ، بوساطة مجموعات طويلة من الخيل ، والتي لا تستطيع أن تنتقل من المواقع التي تربضت فيها أثناء سير الاعمال القتالية ، بل المقصود بها تلك المدفعية التي يمكن أن تحمل على عجلات وتقطر وتتحرك الى موقع جديد ، حسب تطورات الموقف القتالي ، بسرعة تساوي سرعة الخيالة التي ترافقها .

وهناك أيضا حقق فريدريك انجازا في الحركية التكتيكية عن طريق تدريب رجاله بطول أناة ، وتمرينهم بشكل متواصل . فقد ظلت ا لمعركة طول قرنين تقريبا على شكل مواجهة تصادمية بين جيشين يتقابلان وجها لوجه . وحتى معارك مارلبورو كان لها هذا الطابع . أما فريدريك فبعث بالمناورة التكتيكية الى الحياة منْ جديد ، أي أحيا التحول والالتفاف . ومن الامثلة الرائعة ، واحد من أهم انتصاراته الباهرة ، في معركة « لوثن »

Luthen ، أن جناحه المهاجم ضغط مشاة العدو ، وضم بعضها الى البعض الآخر ، بحيث تكتلت أثناء احدى اللحظات الحاسمة من المعركة في تشكيل عمقه من ٣٠ ـ ١٠٠ نسق . وكانت مشاته هو على نسقين أو ثلاثة ، الامر الذي مكنها كلها من استخدام اسلحتها ، بينما لم يكن باستطاعة تلك الكتلة النمساوية المضغوطة أن تستخدم الا نسبة قليلة من بنادقها. كان بوسع مدفعية فريدريك أن تصيب أهدافاً أنى سقطت قذائفها. وعندما اقتربت نهاية المعركة عملت خيالته على طرد الخيالة النمساوية من الميدان، وهاجمت مؤخرة المشاة النمساوية التي دبت فيها الفوضى. .. وكانت معركة يكاد النصر فيها يساوي النصر في معركة «كاني» Cannae[٤٢].

اذاً ، كان جيش فريدريك الكبير يشهد نهاية فترة طويلة من التطور كانت العملية الرئيسة فيها انشاء قوة قادرة على الضرب ، وكأنها مطرقة ثقيلة واحدة ، وتزيد من قدرتها قوة النيران . لكن جيش فريدريك كان يحمل معه بذور فترة جديدة ، مثله في ذلك مثل معظم التطورات التاريخية الكبرى التي تحدد اطار فترة ما ، ثم ترفع هذه الفترة الى أعلى مستوى لها . فقد اشترى فريدريك القدرة على الحركة بعملة التدريب القديمة ، بيد أنه اشترى منها كميات جعلت قواته ، كنتيجة لذلك ، تلج الفترة الثورية الجديدة ، حيث لا التدريب ، بل الحيوية هي التي وجهت الصراع المسلح ، وبشكل حاد وعنيف ، نحو السرعة والكفاءة الحركية . وبهذا يعتبر فريدريك هو المحدد لاطار عصر رامي البندقية المدرب . وفي الوقت نفسه ، وبمدفعية الخيل التي أوجدها ، يعتبر هو المبشر بنابليون المدفعي .

---

(٤٢) معركة «كاني» Cannae ، احدى أعنف معارك «الحرب البونية الثانية (٢١٦ ق . م.) ، وفيها أنزل هانيبعل أقسى هزيمة بقوات روما ، وذلك عندما تظاهر كبد قواته بأنه يتراجع أمام الضغط الروماني ، مما شجع الرومان على الاندفاع خلف هذا الكبد . وتمكنت أجنحة هانيبعل من الاطباق على القوات الرومانية ، لتأتي الخيالة وتحكم الطوق حولها من الخلف . وكانت مجزرة خسر الرومان فيها ٥٠ ألف قتيل و ٤٥٠٠ أسير ، مقابل ٥٧٠٠ اصابة قرطاجية .

المعرب

٧) نابوليون

نابليون هو المدفعي الذي أصبح امبراطورا . ومن سبقه من قادة خلفوا بصماتهم على تاريخ الحرب والجنس البشري ، وكانوا جديرين بأن تسجل أسماؤهم الى جانب اسمه ، هم جنود من نوع آخر : غوستافوس أدلفوس كان ملكا يحب المدافع . ولكن هذا مختلف جدا عن المدفعي الذي يحب أن يصنع ملوكا . والفترة التي نلج بابها مع نابليون هي فترة يُستهل فيها تبش الحرب من طيات أكفان الماضي لتسترد حركتها وحسمها ، ويبدأ ذلك الرامي الماهر « المناوش » ، ويتبعه المدفع ، السلاح البعيد المدى . واستطاع المدفع والبندقية ، اللذان يمكن تسديدهما ، أن يثوّرا الحرب بشكل يجعل عملية التغير تحرض زخمها الذاتي بذاتها ، وتتخطى كثيرا تجديدات نابليون نفسه ، وتتجاوز حتى قدرته على الفهم .

والتحولات السياسية والاقتصادية التي ادت الى الثورة الفرنسية ، وأتاحت فرصة أن يكون نابليون وارثها ومنفذها ، ما هي محل اهتمامنا في هذه الصفحات . ولكن كل امرىء يعرف أن الثورة الصناعية كانت ماضية ، خلال الاعوام التي سبقت الثورة الفرنسية ، في خلق عصر الحديد ، وعصر المكننة البسيطة ، وعصر القوة الميكانيكية . ويبدأ هذا العصر بحرب الاستقلال الاميركية ، ومن ثم بتكوين الدولة التي قدر لها فيما بعد - في أيامنا نحن - أن توصل القوى الميكانيكية الى أعلى مستوياتها في التطور . ويبدأ أول ظهور لشكل أسلحة

الفترة النابليونية وتكتيكاتها ، وبشكل معبر تماما ، في مكان أصبح اسمه الان بيتسبيرغ . هناك التقت القوات الانكليزية ، بميليشياتها المساقة من المستعمرات ، كقوات معاونة ، والتي كان جورج واشنطن من ضباطها ، التقت القوات الفرنسية ، التي كانت قواتها المعاونة كلها من الهنود . ولم تكن هذه الطريقة لتبدو غريبة بالنسبة الى بعض جنود جيش الملك العظيم ، الذي كان قادما من فارس ليغزو بلاد الاغريق في العام ٤٨٠ ق . م . كان الهنود يقاتلون بالسهام وبأسلوب الكمائن . وما كانوا يعرفون شيئا عن التدريب ، بل يعرفون الكثير عن الاخفاء والتمويه . ولم تكن أفضل القوات تدريبا بذات جدوى في مواجهتهم ، ان لم تكن تعرف ما هو أكثر من الاشكال القتالية التي صارت تقليدية في الميادين الاوروبية . ولدى كل صدام بين الافواج المدربة وقبائل « الشجعان » ، كانت الحرب تعود الى بدائيتها . . . كما هو حال الفنون أحيانا . وكانت تتحطم الاعراف التي استغرق بناؤ ها قرونا ، لكي تنشأ على أنقاضها أعراف تجسد امكانات الالات الجديدة الى جانب امكانات الالات القديمة .

اضطر الجيش البريطاني لخلق جنود بوسعهم مواجهة الهنود ، حلفاء الفرنسيين ، في شروط متكافئة . وأدت هذه الحاجة الى تشكيل « البيادة الاميركية الملكية » ، أول مشاة حديثة . وكان طلائعو « لواء البيادة » هذا يرتدون زيا صمم لاخفاء لابسه . أما الأزياء السابقة ، بدءا من بزات الحرس الملكي ، أو حاشية النبلاء ، ومرورا بمعاطف قوات كرومويل الحمراء ، وانتهاء بعدة مشاة الملك جورج الثالث الضيقة المضنية ، فكلها كانت مصممة لتبرز مرتديها بالدرجة الاولى . ففي المعارك التي كانت تشبه المباريات الضخمة الطاحنة في الميادين المفتوحة ، كان القادة والجنود بحاجة الى معرفة من هم في صفهم ، ومن هم ضدهم . لذا ، كانت البزات التي يرتدونها ذات ألوان زاهية ، كالكنزات التي ترتديها فرق كرة القدم . وغالبا ما كانت ، مثلها ، ضيقة ، وحتى مزركشة ، لاسباب منها اعتبار ذلك مفيدا في تدريب الجنود على الآلية ، لجعلهم يكدحون في تلميع أزرارهم ومعداتهم الاخرى ، ومنها أن ترف الزي برهان على الثروة ، وبالتالي برهان على الامكانات القتالية التي يملكها الحاكم الفرد ، الذي يعمل في خدمته الجندي مرتدي هذا الزي . لكن زيا من هذا النوع كان عبئا مضنيا في غابات أميركا . لذا كانت « البيادة » ترتدي معاطف خضراء ، بأزرار سوداء . وهذا ما لا يزال ورثتهم يرتدونه حتى اليوم .

جورج واشنطن هو الضابط الوحيد ـ من الجانب الانكليزي ـ الذي استطاع أن ينفذ بجلده حيا من كارثة بيتسبيرغ (كان اسمها آنذاك قلعة دوكوسن) Duquesne . وبعد بضع سنين أخذ يعوّد نفسه ، ويعلم الجيش الانكليزي ، وبحدود أوسع مما يمكن استنتاجه

من كمين معقد واحد ، الفرص التي تتيحها التكتيكات الجديدة . وكانت هذه الفرص قد نشأت عن حقيقة أن السلاح الدقيق ، بمداه الكبير ، ظهر الى حيز الوجود . فالبندقية ، والبندقية المحلزنة بشكل خاص ، لم تعد سلاحا قيمته محصورة في المئة ياردة ، أو ما يقاربها ، التي تواجه بها قوات متراصة . فصار من الممكن استخدامها ضد شخص واحد*. وحتى ضد شخص مختف جزئيا . وصار من الممكن استخدامها على أمدية هي من الكبر بحيث أن باستطاعة مستخدمها أن يعيد تعبئتها قبل أن يدهمه خصمه .

ان هذا التطور على غاية الاهمية . ولقد سبق أن وصفنا كيف كان على المشاة ، ببنادقهم القديمة التي كانت بطيئة وداجة وغير دقيقة ، أن يبقوا على ترتيب متراص . وان لم يكونوا كذلك ، يصبح من المحتمل أن تداهمهم الخيالة ، أو تنقض عليهم مشاة الخصم ، أثناء اعادة الملء ، حيث يكونون بلا حول ولا قوة . ولكن عندما قصر الوقت الذي تستغرقه اعادة الملء ، وعندما تزايدت خطورة التقرب حتى بضع مئات الياردات من المشاة المدربة على التسديد ، اتضح الا بد من مجيء فترة يتحلحل فيها قصر الوقت هذا ، ويصبح جزء من تشكيل المشاة ـ وربما كله ـ قادرا على العمل بتشكيل مفتوح ، معتمدا على قوته النارية ، وعلى كفاءته في التحرك لحماية نفسه من أعمال العدو . ولقد تم بلوغ هذه الفترة قبل العام ١٧٧٦ ، يوم فُرض على ميليشيا واشنطن المهلهلة ، وعلى « قاربيه »[٤٣] ، شبه الجياع ، أن يواجهوا القوات البريطانية والالمانية الجيدة ، واستطاعوا أن يفاجئوا الدنيا ، ويكيلوا لتلك القوات ضربات قاسية .

ظل ، ولأجيال ، ولربما لقرون ، من مصلحة قطعة من المشاة أن تبدأ هي بالرمي ، عندما تكون القوات على تماس قريب من العدو . وايعاز : « أيها السادة الحرس ، ارموا أولا . . » لم يكن مجرد مجاملة لبقة ، بل كان في ذلك فائدة ما يجب أن تجنى . وكان بالامكان التقدم نحو الامام للرمي ، ومن ثم للانقضاض ، عبر الدخان الكثيف المنطلق مع رشقة نيران العدو ، في الوقت الذي يكون فيه جنوده يعيدون تعبئة بنادقهم . أما الان فقد أصبح العدو قادرا على فتح نيرانه من مسافة كبيرة ، ثم الرمي ثانية قبل الوصول اليه . وسرعان ما صار من المفيد جدا أن يكون المرء هو البادىء باطلاق النار . وعلى هذا الاساس سرعان ما أصبح هناك مجال لعمل « المناوشين » في كل ميدان معركة .

بيد أن لدى الجيوش ميلا للتمسك بالقديم برغم التجديدات على أن تتخذ مسارات

---

(٤٣) « قاربين » His Continentals ، أبناء القارة (أميركا) التي ينتمي اليها واشنطن .

المعرب

ملتوية . فقوات الميليشيا ، أو المتطوعين ، مشكلة على عجل ، من مدنيين يسهل عليهم عمل ما هو معقول ، وتبني التكتيكات الواضحة . وقد أصبحت « المناوشة والمناوشون » في وضع معقول جدا ، تقنيا ، قبل أن تنشب حرب الاستقلال الاميركية . لكن طرقا كهذه ، وجنودا كهؤلاء ، كانوا ملامين كليا ، على أساس الجبن والغدر ، ولائموهم هم الجنود الشرفاء . وأتى البرهان على امكانية فاعلية المناوشين في معركة سهول أبراهام ، قرب كوبك ، في العام ١٧٥٩ ، عندما « أصيب عدد كبير من ضباطنا وجنودنا بجروح على يد جماعة من مواطني كوبك ، كانوا منتقين كرماة مهرة ، كمنوا متخفين في حقل ذرة مقابل ميمنتنا . ومن هؤلاء الخبثة تلقى الجنرال « وولف » جرحيه الاثنين عندما كان يعطي توجيهاته وهو على رأس القوات . .[٤٤] » .

وسرعان ما تمثل آخرون بهؤلاء « الخبثة » ، آخرون لم تتوقف امكانية نيرانهم عند قتل جنرال لحظة انتصاره ، بل تتعدى ذلك الى القدرة على قهر جيوش بأكملها . وفيما يلي قول لضابط انكليزي يصف فيه تأثير تكتيكات العصابات التي اتبعها أول المقاتلين من سكان المستعمرات الاميركية ، قرب لكسينغتون Lexington :

« . . . وصل الانذار للبلد عن وصولنا ، وحملوا السلاح على الفور ، واحتلوا مواقعهم المختلفة خلف الجدران وما شابه ذلك ، حول جوانبنا . وهكذا كانوا يضايقوننا من الامام ومن الجوانب ومن الخلف . . . وما كان ممكنا لنا أن نواجه أي رجل الا وهو خلف شجيرة ، أو طرف صخرة أو شجرة ، وكان على الفور يصلينا بناره ويبتعد . .[٤٥] »

ان من الطبيعي أن تطرأ لجندي المشاة الحديث فكرة « الغطاء » ، وهو بحاجة الى من يذكره بأن الاشتباكات الكبرى فيما بين الجيوش ظلت طوال مئات السنين تدور خارج الأغطية ، أو بتأمين الغطاء (التغطية) لموقع أو موقعين تتمسك بهما وحدات القوات . وبعد معركة « بنكر هيل » التي كانت بداية حرب الاستقلال الاميركية كتب معاون قائد احدى الكتائب البحرية البريطانية الى أهله يقول : « لقد قتلنا عددا من المتمردين ، ولكن المساتر التي كانوا يقاتلون خلفها جعلت خسائرهم أقل بكثير مما لو كان الامر على غير ذلك . . . » . وما يقره المؤرخون عموما الان هو أن هذا الاشتباك كان ، رغم احتفاظ

---

(٤٤) انظر « فيلد » ، أصداء الحروب القديمة » .
(٤٥) انظر المرجع السابق .

البريطانيين بتسيدهم التقني للوضع ، انتصارا للاميركيين الذين أدت قوة نيرانهم ، واستخدامهم للأغطية ، الى ايقاع خسائر كانت من الفداحة بحيث أعاقت القوة البريطانية آنذاك ، ولو جزئياً .

وكتب ضابط بريطاني آخر عن المعركة نفسها يقول : « الارض هي أقوى ما أستطيع تصوره من أنواع الدفاع التي أقامها المتمردون . فهي تشبه تماما دفاعات الهنود . . . وأعني : بقاعا صغيرة مغلقة ذات ممرات ضيقة ، محاطة بأسوار حجرية ، وأكمات صغيرة تتحكم بالممرات ، وأشجارا ملائمة للرمي ، وأرضا سبخية بالغة الوعورة يصعب على القوات اجتيازها . . . »

وفي مرحلة لاحقة من هذه الحملة ، وجدت القوات البريطانية ان النمط العادي لاسوار المستعمرات يشكل عقبة عسكرية خطيرة جدا ، حيث كانت مبنية من الاشجار المقتطعة من الارض ، فتكوم جذوعها على شكل التواءات مفتوحة ذات نهايات مسدودة .

وهكذا ، نجد لدى بداية النظام المفتوح لقتال المشاة ، لا مجرد الظهور الاول للغطاء فحسب ، بل أيضاً استخدام التحصينات الميدانية التي تغطي معظم جبهة الجيش في المعركة الفعلية . وظلت التحصينات الميدانية لقرون عديدة تغطي قسما كبيرا من جبهة الجيوش الممتدة خطيا عبر « الاراضي الواطئة » ، ميدان الصراعات الاوروبية . ولكن غالبا ما كانت تضطر هذه الجيوش الى القتال خارج خنادقها ولم تكن المعركة لتحدث الا عندما كان الخصم ، وهو بلا وقاية ، عن طريق خرق تشكيله ، أو الالتفاف حول جناحه . وهنا ندخل مرحلة تحولت فيها تحصينات « معركة مونماوث[٤٦] » Monmouth ، وبشكل تدريجي ، الى اختراقات الجنرال « لي » في المعارك التي نشبت في الفيافي الفرجينية ، ومن ثم الى حرب الخنادق في ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

كان جيش واشنطن يضم وحدات عديدة ، مثل « رماة مورغان » التي كانت تتألف ، في معظمها من اناس كانوا يحصلون على علة معاشهم عن طريق الصيد . وكانوا يحملون « بنادق سنجابية » . وكانت هذه أسلحة تتميز بدقة تمكنها من اصابة السنجاب . وكان رماتها يشكلون « مناوشين » مثاليين . وكان لاستقلاليتهم وبداهتهم أهمية توازي

---

(٤٦) معركة « مونماوث » Monmouth ، أطول معارك حرب الاستقلال الاميركية ، وآخر اشتباك مهم في هذه الحرب (١٧٧٨) ، وفيها كادت تحل الكارثة بقوات الجنرال « لي » بمطاردة البريطانيين ، لولا وصول قوات واشنطن في الوقت المناسب .

المعرب

أهمية أسلحتهم . ولم يكونوا بحاجة الى معلمي تدريب ، ولم تكن هناك ضرورة لقرع الطبل « ايذانا » لهم قبل أن يطلقوا النار . وكانت البنادق المحلزنة أفضل بكثير من بواريد البريطانيين الملساء ، « تاور » . وحتى البارودة الاميركية العادية كانت أفضل من هذا السلاح القديم ، الذي كانت اصابة الهدف به على مسافة أربعين ذراعا ، أو أكثر ، أمرا نادرا . وعلى سبيل المثال ، كانت الصوانة الصفراء المستعملة للبنادق البريطانية لا تصلح الا لخمس عشرة طلقة فقط ، بينما كانت الصوانة الاميركية السوداء تكفي لستين طلقة . ولم يكن جيش واشنطن مؤلفا من « مناوشين » وقوات شعبية (ميليشيا) وحسب . فمن جنوده الخاصين ، ذوي الخدمة الطويلة نسبيا ، استطاع أن « يروض » وحدات نظامية ذات تشكيل قادر على انتاج رشقات نارية مركزة ، والقيام بعمل صدامي ، والتحرك بنظام منضم منسق ، الامر الذي كان يمكنهم من العمل كقوة ضاربة متماسكة .

أيان يظهر توجه جديد في التاريخ البشري ، فانه غالبا ما يبدأ بأن يعرض ، بشكل مصغر ، معظم التوجهات التي ستكون ذات أهمية في ظهور الفترة المستقبلية التالية ، وعلى هذا الاساس ، فان لدينا هنا ، وفي مستهل عهد القتال الحديث الذي يُمارس من أمدية بعيدة ، لدينا المناوشة ، والقتال بالنار من تشكيلات مفتوحة ، واستخدام السواتر ، واستخدام التحصينات التي تغطي معظم جبهة الجيش المشتبك فعلا ، ونيران البنادق الدقيقة ، ولدينا ـ وهذا هو الاهم ـ مثال عن الدمج بين القوة الضاربة النظامية في قوات مدربة جيدا ، وبين جهود القوات الشعبية (الميليشيا) التي تكاد لا تزيد في نوعيتها عن مجموعة مسلحة من الاهالي . ولقد سبق أن أكدت قيمة هؤلاء « المراوغين » في هذه الحرب ، وفي التأثير على حروب المستقبل ، المراوغين الذين دمرت نيرانهم قسما كبيرا من القوة البريطانية في أميركا . ولكن من الضروري أيضا التأكيد على أن واشنطن لم يكن بوسعه عمل الكثير بوساطة هذا النمط من الجنود فقط . فقد تمكن البريطانيون من احتلال فيلادلفيا ، وقدر لقوات واشنطن أن تحل بها مآسي « وادي فورج »[٤٧] المحزنة . اذ كان بحاجة الى قوة مؤهلة لاحتمال « الطرق » ، بالاضافة الى ما كان معه من مناوشين ورماة بنادق . ولم يتمكن من بناء مثل هذه القوة الا بعد أن استعان بمعلم التدريب البروسي

---

(٤٧) مآسي « وادي فورج » نسبة إلى قرية أميركية تبعد حوالى ٣٥ كم عن فيلادلفيا . وكانت تشكل إحدى النقاط العسكرية الهامة في حرب الاستقلال الأميركية . وخلال الفترة ك ١ (ديسمبر ١٧٧١) ـ ك ٢ (يناير) ١٧٧٢ ، تعرضت لعاصفة ثلجية قوية مفاجئة . وكانت فيها قوات اتحادية (١١ الفاً) ذاقت الأمرين من حالة الطقس . وكانت ستنهار كلياً لولا انضباط الجنود وكفاءة القادة .

المعرب

« فون شتوبن » المدرب في مدارس « فريدريك الاكبر » من جهة ، وبعد أن حصل على عون مباشر من القوات الفرنسية الجيدة ، من جهة أخرى .

وعلى العموم ، لم تكن القوة المدربة على يد بروسي ، ولا القوة الفرنسية الملكية ، هي القوة التي طردت الانكليز ، وطردت جنود « هانوفر » من الولايات المتحدة . لقد كانت القوة التي اندمج فيها فن التدريب الاوروبي مع شيء ما جديد . وكان الضباط الفرنسيون الذين عادوا من أميركا هم أول من أدخل الى اوروبا ما تم تعلمه هناك حول فن المناوشة .

إذاً ، كان في حرب الاستقلال الاميركية معظم عناصر حرب العهد النابليوني . لكن ثمة عنصرا أساسيا كان مفقودا ، انه مدفع الميدان . اذ لم يستخدم أي من الطرفين سوى بضعة مدافع ، وكان لها أهمية تكتيكية ضئيلة من حيث الحسم . ومن ناحية أخرى ، كان فن نابليون في تجديد صناعة الحرب يتكون أساسا من اكتمال ظهور عناصر جديدة في الحرب ، عناصر مورست في أميركا ، وأضيف اليها استخدام جديد للنيران ، ولنيران المدفعية بشكل خاص ، لفتح الطريق أمام المناورة الحاسمة .

ثمة حقيقتان تكشفان عن مجيء التغيرات النابليونية في الحرب . احداهما أن معركة « فالمي » Valmy الحاسمة التي تمكنت فيها الثورة الفرنسية ، وهي في أضعف حالاتها ، وفي المستوى الادنى من الاستعداد ، تمكنت من قهر أخطر تهديدلوجودها نفسه ، تلك المعركة ، كان يصعب ، بالمعنى العادي للكلمة ، أن تسمى معركة بحال من الاحوال . لقد كانت « قصفا » مدفعيا وحسب . ونادرا ما تماست المشاة والخيالة ضمن أمدية فعالة . لكن ذلك تم بالنسبة الى المدفعية ، وقد حسمت هي الموقف . وثانية الحقيقتين ، وقد تكون الاقل أهمية ، الا أنها دالة تماما ، هي أن نابليون نفسه قد حقق قوته في فرنسا عن طريق استخدام « معادلته » السياسية حينا ، والتهديد باستخدامها حينا آخر . وهذه المعادلة تعني : « حفنة من القنابل العنقودية » على شوارع باريس . ولطالما كان هناك العديد من الحالات التي تسلم فيها الضباط مقاليد الامور في بلدانهم عن طريق التهديد باستخدام القوات الموضوعة تحت أمرتهم . وكان نابليون ، حسب اعتقادي ، هو أول من استولى على السلطة عن طريق شيء أخذ يصبح أكثر أهمية من قيادة الليجيونات . . . انها قيادة « آلة فنية » هي المدفعية .

لم يكن لدى نابليون أي اهتمام بالتكتيكات . وقد يبدو هذا رأياً مستهجناً يقال في قائد فن الصراع المسلح . لكن ذلك يتجلى في أعماله كلها ، في معاركه كما في كتاباته .

وبرهنت على ذلك حقيقة أن نابليون لم يحاول أبداً تغيير « الأنظمة التكتيكية الفرنسية » التي سنها الحكم الملكي في العام ١٧٩١ تحت اسم « أنـظمة المشـاة Reglements d'Infanterie» ، بينما غير كل شيء آخر تقريباً بحكم كونه قنصل فرنسا الأول أو امبراطورها : لقد غيّر قانون التملك ، وتقسيم فرنسا إلى مقاطعات ، وغير الكثير الكثير من الشؤ ون المدنية . ولكنه لم يغير قط تعليمات تدريب القوات واستخدامها . وظلت هذه التعليمات حية حتى عهد الملك « لوي فيليب » الذي جاء بعد سنين عديدة من معركة « واترلو » . ولقد علق على ذلك « أومان » بقوله : « يزداد الامر غرابة لان هذه المؤلفات (التعليمات) كانت بحد ذاتها قاصرة في القسم المتعلق بالتعامل مع « المناوشة » واستخدام القوات الخفيفة . . . وقد تبنت تشكيل فريدريك الخطي ـ بعمق ثلاثة أقدام ـ المستند على رتل من السرايا أو الفرق كقاعدة له . ولم يكن فيها شيء عن الهجوم الذي تشنه كتل « المناوشين » Tircrilleursالتي كان فيها خلاص فرنسا . (١٧٩٣) . . . »

لم يكن على نابليون أن يقلق بشأن التكتيكات . فقد توافرت له الاداة التكتيكية الجديدة التي تشكلت بحكم توجيهين اثنين هما : ادراك كافة الضباط ذوي الاتجاهات الفنية التقدمية لقيمة « المناوشات » ، وهم الضباط الذين تأثروا أكثر من غيرهم بهذا الدرس المستخلص من الحرب الاميركية ، والرتل « الثوري » الثقيل المصمم على خرق التشكيل المعادي . وأضاف نابليون الى هذين العاملين الرئيسين القوة الجديدة للمدفعية ، وعلى شكل سوف نراه فيما بعد .

خلال القرن الثامن عشر ، ومع التحسينات التي أُدخلت على البندقية (الملساء) أصبحت النيران عنصرا في المعركة بلغت أهميته درجة جعلت المشاة كلها تنتظم عاديا في التشكيل الاكثر ملاءمة لاطلاق النار . . . أي صفوف طويلة متعاقبة تفصل الواحد عن الاخر مسافة ثلاثة أقدام أو أربعة . وكان لا يزال يحسب حساب الصدمة في المعركة . بيد أن النيران أصبحت على أهمية جعلت التشكيلات التكتيكية تنتظم من أجل قوة النيران أولا ، وتحقيق الصدمة ثانيا . ويمكن النظر الى جوهر هذا التغير الذي أحدثته الثورة الفرنسية ونابليون على النحو التالي : نشأت « فرقة العمل » ، وفيها تنفذ الرمايات بوساطة المناوشين المشكلين بنظام منتشر ، وبمدفعية مركزة ، في حين تنفذ الصدمة بأرتال من القوات الموزعة في انسب ترتيب قتال من أجل الصدمة . . . أي كتلة تكاد تكون مربعة ، لا خطا دقيقا . وقد نشأت « فرقة العمل » هذه عن الحاجات الملحة للثورة الفرنسية . أي كان على الثورة ، بما لديها من جيوش مهلهلة وغير منتظمة ، ومشكلة على عجل ، بلا تدريب يذكر ، عليها أن تواجه عالما مسلحا يقف ضدها . ولم يكن بوسع هذه

الجيوش أن تصطف بانتظام ، ولم تكن مدربة على ما تبناه فريدريك وخلفاؤه من تكتيكات شديدة الحرص على التفاصيل . كانت لديها الشجاعة النابعة من معتقداتها ، ولديها الاعداد الكبيرة المشكلة من الجماهير . وتخطت الثورة شتى الحواجز من أجل ايجاد الاسلحة . فتدفق الناس على الورش مطالبين بحقهم في تصنيع أدوات الحرب . وغالبا ما كان أولئك المسيطرون على الورش يُرغمون على فتحها لتخضع لتفتيش الجماهير ، ويُرغمون حتى على نشر أكوارهم في شوارع باريس لاقناع الجمهور بأنهم يعملون ما في وسعهم لصنع الاسلحة الضرورية . وبمثل هذه الاسلحة ، سلحت الثورة أعدادا تفوق الجيوش التي كانت تهدد باريس بضعفين أو ثلاثة . وفي هذا المجال كتب « أومان » :

« . . . نشأت التكتيكات للجيش الثوري عن ادراك هذا التفوق (العددي) ، وعن تصميم على اغراق القوات التي كانت تناور خيرا منهم بأن يهيلوا عليها الكتل البشرية الفائضة ، بغض النظر عن الخسائر التي لا بد سيتكبدونها . . » ويصف « أومان » نظام التكتيك لدى هذه الجيوش ، وهو النظام الذي تبنى معظمه نابليون ، يصفه بقوله :

انه يشمل قذف الجبهة المعادية بتشكيل كثيف جداً من المناوشين من شأنه أن يرغم أثقل أنواع الارتال على الاحتماء والتستر . وكانت الفكرة أن الصف الاول من المناوشين سيشتبك مع العدو ، بحيث يبقيه مشغولا حتى تصل الارتال الداعمة الى مدى الضرب دونما خسائر تذكر ، ومن ثم تنهال على الصف الاول للعدو ، وهي لا تزال محتفظة بقوتها ، فتحقق الخرق بزخمها وثقلها المجردين ، ما دامت هذه الارتال لن تتعرض للنيران لاكثر من بضع دقائق ، وباستطاعتها تحمل ما ستتكبده من خسائر خلال هذا الزمن القصير ، دون أن يحد ذلك من حماستها أو ايقاع هجومها . وكان القسم الاساس في هذا النظام هو تشكيل المناوشة القوي والكثيف جدا . وكانت كتائب بأكملها توزع في حلقات مناوشين ترفض صراحة أي محاولة للتحرك المنتظم ، وتحتمي وراء أي ساتر مهما يكن نوعه ، ولكنها كانت من الكثرة بحيث كانت باستمرار قادرة على الاندفاع عبر خط المناوشة الضيق لدى العدو ، لتلتحم بالاشتباك مع جبهته كلها . وكانت النيران المنتظمة لكتائب النمساويين وغيرها من قوات الحلفاء المعادية لا تحدث عير تأثير قليل نسبيا على هذه الجحافل التي كانت تتستر كلما وسعها ذلك . وثمة وصف واضح جدا لمثل هذا القتال وارد في مقالة « ديتفورت » حول معركة هونديشوت Hondeschoote حيث ظل جنود هانوفر ، بقيادة « وولمودن » Walmoden ، الذين يغطون جناح دوق أوف يورك ، ظلوا يقاتلون طوال أربع ساعات ضد جحفل من المناوشين دأب على الانسحاب والاختباء خلف الاسيجة والابنية كلما هوجم بالحراب ، ولكنه كان دائما يعود الى التحرش بالتشكيل الدفاعي المعادي وازعاجه

حتى أرغموا جنود هانوفر في النهاية على الانسحاب ، بعد أن تمكنوا من تنظيف جبهتهم احدى عشرة مرة ، لان عمق دفاعهم الخفيف قد تمزق ، وسقط حوالي ثلث رجالهم . . .[٤٨] »

وأدى هذا النظام التكتيكي لجيوش الثورة الفرنسية ، المبني على أساس متطلباتهم وصفاتهم المعنوية ، أدى الى تغير آخر كانت له نتائج استراتيجية . اذ كانت هذه الجيوش تتحرك « كاناس مهرولين » ، دونما تقيد بنظام صارم ، أو خطو موزون . وكانت سرعة تحركهم نحو العمليات وخلالها تصل الى مئة وعشرين خطوة في الدقيقة . بينما كانت جيوش الخصم محافظة على الخطوة العادية التي تدربت عليها في المعسكرات ، وهي سبعون خطوة في الدقيقة . والخطوة السريعة طبيعية تماما بالنسبة الى « مدني مستعجل » ، بينما يتطلب السير البطيء ، كما اكتشف ذلك الحرس الملكي البريطاني ، تدريبا طويلا . وكانت الجيوش القديمة تسير ببطء ، لانه لا يمكن الحفاظ على كمال التشكيل الا بالسير البطيء ، رغم ما قد تكون عليه الارض من عدم استواء . وصار الجيش الفرنسي الجديد يسير بسرعة لان أرتاله ، وهي نفسها غير قادرة على اطلاق النار بحكم جبهتها الضيقة ، مضطرة وراغبة في عبور مجال الرمي بسرعة ، ومن ثم في خرق صفوف العدو وبعثرتها . هذا الامر ، بالاضافة الى عامل آخر ، أعطى جيوش نابليون حركيتها التكتيكية والاستراتيجية .

يقول « ليدل هارت » : كانت الجيوش « الثورية » ، بحكم نظام امدادها المشوش تماما (لم يتكون بعد) ، وبحكم طبيعتها الفوضوية (غير المنظمة) ، كانت مرغمة على العودة الى تطبيق « العيش على ما تقدمه الارض » . وكان توزيع الجيش في فرق يعني ان من شأن هذا التطبيق انقاص فاعلية الجيش عما كان يحدثه ذلك في الايام القديمة . وبينما كان لا بد ، في السابق ، من تجميع الوحدات قبل امكانية تنفيذ أية عملية ، صار ثمة مجال الان لان تُستدعى لهدف عسكري وهي تعيل نفسها بنفسها . . . والاهم من ذلك ، أن كانت نتيجة « التحرك بخفة » (دون عتاد كثير) هي تسريع قدرة الوحدات على الحركة ، وتمكينها من التقدم بحرية عبر الاراضي الجبلية أو الغابات . ولا تختلف عن ذلك حقيقة أن لم يكن بوسعها الاعتماد على المخازن وأرتال المؤن من أجل الطعام والمعدات ، هذه الحقيقة بالذات التي كانت تبعث في القوات الجائعة ، والمكسوة بشكل مهلهل ، زخم الاندفاع

(٤٨) أنظر « أومان » ـ « دراسات في الحروب النابليونية » .

نحو مؤخرة العدو الذي كان يمتلك تلك الاشكال التموينية ، ويعتمد عليها . .[٤٩]

وكان ما ذكر في الفقرة المقتبسة السابقة عن توزيع الجيش في فرق أحد التطويرات التي أُدخلت على الفترة التي سبقت عهد نابليون ، والتي اكتملت بها تلك الفترة . فغالبا ما كانت تُقسّم جيوش الماضي ، ولكنها كانت تقسم حسب القوات التابعة لكل قائد معاون . . . وحسب تُبّع الشخصيات في فترة أبكر . وكان السائد أن يتكون كل قسم من مشاة أو خيالة ، وليس من الضروري أن يكون ـ أو لا يكون ـ لدى كل قسم بعض المدافع . وفي حال اندماج جيشين ـ في هكذا حال فقط ـ كما حدث بين جيشي « يوجين » Engine و « مارلبورو » ، كان يُحتمل أن يتكون « ملاك » كل قسم في الجيش من مشاة وخيالة ومدفعية ، وبنسب منتجة . ولكن تشكيل الفيلق ، الذي ظهر قبل الثورة الفرنسية ، غير هذا كله . فكانت الفيالق بمثابة جيوش صغيرة حقيقية « فيها اكتفاء ذاتي » . ولكل منها ملاكها من المشاة وملاكها الخاص بها من الخيالة التي كانت تستخدم في الحماية والاستطلاع والمطاردة ، وملاكها الخاص من المدفعية والخدمات . وكان بوسع كل منها أن يعمل بمفرده ، مستقلا عن الفيالق التي يتكون منها الجيش .

كان هذا في مستهله تطويرا لنظام الحرب « الخطي » المنتشر على طول الحدود الفرنسية وفي البلاد الواطئة ، حيث كان قادة القرن الثامن عشر ينشرون جيوشهم على شكل حاميات ومفارز واسعة . وكان من الطبيعي أن يتحقق لكل منها « اكتفاء ذاتي » ان أمكن . غير انها لم تكن ذات تأثير فعال على مجرى الصراع المسلح ، حتى ظهر « كارنو » Carnot ، القائد العسكري للثورة الفرنسية ، وأخذ ينظم تلك الوحدات المنفصلة بشكل يمكّن كلا منها من دعم الاخرى ، عند اللزوم ، حتى وهي تقاتل بشكل مستقل ، أو يمكن حشدها كلها ، وقت الضرورة ، في نقطة واحدة للقيام بعمل حاسم . وقد طور نابليون هذه الفكرة ، وعبر عنها بشعاره المشهور : « سيروا منفصلين ، واضربوا معا . . . » .

في البدء ، كان لتقسيم الجيوش في وحدات « متكاملة بذاتها » على هذا النحو ، وفي ربط هذه الوحدات لتصبح متعاونة وتدعم الواحدة الاخرى ، كان له أهمية استراتيجية أكثر منها تكتيكية . وكان المهم فيه زج القوات في المعركة أكثر من سلوك هذه القوات في ميدان المعركة . ولكنها ، بالتطبيق النابليوني ، اكتسبت قيمة تكتيكية بالاضافة الى الابقاء على أهميتها الاستراتيجية البالغة . وكان بالامكان حشد « فرقه » ، المبعثرة زمانا ومكانا ،

(٤٩) أنظر « ليدل هارت » ، « استراتيجية التقرب غير المباشر » .

من أجل المعركة ، وبشكل لم تكن تتقرب فيه من جبهة العدو وحسب ، بل تتقرب ، ومن الاتجاه نفسه الذي كانت تسلكه ، نحو مجنبة العدو أو مؤخرته . كما أوجد نابليون شكلا جديدا لفكرة « التثبيت والضرب » القديمة . فكان لديه ـ في أغلب الاحيان ، ان لم يكن باستمرار ـ فيلق معد للعمل المستقل ، ومهمته ـ زمانا ومكانا ـ العمل كحراسة متقدمة . وكان هو الذي يبدأ بالاشتباك مع العدو ، فيثبت قواه الرئيسة ، ويمكّن نابليون من دفع وحداته الاخرى لشن الهجوم الحاسم على العدو، الذي يكون قد انكشفت قوته ومواقعه . ولم تكن « هذه الحراسة الكبيرة المتقدمة » تنطلق باستمرار أمام قوات نابليون الاخرى ، بل ربما كانت تشكل أحد أجنحته ، ولكن هذا الفيلق كان دائما هو الذي يُرجح أن يبدأ معه العدو أعماله القتالية .

هذا التطوير في الجيش ، المتمثل في تقسيمه الى أربعة فيالق أو خمسة ، يتحرك كل منها على مسافة مسير يوم من الاخر ، والمشكّلة في مربعات أو معينات ، بحيث يمكن زجها مع أي فيلق قد يتعرض لقوى معادية ثقيلة ، هذا التطوير ذو علاقة بمجال الاستراتيجية أكثر من علاقته بمجال التكتيك . ولكنه مندمج ، في الفن النابليوني ، بعامل آخر بغية التأثير على التكتيكات التي تُستخدم . اذ كان نابليون حريصا على تحقيق انتصارات سريعة وتامة ، ولم يكن يكفيه الالتفاف على خصمه ، وبالتالي ارغامه على التراجع ، أو تكفيه مواجهة الخصم في صدام بسيط مباشر يستطيع الجيش المهزوم أن يتملص منه بشكل منظم . وكثيرا ما كان على نابليون أن يقوم بحملات وتحت امرته أعداد أقل بكثير من أعداد خصومه . فكان عليه أن يحشد فيالقه على قطاع معين من جبهة الخصم بحيث يحقق ، في الغالب ، تفوقا عدديا في هذا القطاع من ميدان المعركة . ولو كان على نابليون أن يلزم نفسه بما صار يُعرف بتكتيكات ١٩١٦ ، ذاك القتال المجهد بالنيران ، والاستنزاف التدريجي لقوى الخصم ، وبالتالي الاقتحام على جبهة واسعة ، لما قُدّر لتفوقه في ميدان المعركة أن يتحقق قبل اتخاذ قرار الاقتحام ، ولكان باستطاعة الخصم أن يعزز قطاع جيشه المهاجم بمفارز منتشرة في أمكنة أخرى . وضرورة القرار السريع هذه هي أحد الاسباب التي جعلت نابليون يحافظ على أرتال ثقيلة تماما ينفذ بها هجومه . وهذا الاسلوب الاستراتيجي هو الذي فرض عليه أسلوبه التكتيكي .

لقد اكتشفت أن العسكريين الشبان كثيرا ما يسيئون استخدام كلمة « رتل » وهم يصفون بها التشكيل النابليوني في الهجوم . وهؤلاء يتصورون « الرتل » كما عرفوه هم انفسهم : أي ثعبانا طويلا متعرجا من الناس يتقدم ثلاثة ثلاثة او اربعة اربعة . وان يكن « رتلا » حديثاً وآلياً ، يتصورنه خطا من المركبات ممتدا الواحدة في عقب الاخرى ،

ويتصورنه خطأً من الدبابات تتحرك كما لو كانت سفنا في بحر . والواقع أن « رتل » نابليون كان مماثلا تماماً للفلانكس . فالرتل العادي المكون من كتيبة واحدة ، وعلى شكل « رتل » هجومي ، كان له « جبهة » من ثلاثين رجلا ، وعمق من العدد نفسه . ولم يكن بوسع النسقين الاماميين استخدام البواريد . . (أي ٦٠ من أصل ٩٠٠) وقلما كان هذا « الكبش » الصدامي البشري يعتمد على قوته النارية الذاتية ، بل كان يعتمد ، بالدرجة الاولى ، على قدرته في احداث الصدمة . أما التحضير بالنيران لعمله الصدامي فكان ينفذ بوساطة سرية « المناوشين » في كل كتيبة ، أي بعشر القوة الاجمالية . وبوساطة المدفعية .

وطبيعي أن كانت قوات نابليون تسير بالارتال الثلاثية أو الرباعية أو السداسية حسب عرض الطريق . ولم تكن تتحرك دائما على شكل الكتل المربعة التي سبق وصفها حتى أثناء القتال ، بل كثيرا ما كانت تتخذ تشكيلا يسمى « النظام المختلط » Ordre Mixte ، ويتكون من كتائب متعاقبة ومتجانبة بعمق ومواجهة ثلاثيين ، وبفراغات تسمح بالمزيد من قوة النيران . وكثيرا ما كانت القوات تتخذ هذه التشكيلات في المراحل الدفاعية من المعركة .

وكان تشكيل المشاة البريطانية العادي ابان الحروب النابليونية هو نفسه الذي كانت تتخذه مشاة فريدريك الكبير : أي على شكل رتل من ثلاثة صفوف . ولم يكن بوسع الصف الثالث أن يرمي ببنادقه مع المحافظة على أمان الصفين الاماميين . ولم يكن هناك مناوشون ـ باستثناء فئة ضئيلة ـ يتقدمون الصفوف أثناء المعركة . ولم تلق القوات البريطانية ، وهي تقاتل بمثل هذا التشكيل ، من النجاح الا ما قل ، كما لم تستطع المشاة البريطانية البدء باظهار تفوقها على خصومها الا بعد أن طور « ويلينغتون » Wellington تكتيكاته الخطية المميزة .

وكان من الطبيعي بالنسبة الى سلطات لندن ، وبعد الحرب في أميركا ، الا تكتفي بالاعتبار بدروس تلك الحرب ، بل أنها عمدت الى حل تشكيلات قواتها الخفيفة ، وهي تشكيلات «الجوّالة» Rangers (قوات خاصة) والرماة بالبنادق التي حاول بها القادة البريطانيون في أميركا مقارعة رماة جورج واشنطن المهرة (Marksmen) . ومن حسن الطالع أن كان لدى الجيش البريطاني عسكري تقدمي حقا لتدريب التشكيلات الجديدة من المشاة الخفيفة الضرورية ، هو « سير جون مور » Moore ، الذي لم يكتف بالتخلي عما كان مألوفا من زي وتدريب ، بل ألح على أن يستوعب الجنود ، وعن طريق الشرح المتأني ، أسباب ما كان يُفترض بهم أن يفعلوه . وأدرك « مور » أن من غير الممكن توقع أن يقاتل المناوشون وحَمَلة البنادق بشكل جيد في ظل نظام عشوائي، وبالتنفيذ بحكم عادة

ملقنة لا بالاستيعاب والتفهم . وقد شكل وحدات خفيفة كانت من القوة وجودة التعليم بحيث جعلت ويلينغتون قادرا باستمرار على اقامة سد من المناوشين في مقدمة تشكيله القتالي ، سد أثقل من ذاك الذي كان يغطي الارتال الفرنسية التي كانت تهاجمه . وفي هذا المجال ، كتب « أومان » أن خبرة ويلينغتون « في الفلاندرز (١٧٩٤) قد علمته بأن التشكيل لا يمكن أن يصمد ، عن حق ، بكتلة متفوقة من القوات الخفيفة التي تخنع عندما تتعرض للهجوم ، ثم تسترد وضعها لحظة توقف الهجمة . وكانت الوسيلة التي اعتقد بأنها تشكل أمانا ضد هذا الخطر هي أنه كان باستمرار يقيم ستارته الخاصة من المناوشين ، ستارة تكون أقوى من ستارة العدو . . . »

هنا ، اذا نموذج بسيط جدا عن جزء من تطور فن الحرب . فجيوش الثورة الفرنسية ، وجيوش نابليون ، تنتصر في حروبها لاسباب منها أنها كانت تملك ستارة مناوشين قوية ، وأنها تقاتل ضد قوات لديها ستارة ضعيفة ، أو بلا ستارة البتة . وفي وقت لاحق ، يأتي جيش ويلينغتون بستارته ، وهي أثقل مما كان لدى الجيوش النابليونية ، فينجح ، من ثم ، في الحاق الهزيمة بها . ولكن بوسعنا القول بأن اهمية المشاة ذات التشكيل المفتوح (المناوشة) آخذة بالتزايد باضطراد، اذا ما قورنت بمشاة التشكيل المنضم .

ولم يكن ويلينغتون يتردد في تقسيم الكتائب ، أو الوحدات الاكبر ، وتوزيع سراياها على الجيش كقوات خفيفة . وقد درب نسبة كبيرة من البرتغاليين الموضوعين تحت امرته لتعمل ككتائب خفيفة ، وكسرايا مناوشة في صفوف فرقه . وكانت كل فرقة أنغلو برتغالية ، وهي تتكون من احدى عشرة كتيبة ، تضم ما لا يقل عن ثماني عشرة سرية مناوشة تتقدمها أثناء التحرك . ولم يكن لدى الفرقة الفرنسية ذات الحجم نفسه أكثر من احدى عشرة سرية . وبكلمة أخرى ، كان الجيش البريطاني يواجه التكتيكات الفرنسية الجديدة باستبقاء ما كان جيدا من التكتيكات القديمة ، من ناحية (قدرة النسق على الرمي بالمقارنة مع عجز الرتل عن استخدام الا ما قل من اسلحته) ، وبالتقدم خطوة عن الفرنسيين في تطوير القوات التى تقاتل بنظام مفتوح .

بيد أن الجيوش الفرنسية كانت تتبنى تطويراً تكتيكياً آخر ، وربما هو الاهم من زاوية مناقشتنا لهذا الموضوع ، تطويرا ساعد على جعلها تحقق انتصارات شملت أوروبا من أولها الى آخرها . ونابليون عبر عن هذا التطوير بوضوح غير مألوف في أقواله ، حيث ذكر : « لا تستطيع الارتال ، حتى في الاراضي المنبسطة والمفتوحة ، اختراق خطوط العدو الا ضمن المدى الذي يمكن أن تساندها فيه نيران مدفعية متفوقة جدا ، أي النيران التي تمهد للهجوم . . . » كانت هذه كلمات نابليون الى « فوي » Foy ، حسبما وردت في مذكرات

هذا الاخير . وتجسد هذه الكلمات احدى حقائق الصراع المسلح ، حقيقة ظلت قائمة حتى العام ١٩١٧ ، على الاقل .

لن يجد الباحث في فن الحرب ضرورة لتأكيدي على انهماك نابليون المتزايد في وجوب حشد قوة المدفعية . أما بالنسبة إلى « المدني » ، الذي لما يدرك بعد كفاءة نابليون كمدفعي ، فلربما كان من المفيد له أن يعود لقراءة رواية تولستوي « الحرب والسلام » . فوصفه « لبوردينو » Bordino ، النصر الذي حققه نابليون عند النقطة التي أخفق فيها هتلر (١٩٤١) ، هذا الوصف هو من الدقة بحيث لن يفوقه شيء للاقناع . وفيه نرى أن الامبراطور كان يحدد مرابض المدفعية ، ويعطيها أوامره ، قبل أن ينشر أو يدفع أيا من قواته الاخرى . ولم يكن هذا مجرد مسألة توقيت لما يجب القيام به أولا ، وما سيليه بالضرورة ، بل حرص نابليون الدائم على أن يتأمن لعملياته الهجومية غطاء مدفعي ثقيل يهز العدو ، أو يخلخل صفوفه عند النقطة الحيوية في ميدان المعركة ، حيث يمكن تحقيق الحسم . وما ذلك الا بسبب تزايد ما كان يتعلمه نابليون من حروبه . وكان نفاذ بصيرته في مجال الاستراتيجية يمكنه من اختيار النقطة الحاسمة والحيوية بحس لا يخطىء وذلك إما عند بداية المعركة ، وإما في خضم المعركة ، ساعة يكتشف نقطة الترابط الضعيفة في تنظيم العدو . وكان يحشد مدفعيته ضد هذه النقطة ، ويدفعها نحو الامام بجرأة ، حتى تسبق مشاته أحيانا . . . وهذا يعني اعدادا كبيرة من القذائف تتناثر من أفواه المدافع لتشكل ستارة قتالية .

وأتى « ويلينغتون » برد على تكتيكات الفرنسيين الخاصه بتركيز نيران المدفعية . ولم يكن بوسعه الرد بتركيز مماثل لانه كان من النادر أن يُزود بمدفعية . ولم يكن أحد في انكلترا يملك من نفاذ البصيرة في هذه المسألة ما كان يملكه السير « جون مور » ، وهو موازنة ذلك بالمناوشين . فمن الامور ذات الدلالة الخاصة مثلا ، أن « ويلينغتون » في أول مرة ، وآخر مرة ، واجه فيها نابليون في « واترلو » ، كان لدى الجنرال البريطاني بضع مئات من المشاة أكثر مما لدى الامبراطور الفرنسي ، ولكن الاول لم يكن يملك أكثر من ١٥٦ مدفعا مقابل ٢٤٦ مدفعا كان يملكها الثاني . لذا ، طور ويلينغتون طريقة أخرى للتصدي للهجوم الفرنسي : فبدلا من « تحسين الأداء » ، على الخطوط نفسها ، عمل على ستر قواته من نيران المدفعية . وبهذا فتح ويلينغتون عهداً جديدا في تطبيق تكتيكات المشاة .

خلال ماضي الصراعات المسلحة كلها ، كان الأمر العادي أن يختار القادة ، أيان استطاعوا ذلك ، مواقع جيوشهم حيث تنحدر باتجاه العدو . فكان لهم بذلك « اليد العليا » . وكان بوسع قواتهم ، في أي هجوم أو عمل صدامي ، الحصول على « ميزة »

التحرك انحدارا . وكان العدو المتوجه لملاقاتهم يُنهك جسديا بما يبذله من جهد في « التسلق » قبل أن يدخل في الاشتباك . وفي هذه المعارك القديمة ، وحيث لم يكن هناك أسلحة ذات أمدية طويلة ، قادرة على تدمير القوات المكشوفة ، لم يكن ثمة مبرر لستر الجيش ، أو اخفاء أي جزء مهم منه . والواقع أن معظم القادة كانوا يرغبون في « عرض » قواهم كلها بغية اخافة العدو . أما الآن ، فأهمية الاسلحة ذات الامدية البعيدة آخذة في التعاظم . فاختار ويلينغتون أن يتجنب مخاطرها باختياره مواقع تقع خلف مرتفعات أرضية ، أو مستورة بها ، وبأن تبقى قواته ، معظم الاحيان ، منبطحة ومخفية عن الاعين ، وبالتالي عن النيران ، حتى لحظة الاشتباك . ولم يعطه ذلك أمانا تكتيكيا ضد أحد أهم عناصر الهجوم الفرنسي فحسب ، بل منحه أيضا فرصة تحقيق المفاجأة التكتيكية .

فكان من النادر أن يستطيع القادة الفرنسيون اكتشاف مواقع انتشار قواته بالضبط. وفي العديد من المعارك كان هؤلاء القادة يدفعون أرتالهم قدماً باتجاه جناح ما على اعتقاد أنهم كانوا يقومون بحركة التفاف، بينما يكون تشكيله المخفي وراء مسافة الالتفاف، فيفاجىء الأرتال من مجنبتيها.

« . . . لم يكن ويلينغتون يترك قواته الامامية ، بين الحين والاخر ، مكشوفة لاعين العدو ، ومعرضة لنيران مدفعيته البعيدة ، الا عندما كانت ترغمه على ذلك ضرورة مطلقة ، مبعثها عدم توافر ساتر يغطي هذا الجزء أو ذاك من قواته . وكان خير مثال على ذلك وضع الويته التي كانت كبد قواته في « تالافيرا » Talavera ، والتي لم يكن بالوسع اخفاؤها وهي محشورة بين تلة صخرية تحمي ميسرته ، وأشجار زيتون تغطي ميمنته ، وأمامه مئات الياردات من الارض المفتوحة دونما أي منحنى أو تموج يمكن لنسق أن يتستر به . وكانت هذه هي المعركة الوحيدة تقريبا التي نجد فيها ما يفيد بأن قواته قد سبق لها أن تكبدت خسائر فادحة من تعرضها لنيران المدفعية قبل بدء القتال أو الصدام[٥٠] . . . »

هذه الكلمات المنقولة عن المؤرخ العظيم الذي أدين له بالكثير من معلوماتي عن العصور الوسطى ، وعن الفترة النابليونية ، تفسر حكمه « بأن التشكيلات التكتيكية الفرنسية هي التي جعلت النصر (الفرنسي) أمرا مستحيلا » على القوات الانكليزية التي كانت تقاتل بطريقة ولينغتون .

---

(٥٠) انظر« أومان »، « دراسات في الحروب النابليونية » .

على المستوى الاستراتيجي ، وعلى صعيد عالمي ، كان نابليون ، كعسكري ، أعظم من ويلينغتون بكثير . لكن ويلينغتون كان أكثر بكثير من « نقطة في نهاية فصل » ، كما وصفه أحد المؤرخين الانكليز . فقد قدم ـ على مستوى التكتيك ـ الردين على الحقيقة والفعل اللذين برهنا عن فاعلية مؤثرة على نظام الحرب الذي أتت به الثورتان الفرنسية والاميركية ، وعلى النظام الذي نشأ عن تطوير هز العالم ، وأتت به عبقرية نابليون السياسية والاستراتيجية . وأدى ويلينغتون دوره في تصعيد الحرب حتى مستوى لم يتمكن نابليون نفسه من ادراكه . ويتكون هذا المستوى ، في جوهره ، من الدمج بين قوة ضاربة نظامية جيدة التدريب ، وبين قطاع شعبي مسلح وفاعل . وواجه نابليون هذا المستوى في الحرب ، والى حد ما ، في كل من روسيا وألمانيا ، حيث حرر الخدم ، ونُفذت اصلاحات واسعة بغية تشكيل جيش وحرس وطني (لاندستروم Landstrum) تتألف منها قوة ذات طبيعة مواطنية لا خدمية . بيد أن اسبانيا كانت هي البلد الذي واجه فيه نابليون القوة المتكاملة لهذا المستوى من الحرب . ومن هنا يصح أن تكون الكلمة التي تصف هذه الاساليب القتالية للاهالي المسلحين هي الكلمة الاسبانية ، « غيريلا » Guerilla ، وتعني « الحرب الصغيرة » .

الحروب الصغيرة « غيريلا » ، أو حرب المناورة . . . كلها مناوشات . وكلها « قتال هنود » . وهي تدمج أكثر الاساليب والتكتيكات بدائية مع العنصر الجديد الذي ساعد على تثوير الحرب ابان الفترة النابليونية ، وهو السلاح الفردي المتميز بدقة اصابة تمكن من اصابة العدو الفرد ، قبل أن يتمكن هذا العدو من رؤية الجندي الذي يستخدم ذاك السلاح . وكانت « القرحة الاسبانية » التي استنزفت قوة الامبراطورية النابليونية تتكون تقنيا وتكتيكا من أساليب القتال الجديدة التي ظهرت في اميركا أولا ، ثم تطورت بوساطة الجيوش الثورية الفرنسية ، وأخيرا بوساطة ويلينغتون ، والتي كانت مستمدة من أساليب القتال القديمة . فالعصابات ما هي الا زمر مناوشة ، يعمل كل منها « على هواه » ، ولكن من ضمن القوة النظامية الضاربة ، مع ضرورة التنسيق معها . ولم يعد المقاتل الفرد مقيدا بالحركة المدرب عليها أثناء العمل ، كما لم يعد خاضعا بشكل مباشر ، وفي شتى الاوقات ، لانسان فوقه ، ويقوم بدوره في العمل الحاسم لا كفرد مساعد يقاتل على بضع مئات الياردات من مقدمة جسم الجيش وحسب ، بل يقاتل أيضاً كمساعد على بعد عدة أميال ضد أضعف جزء من تنظيم العدو ، الا وهو خطوط مواصلاته . وان هذا العامل أساس في الحرب الحديثة ، عامل سنرى أنه يتردد بين الظهور والغياب

وكانت التكتيكات ، منذ ظهور البارودة والحربة وحتى ظهور جيوش فريدريك

الكبير ، كانت تتبع ، بالدرجة الاولى ، منهج ايجاد مشاة مدربة ، قوية ومنضبطة ، تعتمد قوة نيرانها وقوة صدمتها على طاعتها الالية . ولقد استوعب نابليون التغير الذي رافق عهده هو ، عندما قال « لجوميني » Jomini : لا أحب الجيوش التي تتصف بالالية . اني أرغب في أن يكون الجنود أذكياء . . » . آنذاك ، كان لا يزال بوسع فرد واحد ، إن يكن هذا الفرد نابليون ، أن يتخذ شتى القرارات الاستراتيجية ، ومعظم القرارات التكتيكية الضرورية التي تحكم خطوات الجيوش ذات الاحجام الحاسمة ، حتى الدخول في المعركة وأثناءها . كان نابليون يفعل هذا ، ولم يكن رئيس أركانه أكثر من سكرتير يصوغ أوامره ويوزعها . ولكن عندما انتقلت عملية تقسيم الجيوش من تنظيم شكلي رسمي الى فيالق أو فرق ، فالى « فرق عمل » أقل تقيدا بالشكلية ـ بين القوة الضاربة وزمر العصابات ـ لم يعد لدى نابليون وماريشالاته أسلوب قيادة وسيطرة ملائم للشكل الجديد من الحرب . فتاريخ حرب « البينينشولا » Peninsula هو في جوهره تاريخ الجيش الفرنسي المبعثر من أجل القضاء على العصابات ، ومن ثم تاريخه عندما ضُرب وهو مبعثر ، أو عندما كان معرضا لخطر القوات النظامية التي كان يقودها « مور » و « ويلينغتون » . وبمجرد أن تجمعت تلك القوات الفرنسية بهدف ايقاف القوى الضاربة البريطانية أو صدها ، ظهرت العصابات من جديد وأرغمتها على التبعثر مرة أخرى . وكان ذلك أسلوب حرب لم يتمكن نظام نابليون من ايجاد رد مؤثر عليه .

وكان المجرى الاساس للمعركة أيام فريدريك هو التحضير لها بنيران البواريد ، مع بعض المساعدة المدفعية ، ومن ثم الهجوم بالحراب على أنساق . أما أيام نابليون فصار مجرى المعركة الاساس هو التحضير بنيران مدفعية مركزة ، مع بعض المساعدة من المناوشين ورماة البواريد الاخرين ، ثم الهجوم بالرتل مركبا الحراب . أما في أواخر أيام نابليون ، فقد ظهرت تلك التطورات الجديدة التي لم يتمكن نابليون من تحديها ، مجسدة في تغطية ويلينغتون لكتلة الجيش الاساسية بالمناوشين المدعمين ، ووراء السواتر الطبيعية ، وفي تخفي رجال العصابات في كل رقعة من الأرض الوعرة ، أو في كل منطقة فيما بين المجنبات ، أو قريبة من المؤخرة ، وقواتها غير قوية . فبدأ بذلك عهد الجيوش غير المرئية . وهذه الفترة تذكرنا بشكوى العصور الوسيطة من امكانية مصرع الفرسان « وهم لا يكادون يرون بيد من يقتلون » . وأصبحت الصناعة تنتج الاسلحة بكميات ودقة مكنتا الجيوش من الاخذ بمبدأ الاختفاء في الدفاع ، ومن الهجوم بسرعة ، مع الاستفادة من عامل المفاجأة أو التسلل ، أو من غطاء النيران الذي يقدمه المناوشون ، وبشكل جعل القوات المهاجمة غير معرضة لنيران المدافعين .

لقد تغيرت الاسلحة والتكتيكات كلها عما كانت عليه ابان أيام نابليون . لكن العديد من التوجهات الحربية التي بدأت بالظهور خلال تلك الايام لا تزال باقية حتى أيامنا هذه .

٨) المدفع الرشاش والخندق

ثمة عبارة مذهلة واردة في تواريخ الحرب الاهلية الاميركية ، حيث يقول أحد المؤرخين ، وهو يصف احدى مناورات الجنرال « غرانت » Grant ، والمناورة المعاكسة التي نفذها الجنرال « لي » Lee ، يقول : « . . . لقد ناور « لي » بتحصيناته . . . »

ان تاريخ التكتيكات خلال الفترة التي تلت نابليون هو ، جزئيا ، تاريخ تطور « قوة النيران » التي عملت في البدء على تسريع الحرب وتليين نظامها ، وعملت في وقت لاحق على تقييدها ضمن قدرة حركية نسبية . وهو ، الى حد ما تاريخ تطوير التحصينات الميدانية التي بلغت أقصى اكتمال لها في خط « هندنبيرغ » Hindenberg (١٩١٧) ، وانحدرت الى هاوية « اللاجدوى » في خط « ماجينو » (١٩٣٩) . ولكن في الوقت الذي يمكن فيه اثبات تطور الاسلحة على شكل خط بياني متصاعد ، فان تطور تحصينات الجيش الميداني كان يصل الى حد معين ، وهو على شكل ما ، ليعود الى الاختفاء تقريبا ، ثم ليعود الى الظهور في وقت لاحق ، ولكن على شكل آخر .

لقد أتينا في الفصل السابق على ذكر الطريقة الاميركية في استخدام جذوع الاشجار الغليظة في أسوار المستوطنات على شكل متاريس نصفية (حتى الصدر) . وخلال الحرب الاهلية الاميركية ، كانت المناطق الخطرة فيما بين كل عاصمتين مشجرة بكثافة ، بحيث

كان من الممكن انشاء متاريس من الجذوع الغليظة حول أي موقع يُختار للدفاع . وقد عمد « لي » الذي كان جيشه في وضع دفاعي خلال الحملة الحاسمة ، عمد الى الاستفادة المتزايدة والمضطردة من مثل تلك المتاريس ، الامر الذي لم يتح الفرصة لمدفعية « غرانت » كي تكون ذات قوة نيران كافية لدك هذه التحصينات الميدانية بشكل فعال . لذا كان لا بد من اقتحام تلك المتاريس . وكانت المعركة تتحول الى مسألة قوة تكتسح ، أو تقتحم ، « زاوية لعينة » ما ، من الجذوع التي يحتمي خلفها المدافعون من نيران البنادق والبواريد . وأيام الحرب الاهلية الاميركية كانت عملية الاقتحام قد أصبحت أشد صعوبة مما كانت عليه ابان الحقبة النابليونية ، وأصبح من الاشق على الجيش المهاجم أن يدفع مدفعيته الميدانية نحو الامام ، في مقدمة مشاته قبل أن يبدأ الاقتحام ، والاشق عليه أن يستخدم مدافعه على مسافات قصيرة نسبيا ليفتح ثغرة في تشكيل الخصم . ولم يعد بالامكان ابقاء سدنة المدافع مكشوفين لأعين الخصم ، وهم في مقدمة تشكيلات مشاتهم ، بسبب كثرة من كانوا يُقتلون منهم بوساطة القناصة والمناوشين المسلحين اما ببنادق محلزنة أو بواريد دقيقة التسديد . لذا صار لا بد من تمركز المدافع خلف المشاة . وزادت المسافة التي يجب أن تقطعها المشاة أثناء الهجوم وهي معرضة للنيران بازدياد أمدية الاسلحة . والامر الاخير والاهم هو أن تزايد سرعة تلقيم الاسلحة الصغيرة واطلاقها أكد امكانية القوات المدافعة على البقاء متمسكة بمواقعها بوساطة النيران ، لا الحراب ، حتى وان أطبقت عليها القوات المهاجمة . فالحربة ، آخر سلاح صدمة تبقى في الصراع المسلح ، لم تعد ذات قيمة قتالية عملية . وقد كتب الجنرال « جون ب . غوردون » J. B. Gordon في « مذكراته عن حرب الاستقلال » يقول : « كان ما استخدم في المعركة من أي نوع من الحراب قليلا جدا فعلا . . . لقد ولّى زمن الحربة ، باستثناء استخدامها في المربعات الفارغة ، أو في مقاومة هجمات الخيالة ، أو كأداة لانشاء تحصينات خفيفة مؤقتة . . . » ووجهة النظر القائلة بأن الحربة قد أصبحت ضئيلة الاهمية أثبتها المساعد « هارت » Hart ، كما أثبتها رئيس أركانه جي . اي . بي ستيوارت J. E. B. Stuart فيما نقله عن كتاب « أسنان التنين » للجنرال « فولر » :

لقد تزايدت على مجموعات القوات المشكلة في تراتيب متقاربة ، استحالة الهجوم عبر حقول النيران التي تفصل فيما بين الجيوش ، والوصول الى مواقع العدو ، وهي لا تزال على ترتيبها المتقارب بشكل يؤهلها لان تستخدم سلاح الصدمة . ولم يكن هذا مسألة معنويات أو انضباط . ففي معارك من نوع معركة « غيتيسبيرغ » Gettysberg ، أو تلك

التي جرت في « حملة البراري[٥١] » ، ظلت القوات تتقدم رغم ما تكبدته من خسائر فادحة . بيد أنه كان من المستحيل على تلك القوات ، جسديا ، أن تتقدم ارتالا ، أو صفوفا ، وبترتيب متقارب ، حيث كانت نيران العدو تدمر تلك التشكيلات ، وتقلل أعدادها ، بحيث تحولها الى جماعات مناوشة أو اشتباك ، قادرة على انتاج نيران ، لا على تحقيق عمل صدامي . وقد أدت تحصينات « لي » الميدانية ، المبنية من جذوع الاشجار على شكل متاريس ذات ارتفاعات كافية (حتى الصدر) ، لتشكل عقبة في وجه المغيرين ، أدت مهمتين اثنتين : أولاهما انها زودت المدافعين بغطاء واق ، وثانيتهما أنها أوقفت ، اشخاص المهاجمين عند نقاط صار من الممكن فيها ابادتهم بنيران المدافعين في الوقت الذي يتوقفون خلاله ـ أما الخنادق العادية فلا تحقق تينك المهمتين ، اذ أنها تزود بملجأ واق من النيران ، ولكنها لا تشكل عقبة فيزيائية في وجه الاقتحام ، ولم تصبح التحصينات الميدانية ، مرة أخرى ، من الاهمية بحيث صار اقتحامها مشكلة بالغة الصعوبة ، الا بعد أن أصبحت الصناعة الحديثة على قدر من التطور جعل من الممكن نصب آلاف الاميال من الاسلاك الشائكة أمام الخنادق . وفيما بين هاتين الفترتين ، فترة المتاريس ، وفترة الخنادق الشائكة ، تكمن فجوة كانت فيها التحصينات الميدانية ذات أهمية أقل . رغم ظهورها بكثرة في حرب القرم . اما العسكريون الذين كانوا مستعدين للاعتراف بتضاؤ ل قيمة الحربة ، أو بحقيقة أن الجنود صاروا غير قادرين على التحرك تحت النيران ، فكانوا قلة .

بشكل خرافي ، وبسوء فهم للواقع ، حُجبت عن معظم الباحثين في مسألة الصراع المسلح صعوبة الاقتحام ، وصعوبة الاغارة على أسلحة دقيقة التسديد بوساطة جنود مشاة غير مدربين . وكانت الخرافة ، خرافة « الفولاذ البارد » ، ومؤداها أن القادة التقليديين ، في مواجهتهم للتعقيدات المتزايدة في الاسلحة والتكتيكات الحديثة ، انكفأوا فكريا ومعنويا باتجاه سلاح الصدمة الذي استوعبوه . والذي كان يبدو لهم « موثوقا » وبطوليا معا ، وعلى تماس وثيق بالخرافة الاجتماعية التي تهيأ للفئات العسكرية الاوروبية بأنها هي التي أبقت على قوتهم السياسية وأمنهم الاقتصادي . ولقد تنامت هذه الخرافة الاجتماعية تدريجيا حتى سادت طوال فترة هامة ، متضمنة الايحاء بأن ثمة أنواعا خاصة ومحدودة من الإقدام

---

(٥١) حملة البراري Wilderness Campaign ، وهي جزء من الاعمال القتالية التي جرت فيما بين القوات الاميركية ، الاتحادية (الفدرالية) والانفصالية (الكونفدرالية) ، مع مطلع السنة الرابعة من الحرب الأهلية الاميركية (١٨٦٤) . وفي هذه الحملة كان القتال سجالاً دون قدرة على الحسم ، وذلك بسبب الانهاك الجسدي وفداحة الخسائر . وقد تميزت هذه الحملة بالعدد الكبير ـ نسبياً ـ للجنرالات الذين سقطوا فيها بين قتل وجرحى . (٥ قتلى ، ٦ جرحى ، أسيران ، من الطرفين) .

المعرب

والانضباط وقوة الارادة يجب أن تتوافر في الضباط الذين يقودون القوات في المعركة الحديثة . وغدت ضرورة غرس هذه الصفات ورعايتها طوال حياة المرء هي مبرر الابقاء على فئة محددة من الضباط المحترفين . ولقد تمزقت هذه الخرافة أثناء معظم الحروب الحقيقية . فقادة حرب الاستقلال الاميركية جلهم من « المدنيين » . والفرنسيون قاتلوا في حرب ١٨٧٠ بشكل أفضل بعد أن استسلم امبراطورهم وقادة جيوشهم . ولكن كان هناك اصرار على اعادة بناء هذه الاسطورة خلال الفترات التي تفصل بين الحروب ، بل انها حافظت على ابقائها في بريطانيا فترة طويلة امتدت حتى بعد نجاحات مزارعي البوير غير المحترفين ، كما أنها ظلت حية حتى بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، التي دعت الحاجة فيها الى الاستفادة من الضباط الذين لم يكونوا من العسكريين المحترفين - وخاصة بعد السنة الاولى - في معظم حالات القتال الفعلي ، بينما الضباط الذين كانوا من العسكريين المحترفين ظلوا ، وحتى أمد كبير (ضد ارادتهم عادة) ينقلون الى المراكز غير البطولية ، حيث تمارس القيادة من مسافة كبيرة في المؤخرة . وعملت هذه الخرافة على ابقاء الحربة ، بقدر ما عملت على ابقاء السيف والرمح الزخرفيين محضا ، لان هذه الفئة من الضباط كانت تحس بأن الهجوم بالحربة هو مأثرتهم الخاصة ، ولا يخطر في بال أية قوة « مدنية » أن تلجأ اليه .

كما عملت حقيقة مغلوطة الفهم على استمرار حياة الحربة . وهذه الحقيقة هي أن الجيش البروسي ، وخلال ستة أسابيع من الزحف المستمر ، قد سجل نصراً مبيناً في العام ١٨٧٠ . ولا شك أن الجنود المعجبين بهذا السلاح البطولي قد أساؤوا فهم جوهر التكتيكات البروسية . ورغم ما ورد في كتاب العقيد « هندرسون » Henderson « علم الحرب » (١٩٠٥) ، وهو أن « الالمان كانوا يعتمدون على النيران ، وعلى النيران دون سواها ، من أجل القضاء على مقاومة العدو . وكان الاقتحام النهائي بمجمله اعتباراً ثانوياً » ، رغم هذه الافادة الواضحة البسيطة بقلم أفضل المنظرين العسكريين البريطانيين في ذلك الزمن ، فقد ظل الجيش البريطاني ، ومعه جيوش أخرى ، ظلت تعتقد بأن الالمان كانوا يحققون نصرهم باطلاق النيران غريزياً تمهيداً للاقتحام . وتجاهلوا كلياً حقيقة مهمة ، هي أن تشكيلات المشاة الالمانية المتقدمة كانت وهي تشتبك ، خلال تلك الحرب ، تتوزع في مجموعات مناوشة غير متماسكة ، الامر الذي كان يحز كثيراً في نفوس عدد كبير من الضباط الالمان الذين كانوا يصرون على وجوب التحرك قدماً في أرتال منضمة مشكلة من أنصاف سرايا . وتجاهلوا أيضاً حقيقة أن الالمان قد ربحوا تلك الحرب بالاستراتيجية الهجومية الممزوجة بالتكتيكات الدفاعية . فالارتال الالمانية كانت تندفع نحو الامام حتى تهدد جناح القوات الفرنسية ، أو مؤخرتها ، وبشكل كان يرغم الفرنسيين على

اللجوء الى الهجوم محاولين ابعاد الالمان عن تلك المواقع . وكان هذا هو الشكل النموذجي للمعارك حتى معركة « سيدان » Sedan ضمنا .

من الصعب الحصول على أي معيار هام لقيمة الحربة خلال الحرب الفرنسية ـ البروسية . بيد أن علم احصاء الخسائر في هذا القرن قد تحسن لدرجة صار من الممكن معها الحكم احصائياً على القيمة النسبية للاسلحة المتنوعة . ففي الحرب البروسية ـ اليابانية (١٩٠٤) ، كان حوالي ٢,٥٪ من مجموع خسائر الطرفين كليهما من جراء الحراب والسيوف والرماح . وفي الحرب العظمى (١٩١٤ـ١٩١٨) أصبحت الجروح الناتجة عن الحراب من الندرة بحيث لم يُحفظ لها سجل احصائي كامل . وقد أُدخلت في الارقام البريطانية ضمن النسبة ١,٠٢٪ ، الخاصة بالخسائر والحوادث المتنوعة . ولكن قبيل تلك الحرب ، تدرب مؤلف هذا الكتاب ، مثله في ذلك مثل أي انكليزي كان يتلقى أي شكل من أشكال تدريب المشاة تدرب على وجوب أن ينفذ الهجوم بالتقدم بالنظام المنتشر ، وبقفزات قصيرة عندما تكون نيران العدو مؤثرة ، وبتشكيل نسق ناري والسيطرة على نيران العدو ، وأخيرا بتركيب الحراب والاقتحام ، وهي المرحلة التي يجب أن ترافقها صرخات عالية . وكان هذا النمط الاساس من هجوم المشاة متخلفا عن عصره ـ عصر التدريب عليه ـ مسافة خمسين عاما ، ولكن بقي التدريب عليه وسيستمر ذلك في بعض المناطق المحاطة بالظلام . وكانت نتيجة هذا ما تحمله الصحف بعد كل حملة (النروج ، فرنسا ، كريت ، سنغافورة ، ليبيا) من أن « القوات البريطانية » تشكو كونها لم تستطع ابدا الوصول الى العدو « بالفولاذ البارد » . بديهي أنهم لا يستطيعون ، فهم يقتلون أولا .

لقد عمل تطور المدفع الرشاش خلال الحقبة الواقعة بين الحرب الفرنسية ، الروسية والحرب العالمية الاولى على تزايد صعوبات هجوم المشاة ، وعلى جعل الدفاع ـ تكتيكيا على الاقل ـ « أقوى أشكال الحرب » . وعملت النيران ، من خلال تطورها عبر القرون ، ولو لفترة محدودة ، على جعل التحركات التكتيكية أكثر سهولة ، لان تركيزها ضد وحدات العدو المكشوفة في العراء ، والمنظمة في مجموعات متقاربة تجعل منها أهدافاً جيدة ، هذا التركيز مكن من فتح ثغرات في مواقع العدو . أما الان فقد انعكس تأثير النيران . اذ أصبح بمقدور الجيوش المعادية المختبئة خلف ساتر أن تنتج أمام نفسها شبكة نيران هي من الغزارة بحيث صار من الصعب على المشاة المهاجمة أن تخترقها . ومع مطلع العام ١٩١٥ ، صار من المسلم به عموما أن نيران المدفع الرشاش قادرة على « سد الجبهة » .

وكان تطور المدفع الرشاش بطيئاً نسبياً قبل العام ١٩١٥ . فقد بدأ بالظهور ، من

أجل تحقيق أهداف عملية ، في العام ١٨٨٢ ، عندما التقى مخترع أميركي كان يركز جهوده على عمليات كهربائية وكيميائية ، التقى في فيينا رجل أعمال أميركيا كان قد تعرف عليه في الولايات المتحدة . وقال رجل الاعمال للمخترع : « دعك من الكيمياء والكهرباء . . . » اذا كنت تريد جمع كومة من النقود ، اخترع شيئا ما يمكن هؤلاء الاوروبيين من ذبح بعضهم بعضا بشكل أسهل بكثير . . . » وكان المخترع هو « حيرام ماكسيم » Hiram Maxim ، وكان ذلك الحوار العرضي هو الذي جعله يشرع في العمل على ابتكار أول مدفع رشاش حديث .

كان الناس ، قبل أيام « ماكسيم » بزمن طويل ، يحاولون صنع آلة تطلق مقذوفات متتالية بشكل سريع . وعندما كان الاسبان يطورون أول سلاح ناري جيد ، عمد أحد قادتهم الى تحميل « صف كامل » من هذه الاسلحة على ثلاثين عربة صفها أمام مشاته . وكان لدى هذا القائد ، وهو « بيدرو نافارو » Pedro Navaro عدد من الرجال الراكبين في العربات ، ومهمتهم اطلاق الاسلحة (القرابن) دفعة واحدة ، بوساطة كبريت سريع الاشتعال ، أو فتيل يصل فيها بين كافة الاسلحة الموجودة في كل عربة .

وفي العام ١٦٩٣ ، ذُكر أن هناك بارودة تطلق عشر طلقات بشكل متناوب . لكن خطأ ما ارتكب ، لان ذكر تلك البارودة لم يتكرر بتاتا . وفي وقت لاحق ، كان يوصل من ٦ ـ ١٠ بواريد بعضها مع البعض الاخر على هيكل واحد ، وكان هذا الهيكل يجر الى المعركة على عجلات . وكانت هذه الاسلحة الداجة تسمى « الارغونات » ، لانها كانت تشبه هذه الالات الموسيقية . وفي العام ١٩١٨ ، سجل رجل اسمه « باكل » Puckle براءة اختراع مدفع رشاش مطور دي حجرة انفجار دوارة، حجرة خاصة يمكن أن تستخدم في اطلاق مقذوفات مربعة الشكل ضد الاتراك ، على أساس أن المقذوفات المستديرة أرحم انسانيا من أن تستخدم لقتل الكفرة .

وفي الحرب الاهلية الاميركية استُخدم مدفع رشاش أشد فاعلية ، ابتكره الدكتور « غاتلينغ » Gatling (من شيكاغو) . وهذا الرشاش مزود بست سبطانات مثبتة حول محور مركزي كما لو كانت أضلاع برميل خشبي . وتدور السبطانات الست حول المحور ، وكل سبطانة تصير في الاعلى تسقط طلقة من اسطوانة تشبه الجرن . وعندما تصل هذه السبطانة في دورانها حتى الجهة السفلى ، تندفع الطلقة عبر حجرة الانفجار ويتم الارتاج ، وتطلق الطلقة ، وتبدأ السبطانة نفسها بالارتفاع ثانية ، فيتم لفظ الغلاف خلال هذا الشوط . وفي وقت لاحق ، استُخدم هذا النمط من الرشاشات في الجيش البريطاني ابان

« حروب المستعمرات » . وكانت السبطانات تدار بوساطة جندي يدير مقبضا مثبتا على جانب الرشاش .

وقبل ذلك ببضع سنين ، كان ضابط بلجيكي قد ابتكر مدفعا رشاشا بخمس وعشرين سبطانة ، يمكن اطلاق كل منها اثنتي عشرة مرة في الدقيقة الواحدة ، مطلقا بذلك ٣٠٠ طلقة في الدقيقة . ويزن هذا الرشاش أكثر من طن واحد ، وكان يُحمل على عربة مدفع كما لو كان مدفعا عاديا . وابان الحرب الفرنسية ـ البروسية (١٨٧٠) حاول الفرنسيون ، وبغباء ، استخدامه وكأنه مدفع ميدان . وبما أن مداه أقل من نصف مدى مدافع الميدان البروسية ، وفكرة اخفاء المدافع لما تطرأ بعد على الخواطر الالماما ، كان ذاك « المتريوز » الفرنسي ذا فائدة لا تكاد تذكر ، اذ كانت قذائف الميدان البروسية تخرجه من المعركة قبل أن يتمكن من إلحاق أي ضرر يذكر بالمشاة البروسية .

بعد اخفاق « المتريوز » لم يعد يثق بالمدفع الرشاش سوى قلة من العسكريين . وفي العام ١٨٧٣ ، حصل رجل مال سويدي ، اسمه « نوردنفيلت » Nordenfeldt على براءة اختراع رشاش يشبه « الارغون » الذي ظهر في العصور الوسيطة . وبعد ذلك بعام واحد ، حصل « هوتشكيس » Hotchkiss الاميركي على براءة اختراع سلاح يشبه « الغاتلينغ » الى حد ما . ولم يحقق هؤلاء المخترعون من التقدم الحقيقي الا أقله ، حتى ظهر رجل من نمط مختلف تماما ، هو « باسيل زاخاروف » Basilzaharoff .

كان زاخاروف بائع أسلحة ، وصديقا لبعض الممولين ، ومستشارا لبعض وزراء الحربية . وقبل أن تحل نهايته ، كان هو « رجل أوروبا الغامض » ، وذا قوة تضاهي قوة الوزراء . ولم يكن زاخاروف مجرد جشع استغلالي . كان يبيع خيرة الاسلحة . فكان كلما باع أسلحة لبلد ما سعى لبيع أسلحة أفضل للبلد الخصم .

وطبيعي أن مهنته لم تكن تصعيد الحروب . ولكن تجارته كانت تروج كلما صدف أن صعدت الحروب ذاتها بذاتها . والسيد زاخاروف هذا أحق من مكسيم وغيره من المخترعين ، بشكرنا من أجل تطور المدفع الرشاش .

كان زاخاروف يبيع قوارب طوربيد غير مدرعة وخفيفة جداً الى حكومات متعددة . وأوحي له بأن المدافع الرشاشة ستكون أسلحة جيدة يُدافع بها عن السفن الكبرى المعرضة لهجوم زوارق الطوربيد الصغيرة هذه . وتبنى زاخاروف الفكرة بحماسة شديدة : فأن يبيع سلاحاً ما ، ويبيع معه السلاح المضاد له ، أربح من بيع السلاح وحده .

وبعد تجارب أجريت في « بورتسماوث » ، اشترت الحكومة البريطانية ، من أجل الدفاع عن سفنها الحربية عدداً من رشاشات « غاتلينغ » العشاري السبطانات ، والرشاش « نوردنفليت » الخماسي السبطانات ، وبضعة طرازات أخرى من الرشاشات . وكان زاخاروف يأخذ عمولة على هذه المبيعات ، كما كان يتلقى طلبات فورية من حكومات عديدة تتضمن المزيد من قوارب الطوربيد المدرعة القوية ، التي لا يمكن تدميرها بالمدافع الرشاشة من النوع الذي ابتاعته البحرية البريطانية .

ثم أتى « ماكسيم » . وكان ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، قد أصيب برضوض في كتفه من جراء صدمة بندقية أطلقها بعد أن سدد بها بلا اتقان . فلم ينس ذلك ، وشرع في صنع مدفع رشاش « يستثمر تلك الصدمة » في فتح مغلاق السلاح ، ولفظ الغلاف الفارغ ودفع طلقة أخرى عبر حجرة الانفجار ، ثم تعمل النوابض على اغلاق المغلاق ، ويكون السلاح جاهزا للاطلاق من جديد .

هذه هي الخصائص المبدئية للرشاش الذي اخترعه في العام ١٩١٤ ، والتي لا زالت معتمدة حتى اليوم . وكان أول سلاح صنعه يطلق عشر طلقات في الثانية . واهتم العسكريون من مختلف أنحاء أوروبا بهذا السلاح ، فاشتراه جيش القيصر . وعلق عليه القيصر ويلهلم معجبا : « هذا هو المدفع الرشاش الوحيد الذي يرمي آليا » . وتبناه باسيل زاخاروف ، وكان ذلك أهم من قرار أي خبير حربي .

وكانت التجارب على الرشاش ماكسيم قد أجريت في لندن . ولكن الحكومة البريطانية كانت آخر من نظرت الى المدفع الرشاش كشيء مهم في الحروب البرية . وعندما دخل الجيش البريطاني في حرب العام ١٩١٤ كان يملك من المدافع الرشاشة أقل مما كان يملكه الالمان . وقد اضطر « لويد جورج » الى تخطي اعتراضات العسكريين من أجل تصنيع كميات كبيرة من المدافع الرشاشة .

ومن رأي اللواء « بيكر ـ كار » Baker-Carr ، أول قائد لمدرسة المدافع الرشاشة في فرنسا ، أن العديد من قادة الكتائب البريطانية ، تربية حرب ١٩١٤ ، كانوا « يكرهون المدافع الرشاشة ، صراحة ومن اعماقهم » . وقد كتب في هذا المجال : « سيدي ، ماذا سأفعل اليوم بالمدافع الرشاشة ؟ سيكون هذا هو السؤال الذي سيطرحه مرارا الضابط المسؤول عن المعركة في هذه الايام . خذ هذا الشيء اللعين وخبئه في احدى الزوايا ، هكذا كان يُرد عادة على مثل هذا السؤال . »

وبديهي أن ليس من العسير تصور أن بمقدور المشاة اختراق نيران الرشاشات

و«الالتحام بالعدو» ، ما دام يُنظر الى الرشاش على هذا النحو . و« الالتحام بالعدو » هي العبارة التي ما تزال مستخدمة في وزارة الحرب البريطانية لتصف مهمة المشاة البريطانية . وعندما أتت المعركة ، تأكد أنها لم تكن أكثر من عبارة كلامية . وعندما أضيفت الاسلاك الشائكة الى المدافع الرشاشة ، وتحولت مجموعات الحفر الى صفوف مكتظة بالفجوات الموحلة ، صارت التكتيكات تتخبط في جمود قاتل .

وكانت قوة النيران ، وقبل هذا الوضع بسنين عديدة ، من الوضوح لدرجة أن العديد من العسكريين أدركوا صعوبة الهجوم بالمواجهة ، وركزوا على تعليم قيمة الهجمات الجانبية . وقد بلغ هذا التعليم أوجه في خطة « شليفن » Schlieffen ، وهي المشروع الذي فرض على الكتلة الرئيسة في الجيش الالماني أن يتحرك للالتفاف حول أعدائه ، عبر بلجيكا ، وعلى طول الساحل حتى ما بعد باريس ، مداوما على شبه الهجمات الجانبية ، ومستمراً في ضغط القوات الفرنسية وتكتيلها ، الى أن قدر لمعركة أخرى ، مثل « كاني » أو « لوثن » Leuthen أن تظهر الى الوجود . بيد أنّ خطة « شليفن » فقدت زخمها نتيجة لمخاوف الجنرال العجوز الذي أوكل اليه أمر الجيش الالماني (والى حد كبير نتيجة الخرافة الاجتماعية التي ذكرت آنفا) . وكان « فون مولتكي » Moltke الكبير قد غزا فرنسا والنمسا في العام ١٨٦٦ ، وفي العام ١٨٧٠ . وهذا ما فرض في العام ١٩١٤ تولية « مولتكي الابن » مسؤولا اسميا عن الجيش الالماني . وقد انسلت السيطرة الحقيقية من بين أصابعه ، وأحبطت معركة « مارن » Marne خطة « شليفن » . آنذاك ، وبعد بضعة أسابيع ، صار كل جيش ، وبعد كلله من الهجمات الجبهية التي كلفت الكثير من الارواح ، دون أن تؤدي الى نتيجة ، صار يحاول الالتفاف حول خصمه ، الى أن فوجىء كلاهما بأن ليس هناك أية مجنبة متبقية ، لان جبهة الخنادق قد امتدت ، دونما انقطاع ، من سويسرا حتى البحر . لقد عملت القوة الدفاعية للنيران والاسلاك والمعلول على انهاء حركية الحرب .

غريب ذلك الاسلوب الذي يمكن أن يظهر فيه الى الوجود أي تحول جديد في الحرب وضمن نطاق ضيق ، وبطريق الصدفة ، وعند نقطة ما حرجة ، ومن ثم يغيب عن هذا الوجود لحقبة ما . فالعامل التكتيكي ، الذي قُدر له أن ينهي ، بعد عدة سنين ، جمودية المواقف التي سببها المدفع الرشاش ، ومعه الاسلاك والخنادق ، هذا العامل ظهر الى الوجود تماما قبيل أن تظهر جمودية المواقف تلك . وهذا العامل التكتيكي هو « المناورة بالعربات » . ولقد تميزت محنة « معركة المارن » بأول مناورة على نطاق واسع ينفذها أول ما عرف في التاريخ العسكري من عربات تسير بالبترول . والجنرال « غاليني » Galieni ،

الذي كان يقود القوات الفرنسية في باريس وحولها ، هو الذي دفع جزءا من هذه القوات نحو مجنبة جيش الجنرال « فون كلوك » الزاحف ، وذلك بمصادرة ما كان في باريس من سيارات أجرة (تاكسيات) وغيرها من العربات الاخرى . وكان لهذه « المناورة » الدور الاول في حسم معركة المارن ، « المعجزة » التي انقذت باريس ، والتي ربما كانت هي التي خلصت فرنسا من الهزيمة عام ١٩١٤ . لكنها لم تتكرر . ولم يكن بالامكان تكرارها عندما لم تعد للجيوش مجنبات . اذ لم يكن هناك عربات باستطاعتها خلخلة المجنبة بقوة كبيرة ، عن طريق الاندفاع عبر ثغرة ما في الترتيب القتالي للعدو كما لم يكن هناك ما يكفي من العربات المسيرة بالبترول ، أيام ما قبل الانتاج بالجملة ، للتمكين من تنفيذ المناورة الطويلة ، أو البعيدة ، المعتمدة بالدرجة الاولى على المحركات البترولية .

لذا، كان على صفوف العساكر الكائنة على جانبي الخنادق، في العام ١٩١٥، ان يبحثوا عن حل لمسألة الجبهات المغلقة بالنيران والتحصينات . وقد بحثوا عنه ، بادىء الأمر ، بوساطة التركيز المدفعي ، وتركيز المدفعية الثقيلة بشكل خاص . وجعلت التغيرات في بناء المدافع من الممكن ادخال مدافع ذات أحجام أكبر مما سبقها كله ، باستثناء تلك القواصف القديمة ذات الماضي البعيد ، والتي كانت تستخدم في حصار المدن ، ادخالها الى المعركة ، وفي حرب بطيئة الحركة . وهذا القذاف الذي كان يطلق طنا ، او ما يقارب الطن . من المعادن ، اضافه الالمان الى عتاد جيوشهم الميدانية .

والطريقة الجوهرية التي اختلفت فيها هذه المدافع عن مدافع القرن الماضي هي اخماد تراجعها آليا بوساطة نظام النوابض ، أو حجيرات الضغط ، أو المكابح الاحتكاكية التي كانت تشكل جزءا من المدفع نفسه . ومنذ الهاونات الاولى التي كانت تركب على منصات خشبية ضخمة ، وحتى مدافع الميدان التي ظهرت أيام نابليون ، أو في حرب القرم ، كان تراجع المدفع الناتج عن اطلاقه يدفع السلاح بأكمله نحو الخلف . وقبل أن يطلق ، كان سدنته جميعا يخلون المساحة التي يمكن أن يقفز المدفع فيها . وكان يُعاد الى موقعه السابق ، ويُعاد تسديده ، كلما أُريد اطلاقه مجددا . وكان هذا يؤثر سلبا على عاملي السرعة والدقة .

وكانت المدافع القديمة تطلق بالبارود الاسود الذي كان يضطر المدفعيين في الايام الهادئة (بلا ريح) الى الانتظار لحظة أو لحظتين بعد كل رمية بالسلاح ، ثم دحرجته لاعادته الى مربضه قبل أن يتمكنوا من توجيهه وتسديده ثانية . وقد عمل ظهور البارود الذي لا دخان له،وظهور الحشوات الدافعة الاكثر قوة، على التخلص من تلك العقبة ، كما جعلا من الممكن اخفاء مواقع المدفعية عن أعين العدو ، ولو نسبيا .

ولكن التطور الحقيقي الذي سرع الرمي المدفعي هو ظهور المغلاق . وكان صعبا وبطيئا تفريغ وتلقيم واطلاق المدفع الذي يلقم من فوهته ، وعلى السدنة أن يعرضوا أنفسهم أمام سلاحهم بعد كل طلقة . وعندما ظهر المغلاق أصبح من الممكن للمدفعيين أن يعملوا على أسلحتهم ، بنوع من الحيطة ، محميين خلف دروع مركبة على الاسلحة ، أو مختفين وراء سواتر ترابية . وأصبحت عملية الرمي أسرع بكثير ، لدرجة أن أصبح بمقدور مدفع الميدان أن يصب عدة دانات في الدقيقة الواحدة ، بينما كان يطلق دانة واحدة كل بضع دقائق .

وبهذه المدفعية المحسنة ، يُفترض أن يكون من الممكن ، حسبما كان يعتقد العديدون من العسكريين في العام ١٩١٥ ، القيام بما قام به نابليون : أي فتح ثغرة عبر ترتيب قتال العدو ، ومن ثم دفع مشاة ـ أو حتى خيالة ـ عبر هذه الفجوة ، وحول أجنحة كل مجنبة من مجنبات الثغرة . وكان معظم تاريخ حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ هو تاريخ فشل هذه الفكرة . وكان من الممكن استخدام المدافع والقذافات بحيث ـ ان هي ركزت ـ تدك الارض ، وتدمر الخنادق التي تختبىء فيها المشاة المدافعة . وكان الرد على هذا هو الحفريات العميقة كتلك التي قام بها الالمان عند خط « هندنبيرغ » . ولكن ما كان سائدا هو أن المدفعية الثقيلة في تلك الحرب هي التي كانت تقدم الرد على ذاتها . فكان الهدف هو اختراق ترتيب قتال العدو . وكان بوسع المدافع أن تسحق الارض والخنادق ، ولكنها كانت بذلك تقيم حاجزا لا يمكن اختراقه أمام نفسها ، حاجزا من الحقول الممزقة ، التي تحطمت مسالكها ، وامتلأت بحفر الدانات والممرات المدمرة التي كان يصعب على المشاة اجتيازها ، ويستحيل تماما على المدفعية التقدم عبرها . وكانت هذه المدافع أسلحة حصارات ، وغالبا ما كانت هذه الحرب تُمارس كحرب حصار . لكنها كانت في الواقع تختلف عن الحصار العادي ، لان انشاء « أسوار » جديدة أصبح أسهل وأسرع من تهديم « الاسوار » القديمة . وفي حرب الخنادق هذه أصبح بالامكان حفر أنساق جديدة من الخنادق ، والدفاع عنها ، خلف كل « شرخ » يُشق عبر النظام الدفاعي ، قبل أن تتمكن القوات المهاجمة من تمرير مدافعها فوق قفار الطين والحطام التي أحدثتها المدافع نفسها .

لقد تحسنت المدافع . لكن وسائط النقل لم تتحسن . فلم تـوجد بعد الاطارات الهوائية ذات الحجم والقوة الكافيين حتى لمدافع الميدان . وكان من شأن الاسلحة الاثقل والاكبر ، ذات الاطر الفولاذية حول عجلاتها أن تحول أي طريق الى حطام ، حتى وان كانت تتحرك بسرعة أبطأ من حصان جر. وكانت العادة أن تجُر المدافع القذافة بآلات قاطرة بخارية. وعلى «الجبهة الغربية»، قضى جنود أكثر عدداً من أي جيش

وُضع بأمرة «ولينغتون»، قضوا أعمارهم، خلال سني الحرب، وهم يصلحون طرقاً خربتها المدافع بعجلاتها بقدر الطرق التي خربتها بقذائفها.

لقد سقط عنصر المفاجأة من الصراع المسلح . وكل هجوم يُشن بالمواجهة كان يُفتضح موعده ومكانه المحتملان بوساطة التحضير المدفعي . ولم يكن مستطاعا تركيز هجوم على جبهة ضيقة لتحقيق الخرق ، لاسباب منها أنه كان لا بد للتركيز الضخم للذخائر الضرورية من أن يُقرَّب نحو المواقع القتالية ، ويخزن في مستودعات خاصة . وبما أن هذه المستودعات كانت تنتشر بشكل متجانب ، بدءا من نهاية كل خط حديدي ، فلم يكن مستطاعا امداد الهجوم الا اذا كان على جبهة ضيقة نسبيا . وكانت الخطوط الحديدية هي وساطة النقل الرئيسة للامدادات . ولم تكن محركات النقل تستخدم الا للقليل من تحركات القرات ، ولتوزيع الامدادات فيما بين نهاية الخط ومستودعات الذخائر . وكان النقل بالخيل لا يزال هو الوساطة النموذجية للمشاة والمدفعية على حد سواء . ولم تكن الجيوش مقيدة جدا بخطوطها الحديدية فحسب ، بل أيضاً بمستودعات الذخائر الكبرى التي كانت تُمد منها . ولم يكن من الغريب أن تحتوي هذه المستودعات على ما يقارب العشرة آلاف طن من الذخائر . وان يشأ الجيش أن يتقدم أو يتراجع ، كان عليه أن يقضي أياما كي يُخرج مثل هذه الامدادات وينقلها . ونادرا ما كانت تُحمّل بشكل أسرع ان يطرأ حادث عرضي ، أو تتعرض لقصف جوي معاد . ففي معركة « أودرويك » Audruicq ، في العام ١٩١٦، تم استهلاك تسعة آلاف طن من القذائف ، وعشرة آلاف طن في « سانييفيل » Saigneville ، ومثلها في « بلانجي » Blangies ، خلال العام ١٩١٨ . وفي هذا الشكل من الحروب ، وقبل كل هجوم ، قد تدعو الضرورة الى انشاء بضع عشرة مستودعا من هذا الحجم . وقدرت الذخائر المستهلكة في العام ١٩١٦ ، وخلال قصف « السوم » الذي دام شهرا واحدا ، قدرت بـ ١٤٨ ألف طن . وفي العام ١٩١٨ ، تزايد ما انصب من كميات الفولاذ والمتفجرات هذه . وفي معركة « يبير » الثالثة ، استمر التمهيد المدفعي عشرة أيام ، ونُفذ بوساطة أكثر من ثلاثة آلاف مدفع ، منها ألف مدفع ثقيل . وكان ذلك يمثل معدل مدفع واحد لكل ستة ياردات من الجبهة . وأطلق آنذاك أربعة ملايين ونصف المليون دانة ، كلفتها اثنان وعشرون مليون جنيه استرليني . وقد قذف ثلاثة أرباع الطن من القذائف على كل يارد طولي من الجبهة .

والنتيجة . . ؟ كانت النتيجة كسب بضعة أميال مربعة من المستنقعات مقابل كلفة كبيرة في الارواح . وصارت هذه المستنقعات ، بوساطة القذائف الصديقة ، غير قابلة للعبور بوساطة القوات المقاتلة .

لقد أزمن النقاش حول حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . وكان الهجوم الذي سبق ذكره ، من المعارك التي خيضت بشراسة على صفحات الكتب والصحف . ولربما كانت هذه الشراسة مساوية لتلك التي دارت على الارض . ويعتمد « لويد جورج » في الكثير من نقده للجنرال « هيغ » Haig على مدى ما كلفه الهجوم من أرواح ومعدات . أما وأننا نخوض الان حربا من نوع آخر تماما ، فمن السهل علينا رؤ ية الاعوام ١٩١٤ - ١٩١٨ من منظور أهميتها النسبية . والاسهل أن كان هناك عنصر الحتمية في تلك المجازر الانتحارية التي وقعت عبر الاوحال . ولم تقع كنتيجة لخطأ أي جنرال . ولم تكن نتيجة تقويمات أو أخطاء أي هيئة أركان ، أو أي فئة من الضباط ، بل كانت نتيجة مجمل شكل الحرب وطبيعتها ، على النحو الذي كانت الحرب قائمة عليه آنذاك ، وهما شكل وطبيعة فُرضا على الحرب من خلال التطور الطبيعي للأسلحة . وكان خلف هذا التطور الطبيعي للأسلحة ، مجمل التغيرات السريعة في آلية الزمن ، والتغيرات في التقنيـة الصناعيـة ، وفي الحياة الاجتماعية . وقد اتى وصف ونستون تشرشل لتأثير هذه التغيرات بكلمات سبق أن نقلتها عنه ، ولكنني لا أستطيع قول ما هو خير منها :

« الثروة والعلم والحضارة والوطنية والنقل البخاري والتقدير العالمي ، ذلك كله هو الذي مكن من أن يُعتمد للحرب ، وبشكل مستمر ، مجمل قوة كل طرف مشترك فيها . فقاتل وجهد الاهلون جميعا ، نساء ورجالا على حد سواء ، وبأقصى ما لديهم من قوة التدمير . لقد حُولت الصناعة الوطنية في كل بلد الى انتاج المواد الحربية . وكان عشرات الملايين من الجنود ، وعشرات الالاف من المدافع يهيلون الموت عبر خطوط القتال ، وهم أنفسهم يبلغون الاميال طولا . ولم يكن حتى ليُحلم بدمار على هذا المستوى ، في الماضي ، ولم يسبق أن أُحدث بمثل هذه السرعة خلال تاريخ البشرية كله . وكان ايصال هذه العملية حتى منتهاها هو أعلى جهد لكل أمة ، وكان هذا بالنسبة الى الجميع تقريبا ، هو الافضل والانبل في كل أمة .

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت فيه أوروبا مشدودة بهذا القيد المخيف ، كان الحرب يتردى الى ما يقارب العجز الكلي المشابه . فلم تتهيأ أمام استراتيجية القادة أية وسيلة للسرعة في اتخاذ القرار الحاسم ، ولاثبت وجودها في ساحة المعركة التي تتقاتل فيها الجيوش . ولم يُقدر للسلاسل التي كانت تشد الشعوب المتحاربة الى واجبها أن تتمتن عن طريق العبقرية العسكرية ، كما لم يكن هناك أي تفوق كاف في القوى تحت تصرف أي من طرفي الحرب ، ولم تُكتشف أية طريقة عملية للهجوم الحاسم » .

باستطاعتنا أن نتبين الآن أن هذا العقم في فن الحرب كان ناشئا عن البطء الذي كانت تتحول فيه الجيوش عن المفهوم القديم للحرب باتجاه مفهوم جديد . وكانت كل الوسائط التقنية اللازمة لانهاء « هذا العقم » موجودة منذ البدء في الحرب : المحرك البترولي ، والقاطرة المجنزرة ، وفكرة العربة المدرعة القادرة على خرق الخنادق ، ونيران المدافع الرشاشة الثابتة ، والطائرة والرشاش الخفيف ، هذه كلها كانت متوافرة . وما لم يكن متوافرا هو مفهوم الحرب كفن ، أو كعلم متغير ، متأثر بكل تغير يطرأ على تقنيات الانتاج والنقل ، وحتمية تخلف هذا المفهوم اذا لم تُستثمر هذه التقنيات حتى الحد الاقصى . والجنرالات الذين كانوا مسؤولين عن الاستراتيجية والتكتيكات ، وعن تقديم النصح للحكومات ، وعما هو مطلوب من الصناعة ، يجب أن يتحملوا المسؤ ولية الاولى عن الاخفاق في التغير عندما كان التغير ممكنا . ان عليهم مسؤ ولية أثقل : لقد عرقلوا التغير بشكل متعمد وأكيد . لكن تجاوزهم ، ثم رؤ ية أشكالهم تتقلص في معيار الحقيقة ، تجعل المرء يرى أن هؤلاء الجنرالات ، باستثناء قلة نادرة ، كانوا آخر الاناس الذين يمكن أن يُنتظر منهم أن يرحبوا بالتغيرات الجديدة ويستوعبوها في مهامهم . ففي الوقت الفاصل بين بدء تعلمهم الحرب ، والوقت الذي تولوا فيه قياداتهم ، كانت مهامهم قد كبرت بشكل أسرع بكثير مما كبروا هم أنفسهم ، وتغيرت بشكل أكبر بكثير مما كانوا يتوقعون ، حتى أنهم عجزوا عن أن يكونوا رواد تغيير .

لم يسبق لأي من هيئات الاركان العامة أن توقعت أن سيكون للمدفعية تلك الاهمية الساحقة التي ركزت عليها كسمة مميزة لحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . وكان الالمان هم الاقربين للواقع في تقديراتهم السابقة للحرب ، ولذا فازوا في معاركهم الاولى عن طريق زج القذافات الضخمة في المعركة ، هذه المدافع التي كان يعتقد البريطانيون والفرنسيون بأنها لا تناسب الا عمليات الحصار وحسب . بيد أن الالمان أجروا حساباتهم على أساس حرب قصيرة ، ولم يعدوا مخزونات قذائف كافية من أجل حرب الخنادق . وعلى هذا الاساس كانت الجيوش كلها، في العام ١٩١٥، تصرخ طالبة المزيد من القذائف، ووجد كل شعب متورط في الحرب أنّ من الضروري تجنيد النساء للعمل في مصانع تعبئة القذائف، ووجه اهتمام شديد في البرلمانات والصحافة نحو «النقص في القذائف» بحيث صار الرأي العام يرى في انتاج المدافع والذخائر مفتاح النصر الاساسي في الحرب. أما الارهاق الشديد، من الحرب الذي ساد في السنوات الاخيرة، فقد أتى، بالدرجة الاولى، من حقيقة أن هذا المفتاح قد فشل في فتح أي باب للنصر. لقد أصبحت المدفعية هي السلاح السائد، ولكنها لم تكن السلاح الحاسم. وهذا الفارق

بين الفكرتين يتطلب التوضيح. فالمدفعية فيّ يد نابليون كانت هي السلاح الحاسم، رغم أنها لم تكن السلاح السائد والسلاح الأكثر استخداماً لقتل جنود العدو. وقد استخدمها نابليون ليؤمن الحسم بتأمين الطريق أمام أرتال مشاته. ثم انتهت قدرتها على تأمين مثل ذلك الحسم. بيد أن المدفعية في الأعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت هي السلاح السائد لأنها تمكنت خلال تلك السنين من قتل معظم جنود الاعداء، واحداث أكبر خراب في دفاعاتهم، وكانت السلاح الأشد فعالية في إعاقة التحرك خلف خط المواجهة. وهناك بعض الأرقام، غير الكاملة، التي تبين التغير بوضوح شديد، وهي أرقام ألمانية رسمية، نقلها «شيرلو» Shirlau و «تروك» Troke في كتابها «الدواء مقابل الغزو» Medicine versus Invasion:

السنة	النسبة المئوية للجرحى بوساطة المشاة	النسبة المئوية للجرحى بوساطة المدفعية
١٨٧٠ ـ ١٨٧١	٩١,٦	٨,٤
١٩١٤ ـ ١٩١٥	٢٢,٣	٤٩,٢٩
١٩١٦ ـ ١٩١٨	٦,٠٠	٨٥,٠٠

من الواضح أن هناك نقاطا غامضة حول هذه الارقام . أما كان هناك جروح سببتها الخيالة في الفترة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ ؟ لم أرقام ١٩١٤ ـ ١٩١٥ غير كاملة ؟

فاجمالي أرقام هذه الفترة يساوي أقل من ٧٢٪ . وهل يبدو محتملا أن أرقام ١٩١٤ ـ ١٩١٥ يمكن أن تكون دقيقة حتى عُشر العُشر ، بينما أرقام السنين التالية الناتجة عن تلك الحرب هي نسب مئوية مدورة (مقربة) ؟ يفترض بي ألا أتقبل مثل هذه الحسابات في حال اعتماد نقاشي على دقة هذه الارقام . وان الامر على غير ذلك . ان نقاشي معتمد على التوجه الاساس التي تبينه ، وعلى الاعتقاد بأن النسب المئوية الصحيحة كانت قريبة من تلك الارقام . ففي حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ ، قتلت المشاة حوالي عشرة أضعاف من قتلتهم المدفعية . وبعد أقل من خمسين سنة ، صارت المدفعية تقتل حوالي عشرة أضعاف من تقتلهم المشاة . وهذه هي النقطة الجوهرية . لقد حدث تغير هائل ، وحدث أكثر من نصف هذا التغير قبل العام ١٩١٤ ومع ذلك ، بدت الاهمية النسبية للمدافع والبنادق في

نظر « السير جون فرنش » J. French ، ونظر أركانه ، في العام ١٩١٤ ، مختلفة قليلا ، عن الاهمية النسبية للمدافع والبواريد في زمن « ويلينغتون » .

ومع حلول العام ١٩١٥ كانت الافكار الجديدة آخذة في الانتشار : حالات النقص في القذائف ، ضرورة التمهيد المدفعي البعيد ، و « المدفعية تكسب الارض ، والمشاة تحتلها » . وكانت النتيجة الحتمية لهذه الافكار ـ وهي جديدة ـ أن المفاجأة لم تعد هامة في الهجوم . وقد كتب السير « جون فرنش » ، القائد العام البريطاني ، في ١٩١٥/٥/١٤ الى معاون له عهد اليه بقيادة احدى الهجمات :

« ما دام عنصر المفاجأة سيكون غائبا الآن ـ نظرا للتمهيد المدفعي البعيد ـ فمن المرجح ألا يكون تقدمك سريعا . »

ومن المؤكد أن التقدم لم يكن سريعا ، ولم يكن ذلك يظهر الا على الخرائط ذات المقاييس الكبيرة .

باختصار ، لقد تم التخلي عن المفاجأة ، وبدأ القصف البعيد المسمى ، « حرب الاستنزاف » . وكانت النتيجة أن أصبحت المدفعية الان هي السلاح الرئيس للهجوم ، بينما أصبحت المشاة التي أُقصيت عن مكانها كسيدة للمعارك ، هي ندل المعارك « أو كناساتها » . وتبعا لذلك ، أصبحت أي طريقة للتقدم تعتبر مسألة ذات أهمية صغرى . . . » هذا ما كتبه النقيب « جي . سي . وين » G. C. Wynne Captain في كتابه « ان تشن ألمانيا الهجوم » If Germany Attacks

لقد وصف النقيب « وين » ـ الذي يستخدم كلمة « اجراء » بدل ما نسميه الان « التدريب القتالي » ـ في الكتاب الآنف الذكر ، المشكلة التي اصطدم بها « السير جون فرنش » وغيره من القادة . وكان هذا ، في جوهره ، القوة الدفاعية للمدافع الرشاشة المربضة بشكل جيد . وليس بوسعي هنا أن أخوض بالتفاصيل الفنية التي يستخدمها من أجل تبيان تطور الدفاع الالماني بوساطة نقاط المدافع الرشاشة القوية ، منذ الاشكال الاولى الجامدة الغشيمة لهذا الدفاع ، وحتى الدفاعات المرنة العميقة في العام ١٩١٨ . بيد أن القارىء الذي يريد الاطلاع على جوهر تكتيكات ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بصورة مصغرة ، ليس بوسعه أن يفعل ما هو أفضل من أن يطلع على الصفحات ٤٢ ـ ٥٩ من كتاب « وين » .

في هذه الصفحات ، يبين النقيب « وين » كيف تضاربت في العام ١٩١٥ اثنتان من نظريات الحرب الاساسة . وكانت المسألة فيها « اذا كانت المشاة بحاجة الى نيران المدفعية لتغطيها وتدعمها ، والى كل شكل من أشكال العون الممكنة ليساعد تقدمها الذاتي المنظم

بمهارة ، أو اذا ما كانت المدفعية وكل شكل من أشكال العون الممكنة بحاجة الى المشاة من أجل « كنس » ما كانت ترغب أو لا في التغلب عليه . . . وباختصار ، فيما اذا كان يجب أن يتزامن ويتوحد عمل الحركة مع فعالية النيران ، أو اذا كان يجب أن تأتي الحركة بعد فعالية النيران . القيادة العامة البريطانية ، ونظيرتها الفرنسية (G. Q. C) تبنتا المفهوم الثاني ، أي فعالية النيران المتبوعة بالحركة . وهذا التفضيل لا يزال حتى اليوم هو الفارق الاساس بين أحدث كراريس التدريب في الجيش الفرنسي (١٩٣٦) ، من جهة ، والالمان من جهة أخرى . . . »

يمكن أن يكون الحسم في النيران والحركة معا . وإن تنفصل النار عن الحركة فيمكن أن تقتل الملايين ، وترهق الجيوش والدول، وتنهي بالتالي الحرب عن طريق انهاك أحد طرفيها قبل أن ينهك الطرف الاخر نفسه بوقت قصير . وكان القرار الذي اتخذ في العام ١٩١٥ من جانبنا هو أن نفصل النار عن الحركة ، قاضين على المناورة ، ومحولين ادارة المعركة الاساسية إلى المدافع . وبعد أن أعطت أسوأ ما عندها ، من خلال القصف الذي دام أياما أو أسابيع ، صار على المشاة أن تتقدم بتخبط عبر ما ينتج من دمار .

بيد أنه كان هناك قرار بديل كان بالامكان اتخاذه . كان ثمة « اجراء » جديد ممكن ، أي : تكتيكات جديدة للمعركة . وهذا البديل هو من مضمون الفصل التالي . فهو يفتتح طورا جديدا في الحرب ، طور العصر الحالي ، الذي يبدأ بكلمة « تسرب » ، وتطور حتى المرحلة التي توصف بعبارة « حرب خاطفة » . ولكن قبل الدخول في فصل جديد ، وبهذا الطور من الحرب كموضوع لهذا الفصل ، من الضروري اكمال دراستنا للمدفعية كسلاح ساد خلال الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، وللمدفع الرشاش كسلاح حاسم .

لقد سبق لي أن حددت ، وبأفضل ما أستطيع ، استخدامي لهذه التعابير . فأنا استخدم كلمة « سائد » لأعني السلاح الرئيس ، الذي تنصب معظم جهود الشعوب باتجاه خلقه ، ابان الحرب ، والذي يركز القادة والاركان آمالهم وطاقاتهم على استخدامه . و«السلاح السائد» ، حسب اعتقادي ، هو ذاك الذي يوقع أكثر الاصابات في العدو ، ويؤدي أكبر قسط من مهمة المعركة . لكن « السلاح الحاسم » أكثر أهمية . انه يحقق الحسم ، نهاية المعركة ، أي النصر . انه يفرض التغييرات على شكل الحرب . ان المدفع الرشاش ، لا مدفع الميدان ولا القذاف ، هو الذي تحكم بشكل الحرب عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . وقد فعل ذلك ـ أولا ـ عن طريق « اغلاق الجبهات » ومن ثم « فتح » هذه الجبهات بأساليب جديدة . أما الدبابة فهي آلية لدمج نيران المدفع الرشاشة (والاسلحة

القادرة على سحق المدافع الرشاشة) مع الحركة ، لاختراق نيران المدفع الرشاش . « والتسرب » هو إحدى طرق دفع المدفع الرشاش عبر نقاط العدو القوية التي تتمركز فيها الرشاشات . ولئن يكن هناك أي شكل حقيقي لفن الحرب الذي كانت عليه الحرب في ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، فقد تكوّن ذلك الشكل باختراع رشاش « ماكسيم » ، ومعه الورطة المؤلفة من الخندق والاسلاك الشائكة . أما من حيث ما إذا كان هناك أي حسم حقيقي في تلك الحرب « غير الحاسمة » ، فقد كان المدفع الرشاش هو العامل الرئيس في انتاج هذا الحسم .

٩) الدبابة والطائرة

في هذا الفصل، نتابع قصة الاسلحة والتكتيكات وصولا الى التغيرات التي سبقت حملات العام ١٩٤٢ الرئيسة . ويغطي مجمل هذه القصة ، حسبما أوردنا فيها حتى الان ، فترة ثلاثة آلاف عام ، أو أكثر ، بدءاً من حصار طروادة حتى حصار السنين الاربع الألماني ، من ١٩١٤ حتى ١٩١٨ . أما هذا الفصل فيغطي أقل من ثلاثين عاما ، أي دون الواحد بالمئة من اجماليها . ومع ذلك ، يتضمن هذا الفصل تغييرا وثورة في الصراع المسلح هما من الضخامة والشمول بحيث تبدو تغييرات الماضي ضئيلة أمام ما توضح حتى خلال السنين الثلاث ، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ ، بينما ثمة تغيرات أخرى ، وربما تغيرات أعظم ، تلوح أمام أعيننا ، وتبدو خطوطها العريضة غامضة عبر ضباب الحرب ، وعبر ضباب الرقابة الاكثف .

سألخص التغيرات الاساسية ، والاساسية فقط ، للسنين الواقعة ضمن الفترة ١٩١٧ و ١٩٤٢ : ظهور « التسرب » العميق كمبدأ تكتيكي أساس ، وتطور أسلحة جديدة ، تتحول ، باستخدامها مجتمعة ، وحتى فترة ما ، أسلحة حاسمة ـ . . . وهي أسلحة مجسدة أساسا بالدبابة والطائرة ، من حيث كونهما تستطيعان التحرك بشكل أسرع بكثير من أية أسلحة كانت تمتلكها الجيوش حتى هذه الفترة . وبهذه التغيرات ، يصبح الهجوم ، الذي سبق أن كان مكلفا أكثر من الدفاع بكثير ، أقل كلفة منه في الارواح والمواد .

وسبق أن كانت المناورة الاستراتيجية الحاسمة ، ولمدة ثلاثة آلاف سنة سبقت العام ١٩١٧ ، مقيدة بسرعة سير الجنود . وكان من النادر جدا أن تضاعف هذه السرعة مرتين أو ثلاثاً بالنسبة الى الجنود الراكبين . وخلال الفترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، نُفذ العديد من التحركات ذات الاهمية الاستراتيجية بوساطة السكة الحديدية . ولكن هذه التحركات كلها كانت خلف « الجبهات المغلقة » . ولم يرتفع معدل سرعة المناورة الحاسمة ، القادرة على « فتح » جبهة العدو ، من الثلاثة أميال في الساعة للجندي السائر ، الى عشرة أميال ، أو عشرين ، أو ثلاثين ميلا في الساعة ، للعربة التي تسير بالبترول ، الا بعد أن اكتمل تطوير الدبابات والطائرات ، واستخدم الصنفان معا بطريقة تتلاءم واماكاناتها .

لقد أبرزنا في فصل سابق الحركية والقوة الضاربة والوقاية ، (بالاضافة الى المعنويات) على أساس انها العوامل الاهم في المعركة . وخلال هذه السنين الثلاثين القصيرة ، تنتقل الحركية من على الاقدام الى العجلات أو الاجنحة . وتتغير القوة الضاربة بدرجة أقل ، ولكن ظهور القنبلة في احدى كفتي الميزان ، والرشاش الخفيف في الكفة الاخرى ، جعل الاسلحة الحديثة تزيد مدى القوة الضاربة مئات المرات ، وزادت ، بضع مرات ، قدرتها على التركيز في القتال القريب . وفي الوقت نفسه تعرضت الوقاية لتغير أكثر جذرية من التغيرين الاخرين . فهي لم تتغير فقط من حيث تحول الكم الى نوع ، بل من حيث التغير الجوهري في طبيعتها . فلم تعد الوقاية تتأمن عن طريق أعمال الحفر فقط ، بل صارت تؤمن بالدرجة الاولى بالدروع وبالاختفاء .

في البدء ، كانت الدبابة السلاح الذي « أعاد » الحركية ، ولو أنه لم « يعززها » بما فيه الكفاية ، لا تكتيكيا ولا استراتيجيا . وكانت الدبابات الاولى تسير بسرعة ٣ ـ ٤ أميال في الساعة ، وكانت كطائرات ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، ذات مدى محدود جدا . وكان يُنظر اليها من قبل أولئك الذين كانوا أول من اقترحوها وأوجدوها ، رغم المعارضة العنيفة التي أبداها الرأي العسكري الرسمي ، على أنها « منصات » متحركة تحمل مدافع رشاشة ، وذات دروع كافية لوقاية سدنتها من نيران المدافع الرشاشة ، وذات قدرة حركية كافية لان تتقدم وتشق لها طريقا . وظل هذا هو العمل الرئيس للدبابات ، حتى في نظر أخلص المعجبين بها ، الى أن برهنت في معركة « كامبرى » ، في أواخر العام ١٩١٧ ، على أنها قادرة ذاتيا على التحرك هجوميا ، وبسرعة كافية لترك المشاة خلفها بمسافة بعيدة . وبكلمة أخرى ، أثبتت الدبابات وجودها الكفء من أجل العمليات الحاسمة : أي اختراق مواقع العدو . وأصبحت المهمة التي كان يؤديها ، في الماضي البعيد ، « الفلانكس » المدرع ، المؤلف من جنود مشاة ، وصار يؤديها من بعده « فرسان المعركة المدرعون » ، أصبحت بعد العام

١٩١٧ ممكنة ، وقابلة للانجاز ، بوساطة القوة المدرعة الحديثة . والواقع أن هذه المهمة لم تكن تنفذ كلها بالقوة المدرعة ، خلال السنين العشرين التالية ، أو بعد ذلك ، الى أن وقعت « معركة أراغون » في العام ١٩٣٨ . بيد أن الدبابات الفرنسية والبريطانية أظهرت في العام ١٩٣٨ ، وبشكل أنجح مما كانت عليه في معركة « كامبري » ، أنها ذات قدرة على تحقيق الاختراق ، وأن مسألة تطوير هذا الاختراق الى مناورة حاسمة هي مسألة كيفية دعم الدبابات ، وتسريع كل ما يمكن توافره من دعم وايصاله اليها . ففي العام ١٩١٨ كسبت الدبابات حربا كبرى : غير أنها ثورت الحرب في العام ١٩٣٨ ، لانها استخدمت بطريقة جديدة .

وتنامت الدبابة ذاتها بسرعة . وفي البدء ، كان تطورها كله موجهاً نحو زيادة سرعتها . ودبابات العام ١٩١٧ الفرنسية كلها ، ونصف الدبابات البريطانية ، كان سلاحها الوحيد هو المدفع الرشاش الذي تحمله . وكانت قيمتها التكتيكية تكمن في أنها أضافت الى المدفع الرشاش ، ذلك السلاح الحاسم ، القدرة على التحرك تحت النيران . من جهة أخرى ، كان نصف الدبابات البريطانية مسلحا (كل دبابة) بمدفعين من عيار ٦ ارطال، وكانت تُسلح بهذه المدافع بالذات لانها كانت مدافع بحرية ، وجدت قيادة البحرية أن من الممكن الاستغناء عنها . ولكن وزارة الحرب وجدت أن من غير الممكن الاستغناء عن مثل هذه الاسلحة للدبابات ، أو تصنيعها لها . والواقع أن موقف وزارة الحرب بالنسبة من الدبابات ، كان محصورا بالدرجة الاولى في الرغبة بالغاء الاوامر التي صدرت من أجل تصنيعها ، وفي « هلهلة » برامج التصنيع عندما كانت الاوامر الخاصة بذلك تُفرض من قبل رئاسة الوزارة ، وفي « حشو » سلاح الدبابات بضباط يكونون ، بشكل ما ، قد اشتهروا « بعنادهم » . ومن حسن الطالع أن هذا النوع من الضباط كان بحكم الظروف الاجتماعية التي كانت تسود الجيش البريطاني آنذاك ، كان هو أفضل من يمكن أن يتوافر لسلاح جديد يعمل على تطوير تكتيكات جديدة . وان من المدهش تلك السرعة التي تمكن بها ضباط سلاح الدبابات من تكوين حس واضح بامكانيات سلاحهم . ويرجع كثير من الفضل في هذا الى اللواء « فولر » الذي تتضمن حياته (كما كتبها هو) بعنوان « مذكرات جندي غير تقليدي » ، تتضمن وصفا لخاصية المحافظة لدى العسكريين التي أخرت أو منعت الاستخدام الصحيح للدبابات .

مع مطلع العام ١٩١٨ ، كانت الدبابة « ويبت » (السلوقي) في الخدمة الفعلية ، بسرعتها التي تساوي أربعة أضعاف ، أو خمسة أضعاف سرعة النماذج القديمة . وقد أثبتت

هذه الدبابات كفاءتها في ١٩١٨/٨/٨ ، من خلال اختراقها لمواقع مدفعية العدو ، والوصول الى مؤخرتها ، بل وحتى مقرات قيادة القوات الفرقية .

وبكلمة أخرى ، أصبح هذا السلاح قادرا على خرق كامل عمق اي موقع دفاعي عادي . وما لم تكن قادرة على فعله ، هو اصطحاب المشاة والمدفعية للتمسك بالارض المكتسبة . وبقيت مسألة الدعم والاحتلال ، في العام ١٩١٨ ، بلا حل ، ثم حُلت لاول مرة في العام ١٩٣٨ ، ابان الحرب الاسبانية ، عندما تأمن العنصران الضروريان لجعل الفرقة المدرعة هي التشكيل الحاسم خلال فترة ما من فترات الصراع المسلح ، عن طريق الطائرات . . وخاصة القاذفات الانقضاضية الأولى - التي أدت دور مدفعية دعم الدبابات ، والمشاة المحمولة بالشاحنات التي كانت تحتل الأرض المكتسبة .

خلال ١٩١٤ - ١٩١٨ تطورت الطائرة بسرعة تزيد عن سرعة تطور أي سلاح آخر . وقد خُطط لاول قاذفة كبيرة ، أوصت عليها البحرية البريطانية في العام ١٩١٤ ، أن تصل سرعتها الى ٧٢ ميلا في الساعة ، وأن تحمل ست قنابل زنة الواحدة منها ١١٢ رطلا (٥٠ كلغ) . وكانت تسير بمحركين قدرة كل منهما ٢٥٥ حصانا . وكانت هذه تُعد « عملاقة » آنذاك . وأنا نفسي ، طرت لاول مرة في آلة استطلاع تابعة لسلاح الطيران قدرتها ٧٠ حصانا ، وكانت عزلاء ، وغير قادرة على حمل أكثر من قنبلة واحدة ، شريطة أن يكون مقعد الراكب خاليا . وكان التسليح العادي للآلات التي قدرتها ٩٠ حصانا ، والتي استخدمها أول سرب أُلحقت به ، في فرنسا ، عام ١٩١٦ كان مدفعا رشاشا واحدا ، لا يستطيع الرمي الا باتجاه الخلف . وكانت طائرات المراقبة تلك تعمل بالدرجة الاولى لصالح تجمعات مدفعية تلك الايام ، وذلك بأن تلاحظ انفجارات القذائف وتصحح مسافة الرمي . ولم يكن القصف الجوي لارض المعركة ، أو المواقع الخلفية القريبة ، ذا أهمية عملية تذكر . وكانت أهمية الغارات النادرة على الخطوط الحديدية أو عقد الطرق أو مستودعات الذخائر تنبع حصرا من كونها تفرض على الجيوش ضرورة الترحل ليلا ، أو خلال الظروف الجوية غير الملائمة للطيران .

ولدى نهاية تلك الحرب ، وصل معدل سرعة الطائرات المقاتلة الى ما يقارب الضعف ، رغم بقاء القاذفات على بطئها الغريب . وفي العام ١٩١٨ ، ظهرت القاذفة « هاندلي - بيج »(Handley-Page V. 1500) ذات المحركات الاربعة لتقصف برلين . وكان وزنها محملة ٣٠ ألف رطل (حوالي ١٥ طناً) ، مقابل « عملاق » ١٩١٤ ، الذي سبق ذكره ، والذي كان وزنه ٨ آلاف رطل (حوالي ٤ أطنان) . وكانت القاذفة

« هاندلي » تحمل أربعة مدافع رشاشة ، للدفاع الذاتي . وكان باستطاعتها أن تحمل ألف رطل من القنابل (٥٠٠ كلغ) حتى برلين . وأُدخلت تعديلات مماثلة على الطائرات المقاتلة ، وصُممت آلات خاصة للتدخل بشكل مباشر فوق أرض المعركة ، إما بالقصف واما بالانقضاض برشاشاتها . ولكن الطائرة ، خلال تلك الحرب ، لم تكن قد تخطت مرحلة الطفولة ، على الرغم من أن تطورها كان سريعا . ولم يأت زمن كان فيه للقوة الجوية لاي جيش عُشر القوة الضاربة التي كانت لمدفعيته .

وبعد عشرين سنة ، وخلال الحرب الاسبانية ، بلغت القوة الجوية أشدها ، وصارت مقنبلات الجنرال فرانكو تسقط ، بشكل طبيعي ، على أرض المعركة من آلاف أطنان القنابل ما يساوي آلاف أطنان القذائف التي تصبها المدافع . ووصل مجموع الارقام المستهلكة في العمليات التي شكلت الهجوم المضاد الذي شنه فرانكو على « ايبرو » Ebro ، في خريف العام ١٩٣٨ ، وصل الى تسعة آلاف طن من قذائف المدفعية ، وأكثر من ثمانية آلاف طن من قنابل الطائرات . ومن المحتمل أن تكون الحملات الالمانية اللاحقة ، في بولندا وفرنسا ، قد استهلكت كميات مساوية تقريبا في هذين النوعين من القصف . اذاً ، بحلول العام ١٩٣٨ ، كانت القوة الجوية قد أصبحت قادرة على أن تنوب عن المدفعية في قسط كبير من عملها . وأصبحت تنوب عنها خصوصا في مهمة دعم الدبابات والمشاة المحمولة . وصار بوسع الطائرات ، كمدفعية طائرة ، أن تؤدي ما تعودت أن تؤديه المدفعية وهي بين يدي نابليون : « تفجير شق » في مواقع العدو من أجل المناورة الحاسمة . وصار جليا ، منذ العام ١٩٣٨ ، أن القاذفة المنقضة هي أفضل نماذج الطائرات لتحقيق العمل الحاسم .

في هذه الاثناء ، كان العامل الثالث الضروري للوحدة المدرعة الحديثة يتطور من خلال التطوير المدني الطبيعي لوسائط مواصلات الطرق . فالشاحنة كانت في العام ١٩١٦ آلة داجنة ، مجمعة بالايدي ، وغير مصممة على أساس الانتاج على نطاق واسع . وما أن أتى العام ١٩٣٦ ، حتى صار بالامكان اخراج الشاحنات من المعامل الضخمة ، حيث كانت تتقاطر بالجملة على صفوف من الناقلات ، ويمئات الآلاف . ويعود الفضل في ذلك الى « فورد » والى أولئك الذين قلدوه أو حسنوا ما صنعه . وأصبح بالامكان تحرك فرق أو فيالق بأكملها بسرعة الدبابات نفسها . ولم يبق على القوات الا أن تقفز من العربات ، وتخوض المعركة .

وهكذا ، قفزت سرعة المناورة التكتيكية ، وفي غضون سنين قليلة ، من ثلاثة

أميال ، أو أقل ، في الساعة ، الى ثلاثين ميلا أو أكثر . وكانت السرعات العادية تتراوح بين ١٠ ـ ١٢ ميلاً في الساعة. لكن سرعة المناورة الاستراتيجية لم تتزايد حتى هذا الحد . ولأسباب مختلفة : صعوبات ناتجة عن ازدحام الطرق ، ضرورة إعادة ملء العربات بالوقود ، وكذلك ضرورة إيواء الدبابات ليلاً ، لهذه الأسباب ، كثيراً ما عجزت الجيوش المحمولة على عربات أو مجنزرات، والتي دفعها الالمان عبر أوروبا بين العام ١٩٣٩ ونهاية العام ١٩٤١ ، عجزت عن التحرك بقوة حاسمة ، وبسرعة تزيد عن ٤٥ ـ ٦٠ ميلاً في اليوم الواحد . ولربما كانوا غير مضطرين للتحرك بشكل أسرع ، إذ كان بالامكان خرق الجيوش التي تقاومهم ، وتمزيقها وبعثرتها ، عن طريق التحركات الاستراتيجية التي كانت تتم على مثل ذلك الايقاع . وكانت هذه الجيوش كلها تعتمد في الدفاع ، وبشكل كلي ، على طاقتها في تحريك المشاة على الطرقات ، كما كانت ، مثل الالمان ، تمتلك شاحنات ، ومثل الالمان أيضاً ، كانت تملك فرق مشاة عادية تتحرك سيراً على الاقدام ، لانها بلا وسائط نقل كافية ـ وكانت الحقيقة الجوهرية تتمثل في أن الالمان كانوا في وضع الهجوم ، وكانت هذه الجيوش مدافعة . وكان بوسع الالمان استخدام القوات سريعة التحرك من أجل القيام بمناورة استراتيجية هجومية ضد جزء معين من مواقع العدو ، وباتجاه النقاط الحيوية الواقعة خلف هذه المواقع . وكان على خصوم الالمان أن يحركوا قواتهم على الاقدام ، وبوساطة الشاحنات ، من أجل نقل القوات غير المعرضة للهجوم ، ونقل الاحتياطات ، باتجاه نقاط المعركة . ولم يكن هؤلاء قد أدركوا بعد ، في تلك الفترة من الصراع المسلح ، أهمية « الفريق القتالي » المدرع والممكنن . ولهذا السبب ، لم تنظم جيوشهم قواها ووسائط نقلها بحيث تصبح مؤهلة للرد على الضربات الالمانية بضربات معاكسة توجه بسرعة تكتكية كبيرة ، وبسرعة استراتيجية أعلى من السرعة المتاحة لقوات تسير على الاقدام . لقد سار الرجال ، وفي ظروف خاصة ، ستين ميلاً خلال أربع وعشرين ساعة ، ولكنهم لا يستطيعون تحقيق ذلك بشكل دائم. وسيعمل الانهاك الجسدي ، وقلة النوم على تقليل قيمتهم كوحدات مقاتلة . وفي الاحوال العادية ، وبالنسبة الى الجيوش الراجلة ، تعتبر المناورة الاستراتيجية المنفذة بسرعة معدلها ١٦ ميلاً في اليوم الواحد ، تعتبر تحركاً معقولاً تماماً . أما الالمان فكانوا يتحركون بضعف هذه السرعة أو أكثر ، ولذا كانوا قادرين على شق صفوف أعدائهم ، والوصول الى مؤخرتهم ، مطوقين وموقعين بأجزاء من جيوشهم .

تلك هي قصة الحملة على بولونيا ، وسقوط فرنسا ، والحملة على اليونان وليبيا

خلال العام ١٩٤١ ، وقصة المراحل الاولى من الحملة على الاتحاد السوفياتي في خريف العام ذاته . وتلك هي الحرب الخاطفة . انها منظومة من الاسلحة والتكتيكات المؤهلة لاختراق مواقع العدو ـ ان كانت محمية بقوات مدربة أساسا وفق أساليب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، أو وفق الاساليب الفرنسية والبريطانية في العام ١٩٣٨ ـ وتدمير جيش العدو عن طريق تطويق جزء منه . وبوساطة سرعة الاختراق وعنفه ، يتمكن هذا النظام في التكتيكات من بعثرة المجنبة ، أو المجنبات المتعددة ، في الترتيب القتالي المتواصل للعدو ، ومن ثم مهاجمة الاجزاء المنهكة من هذا الترتيب عن طريق مجنبتها أو مؤخرتها .

يشكل ظهور الاسلحة الجديدة التي أصبحت ذات أهمية حاسمة ، ومن خلال سرعتها في المناورة التكتيكية والاستراتيجية ، يشكل أحد نصفي الحرب الخاطفة . ولقد بينا هذا النصف . أما النصف الاخر فيُمثل بظهور التكتيكات الجديدة ، تكتيكات « التسرب » المصعد حتى مستوى جديد وسرعة جديدة .

طرأت أولى خواطر « التسرب » الحديث التي يمكن تتبعها على فكر النقيب في المشاة الفرنسية ، « أندريه لافارغ » André Laffargue ، الذي كانت سريته (وبديهي أنها كانت محاطة بوحدات فرنسية عديدة) تهاجم باتجاه « ڤيمي ريدج » Vimy Ridge في ١٩١٥/٥/٩ . وقد تمكنت سريته ، رغم خسائرها الفادحة ، من اقتحام الخنادق الالمانية ، والاستيلاء على قرية مهدمة واقعة خلف هذه الخنادق . وكان ثمة سفح طويل أجرد يتصاعد أمام الالمان حتى ذروة « ڤيمي ريدج » ، وكان يبدو خاليا من الاعداء . فجأة ، فتح رشاشان ألمانيان النار من « عش » كان يغطي السفح . وكانا يشكلان المقاومة الوحيدة . ولكنهما استطاعا ، من تلك المنطقة ، أن يوقفا الهجوم كله . وبقيت سرية « لافارغ » ، ومعها سرية فرنسية أخرى ، منبطحتين طوال ساعات أربع ، بانتظار أن يُقضى على الرشاشين . ثم وصلت تعزيزات ألمانية . وفي اليوم التالي ، حاولت كتيبة فرنسية لما تخض القتال بعد ، حاولت التقدم . وسرعان ما صُدت بوساطة الرشاشين ذاتهما بالدرجة الاولى . وساعدت التعزيزات الالمانية على صدها .

كان النقيب « لافارغ » ذكيا ، وكان ساخطا أيضاً . وقد حاول أن يصيب « العش » الألماني بقذائف المدفعية الداعمة له خلال تلك الساعات الأربع . وأخيرا أدرك أن هذه المدفعية المتمركزة خلفه ، وعلى مسافة لا تقل عن الميلين ، لن تتمكن من اصابة الهدف . وفي الكتيب الذي ألفه حول الاساليب الجديدة في الهجوم ، طالب بأن تبقى هاونات ثقيلة ضمن الخط الامامي لقوات المشاة القائمة بالهجوم ، كما طالب بتنظيم جديد ، وتكتيك أساس جديد لدور هذه المشاة .

كانت المشاة ابان ايام البندقية القديمة، وباستمرار، تتقدم في صف. وظلت مبقية على ذلك . (وأنا أعرف أمكنة لا تزال فيها المشاة تتقدم على نسق) . وإبان ظهور « المناوشين » ، في الفترة النابليونية ، أصبح النسق الامامي أقل انتظاماً وأكثر انتشاراً . وفي وقت لاحق ، تحولت المشاة كلها الى « مناوشين » ، مبقية على تباعدها ذاته . ولكنها حافظت على النسق ، وكانت نيران هذا النسق تُوجه بالدرجة الاولى نحو الأمام مباشرة ، أو نحو ما يقرب من ذلك . واقترح « لافارغ » وجوب أن تسير زمرتان خاصتان من كل فصيلة أمام كل نسق مشاة عادي . ويجب أن يُسلح رجال هاتين الزمرتين بأسلحة آلية خفيفة مكثفة . وقد استخدم عبارة « تسرب » في وصف الطريقة التي يجب أن تتقدم بها هاتان الزمرتان الخاصتان .

على هذا الاساس ، كانت الطريقة العادية كالتالي : في الوقت الذي تصل فيه الموجة الأولى من المشاة المنسقة الى جزء من خنادق العدو ، يكون قسم كبير من هذا الصف المهاجم قد تدمر بالنيران ، ويكون الاقتحام المباشر من المواجهة لأجزاء متعددة من خنادق العدو أمراً غير ممكن . لذا يتحتم على أوائل المهاجين أن ينتشروا على الاجناب ، وعلى طول الخنادق ، ليكتلوا من يتبقى من المدافعين الألمان في هذه الخنادق . وكان هذا العمل بطيئاً ومكلفاً . فالعدو يعرف شكل خنادقه ، ومطلع على أوضاعها بدقة . ولمدفعيته ومدافعه الرشاشة ، ومشاته المدافعة التي تبرز من الحفر ميزاتها الكبرى على المهاجين الذين يمهدون طريقهم ببطء على طول الخندق . وقد تضمن اقتراح « لافارغ » وجوب أن تضغط الزمرتان الخاصتان اللتان تتقدمان كل فصيل نحو الامام باضطراد وضمن مواقع العدو ، عبر كل ثغرة تجدانها ، وعبر خنادق المواصلات والحفر الارضية وكل ساتر موجود ، الى أن تصبحا في وضع القضاء على أعشاش الرشاشات الالمانية من المجنبة أو المؤخرة . ولا بد لهما من التحرك قدما ، ولا بد من أن تطلقا النار لا أمامهما ، بل باتجاه الجوانب وحتى باتجاه الخلف الى حد ما . والمدافع الرشاشة الالمانية محمية بصفائح فولاذية ، ومستورة عن النيران الجبهية بسواتر اسمنتية أو بأكياس الرمل . وهي على الأغلب ، وفي هذه المرحلة من الحرب ، غير محمية من الخلف . انها مغطاة من الأمام ، ولكنها مكشوفة تماماً من الوراء .

كان هذا التنسيق الجديد بين الحركة والنار ، الذي عرضه هذا الضابط الفرنسي ، موجها نحو صدّ السلاح الدفاعي الحاسم ، المدفع الرشاش المربض بشكل جيد . ومن سوء طالعنا أن لم يكن لافكاره أي تأثير على الجيش الفرنسي ، حتى أن كُتيبه لم يترجم الى الانكليزية . لكن الألمان استولوا على نسخة منه ، وبوساطتهم وجد ان هذا الكتيب هو :

« تعبير مختصر عن مبدأ متجاوب بدقة مع النهج الذي كانوا هم أنفسهم يحاولون

اتباعه بخطوات بطيئة وثقيلة . وتُرجم الكتيب فوراً الى الالمانية ، وعُمم على أساس أنه كراس التدريب الألماني الرسمي ، الذي أصبح بالتالي أساس الكتاب التعليمي الذي ألفه الجنرال « لودندورف » Ludendorf حول « الهجوم في حرب المواقع » وكان ، عن طريق التوسع في مبدأ « لافارغ » حول « التسرب » ، أن تمكن الالمان ، وبتلك الفاعلية ، من اختراق الموقع البريطاني ، في آذار (مارس) ١٩١٨ ، وموقع « شومان دي دام » الفرنسي في أيار (مايو) التالي . وظلت أفكاره هي الاساس لكراس التدريب على الهجوم في الجيش الالماني ، حتى اليوم [٥٢] . . . »

كان التطوير الذي أُدخل على هذا المنهج مشابها لما أُدخل على فكرة « المناوشة » قبل أكثر من مئة عام . في البدء ، وانسجاما مع العملية العادية لتطعيم الافكار القديمة بأخرى حديثة ، كانت زمر المشاة الني « تتسرب » أمام القوات زمرا صغيرة اذا ما قيست بالكتلة الرئيسة للمشاة التي تهاجم خلفها ، وعلى نسق . وكانت ، مثل مناوشي جيوش نابليون ، لا تتجاوز عشر أو ربع القوات المتوافرة . وفي وقت لاحق ، أصبحت الزمر نسبا أكبر ، حتى أتت حملات ١٩١٨ الكبرى ، حيث تحولت قوات الخط الامامي الالمانية كلها الى « متسربة». ولم يكن ينتظر الا من الاحتياطات المتقدمة خلفها أن تحاول الاقتحام من المواجهة ، وفق ترتيب قتالي ما ، بهدف « كنس » مراكز المقاومة .

من أجل هذه التكتيكات الجديدة طُورت أسلحة جديدة . وكان المدفع الرشاش المناسب للتكتيكات القديمة أثقل من أن يناسب التكتيكات الجديدة . فكان قطعة صلبة تحتاج لرجلين أو ثلاثة من أجل حملها ، وكان معه « معطف مائي » (مبرد) ليبرد السبطانة أثناء الرمي المستمر . وكان يستخدم أثناء الهجوم العادي من مواقع متأخرة كثيراً عن قوات الحد الامامي ، أو على مسافة من المجنبة ، ليقدم للقوات غطاء ناريا يمر من فوق رؤ وسها ، أو بشكل مقاطع لجبهتها . وأصبحت التكتيكات الجديدة بحاجة الى سلاح خفيف ، يُبرد بالهواء ، ويمكن لرجل واحد أن يحمله ، ليشكل رأس الحربة للزمرة « المتسربة » نحو الامام . وهكذا ، ظهرت لنا في منتصف حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ البندقية الرشاشة ، أو الرشاش الخفيف ، مثل الرشاش الفرنسي « شوشات » Chauchat ، أو الرشاش الالماني « بيرغمان » Bergmann.

ودعت الضرورة الى تغيير هائل في التدريب . وقد ساد هذا التغيير في الجيش

---

(٥٢) المقصود حتى زمن كتابة هذا الكتاب.

المعرب

البريطاني على مدى حقبة كانت من الطول بحيث أن تأثيرها الكامل لم يُلاحظ بوضوح الا في هذه الأيام . وتقوم أسس التدريب الجديد على شكل جديد من التمارين . وكانت الاشكال القديمة من تمارين الاغرار ، وتمارين الوقوف في مربعات قد بقيت متبعة من قبل العسكريين المحافظين في جميع الجيوش ، وذلك منذ الأيام التي كان يتحتم فيها أن تتدرب الوحدات المسلحة بالبواريد « ذات الجف الاملس » على صد الخيالة برشقات تطلق في آن واحد ، وعلى التحرك بالنظام المنضم ، والمنكب بالمنكب ، دون اخلال باستقامة الصف ، وعلى المحافظة ، مهما تكن الظروف ، على التراصف ، « والقدوة لجهة اليمين » . وتحولت هذه التمارين الى تدريب سيىء بالنسبة الى القوات التي تعتمد تكتيكاتها على « التسرب » . ولم تعد هذه القوات تتعلم ، ضمن معسكراتها ، أي شيء مواز ، أو مقارب من التحركات التي يقومون بها في المعركة . والاسوأ من ذلك ، أنها تكيفت مع عكس ما يفترض أن تفعله في المعركة . ولقد أعدت بشكل ينتابها فيه شعور عادي عندما تفعل أشياء يحتمل أن تكون مصيرية بالنسبة الى النجاح التكتيكي والى حياتها . وتمرنت على أن تحافظ على الخط المستقيم بعد زمن طويل جداً من التأكد بأن الأمل في النجاح يعتمد على التقدم بأرتال صغيرة غير منتظمة ، أو بتشكيلة رأس سهم تنتقل من ساتر الى آخر . ولم يكن من المفاجىء ، اذاً ، أن الاغرار الذين تلقوا تدريباً قليلاً ، كانوا في الغالب يبرهنون على أنهم قادرون على استيعاب هذه التكتيكات أكثر من الوحدات التي أصبحت التكتيكات القديمة شيئاً آلياً بالنسبة اليها ، من خلال التمارين . وقد اتضح هذا بشكل خاص بعد العام ١٩١٨ ، عندما طورت الجيوش الحمراء السوفياتية « التسرب » الى أعلى مستوى ممكن له ، وهو قتال المغاورة أو « المقاومة الوطنية » .

اتسعت فكرة « التسرب » من التكتيكات الصغرى الى التكتيكات الكبيرة ، الى الاستراتيجية . ولم يكن « لودندورف » قادرا على صنع هذا التغيير ، اذ كانت هجماته العظيمة في العام ١٩١٨ نجاحات تكتيكية الى حد بعيد ، لانها كانت تُنفذ بأساليب التسرب ، ولكنها لم تكن نجاحات استراتيجية ، لأنه لم يحقق قط خرقاً يتم بسرعة تمكن قواته من النفوذ الى مؤخرة الجيوش المقاومة ، وبعثرتها ، ومن ثم تكويم الاجزاء المبعثرة . ولم يتم تنفيذ التسرب على هذا المستوى قبل انقضاء النصف الأول من الحرب الاهلية الاسبانية . وآنذاك كان السلاح الأساسي الذي يسمح بتطبيق الفكرة الاساسة قد تطور تماماً تقريباً .

آنذاك ، كان هذا السلاح ، وهو الدبابة الحديثة ، مندمجاً مع « مدفعية جوية » سريعة التركيز ، ومع مشاة محمولة بالشاحنات سريعة التحرك ، من أجل اعطاء نمط جديد

من القوة القادرة على التسرب المباشر المستقيم ، التسرب الذي ظل جوهر وسر شكل الحرب حتى نهاية العام ١٩٤١ .

في البدء ، كان التسرب في الهجوم يعني التحرك نحو الامام ، الذي تقوم به كتل صغيرة من مشاة مهمتها أن تشق طريقها عبر مواقع العدو ، وتحقق أهدافاً تستطيع من خلالها تطويق هذه المواقع ، أو مداهمتها من الخلف . وكان لا يزال ممكنا ، في هذه الفترة ـ وربما كان ملائما ـ أن توضع أهداف محددة لكل مرحلة من مراحل الهجوم . وكان يفترض بكل مجموعة مهاجمة الا توغل في التقدم . إذ أن توغلّها يفقدها التماس مع الوحدات المتحركة خلفها . وعندما تغير هذا الشكل من الهجوم ، وتحول الى تسرب استراتيجي ، وعندما صار ينفذ بالعربات ، لا بالقوات الراجلة ، الغيت فكرة الاهداف المحددة . ففي خريف العام ١٩٤١ ، كنت أتابع مناورات الجيش البريطاني ذات المستوى الكبير ، وكانت تفترض قرب نهايتها أن القوة « الألمانية » الغازية قد صُدت . ولسوء الحظ ، وضع القائد الناجح أهدافاً محددة لتقدم قواته ، وأخر الوحدات المتقدمة بشكل أسرع حتى تمكنت وحدات اليمين واليسار من الوصول الى موازاتها تقريباً . وكانت النتيجة أن وحداته التي سبقت غيرها لم تستطع خرق تشكيلات « العدو » . والواقع أن هذا « العدو » قد نظم تراجعه بنجاح مكن قواته كلها تقريباً من الابتعاد مسافة ثلاثين ميلاً عن « الوحدات المتقدمة » ، وفي غضون بضع ساعات . وكان معظم القوات المتقدمة « واقفاً » بانتظار الاوامر التي تسمح له بالتقدم . وهكذا ، فان التسرب الاستراتيجي يتطلب الاهداف غير المحددة : أي أن على القوات المهاجمة السباقة أن تندفع الى الأمام بقدر ما تستطيع ، وتتوغل حول مجنبة قوات العدو ومؤخرتها بقدر ما تستطيع . ويجب ألا تتوقف لتأمين مجنباتها الذاتية ، اذ أن سرعة تقدمها ، والفوضى التي توقعها من خلال الاندفاع عبر مراكز امداد العدو ومقرات قيادته ، هذا كله سيخدمها عوضاً عن وقاية مجنبتها ، أو أن الطائرات المحلقة فوق رؤوسها ، والقوات الاخرى من الجيش الصديق المتدفقة من خلال الثغرة التي فتحتها ، هذه كلها ستحمي أطراف الشق الذي أحدثته . وعلى هذا الأساس ، فان مجمل فكرة المهاجمة على مراحل ، من الخط الأخضر الى الأصفر الذي يليه ، هذه الفكرة يعفو عليها الزمن في الشكل الجديد للحرب .

ولا يختلف الحال عن ذلك بالنسبة الى فكرة الجبهة العريضة اللازمة للهجوم . فمن يـرد عبور أسوار العدو بتشكيل خطي ، وكتف كل جندي محاذ لكتف الآخر ، أو تفصل بينهما بضعة ياردات ، فمن الضروري له تفجير ثغرة واسعة في هذه الاسوار . وإذا كان القصد هو الزحف والتلوذ خلف هذه الاسوار ، فلن تكون ثمة حاجة الا « لجحر فأر »

يندفع عبره . فهناك دائماً جحر فأر في كل موقع دفاعي ، ولا يمكن لهكذا موقع دفاعي أن يكون متساويا في قوته على طول مئات الأميال من الأراضي الريفية .

أثناء الحرب الأهلية في أسبانيا ، نفذ الجيش الألماني تجارب دقيقة على مسألة أضيق عرض ضروري للهجوم من أجل شق أنساق الخنادق المحمية . ووجد أن من الممكن عملياً ، في الأراضي الضيقة (المغلقة) ، البدء بجبهة عرضها حوالي ألف ياردة فقط . ولكن وسعت الجبهة حتى الكيلومترين ضماناً للنتائج . وأصبحت هذه هي الجبهة النموذجية للهجوم الألماني الخاطف . وكان الألمان عادة يهاجمون على جبهتين أو ثلاث بهذا العرض ، وتفصل الواحدة عن الاخرى فجوة عرضها حوالى عشرة أميال . وكان هذا نمط هجومهم على « سيدان » في أيار (مايو) ١٩٤٠ ، وأيضاً على ليبيا في الشهر نفسه من العام ١٩٤٢ ، كما اتضح .

وخير تحليل لهذا النمط هو ذاك الذي ورد في كتاب « الحرب الخاطفة » الذي ألفه « ف . أو . ميكشي F. O. Miksche » ، الضابط التشيكي ، الذي خدم برتبة رائد في هيئة الاركان العامة للجيش الجمهوري الاسباني . ويبين هذا الكتاب أن الافكار التكتيكية الاساسية ذاتها هي الذي يدمج النار بالحركة يعطي « التسرب » في الهجوم ، عندما ينفذ على نطاق واسع ، سمة هي من السرعة والحدة بحيث يصبح لا مجرد اختراق عادي (أي قد يُستطاع وقفه واحتواؤه بالاحتياطات وتشكيل المواقع الجديدة) وحسب ، بل « اقتحام » ، هو بمثابة الاختراق الذي يخلخل العدو و« يوجعه » . ويشير هذا الكتاب الى أن نجاح هذه العملية المتكررة في بولونيا وفرنسا واليونان وليبيا ، كان يعتمد الى حد كبير على أقصى تركيز للقوة ضد القطاعات الضيقة المنتقاة للهجوم . وقد أصبح هذا التركيز الاقصى ممكنا بوساطة المحرك البترولي . فالمكننة تعطي الهجوم الخاطف قوة اختراق أي دفاعات خطية ، لانها تعطي القدرة على تركيز خمس فرق على الجبهة التي لا يتجاوز عرضها ميلاً أو ميلين .

وثمة شكل آخر من الدفاع ، وهو الدفاع غير الخطي ، هو أمر ممكن . ويصف « ميكشي » هذا الشكل ، كمبدأ وكنظرية ، في كتابه المذكور آنفا . انه الشكل المعروف باسم « الدفاع الشبكي » الذي يعتمد أساساً لا على خطوط دفاعية متعاقبة بل على اقامة « جزر مقاومة » ، قادرة على الدفاع الدائري (كافة الجهات) ، وقادرة على متابعة القتال فترات طويلة بعد أن يتم تطويقها .

بعد أن تم تأليف كتاب « ميكشي » ، وبينما كان يُترجم ، بدأ الهجوم النازي على

الاتحاد السوفياتي . وقد بدأ بهجوم خاطف مزدوج وضخم ، تمكن فيه الألمان من « دق اسفينين » عبر الجيوش السوفياتية الرئيسة ، وحولها ، عند الحدود البولونية ، ثم الربط بين هذين « الاسفينين » بما سمي « بالكسيل » Kessel (بالألمانية) أو « الحوض » (وقد يسمى الجيب أو النتوء أو المرجل) ، ليتم فيه الايقاع بالقوات السوفياتية المتقدمة . وكانت معركة « بياليستوك » Bialistok هي أنجح العمليات ، من وجهة نظر الألمان . وكانت ، حسب تصورهم هم ، بحجم معركة « الفلاندر » برمتها (أي جميع الاعمال القتالية التي جرت خلال شهر مايو (أيار) ١٩٤٠ ، وحتى نهاية عملية اخلاء « دنكيرك ») . لكن أحدى ظواهر معركة « بياليستوك » لا بد وأن تكون قد أثارت قلق القادة الألمان ، والى حد ما ، فيما يتعلق بالمستقبل . فالمشاة السوفياتية التي عُزلت في حصن « بريست ـ ليتوفسك » استمرت في مقاومتها حتى بعد أن تم عزلها ، بحيث أصبح من الضروري ، حسب المراجع الألمانية (نقلتها مجلة المشاة الاميركية في عدد نيسان (ابريل) ١٩٤٢) ترك فرقة مشاة كاملة في تلك القلعة ، من أجل « احتواء بضعة آلاف من القوات الروسية » . والقوات السوفياتية الاكبر حجما ، والتي عُزلت حول « بياليستوك » ، عندما التقى الاسفينان الألمانيان خلفها ، هذه القوات أيضا ظلت تقاوم ، ولم تستسلم رغم أنها كانت مطوقة . وكان من الواضح أنه بعد مضي أسابيع على بدء المعركة ، وحتى بعد مضي أسابيع على اعلان الالمان الزاعم بأن تلك العملية قد انتهت بنجاح ، بقيت « جزر المقاومة » السوفياتية نشطة في الاجزاء الوعرة والسبخية من منطقة القتال .

وحقيقة الامر ، أن بعض الوحدات السوفياتية التي كانت تشكل جزر المقاومة ، كانت على ما يبدو ، وطوال الأشهر الثلاثة اللاحقة ، تقاتل لتشق طريقها عنوة باتجاه الخطوط السوفياتية . وثمة وحدات أخرى كانت تتوزع في مفارز مغاورة (عصابات) لتربك المواصلات الألمانية .

وعلى الرغم من أن المبدأ الدفاعي للجيش الاحمر لم ينص ، أو لم يوضح ، فكرة « الدفاع الشبكي » ، فقد أخذت القوات السوفياتية بوضع هذه الفكرة موضع التنفيذ حالما ابتدأت الاعمال القتالية . ولا بد أن يكون جزء من هذا السبب مستخلصا من تجربة « الحرب الاهلية الروسية » التي تبلور من خلالها قتال الجبهات السريعة الانتقال ، وقتال العصابات والمقاومة الوطنية ، وتبلورت فكرته حول المواقع المدافع عنها رغم عزلتها ، وخاصة حول المدن والقرى والمراكز الاخرى الواقعة على الطرق . ولا بد أن يكون مرد جزء من السبب في هذا التطور هو الدراسة التي تمت في مدارس الضباط السوفيات لتطور تكتيكات الدفاع الالماني خلال الفترة ١٩١٥ ـ ١٩١٨ . وهذا النظام الالماني للدفاع

بوساطة « النقاط القوية » هو الموضوع الرئيس لكتاب النقيب « وين » ،«ان تشن ألمانيا الهجوم » الذي سبق ذكره . ولا بد أن تكون هيئات أركان الجيش الاحمر قد تفهمت أيضا تطور الانظمة الدفاعية خلال الحرب الأهلية الاسبانية . وهذا التطور كرر بشكل مكثف التطور الذي تم في فترة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ثم تجاوزه كثيرا من حيث زيادة عمق الدفاع ، وزيادة الاعتماد على النقاط القوية المحصنة .

ويُعمد الآن ، أحيانا ، الى تجاهل المدى الذي قطعه في هذا الاتجاه النظام الدفاعي للجيش البريطاني في العام ١٩١٨ . ويذكر « التاريخ العسكري للحرب » الرسمي ، الصادر عام ١٩١٨ ، والذي جمعه السير« جيمس . اي . ادموند James E. Edmond ، وفي الصفحة ٢٥٧ ، أن كانت « هناك خطوط متواصلة في الخنادق في المنطقة المتقدمة . لكن الحاميات ، وكقاعدة ، لم تكن متوضعة في خطوط ، بل في مراكز ، ونقاط قوية ، وما شابه ذلك ، من أجل الدفاع الدائري ». أما السبب في فشل هذا النظام في آذار (مارس) ١٩١٨ ، فيمكن استخلاصه من الفقرة التالية ، المنقولة من الصفحة نفسها من « تاريخنا العسكري » :

« كان هناك اعتراض عام من الضباط المقاتلين على توزيع القوات في جيوب صغيرة أو نظام الدفاع « النقطي » كما كان يسمى قبل الحرب ، عن سخرية . لان ذلك كان نظرية مستحدثة . ومضى البعض حتى تسمية هذه السياسة بالانتحارية ، اذ أن استسلام هذه النقاط ، أو إبادتها ، هو مسألة وقت ، عندما لا تكون هناك احتياطات قوية تشن هجوما مضاداً على العدو ، ان هو ينفذ عبر الفواصل فيما بين النقاط الدفاعية . وكانت غالبية المقاتلين المتمرسين تفضل أن يقام في كل منطقة دفاعية خط محدد للمقاومة ، مع نقاط استناد وأعشاش رشاشات ، وتحويلات (خنادق مائلة) منسقة في العمق حتى مؤخرة المنطقة ، لتحد من تسرب العدو ضمن الترتيب الدفاعي . وسبب هذا التفضيل هو النقص في القوة البشرية ، وعدم وجود قوات قادرة على شن الهجمات المعاكسة .

وفي مرات لا حصر لها ظل الجندي البريطاني يدافع ، حتى الموت ، عن نقاط استناد معزولة . وقد فعل هذا أيضاً في ١٩١٨/٣/٢١ ، وكان من المتوقع أن يكرر ذلك في الاسبوع التالي . غير أنه لا يناسبنا . فالجيش البريطاني يقاتل ضمن ترتيب قتالي ، وهذه الاقفاص عديمة الفائدة . . »

كان هناك ما يشبه التخمة في الضباط الصغار عديمي الخبرة ، ومثلها في الجنود الشبان غير المدربين ، بحيث لا يمكن تأمين دفاع مضمون عن كل موقع حتى بدون التجربة

الخاصة التي فرضها عليهم الضباب . وكان قادةِ الفصائل عاجزين عن فرض السيطرة على ما هو أكثر من المواقع التي اختيروا للخدمة فيها . وكانت مراكز كل قطاع لا تعلم ما اذا كانت نقاط المجنبة صامدة أم سقطت . ونتيجة ذلك انه كان هناك عدم اطمئنان فيما يتعلق بالحاميات الصغيرة المعزولة ، وخاصة بسبب ظروف الطقس . ولم تخطر للقوات البريطانية التي تقاتل ، بحكم فطرتها حتى النهاية ، حينما كانت تقاوم ، فكرة التسليم المرن ، وكان ثمة شك كبير فيما اذا كان يفترض بالحاميات ، عندما يصل العدو الى مؤخراتها ، أن تصمد حتى النهاية ، بغض النظر عما يحدث على اليمين أو اليسار . ولم يدرك البعض حتى من خيرة الضباط الجدد أن من واجبهم الاستفادة من حقهم في اتخاذ القرارات ، بحكم كونهم المسؤولين المحليين ، وأن من الممكن تجاوز حتى الأوامر القاضية بالصمود ، في بعض الحالات الاستثنائية . والظاهر أن قادة الالوية والكتائب لم يتلقوا أي تعليمات بأن من الممكن ، في ظروف معينة ، أن يكون هناك تراجع بناء على أوامر معطاة . وهذا يعني أن مثل هذه التعليمات لم تصل أيضا الى الرتب الصغرى . وكانت هناك طرق مستطلعة من أجل الفرق ، لهكذا غرض ، ولكن المؤكد أن المعلومات من هذا النوع كانت تحجب عن ضباط الافواج . . »

يتضح من هذا النص المنقول أن تدريب هذه القوات البريطانية لم يكن يؤهلها للطريقة الجديدة في القتال . وكانت تتدرب وتتمرن على القتال ضمن الترتيب الخطي وحسب ، سواء في الهجوم أو الدفاع . ولم تكن تدرك أن نظام الدفاع الألماني ، المعتمد على النقاط القوية ، وهو ما كان له تأثير هائل ضد الهجوم البريطاني في السنين المنصرمة ، قد فرض اعادة تدريب الجيش بشكل لا يكفي فيه ان يتعلم الجنود التكتيكات الجديدة فحسب، بل أن يتعلموا أيضا موجبات هذه التكتيكات ، أو أن هذا النظام يستلزم أقصى ما لدى القادة الصغار من مبادأة ، ويوجب جاهزيتهم للتحرك في أي اتجاه يتطلبه سير المعركة . ويشير « التاريخ الرسمي » الى « فطرة » الجنود البريطانيين في القتال حيثما يقفون . ومن الصعب جدا اعتبار ذلك استخداما علميا لعبارة « فطرة » . ولربما كان المؤلف يعني أن الجنود كانوا مؤهلين لاعمال قتالية وتوجهات فكرية معينة . وأنه لمن المحزن أن نعقب بأن عملية تأهيل الجنود نفسها لما يوازي السلبية الغبية في المعركة الحديثة ، هذه العملية ما تزال مستمرة في أجزاء عديدة من الجيش البريطاني ، وحتى ضمن الحرس الوطني .

بحلول شتاء العام ١٩١٦ ، كان الجنرال « لودندورف » قد أدرك الشروط الجديدة للدفاع ، فكتب في « مذكراته عن الحرب » أن : « كان المقصود ، طبعا ، من الدفاع

الاكثر أيجابية هو وجوب أن يبقى الموقع في أيدينا لدى نهاية المعركة . ولكن لم يعد جندي المشاة بحاجة لأن يقول لنفسه : « ها هنا يجب أن أصمد أو أموت»، بل على العكس من ذلك ، صار من حقه ، ضمن حدود معينة ، أن يتراجع في أي اتجاه أمام نيران العدو القوية . »

ها نحن ، اذاً ، لدينا الحقيقة المدهشة ، وهي أن الجنرال « لودندورف » ، في توضيحه للفكرة الاساسية الخاصة بالدفاع الالماني الناجح ، وأن التاريخ الرسمي البريطاني ، في تفسيره للفشل في تبني هذا النظام الدفاعي ، كانا ، كلاهما ، يشيران بقوة وجلاء الى وجوب أخذ عملية التراجع عند الضرورة ، في الحسبان، كجزء طبيعي من التكتيكات . وما من مراقب محايد يتأمل في تاريخ القوات المسلحة البريطانية ، ابان ذلك الجزء من الحرب القائمة ، الذي لم يكن قد انتهى فيه هذا الكتاب ، الا ويعتقد بأن الأرجح هو وجوب أن يتكون تدريب جيشنا في صيف العام ١٩٤٢ ، وبشكل طبيعي ، من ٨٠٪ من التدريب على الهجوم ، و ١٠٪ من التدريب على التمسك بالمواقع ، ونسبة مئوية قليلة من التدريب على الانسحاب المغطى بحراسة خلفية ، وان يحتوي ، وبنسبة ضئيلة ، وبالنسبة الى بعض الوحدات فقط ، على تعليم سبب الانسحاب وزمانه ، وسبب وزمان الصمود في المواقع المعزولة أو المطوقة . ففي معظم الوحدات ، يُنظر الى التراجع على أنه أمر معيب ، والى فكرة العزلة (بالتطويق) على أنها شيء خطير حتى اليأس . ومع ذلك ، كان الدفاع السوفياتي ، عام ١٩١٤ ، معتمدا بالضرورة على هاتين الفكرتين كلتيهما . وفي الوقت الذي أصبح فيه السوفيات معتادين على شروط القتال الحديث ، وطوروا نظرية النظام الدفاعي وممارسته الى ما يقارب « الدفاع الشبكي » ، كان يتوضح أكثر فأكثر أن كل هجوم خاطف قام به الألمان كان يتردى كنصر عملي ، ويتزايد كورطة .

آنذاك ، في الشتاء السوفياتي ، اضطر الألمان الى التحول الى الدفاع . وسرعان ما أتضح أن نظامهم الدفاعي كان يعتمد كلياً على فكرة نقاط الاستناد القوية التي تغطي الخطوط الحديدية ووسائط المواصلات الأخرى ، والقادرة على مقاومة الحصار . وقد تبين أن احدى نقاط الأستناد هذه ، وكانت في « رجيف » Rzhev وأخرى كانت في «ستارايا روسا » Staraya Russa ، تبين أنهما قد عُزلتا جزئياً ، أو كلياً ، عن الامدادات (باستثناء الامداد جوا) طوال معظم شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ .

الألمان ، وهم يتباهون بنجاحهم بعد أن انتهى الشتاء ، شبهوا هذه المراكز المحاصرة « بالقنافذ » . ولهذه الكلمة تاريخ غريب ، من حيث كونها عبارة عسكرية تطلق على المواقع المحمية فعندما كنت أعمل مع « ميكشي » في اعداد كتاب « الحرب الخاطفة » ،

الذي سبق أن ذكرته ، نشرت في أيار (مايو) ١٩٤١ ملخصاً (لاقى اقبالا) عن فكرة الدفاع الشبكي ، في احدى المجلات الاسبوعية المصورة ، وفيه وصفت جزر المقاومة المنظمة من أجل الدفاع الدائري بأنها « مكتظة بالاسلحة المتحفزة كاكتظاظ الشوك على القنفذ » . وقلت عن الجنود الذين يشغلون مراكز خطية معينة تقع في الجهة الخلفية من النظام الدفاعي بأنهم قادرون ، عند الضرورة ، على « تكويم أنفسهم على شكل جزر قنفذية جديدة » . وقد أعيد نشر جزء من هذا المقال في مجلة أسبوعية مصورة ألمانية . (وكان المنحى العام في التعليق الألماني هو : ما أشد حماقة هؤلاء الانكليز . . . انظروا ، لم يكتشفوا إلا الآن فقط مثل هذه الأشياء التي كنا نعرفها منذ زمن بعيد) . ومن الواضح أن الألمان أعجبوا بالتشبيه بالقنفذ ، وطبقوه ، أثناء الشتاء ، في جزر المقاومة التي أقاموها هم في الاتحاد السوفياتي . بعد ذلك ، بدأ الجنرال رومل معركة أيار - حزيران (مايو - يونيو) ١٩٤٢ في ليبيا . وكانت أولى الرسائل التي وصلت الى الصحافة البريطانية تشير ، وهي تصف التكتيكات الدفاعية لدى قوات بريطانيا وفرنسا الحرة ، تشير الى مواقعنا بأنها « قنافذ » تتدفق حولها الوحدات الألمانية قبل أن تُرغم (القنافذ) على التراجع .

ان المعركة مستمرة في الوقت الذي تكتب فيه هذه الصفحات ، ومراحلها الاولى ليست في مصلحتنا . ولا يمكن التنبوء بنتيجتها . ولكن حقيقة أننا معتمدون جزئيا في دفاعاتنا على « جزر المقاومة » أمر واضح ، وذلك لأول مرة في هذه الحرب . ولسوف نسمع المزيد عن « القنافذ » . انها بمثابة « المعسكرات الرومانية » ، أو قلاع اليوم ذات الاسوار القوية .

ان احدى السمات الاساسة في أي نظام دفاعي حديث ، وفي الدفاع الشبكي بشكل خاص ، هي استخدام عدد ضخم من الألغام الأرضية . ويتضح من وصف الحملة السوفياتية ان كلا الطرفين استخدما الالغام بكميات لم يسبق لها مثيل . ويتضح أيضاً أن الدفاع البريطاني في ليبيا ، مثله مثل دفاعات الجنرال رومل ، في جنوب « خليج سيرت » Sirte ، خلال المرحلة الاولى من الحملة ، يتكون الآن بالدرجة الأولى ، من حقول الألغام الواسعة . والواقع أن الجزء الأول من هجوم رومل (أيار ، مايو ، ١٩٤٢) تضمن ، أولاً ، فتح ثغرتين عبر حقول الغامنا ، ثم تشكيل « كيسل » أو مرجل ، حول وخلف الأميال العشرة من حقول الالغام الممتدة فيما بين الثغرتين ، وأخيراً ضرب مؤخرة القوات المدافعة عن الأميال العشرة ، وبالتالي توسيع الفجوة . وعندما كانت الكتلة الرئيسة من قواته المدرعة قد تدفقت حول المجنبة الجنوبية ، أو عبر الثغرتين الضيقتين الاساسيتين ، ثم دارت نحو الوراء لاحتواء قواتنا فيما بينهما من الخلف ، كنا نحن نتلقى

قصص القاهرة المألوفة المتفائلة بأن قوات رومل المدرعة تتراجع . ويكاد يكون من غير المعقول ، وبعد هذا العدد الكبير من الأمثلة التي قدمت للعالم عن التكتيكات الألمانية المعهودة في معارك « الأوفرولين » Aufrollen[٥٣] ، أي الاجتياح الذي يعقب الخرق.

ألا يكون حتى معلق القاهرة قد ميّز، في هذا الوقت المتأخر، نمط الهجوم الخاطف. ولكن أشياء غريبة تحدث في الشرق الاوسط. فغريب جداً، مثلاً، أن يُحظر تعسفياً، في الشرق الأوسط، وبأمر حكومي لما يمض زمن كبير على صدوره، يُحظر توزيع المجلة الاسبوعية المصورة التي ورد فيها وحدها تحبيذ نظام الدفاع «القنفذي» وزرع الألغام على نطاق واسع. «وأنا لا أستطيع تذكر تأييد مشابه لهذا في أية نشرة اعلامية دورية بريطانية غيرها). ولم يُفرض هذا الحظر، في حينه، ليمنع فكرة الدفاع الشبكي من التسلل عبر القوات الموجودة في أفريقيا، ولكن الامتعاض الرسمي من التفكير النقدي، الذي يشكل هذا الحظر مثالاً مصغراً جداً عنه، لا بد وأن يكون هو المسؤول الى حد ما، عن حقيقة أن قواتنا في ليبيا لم تكن، خلال الفترة أيار (مايو)- حزيران (يونيو) ١٩٤٢، منظمة إلا جزئياً من أجل الدفاع الحديث، وأنها كانت منتشرة بشكل أساس في ترتيب دفاعي خطي يخلو من العمق.

ان جعل القوات تقاتل بطريقة جديدة يتطلب اعادة تدريب كاملة ، مع الشرح الدقيق . ففشلنا في آذار (مارس) ١٩١٨ ، كان ناشئاً ـ كما سبق أن بينت ـ عن التقصير في اعادة التدريب . وها نحن نستشهد بمثال آخر من « التاريخ الرسمي للحرب » :

« لقد أدى أسلوب العدو في الرمي بمدافعه الرشاشة ، المعتمد على الرمي الجانبي (المائل) أكثر من اعتماده على الرمي الجبهي المستقيم ، أدى الى أن تتصور القوات القليلة التدريب أن النار كانت تُطلق عليها من الخلف ، أو أنها قد طوقت . وكثيراً ما كانت هذه القوات تتراجع لهذا السبب وحده . . » (مجلد العام ١٩١٨ ، صفحة ٤٠١)

والقوات القليلة التدريب ، أو المدربة جزئياً ، والتي لم تكن التكتيكات الجديدة قد شُرحت لها بالشكل المناسب ، سيُقضى باستمرار على ثباتها ، أن لم يقض على جدواها ، عن طريق نفوذ العدو عبرها . ولا يمكن الحكم على مدى ما أصابنا من اخفاق في ليبيا

---

(٥٣) الاوفرولين Aufrollen ، الجيش الجوي النازي ، وكان يتميز عن غيره من القوات الجوية في الدول الأخرى ، أنه كان يضم في بنيته العضوية تشكيلات مدفعية ومدرعات ومظليين ووحدات خاصة ، بالاضافة الى وحدات ادارية ووحدات معاونة .
المعرب .

حزيران (يونيو) ١٩٤٢ ، بسبب هذا العامل ، ابان تأليفنا لهذا الكتاب . ولكن من الواضح أن غياب نظرية التكتيك الحديثة ، والتقصير في اعادة التدريب على هذه النظرية ، مسؤولان ، الى حد كبير ، عن المآسي التي وقعت من قبل ، مثل مأساتي سنغافورة وبورما .

ويتضمن أسلوب الحرب الخاطفة عناصر أخرى سيتم استعراضها في الفصل التالي ، الذي سأحاول فيه تحليل التوجهات المستقبلية المحتملة في الصراع المسلح . ومن الضروري ايراد هذه العناصر هنا ، وباختصار ، لاكمال تصورنا للتغيرات في التكتيكات والأسلحة التي طرأت حتى التطور الكامل للحرب الخاطفة . وأول هذه العناصر ، وأشدها تأثيراً على أفكار الرأي العام ، هو تطور القوات المحمولة جواً ـ المظليين ـ والقوات التي تنزل من طائرات النقل والطائرات الشراعية . وقد لعبت هذه القوات دوراً صغيراً ، لكنه كان ذا أهمية في معركة « الفلاندرز » . وحتى كتابة هذه الاسطر ، لم تلعب هذه دوراً حاسماً في المعركة ، باستثناء مرة واحدة ، حينما استولت على جزيرة كريت . وسيكون لهذه القوات شأن أكبر في المستقبل .

والعنصر الثاني هو ظهور المدنيين المسلحين « كحرس وطني » أو « كمغاورين » ، وظهور حرب عصابات على مستوى لم يسبق له مثيل منذ زمن نابليون . وستكون أهمية هذا المظهر من التكتيكات الحديثة كبيرة . ولسوف أبرر ، في الفصل التالي ، لماذا سيصبح هذا المظهر هو العنصر الحاسم في الحرب .

ثم إن هناك العنصر الثالث في نمط الحرب الخاطفة : تكوين الأسلحة الوقائية ، المضادة للدبابات والمضادة للطائرات ، التي تشكل الرد على مركب الدبابة / الطيارة الجديد ، وصده . ولهذه الأسلحة الوقائية تاريخها الذاتي ؛ فهي تبدأ كأشياء مستقلة ، من حيث أنظمتها وتكتيكاتها ، من أسلحة المشاة العادية ، وتنتهي كأسلحة مشاة ، متصلة عضوياً ، وبشكل وثيق بالأناس الذين لولاهم لأمكن الاستغناء عنها في ميدان المعركة . وبعض هذه الأسلحة يبدي دلائل واضحة على إمكانية قيامه بمهام متعددة . وعلى هذا الأساس ، كان المدفع الألماني ٨٨ مم ، سلاحاً مضاداً للطائرات بالدرجة الأولى ، ثم تحول كي يستخدم عادياً كأقوى مدفع مضاد للدبابات . وبذلك تحول من سلاح وحيد الغرض إلى سلاح ثلاثي الغرض خلال عام واحد من القتال في اسبانيا . ومجمل فكرة ، أو مبدأ تعدد الأغراض أو المهام للسلاح الواحد هو من الغرابة بالنسبة إلى عقليتنا العسكرية المحافظة بحيث يتحول هذا السلاح إلى « مفاجأة » لنا في ليبيا ، عام ١٩٤٢ ، أي بعد سنين خمس من بدء استخدامه بهذه الطرق الثلاث .

وتشكل المشاة ، إبان فترة الحرب الخاطفة هذه ، سلاحاً يقاتل الدبابات والطائرات ، والرجال أيضاً . وهي لا تستطيع القيام بذلك ان لم تعط أسلحة جديدة : أي متفجرات ، وألغاما وقنابل مضادة للدبابات ، ومدافع مضادة للطائرات والدبابات . ويجب أن تعطى ، في الوقت نفسه ، مدافع ميدان توضع تحت الامرة المباشرة لقادة المشاة أو الأفواج ، لأن سرعة الحركة في المعركة الحديثة لم تعد تترك مجالاً لصنوف الأسلحة المستقلة والتشكيلات المنفصلة لكي تعمل معا . وبهذه الطريقة يتحول لواء المشاة ، أو فوج المشاة ، إلى وحدة من كافة الصنوف ، وتتحول حتى الوحدات الصغرى الى « جيوش صغيرة تعتمد على نفسها » ، ومكتفية ذاتياً . وهذه العملية تتطور في الاتجاه الذي عرف بعبارة « فريق قتال » . وأي جزء من أية قوة مقاتلة ، هو في الطريق الى التحول ، يوماً ما ، الى فريق ذي صنوف أسلحة متعددة منسقة بعضها مع البعض الآخر بشكل محكم .

وعلى هذا المبدأ ذاته ، دمجت القوى الجوية والبحرية والبرية الألمانية فيما سمي « ڤيهر ماخت » Wehrmacht ، وهو قوة واحدة ، بقيادة قائد واحد وهيئة أركان واحدة . ويعين قائد واحد على رأس كل وحدة صغرى تشكل قوة مقاتلة ، وسواء كانت تضم سفنا وطائرات ، أو سفنا وقوات برية ، أو هذه الصنوف الثلاثة معاً . ومن خلال الاتصال اللاسلكي يعزز الربط بين الأسلحة الثلاثة (كما هو الحال في القوات الأرضية ، التي يرتبط ضمنها كل « فريق قتال » بالآخر ، بالطريقة ذاتها .) وتستخدم هذه الطريقة في الاعمال القتالية دونما حاجة الى عمليات الترميز وحل الرموز ، وهي العمليات البطيئة والمجهدة التي لا تزال تفرض على قواتنا بفكرة الامن التي عفا عليها الزمن . فالألمان الذين يبعثون برسائلهم دونما تشفير يحافظون على الأمن بسرعة العمل ، لا بمحاولات الإسرار المعقدة .

هذه ، اذاً ، بعض التطورات الأقل أهمية في نمط الحرب الخاطفة . وهو النمط الذي ظل سائداً في الحرب الحالية حتى العام ١٩٤٢ . ولكن المفروض بنا ألا نسمح للخطوط الصغرى في هذا النمط أن تحجب التصميم الاساس . والشيء الرئيس في تصميم (شكل) الحرب الحديثة ، منذ معركة الأراغون (١٩٣٨) ، وحتى القتال في ليبيا (١٩٤٢) هو احياء الفلانكس المدرع ، احياء الرتل المكثف الذي يضرب بقسوة على جبهته الضيقة . وتلعب الدروع المحمولة على سلاسل (جنازير) أو عجلات ، الدور نفسه الذي لعبه جندي المشاة المدرع التابع للاسكندر أو القيصر ، أو دور الخيالة المدرعة التابعة « لويليام الفاتح » . ولقد استثمر هذا الفلانكس المدرع بأسلوب جديد . وبما أنه يشكل هدفاً خطيراً عندما يحشد بشكل متقارب ، هدفاً لقاذفات العدو ومدفعيته بعيدة المدى ، فلا يمكن حشده بكثافة الا عندما تدعو الحاجة اليه من أجل عمل حاسم ، أي من

أجل الخرق . ولقد سمعت المرة تلو المرة ، من أولئك المقاتلين في ليبيا والصحراء الغربية ، شكواهم من أن دباباتنا كانت مبعثرة عندما كانت دبابات الجنرال رومل محتشدة . وأفاد معظم أولئك الشاكين بأن عبرة هذه الحملات هي في الحشد المدرع . ورغم ذلك ، تعرض حشدنا للتدمير بوساطة نيران مدفعية العدو ، في ١٩٤٢/٦/١٣ ، في عمل حاسم قدر له أن يكون الأخير في هذه الحملات التي جرت قبل أن ينتهي تأليف هذا الكتاب . وأحياناً كنا نسمع عن أن دبابات الجنرال رومل مبعثرة في الصحراء بشكل يمكن قواتنا من اكتشافها وجرها الى المعركة . ويتضح من ذلك أن تكتيكات الدبابات الألمانية تتضمن تركيزاً وبعثرة متناوبين .

بعد التحشد من أجل اكتساح النقاط المعادية القوية ، ومن ثم الاندفاع العارم الذي كان يتلوى عبر مواقع العدو ، كانت القوات الألمانية تنتشر ضمن هذه المواقع . وبعد أن تكون قد حققت الخرق ، كانت تنتشر ، على شكل مروحة ، في المنطقة المعادية ، مفتشة عن النقاط الضعيفة التالية ، ثم الوصول الى مؤخرة المواقع الدفاعية المعادية ، وأخيراً استثمار الخرق حتى أقصى حد . وكانت ، اذا ما تعرضت لمقاومة جديدة ، تتحشد مرة أخرى ، كي تتجاوزها أو تخترقها ، ثم لتعود الى التقدم ، من جديد ، على شكل مروحة . وهذا التناوب في التحشد والانتشار هو النمط التكتيكي الاساس ، لا لفرق البانزر وحسب ، بل أيضاً لمجمل أساليب قتال « الفرق » (Teams) القتالية الألمانية ، مهما يكن تشكيلها .

ولهذا النمط من التكتيكات ، على الخريطة ، الشكل الاساس نفسه الذي كان لتحركات فيلق نابليون وفرقه ابان كل حملة من حملاته . كانت هذه القوى تسير متمفصلة ، ولكنها كانت تضرب سوية . وكانت تنتشر (تتباعد) بين كل معركة وأخرى ، لا لمجرد الحصول على مجال يمكنها من الاقامة والحركة (كانت تقيم بعيدا عن موطنها) فحسب ، بل أيضاً لكي تغطي أكبر مساحة ممكنة ، وتشكل تهديداً لمواقع العدو من مختلف الاتجاهات . فتكتيكات « الفلانكس » المدرع ، والدمج الحديث بين المشاة والاسلحة الاخرى ، ليست مجرد التكتيكات الناشئة عن الأسلحة التي تنتجها الصناعة الحديثة ، أو عن نظرية الألمان أو مهارتهم . انها تكتيكات تجسد ، بشكل حديث ، مختلف الحملات الموثوقة التي قام بها سادة الحرب ، بدءاً من عهد الاسكندر وحتى زمن نابليون . وكان هدف أولئك السادة هو الحسم عن طريق الاحتواء ـ عن طريق ضغط العدو وتكويمه بشكل مكثف ، كما حدث لليجيونات في معركة « كاني » ، أو للقوات النمساوية في « لوذن » Leuthen . وكانت محاولات الاحتواء تتم عن طريق الاقتحام السريع الذي يشق جيش العدو . وتلك

تكتيكات يمكن الاستشهاد على صحتها بآراء « ايبا مينونداس » Epaminondas[٥٤] ، أو «كلاوزفيتز». ومن المؤكد أن الوقت قد حان للاعتراف بصحتها من قبل أولئك الذين يسيطرون على الجيش البريطاني، والاعتراف بها أيضاً من قبلهم، وقبل الشعب البريطاني، كأساليب ضرورية لا بد من تعلمها قبل أن نتمكن من تخطيها.

(٥٤) ايبا مينونداس Epaminondas ، أحد أشهر قادة طيبة (اليونانية) . وقد حقق انتصارات عدة على السبارطيين .

المعرب

١٠) التغير لا يتوقف

أن جوهر الأمر الذي أحاول القيام به في هذا الكتاب هو عرض نمط التغير في الحرب ، لا عرض نمط الحرب نفسها . ولم أكن أحاول اثبات مقولة أن هذا الأمر أو ذاك ، أو غيرهما ، هو السمة الاساسية في التكتيكات الحديثة ، بل كنت أحاول اثبات أن التكتيكات الحديثة تتغير كما تتغير الأسلحة الحديثة . وهي تتغير بشكل أسرع مما كانت عليه في أي وقت مضى . ولكن الخطوط التي تتغير وفقها توازي خطوط التغير السابق . ومن المؤكد أن من المفروض التنبوء بها الى حد ما . وان « يكون » ذلك ، لا يمكن أن يكون الا اذا استطعنا استنفار وتوقع الخطوط التي تتغير وفقها الحرب ، وبشكل يمكننا من بناء « عقيدة » حرب ، وانشاء نظام متكامل لاختيار الاسلحة وتصميمها ، وتحويل التدريب الى التكتيكات الجديدة ، وبحيث ألا يتوقف هذا كله عند مجرد منافسة أساليب عدونا ، بل تجاوز هذه الأساليب والتفوق عليها .

وان أول توجه في أي فترة مدرعة هو ـ كما أشرنا سابقاً ـ نحو خلق قوة يكون الفلانكس « هو شكلها الاساس . . » . أي « مطرقة ثقيلة » من الدروع . ولم تكن الدبابات تستخدم بهذه الطريقة عند بدء اختراعها . ففي العام ١٩١٧ (أو ١٩١٨) ، اشتركت الدبابات في الهجوم على شكل « موجات » أو صفوف متباعدة ، والفاصل بين كل

آلة والتي تليها يمينا أو يساراً تتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ ياردة ، وكل موجة تعقب الأخرى بمسافة غير قليلة . وبقي هذا هو أسلوب هجوم الدبابات في معظم المناورات ، أيام السلم ، التي فصلت بين الحربين ، وخلال المراحل الأولى من الحرب الأهلية الاسبانية . وعندما انتصفت هذه الحرب ، وبعد تجارب مؤقتة أجريت قرب « بيلباو » Bilbao ، حاول الألمان ، بادىء الامر ، حشد ١٥٠ دبابة على جبهة ضيقة لتحقيق خرق جبهة «أراغون» . وبعد وقت قصير ، أظهرت مناورات الجيش في ألمانيا أن فكرة « فلانكس » الدبابات كانت مطبقة على أساس أنها الحل النازي لحرب الخنادق السكونية . وفي وقت لاحق أيضاً ، أرانا الالمان في « الممر البولوني»(٥٥) ، « وسيدان » Sedan ، وفي ثغرة «مونا ستير» Monastir، وعلى سهول أوكرانيا، أرونا، وبالتفصيل أساليب الهجوم الخاطف الذي فيه يشكل فلانكس الدبابات رأس الحربة. وكانت العادة، قبل العام ١٩٤٢، أن يتكون منْ حشد لكافة الدبابات المتوسطة والثقيلة في الفرقة ـ ولنقل ٢٠٠ آلة ـ في «تشكيل قتالي متدرج»، يتقدم على جبهة عرضها من ٥٠٠ ـ ٧٠٠ ياردة. وكان يُعمد الى ملء هذه المواجهة بعشرين دبابة فقط، تبعد الواحدة عن جارتها حوالي ثلاثين ياردة، وكل من هذه الآلات العشرين تتقدم مجموعة أو رتلاً يضم تسع دبابات منتشرة بفواصل تزيد على الثلاثين ياردة بقليل. وكان هذا «التشكيل القتالي المتدرج» يغطي مربعاً من الأرض طول ضلعه حوالي ثلث ميل. وكان يُغطي تقدمه بوحدات خفيفة ووحدات هندسية مدربة خصيصاً على معالجة عوائق الدبابات، وتتحرك خلفها مشاة محمولة على شاحنات، ومدافع مقطورة مهمتها «كنس» وتوسيع الخرق المحقق في دفاعات العدو. وكان ذلك تركيباً لا يمكن مقاومته. . . الى أن قاومته موسكو ولينينغراد.

وفي وقت ما من خريف العام ١٩٤١ ، بدا أن فترة القوة المدرعة التي تعمل كمطرقة ثقيلة قد قاربت نهايتها على الجبهة السوفياتية . وكان ممكناً المضي في استخدام تلك القوة بهذه الطريقة في أفريقيا ، من قبل روميل ، وضد الدفاعات الخالية من العمق . ولم يكن مستطاعاً استخدامها أكثر من مرة أو مرتين بهذه الطريقة ، مع الحفاظ على فاعليتها ، ضد الدفاعات السوفياتية المبنية كلها في العمق ، والتي كانت تتألف من مئات الأميال الزاخرة بالمغاورين ، والقوات المقاتلة ، وقوات الهجمات المعاكسة ، ومن المدن المحصنة

---

(٥٥) الممر البولوني : القطاع الضيق من الأرض البولونية الذي كان يتجه شمالاً مخترقاً الفاصل بين بروسيا الشرقية والمانيا حتى بحر البلطيق.

والاحتياطات . وكانت هذه القوات كلها تملأ الدفاعات من الجبهة حتى المؤخرة . وفي الوقت ذاته ، تبين أن هناك تناقضاً واضحاً بين نمط القوة التي كان يستخدمها الالمان ، والمهام التي خصصت لتلك القوة . فالمطرقة الثقيلة لا « تتسرب » . ولقد سبق أن وصفنا « الفريق » أو التركيب المكون من الدبابات والطائرات والمشاة المحمولة على شاحنات كتركيب ضروري للتسرب الاستراتيجي بعيد المدى . لكن هذا التجميع للدبابات في « فلانكس » ـ وهو التشكيل المثالي لاختراق دفاع خطي ـ كان من الواضح أنه غير ملائم لمتابعة « التسرب » على مساحات شاسعة من الدفاعات الشبكية ، وكان الفلانكس مخصصاً لضربة مطرقة واحدة ، حادة وحاسمة ، ولا تدوم أكثر من بضع ساعات . بعدئذ يُفترض بالدبابات أن تنتشر في المواقع المكتسحة ، توخياً للوقاية من الطيران المعادي . فابقاء هذه الدبابات كتلة متراصة ، في حين يُحتمل أن تعثر عليها قاذفات العدو ، أو أن تطالها مدفعيته كهدف مكثف ، هذا الامر يحمل معه مجازفات خطيرة . لذا ، عندما بدأت حملة ١٩٤٢ ، كان استخدام تشكيل الدبابات المفتوح كفلانكس ، أو كرأس حربة ، قد بطل على الجبهة السوفياتية ، أو لم يعد يُستخدم الا بشكل نادر جداً[٥٦] . وأصبحت فرقة البانزر في العام ١٩٤٢ تضم عدداً أقل من الدبابات ، وعدداً أكبر من المدافع والمشاة والطائرات والمهندسين العسكريين .

عد الى الفصل الثاني ، والق نظرة أخرى على اللمحة الموجزة عن كيفية تغير القتال منذ « ايبا مينونداس » وحتى « الاسكندر » . لقد أصبح من الضروري تجزيء الفلانكس المقدوني الى ألوية أقدر على المناورة ، وتعمل بتنسيق مع الأسلحة الاخرى ومع القوات الخفيفة ، والقوات التي تستخدم الأسلحة المقذوفة وباقي الأسلحة الأخرى . وثمة عملية مشابهة جداً جرت على الأرض السوفياتية . والسوفيات هم في المقدمة من حيث تطوير هذه العملية . ومن الواضح أنهم بدأوا في حزيران (يونيو) ١٩٤١ بمفهوم عن استخدام الفلانكس المدرع أقل كثيرا في وضوحه من المفهوم الالماني ، ولكن بفكرة ، أوضح بكثير من الفكرة الألمانية ، عن ضرورة دمج مختلف أسلحة القتال وأساليبه ، دمجاً تستعيد فيه المشاة مكانتها الأولى في ساحة المعركة . وفي حين فقدت الدبابات الألمانية المحتشدة زخمها ، واضطرت الى الانقسام في مجموعات صغيرة من أجل تنفيذ « التسرب » في العمق ، أو من أجل مهاجمة جبهات أعرض ، دونما أمل في تحقيق اقتحام حاسم ، فقد

---

(٥٦) في ١٩٤٢/٦/٢٤ ، وردت في صحيفة « ايفيننغ ساندارد » الملاحظة التالية : « قبل اسبوعين ، صدر إعلان مفاجىء إلى الصحافيين الأجانب عن عسكري وزارة الدفاع ، وفيه : لقد انقضى عهد رأس الحربة المكونة من البانزر . وقد قيل ذلك بتأثر بالغ . . . » .

اكتسب السوفيات (بثمن غال) خبرة عملية ضرورية أعطتهم القدرة على تجميع ألويتهم المدرعة ، وتعزيزها بأسلحة وقوى أخرى تمكنت بها الالوية من أن تتحول الى وحدات متكاملة .

لا تزال الدبابة هي السلاح المهيمن ، تماماً كما كان جنـدي المشاة المدرع هو الجندي المهيمن في المعركة ، بعد الاسكندر بزمن طويل ، وفي الليجيون الروماني . ولكنها لا تستطيع تحقيق غايتها الا اذا كانت جزءاً من « فريق قتال » مكون من أسلحة مختلطة . وكانت الفرقة المدرعة الألمانية النموذجية ، في العام ١٩٤٠ تتحول فعلاً الى هكذا « فريق قتال » ، حيث كان فيها طيرانها ومدفعيتها العضويان ، وفيها فوجها أو أفواجها الذاتية من المشاة المحمولة ، ووحداتها الهندسية الخاصة بها من أجل بناء الدفاعات المضادة للدبابات أو تدميرها . ولكن يبدو أن السوفيات قد جعلوه يتخطى هذا ، اذ ان ألويتهم وفرقهم المدرعة مندمجة مع المشاة بشكل مرن ، ويمكن لأي وحدة مؤلفة من المشاة ، بالدرجة الأولى ، أن تضم ـ عضوياً ـ اما دبابات أو طائرات ، أو كلا الصنفين ، ان يكن أحدهما أو كلاهما ضروريا لمهمة المشاة . ولم يعد قادة مثل « فرق العمل » هذه قادة مشاة ، أو دبابات ، حصراً ، بل أصبحوا من « الضباط القادة » بالمعنى القديم لهذه الكلمة ، أي ضباطاً يتولون القيادة العامة لكافة الأسلحة والقوات المشتكة في عمل قتالي . وهذا هو النوع الوحيد من الضباط الذي يمكن أن يقود في هذه الأيام .

في الفترة ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ، كانت الدبابات تستخدم بشكل مأساوي ، وذلك عندما كانت تقيد بشدة بتقدم المشاة السائرة على أنساق . بعد ذلك ، ولفترة ما ، هي فترة الحرب الخاطفة « الكلاسيكية » ، تحررت الدبابات كي تثبت قدرتها على تحقيق الخرق في الدفاع الخطي . ولكنها صارت تواجه بعد ذلك ، في الاتحاد السوفياتي ، دفاعات لم تستطع اختراقها . . .

ويمكن وصف هذه الدفاعات بأنها كانت تمتد في عمق البلاد كلها، ولا يمكن لأي «اقتحام» أن يتخطاها، اذ لم يكن هناك حد للتخطي. ومن أجل «الصراع والقراع» للتوغل أكثر فأكثر في هذه الشبكة- كإنسان يشق دربه عنوة عبر دغل من الذباب[٥٧] ـ يترتب على كل قوة مدرعة أن تتحول الى«جيش قائم بذاته» تماماً، ويترتب على كل من هذه «الفرق القتالية» أن تتوزع في «فرق أصغر» تعمل على

---

(٥٧) : ورق يطلى بمادة لاصقة ، غالباً ما تكون سامة ، ويستخدم لاصطياد الذباب .

المعرب

«كنس» هذا المكان، أو خرق ذاك، وتفتش عن النقطة الضعيفة في هذا الاتجاه أو ذاك - فالقوى التي كانت «تتسرب» أصبحت هي عرضة «للتسرب » من خلالها. وصارت «المصفاة» الدفاعية تصمم وفق هدف متصوَّر: أي إيقاف مشاة العدو، وفصلها عن قواته المدرعة. والواقع أن هذا هو الهدف الرئيس للدفاع الشبكي . . . بمعنى بتر رأس الحربة عن جسم الحربة التي تعقبه. وبما أن هذا هو الهدف، صار لزاماً على القوات التي تهاجم الدفاع الشبكي حتى أعمق نقطة فيه أن تنفذ العملية الموصوفةً آنفاً، وهي التكامل والتنسيق بين المشاة والدروع. ويصل هذا التكامل تكتيكياً، الى غايته عندما تشكل الدبابات مربعاً أجوف تتقدم عبره المشاة المحمولة بالشاحنات.

ولقد عمل التطور في الصراع المسلح ، خلال السنين الثلاثين الماضية ، والى درجة كبيرة على تبديل العلاقة التقليدية بين المشاة وباقي صنوف الأسلحة . ففي العامين ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، لم تعد المشاة « سادة المعارك » (أو ملكة ميدان المعركة) ، وتحولت هذه النظرية الى « المدفعية تُخضع الأرض ، والمشاة تحتلها » . بعد ذلك ، وفي فترة ١٩٣٨ - ١٩٣٩ ، استُبدلت هذه النظرية وممارستها بأخرى مفادها أن الدبابات تُخضع الأرض والمشاة تحتلها . لكن هذه أيضاً آخذة في التغير . ورغم أن هناك دبابات وطائرات أكثر من أي وقت مضى ، فان القيمة القتالية للمشاة ، بشكلها الجديد ، وكأحد المكونات الاساسة والرئيسة في « فرق القتال » ، هذه القيمة هي في تزايد مضطرد . وأعتقد أنها ستستمر في تزايدها ، وأن المشاة ستصبح ، مرة أخرى ، هي السلاح الحاسم . ولكنها لن تكون كذلك ما لم تضطلع هي بدور السلاح المهيمن ، وتجعله جزءاً من ذاتها (الدبابات ، الطائرات ، المدفعية) ، وما لم تصبح قادرة على التحرك ، قبل العمليات ، وخلال العمليات الى حد ما ، بالسرعة التي يمكن أن تتحرك بها العربات . وأنا لا أعتقد بأننا نتراجع من الحرب الخاطفة الى « فيردان » Verdin . فالمناورة بالعربات ستبقى هي الشكل الحاسم للمناورة . ومن خلال المناورة بالعربات سينتقل التركيز من المناورة بالدبابات المدعومة بالمشاة نحو المناورة بالمشاة الميكانيكية المحمية بالدبابات . وربما لا يبدو التغير كبيراً . ولكن في كل شكل من أشكال التدريب العملي على الهجوم الدفاعي ، وفي كل تخطيط وتنفيذ لهذه العمليات ، سيُظهر هذا الانتقال في التركيز الفارق بين النصر الحقيقي والنصر « البيروسي[٥٨] » Pyhrrie Victory . ولربما يظل الحشد المدرع ، ولفترة ما ،

---

(٥٨) النصر البيروسي Pyhrric Victory ، الذي لا يستحق الخسائر التي تدفع في سبيله .

وحتى ضد الدفاع الشبكي ، يحقق انتصارات « بيروسية » ، كما كان حال الفلانكس المقدوني ـ ولفترة ما ـ في مواجهة الليجيون الروماني . ولكن تكاليف هذه الانتصارات ستتزايد باضطراد ، وستتناقص فعاليتها على النحو نفسه . فمستقبل المعركة يكمن في « الفرق القتالية » أو « المجموعات القتالية » القادرة على الاندماج بالدروع ، والقادرة في الوقت نفسه على العمل ضدها .

لقد أبدى الجيش البريطاني بعض التطور في هذا الاتجاه . فخلال حملة شهري تشرين الثاني وكانون الأول (نوفمبر ، ديسمبر) ١٩٤٢ ، في ليبيا ، تشكلت أرتال ممكننة من مختلف صنوف الاسلحة ، وبطريقة غير منتظرة ، وتحمل الطابع البريطاني الصرف ، وبمبادأة من العميد « جول كامبل » J. Campell

عُرفت تلك الارتال باسم « أرتال كامبل » . وسميت في وقت لاحق ، على ما يبدو ، « مجموعات قتالية » وكانت مرتجلة . والقدرة على الارتجال في المعركة أمر قيّم . لكن للارتجال حدوداً . فالجيش البريطاني لم يكن مدربا ، ولا منظماً ، على أساس أن ينفذ عملية تشكيل هذه الأرتال واستخدامها بشكل طبيعي ، ونموذجي ، ومستوعب من قبل الجميع . والواقع أن تلك هي الحالات التي يكون فيها وجود نظرية أفضل « عملياً » من عدم وجودها .

الدروع والقتال التلاحمي متلازمان . فتكتيكات فلانكس الاسكندر كانت تكتيكات صدمة . وكذلك كانت تكتيكات فلانكس الدبابات في الهجوم الخاطف . كانت تكتيكات صدمة ، بمعنى أن فلانكس الدبابات كان يحاول الالتحام بالعدو وبأقصى سرعة ممكنة . ولكنها لم تكن تستخدم أسلحة صدمة كالرمح أو الحربة ، كانت تستخدم أسلحة مقذوفة ، ومن أمدية قصيرة نسبيا . وبتركيز نيرانها على جبهة ضيقة ، ومن مسافات قصيرة ، كانت تحقق تأثير الصدمة . وكان هذا التأثير صاعقاً ضد القوات المتمركزة في مواقع خطية ، ويمكن التقرب منها بشكل مباشر ، بل ويمكن اجتياحها بكتل الدبابات .

ولكن عندما أخذت القوات تتمركز دفاعياً في المدن والقرى المحصنة التي لا تستطيع الدبابات التسرب عبرها دون مجازفات كبيرة ، وتتمركز في جزر مقاومة ، و « قنافذ » ذات أسلحة كثيفة ومسددة نحو شتى الاتجاهات ، وصارت محمية اما بعوائق طبيعية مضادة للدبابات ، أو بعوائق اصطناعية تقي من الاقتحام المباشر للدبابات ، بوساطة حقول الألغام العميقة ، لم تعد الدبابات قادرة على استخدام تكتيكات الصدمة بالطريقة ذاتها . فبدأ النواس يتأرجح تراجعياً ، من الصدمة باتجاه النيران . وصار على الدبابات أن

تستخدم النيران ، وتحتم أن تصبح قادرة على استخدام النيران بفاعلية ، على مدى حدود الرؤ ية المباشرة . وعلى هذا الاساس ، كانت الدبابة الألمانية النموذجية التي ركزوا عليها طاقات أوروبا الانتاجية ، خلال عامي ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ، تحمل قطعة مدفعية مساوية في حجمها لمدفع الميدان . وهكذا كانت أيضاً الدبابات النموذجية المتوسطة ، الاميركية والسوفياتية ، التي أُنتجت خلال الفترة نفسها . أما الدبابة البريطانية المنتجة في الفترة ذاتها ، ومن الوزن ذاته ، فكانت ـ لسوء الحظ ـ لا تحمل سلاحاً أثقل من المدفع المضاد للدبابات من عيار « رطلين » ، وكان يطلق قذيفة ذات وزن لا يتجاوز سبع (١/٧) وزن القذيفة التي يطلقها منافسه أو خصمه . وكانت الخطيئة المأساوية ناتجة جزئياً عن صعوبات الانتاج . كما يعود جزء من سبب الخطيئة الى أنه لم يكن لدى الضباط ، وكبار الموظفين المسؤ ولين عن تصميم الدبابات وانتاجها ، أي فكرة نظرية عن مهام الدبابات ، أو نه كان لديهم فكرة خاطئة عن ذلك .

وجل ما كان واضحاً من فكرة نظرية حول مهام الدبابات ، في وزارتي الحرب والتموين البريطانيتين ، في العام ١٩٤٠ ، كان التصور بأن الدبابات هي خيالة ، تُستخدم في الاستطلاع والامن ، أو التصور المقابل بأن الدبابات هي أسلحة مضادة للدبابات ، بها تُصد دبابات العدو . ولم تخطر على ذهن قادتنا خيالة التاريخ المدرعة ، وهي السلاح الحاسم في العصور الوسيطة . وكانت أفكارهم مشغولة بخيالة « صيد الثعالب » الخفيفة ، التي أسفوا جداً على زوالها من ميدان المعركة . (لم تكن الخيالة الخفيفة ، أبداً ، بحاجة الى الأسلحة المقذوفة ذات المدى البعيد ومدفعية الخيل ـ تجر بالخيل ـ التي بنيت لمرافقة هذه الخيالة كانت دائماً أشياء خفيفة) . لذا كان القادة يطلبون دبابات ليس فيها من الاسلحة ـ حسب تفكيرهم ـ أكثر مما هو كاف لحماية أشخاصهم . والواقع ، أنهم كانوا يسمون العديد من هذه الدبابات ، خلال ١٩٤٠ وما بعد ، « دبابات الخيالة » . وكانت نظريتهم البديلة هي أن الدبابة يجب أن تُستخدم ضد الدبابة . . « على دروعنا أن تبحث عن دروع العدو وتدمرها » . وهذه نظرية مختلفة كلياً عن النظرية الألمانية . فالنظرية الألمانية تقول بأن الدروع يجب أن تستخدم ضد الجنود غير المدرعين ، بل ضد أضعف وحدات ومواقع هؤلاء الجنود غير المدرعين . أما النظرية البريطانية فكانت تنص على وجوب استخدام دباباتنا ضد أقوى قوات العدو ، أي ضد تشكيلات البانزر .

أدت فكرة وجوب استخدام الدبابات ضد الدبابات الاخرى بشكل أساس ، أدت الى سوء فهم مذهل : إذ أخذ السياسيون والقادة البريطانيون يتصورون الدبابات كما لو كانت سفنا حربية ومراكب بحرية خفيفة . فصارت الدبابة المتوسطة السريعة تعرف باسم

« طراد » . ووصفت المعارك في الصحراء الغربية كما لو كانت اشتباكات بحرية . وهذا فهم مغلوط ، لان المراكب البحرية مصممة لتستخدم كمنصات مدفعية عائمة ، وليس للمدافع سوى هدف واحد، هو اغراق السفن الأخرى . أما الدبابات فهي منصات مدفعية متحركة فوق اليابسة ، انما غرض المدافع التي تحملها هو تدمير قوات العدو المسلحة . وتدمير هذه القوة المسلحة غير مستطاع دائماً وهي على شكل عربات مدرعة معادية ، بل على شكل قوى بشرية وعربات غير مدرعة ، ومدافع ذات وقاية بسيطة . وهذا الفهم المغلوط غير مسؤول عن التخلف الغريب في تسليح دباباتنا . ونحن ، كبلد بحري ، نعرف أن السفن المدرعة يجب أن تحمل مدافع كبيرة . بيد أن الفهم المغلوط ، الذي قد يكون مقرونا بسوء قراءة « كلاوزفيتر » ، مسؤول عن الاستخدام الغريب لدباباتنا ، استخدامها كما لو كانت أساطيل . ففي النظرية البحرية التقليدية ، يكون هدف الاسطول القتالي هو جر اسطول العدو القتالي الى المعركة ، وتدميره ، ومن ثم السيطرة على البحار . وليس بالامكان تنفيذ هكذا مهمة ، على اليابسة ، بوساطة القوة المدرعة ، بمجرد أن يشكل العدو جزر مقاومة منيعة على الدبابات . وبذلك ، كانت مهمة « أسطول الدبابات القتالي » تتقلص لتصبح طوافا بين هذه الجزر، الامر الذي لا يمكنها من « بسط سيطرتها » . وسرعان ما اكتُشفت انها تخسر الكثير في « المياه الضيقة » الفاصلة بين هذه الجزر .

وكان الفهمُ المغلوط لكتابات كلاوزفيتز ناتجا عن السطحية التي سبق أن بينها بعض الأذكياء من منظري الحرب . فقد صور كلاوزفيتز هدف المعركة بأنه تدمير القوى المسلحة الرئيسة لدى العدو . ولكنه لم يقصد بذلك أن المعركة يجب أن تتضمن بشكل رئيسي ـ أو حتى جزئي ـ محاولة الاطباق على العدو وجها لوجه . وهنا يكمن الخلط بين الهدف والاسلوب : فالهدف هو تدمير جيش العدو ، لكن الأسلوب لا يمكن أن يتحدد ببساطة ، « بالالتحام مع العدو وتدميره » ، اذ يمكن ، في بعض الحالات ، أن تكون خير طريقة لتدمير العدو بالتقرب غير المباشر نحوها ، أو عن طريق الهجوم « الطعم » الذي يغري العدو على القتال في أرض يختارها الصديق ، أو من خلال مزج المقاومة مع الهجوم المعاكس على القطاع الرئيس من ميدان المعركة ، بوساطة الفرق الزاحفة من العمق باتجاه أرض المعركة . و« ولينغتون » وعناصر المغاورة الاسبان ساعدوا على اضعاف ، وبالتالي تدمير « جيش نابليون الكبير » قرب موسكو . وانه لجزء من الطفولة العسكرية الاعتقاد بامكانية استخدام القوة العسكرية ، في كل مرة ، كما يستخدم الملاكم الغبي قبضته ، دونما مواربة أو دهاء ، حيث يتم التوجه مباشرة نحو قوة العدو الرئيسة ، و « ضربها بالمطرقة » .

وعلى عكس ذلك ، يُرجَّح أن يتم تطوير تكتيكات الدبابات ، مستقبلاً ، بحيث تصبح العادة أن يُشن الهجوم ضد الجزء الأضعف من « فريق القتال » المعادي ، المكون من المشاة المحمولة ، وضد أرتال تموينه ونقاط قفل عرباته . وفي الدفاع ، ستستخدم الدبابات ، من أجل الهجوم الخاطف المضاد ، ومن أجل الهجوم المضاد الذي لا يتجه مباشرة نحو قوات العدو المدرعة ، بل يلتف من الخلف للوصول الى الخطوط المزدحمة بالعربات والقوات القادمة لدعم القوات المدرعة . ومن المحتمل أن يستمر التوجه الحالي نحو الدبابات الثقيلة ، ذات التسليح الاثقل ، والدروع الاسمك ، حتى حين . بيد أن التوجه المعاكس قد يبدأ ، وقد تزداد أهمية الآليات الخفيفة في ميدان المعركة ، اذا ما اكتسبت القوات المحمولة جواً ، وقتال المغاورة ، الأهمية التي اعتُقد بأنها ستكتسبها . فالدبابات الأخف وزناً هي وحدها التي يمكن انزالها من الجو . أما الدبابة الثقيلة فهي شرهة جداً للوقود ، بحيث لا يمكن استخدامها كقوة معاونة لحرب المغاورة .

يمكن اعتبار أن الحرب الخاطفة قد بلغت كامل تطورها خلال العامين ١٩٤٠ و١٩٤١ ، وأنها لم تسجل في العام ١٩٤٢ نجاحاتها الكاملة الا ضد أساليب الدفاع البالية . أما في مواجهة أساليب الدفاع الحديثة التي ظهرت في الاتحاد السوفياتي ، فلربما سجلت نجاحات أقل ، وبتكاليف كانت تتزايد بشكل كبير . ونحن لما نبلغ بعد المرحلة التي تتقلص فيها أهمية الدروع في الصراع المسلح . . . المرحلة الموازية لتلك التي أعقبت معركة « كريسي » Crécy . لكننا بلغنا المرحلة التي فيها تناقصت أهمية الدروع المستخدمة وحدها ، وفيها أصبحت الأسلحة المعاونة للوحدات المدرعة ، والداعمة لها ، والمنسقة معها بشكل محكم ، أصبحت ذات قيمة متزايدة وحيوية لنجاح الدروع . ولقد دخلنا مرحلة تشبه تلك التي سبقت معركة « كريسي » ، المرحلة التي أصبح فيها القوس الطويل والقوس المتصالب من الأسلحة المعاونة الحيوية . ونحن نعلم أنه عندما كانت القوات المدرعة ، في الماضي ، مضطرة الى الاعتماد المتزايد على المقذوفات المعاونة ، أعقب ذلك وقت صارت فيه هذه المقذوفات المعاونة ، بالتالي ، تخترق الدروع ، وتكتسح ميدان المعركة . فهل نحن على مرأى من مثل هذه الفترة الآن ؟

لم نصبح بعد على مرأى من ذلك . فالأسلحة المعاونة تكتسب أهمية متزايدة ، لكنها لا تستطيع ، حتى الآن ، التصدي للدروع بشكل موثوق ، ومن ثم خرقها . ولقد أصبحت ، عموماً ، خطرة تماماً على الدروع . والأسلحة المعاونة الثلاثة الأكثر أهمية ، حالياً ، من أجل مرافقة الدبابات ، وتشكيل جزء أساس من « فريق القتال » الذي يستخدم في الهجوم الخاطف ، هي سلاح الجو ، والمدفعية المقطورة والمشاة المحمولة .

ونحن لا نستطيع أن نقدر ـ ان كان التقدير ممكنا في هذه الحرب ، أو خلال حياتنا ـ متى سيتمكن أحد هذه الأسلحة المعاونة من التطور حتى مستوى « ينفي » فيه ،أو يلغي نهائياً القيمة القتالية للدروع . ولكن بوسعنا تبين أن الخط المحتمل لتطور كل منها يتجه نحو هذه النهاية . وهذا الخط للتطور المحتمل هو لسلاح الجو . . . للطائرة محطمة الدبابة ، وللمدفعية ، السلاح الثلاثي المهام ، وللمشاة ، صائدة الدبابات طوال وجود خطوط المغاورة، واستخدام المواد شديدة الانفجار بكميات كبير، سواء على شكل ألغام أو رمانات .

ولسلاح الجو دور محدد جداً يؤديه في نظرية الحرب الخاطفة ، وممارستها . ودوره هو دور المدفعية الطائرة التي يمكن تركيزها بسرعة كبيرة من أجل فتح ممر للدبابات في الهجوم ، ومن أجل دعم المشاة المهاجمة . وهذا الدور مختلف كلياً عن مهمة المقنبلات بعيدة المدى . فالقوة الجوية المبنية أساساً من أجل قصف البلد المعادي لا تملك الآلة الصحيحة ، ولا هي مدربة بشكل صحيح ، من أجل تشكيل « فريق قتال » يحقق الحسم التكتيكي والاستراتيجي على الأرض . والآلة النموذجية التي تستخدمها القوة الجوية الخاصة بالحرب الخاطفة هي القاذفة المنقضة . وهذا النمط من الآلات لا يستمد قيمته بشكل خاص من دقته ، حسب تعبير البعض ، بل ان قيمته كامنة في حقيقة أنه يقترب كثيراً من هدفه ، ويستطيع بالتالي ، تمييز هدفه رغم وطأة ظروف المعركة ، بشكل أسهل مما تستطيعه القاذفة التي تطير على ارتفاع عال . وتكمن ، ثانياً ، في حقيقة أنه يتقرب من هدفه بطريقة تصعِّب عمل ، أو نيران الأسلحة المضادة للطائرات التي تتصدى له . والقاذفة العادية التي تطير على ارتفاع عال مضطرة الى التقرب من هدفها على هذا الارتفاع ، أو من انقضاض بسيط . ورامي المدفع المضاد للطائرات ، الرابض تحتها ، يقدر ارتفاعها ، ثم يربط صمامة القذيفة لتنفجر على هذا الارتفاع . كما أنها مضطرة للطيران بشكل مستقيم ، في مرحلة التقرب من هدفها . لذا يمكن توجيه المدفعية م/ط على خط طيرانها هذا . ومن جهة أخرى ، تستطيع القاذفة المنقضة أن تحلق في الجو حتى تعين هدفها ، ثم تخرج عن دائرة تحليقها لتتقرب من هدفها من اتجاه غير متوقع ، وتقصفه بزاوية غير متوقعة . وهي تتسارع في انقضاضها بشكل يفقد رماة م / ط كثيراً من المزايا . وعندما يقام سد م / ط لتغطية قطاع جوي معين ، تستطيع الآلة المنقضة اختراق هذا السد بسرعة أكبر من سرعة آلات الطيران على الارتفاع الثابت . كما أن للقاذفة المنقضة تأثيراً معنويا أكبر بكثير على القوات الارضية ، ويستمر هذا التأثير الى أن تألفه تماماً هذه القوات .

ولهذه الاسباب ، يكاد يكون مؤكداً أن نمط الآلات التي من طبيعتها مهاجمة الهدف

من الانقضاض ستظل هي الأكثر فاعلية من أجل التعاون مع الدبابات والمشاة ، ومن أجل العمل ضد القوات الأرضية . ولكن إن يُقدَّر أن يكون ثمة تطور مهم في الطائرات ، « كمحطمة دبابات » ، فمن الواضح أيضاً أن النماذج الحالية من القاذفات المنقضة غير مساوية في فعاليتها للنماذج التي تحمل مدافع من حجم معين ، أو التي تحمل بدلاً من المدافع ، قنابل مروحية يمكن تسديدها كقذائف المدافع . وقد طور السوفيات كلا النموذجين من خلال جهودهم للتصدي للحرب الخاطفة . والاميركيون طوروا النموذج الاول (القاذفة المنقضة) الى حد ما . فهذه أكثر فعالية ضد الدبابات ، لأن الدبابات أهداف صغيرة يجب أن تصاب بشكل مباشر لضمان انهائها ، ولأن دقة قذيفة المدفع ، أو القنبلة المروحية ، هي ـ بديهياً ـ أعلى من دقة القنبلة التي تسقط بفعل الجاذبية الأرضية ، والتي تتحرك بفعل قوتها الكمونية ، وتتأثر بالرياح . ويبدو أن القنبلة المروحية السوفياتية تطلق بوساطة صاروخ ذي شكل معين ، وقد تكون هذه طريقة دفعية أكثر فعالية بالنسبة الى « المقذوفات » الكبيرة المحمولة جواً ، من طريقة الأطلاق من أنبوب .

والتطور الآخر في سلاح الجو الذي يمكن أن يتوقع هو تزايد استخدام الطائرات ، « كعربات » نقل ، لا مجرد « عربات » قتال . ويقال ان الألمان كانوا ، وقت العمل في هذا الكتاب ، يستخدمون ١٦٪ من قوتهم الجوية لهذا الغرض . وتستخدم طائرات النقل عندهم لحمل المظليين ، وانزال القوات على المطارات المستولى عليها ، ولجر الطائرات الشراعية التي تستطيع الهبوط اينما كان تقريباً ، ولنقل الامدادات للقوات المعزولة المتسربة في العمق ، أو المتمسكة بجزر المقاومة المطوقة من قبل العدو . وفي حين يمكن أن يثبت الجيش المحمول جواً أنه ذو قيمة استراتيجية عظيمة ، يمكن الاثبات أيضاً بأن ثمة قيمة مساوية يمكن أن تكتسب من الامدادات بوساطة « الطريق عبر الجو » . ولطالما أربكت مسألة التموين القادة الأشد اندفاعاً ، وكثيراً ما منعتهم من التقدم السريع الذي يكون ممكناً لولا مسألة التموين .

لقد طرح النقيب « هوف سليتر » Hugh Slater فكرة الجيش المحمول جواً ، المؤلف من عربات مدرعة ، على أساس أنها التوجه النهائي للحرب الممكننة الحديثة . وفيما أنا أوافقه حتى المدى الذي بينته ، وهو أرجحية أن تصبح الطائرة أكبر قيمة ، كوساطة نقل ، مما كانت عليه في الماضي ، فإني أشعر (بسبب محدودية الوزن الذي يمكن أن تحمله) بأن التوسع فيها سيستجد من دور ، والمرافق للتزايد في النقل الجوي ، سيستخدم لمساعدة القوات الخاصة ، أكثر مما سيستخدم في نقل الأسلحة الثقيلة والعربات . وفي بعض الحالات ، سيكون نقل الأسلحة الثقيلة وعربات القتال هو أفضل امداد للقوات

الخاصة ، أو للقوات ذات التسليح الخفيف ، مثل الجيوش الصينية . ولكن هناك شوطاً بعيداً بين هذا الأمر ، وبين بلوغ مرحلة نقل وحدات مدرعة مقاتلة كاملة ، بوساطة الجو .

طوال الوقت الذي سيدوم فيه النمط التكتيكي للحرب الخاطفة ، فان الواجب القتالي المبدئي لسلاح الجو سيظل الدعم التكتيكي والاستراتيجي - أو الصراع ضد - « فرق القتال » الارضية المحمولة ، القادرة على الحسم . ولكن عندما توقف الحرب الخاطفة ، ويُرغم مُبدعوها- كما أرغموا في الاتحاد السوفياتي ، عام ١٩٤٢ - على التحول باتجاه سياسة تكتيكية وصفوها هم أنفسهم بعبارة « أوفرابين » Aufreiben (السحق ، والتقطيع أو الطحن ؛ وهي سياسة الاستنزاف التي يحاولون بها « دهس » طريقهم عبر دفاع شبكي قوي) ، آنذاك يرجح أن يصبح سلاح الجو هو عامل الخلخلة الذي تعاد به الحرب الى حركيتها من جديد . وواضح أن هذا التطور سيتخذ شكلاً سيكون أقرب الى طائرة النقل والطائرة الشراعية منه الى الطائرة القاذفة الثقيلة .

والثاني في قائمة الأسلحة المعاونة القادرة حالياً على تعطيل القوة المدرعة ، أو على مساعدتها ، هو المدفعية المنقولة[٥٩] . والتطويران الجاريان حالياً في هذا الحقل ، واللذان يحتمل أن تتزايد أهميتها ، هما وضع المدافع على جنازير بحيث تستطيع المدافع أن تذهب حيثما تذهب الدبابات ، وظهور السلاح الثلاثي الأهداف أو المهام .

بحلول العام ١٩٤٠ ، كان الألمان قد طوروا « مدفع اقتحام » ، مكوناً من مدفع عيار ١٠٥ ملم (٤,٥ بوصة) محمول على هيكل دبابة منسقة (ملغاة) ، ويحمل المدفع درعاً يقي السدنة من نيران العدو الصادرة عن الاتجاه الذي يوجه المدفع نحوه . ولكن هذه التركيبة لم تكن دبابة ، لان هذا الدرع الواقي لم يكن يحيط بأجناب الآلية ومؤخرتها . لم تكن دبابة ، بل مدفعية تتمثل بالدبابة . ومن المتوقع أن يستمر هذا التمثل المدفعي بالدبابة . ولربما حُملت الهاونات الثقيلة والمدافع القذافة (هاوتزر) التي قد يصل عيارها حتى ٦ بوصة وقذيفتها ٦٠ رطلاً ، على جنازير . والمدفعية الأخرى التي ستبقى على عجلات ستعد للتحرك بشكل تبقى فيه سبطاناتها متجهة نحو الأمام ، بدلاً من الخلف ، أثناء قطرها . وهذا يعطي امكانية التقاط الأهداف المدبرة بأجهزة التسديد المباشر ، أثناء الحركة السريعة للمعركة الممكننة .

ولربما صار عدد ما من الدبابات الكبيرة يحمل ، مستقبلاً ، أسلحة أثقل من مدفع

---

(٥٩) المدفعية المنقولة: المتطورة المحمولة أو ذاتية الحركة، هذا هو المقصود من عبارة المؤلف هنا.
المعرب

الميدان ، عيار ثلاث بوصات ، النموذجي (وقت كتابة هذا الكتاب) في معظم الدبابات المتوسطة الألمانية والسوفياتية والاميركية . ولكن ليس من المحتمل أن يُنتج عدد كبير من الدبابات « الحقيقية » المسلحة بمدفع أثقل بكثير من هذا السلاح . لقد سلح الألمان بعضاً من آلاتهم بهاونات من عيار ٥,٩ بوصة ، ولكن هذه هاونات ذات أمدية محدودة . وسبب أرجحية ألا تحمل دبابات مثل هذه أسلحة أثقل من ٣ بوصة هو استحالة تصميم دروع واقية لمدفع أثقل ، مع ترك مساحة كافية لكي يرمي السدنة بالدبابة بمعدلات سريعة . فباستطاعة ٣ ـ ٤ جنود أن يعملوا خلف درع مدفع الاقتحام . ولكن حشر ٣ ـ ٤ جنود ضمن برج واحد خلف مغلاق مدفع من حجم ما ، يعني وجوب استخدام درع ذي وزن مبالغ فيه . ومع ذلك سيبقى السدنة محشورين . كما يبدو أن هناك ، من وجهة نظر تكتيكية ، بعض التبذير المتضمن في اعطاء محرك خاص بكل مدفع منفصل . وهذا صحيح ، خصوصاً عندما تكون قوة معينة تنتقل ـ ربما مؤقتاً ـ من الهجوم الى الدفاع . اذ ليس من الضروري ابقاء وسائط نقل كثيرة فيما بين جزر المقاومة . ولكن قد يكون من الضروري ابقاء المدافع . وعلى هذا الأساس ، فان من الافضل ـ ولأهداف معينة ـ أن يكون المحرك الأولي الذي ينقل المدفع على شكل قاطرة مجنزرة ، أو « تنين » Dragon لاعلى شكل محرك يُبنى ضمن مجمع قطع المدفع الواحد . ولهذه الأسباب ، لا يرجح أن تصبح كافة مدافع الميدان ، من الطراز المتوسط ، محمولة على دبابات . ولكن يحتمل جداً أنه سيصبح العديد منها محمولاً على سلاسل ، مثل مدفع « الاقتحام » .

وحسب اعتقادي فان المدفع المضاد للدبابات والمماثل لهذا سيهمل. لقد بدأ ظهور هذا المدفع ، في فترة ما بين الحربين ، كسلاح خفيف ، عياره العادي ٢٠ ملم . (أقل من بوصة واحدة) . ويمكن القول ، كقاعدة غير دقيقة ، ان سلاحاً عياره ٢٠ ملم له فرصة خرق درع سماكته ٢٠ ملم وفرصة خرق المدفع ٥٠ ملم هي درع سماكته ٥٠ ملم . لذا ، باستطاعة الحجم الاصغر من المدافع م / د أن يتعامل أحياناً مع العربات المدرعة والدبابات الخفيفة المحاطة بصفائح تدريع سماكتها حوالى بوصة واحدة . ولكن الذي اتضح في اسبانيا ، حتى العام ١٩٣٧ ، ان هذا لم يكن ممكنا الا على المسافات القريبة تماماً . فالمدفع ٣٧ مم الذي جُرب في اسبانيا ، أثبت قدرته على خرق دروع عدة نماذج من الدبابات الخفيفة التي استخدمت آنذاك . بيد أن المدافع من الاعيرة ٤٥ ـ ٤٧ ملم كانت أشد فاعلية بكثير . وقد اتضح في العام ١٩٣٨ أن الدرع الاثقل هو على طريق الظهور ، ومن شأنه أن يتطلب مدفعاً أثقل لمقاومته . وهذا ما ذكرناه ، أنا وآخرون ، لدى عودتنا من اسبانيا . وأنا قدمت اقتراحاً خطياً ، وغير سري ، بتطوير مدفع مشابه للمدفع الألماني عيار ٨٨ ملم ، الثلاثي المهام .

وهذا السلاح لم يكن ، كما أشيع عنه ، مدفعاً مضاداً للطائرات ، حُول في ١٩٤١ أو ١٩٤٢ الى الاستخدام المضاد للدبابات . ولا أعرف ما اذا كان مصمماً للمهام الثلاث معاً ، أم لا . ولكنه استخدم ، في صيف ١٩٣٧ ، كمدفع ميدان ، ومدفع مضاد للدبابات والطائرات ، من قبل « ليجيون الكوندور » الألماني . وهو ذو قيمة عالية جداً بالنسبة الى أي قائد ، يرغب في مدفع ثلاثي المهام من هذا الطراز . وهو كمدفع مضاد للدبابات ، ذو عيار كاف لتحطيم أي درع عادي . ولكن كثيراً ما تكون أهداف سدنة المدفع م / د غير موجودة . ولا بد لهم من أن تكون أسلحتهم في مواقعها ، وجاهزة في كل وقت . بيد أن من النادر أن تأتي الدبابات المعادية من طريقهم ، وان فعلت فلبضع دقائق فقط . أما الطائرات المعادية فتتردد عليهم زائرة في مناسبات أكثر الى حد ما ، ولكنها تمر ضمن أمدية أسلحتهم ، وتخرج منها بسرعة أكبر أيضاً . وفيما بين فترتي العمل هاتين يمكن للمدفع أن يُستخدم كمدفع ميدان فعال جداً .

ومن الطبيعي افتراض وجوب أن يكون مثل هذا المدفع قد ظهر في بريطانيا ، حيث كان يُنتظر لكل عملية حربية بريطانية أن تتضمن انزالاً من البحر . وما دام انزال سلاح ثلاثي المهام أسهل بكثير من انزال ثلاثة أسلحة متخصصة ، كل ذي اختصاص منها غير مجد ، أو ضئيل الجدوى ، في الاختصاصين الآخرين . ومن سوء الطالع أن القوات المسلحة البريطانية ظلت تعيش ، خلال السلم ، وخلال الجزء الأول من الحرب ، في أماكن محصورة ، ومن الانغلاق بحيث بدت الفروع الثلاثة في المدفعية الملكية ، المسؤولة عن عمل المدفعية م / د ، وم / ط ، والميدان ، بدت وكأنها لا تحس الواحدة منها بوجود الأخرى الا لماماً . ولو كنا نملك حالياً سلاحاً ثلاثي المهام ـ ولنقل مدفعنا الممتاز ٣,٧ بوصة ، المضاد للطائرات ـ الافضل من المدفع الألماني عيار ٨٨ ملم ، وكان معداً ، ومزوداً بذخائر مضادة للدبابات وقذائف ميدان ، بالاضافة الى ذخائر مهامه المبدئية ـ لكان من المحتمل أن نحتاج الى عام أو عامين من النقاش قبل التمكن من اتخاذ قرار ما حول أي فرع من المدفعية الملكية هو المسؤول عن تشغيل هذه الاسلحة وقيادتها .

ويمكن تبين مدى تأثير الصراع المسلح على تطور الاسلحة واستخدامها من خلال قصة مدفعنا القذاف ، عيار ٢٥ رطلاً ، فهذا المدفع يلاقي مديحا هو جدير به . وهو ، في الواقع ، أفضل مدفع ميدان في العالم . . . من أجل حرب كتلك التي كانت قائمة في ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . انه مدفع ذو دقة وقوة احتمال لا تجاريان في الرمي واقامة السدود ضد الأهداف الثابتة غير المرئية . ولهذا المدفع ، بالمقابل ، أهمية أقل من أهمية المدفع ١٨ رطلاً ، الذي حل مكانه ، في الرمي ضد الأهداف المتحركة ضمن حقل البصر . ويمكن

أن تكون ذخيرة المدفع ١٨ رطلاً من النموذج الخرطوشي ، بمعنى أن الذخيرة تبدو كطلقة بندقية مكبرة جداً ، وكلها قطعة واحدة ، المقذوف والشحنة الدافعة معاً . أما ذخيرة المدفع ٢٥ رطلاً فهي ، كما هو معلوم ، من قسمين : الشحنة والمقذوف . ولهذا النوع ميزات معينة ، ولكنه يبطىء معدل النيران ، بسبب نقاط أخرى في تصميمه ، لدرجة أن المدفع ٢٥ رطلاً يصبح أقل فاعلية في الرمي ضد الدبابات من المدافع ١٨ رطلاً ، وأقل بكثير من فاعلية المدفع الألماني ٨٨ مم ، وأقل مما يمكن أن تكون عليه فاعلية مدفعنا ٣,٧ بوصة .

وبما أننا نتناول مسألة المدفعية ، فقد يكون من المناسب طرح احتمال ان تسترد القنابل المنثار بعضاً من أهميتها السابقة . فالقنبلة المنثار مجهزة بصمامة (طابة) تنفجر في الجو على مسافة قريبة من الهدف ، فيطلق الانفجار عدداً كبيراً من الكرات الرصاصية الثقيلة التي تتناثر (نحو الأسفل) فوق مساحة أوسع مما يغطيه عادة ما يصدر عن القنبلة شديدة الانفجار من شظايا أو أثر تفجيري . وفي العام ١٩١٤ ، كان معظم ذخيرة مدفعية الميدان من القنابل المنثار ، وكانت نسبة الذخيرة شديدة الانفجار صغيرة . بعدئذ اتجهت الجيوش نحو الأرض، وطمرت نفسها في الخنادق. وقنابل المنثار ليست بذات قدرة اختراقية كافية لالحاق الدمار بالجنود المتخندقين . لذا تناقصت أهميتها ، وتزايدت أهمية القنابل ش . ف . (شديد الانفجار) . . . الى أن أصبحت قنابل الغاز ، من أجل مدفعية الميدان ذات أهمية مساوية ان لم يكن أكثر . وفي هذه الأيام ، تخاض الحرب من الخنادق أقل بكثير مما كان عليه الحال في الماضي . وخلال اللحظات الحاسمة في العديد من الاشتباكات ، تكون أهداف المدفعية اما المشاة المحمولة بالشاحنات ، أو المشاة المبعثرة حول هذه الشاحنات ، أو قوافل التموين ، أو العربات الاخرى الضعيفة ، مثل ناقلات الدبابات . واعتقادي أن من الممكن اعتبار قنابل المنثار ، بسبب مساحة تأثيرها المميت ، هي أفضل من القنابل ش . ف . في التصدي لمثل هذه الاهداف . وفي الدفاع الحديث ، وعندما يكون الهدف الاساس ، على الاغلب ، هو منع مشاة العدو من متابعة دباباته ، من المؤكد أن باستطاعة عدد من مدافع الميدان ، أو المدافع الثلاثية المهام ، التي ترمي قنابل منثاراً من جزر المقاومة المتقدمة ، باستطاعته أن يؤخر المشاة أكثر من استطاعة عدد مماثل من المدافع التي ترمي قنابل ش . ف .

وحيثما يكن التمسك بالمدن قوياً ، كما هو الحال في الاتحاد السوفياتي ، تعد المدفعية الثقيلة لتحتل مكانها في الصورة . فالالمان يستخدمون فعلاً المدفعية القذافة (هاوتزر) عيار ١٦ و ٢٤ بوصة ، المسيرة على خطوط حديدية ، ضد جزر المقاومة السوفياتية . ولكن

الشكل الاساس للحرب سيظل ، بالنسبة الى هذه « المهولات » ، شكلاً حركياً لا تستطيع مجاراته .

من المستحيل التكهن ، ولو ضمن أي حد من الثقة ، بتأثير استخدام الغازات السامة على التكتيكات الحديثة . فمن أجل هدف الدفاع الأساس ، الذي سبق ذكره ، وهو فصل المشاة المهاجمة عن دباباتها ، يبدو أن من شأن استخدام الغاز لمدة طويلة أن يكون ذا قيمة ما ، كما من شأنه أن يبطىء الى حد ما عمية الهجوم الحديثة ، وفيه ما قد يبطل الحرب الخاطفة . ويمكن ، من جهة ثانية ، أن يثبت كونه سلاحاً هجومياً قيماً ضد جزر المقاومة المحصنة بشكل لا يكون للمقذوفات سوى تأثير قليل عليها . ولربما كان له تأثير أكبر على جنود المغاورة الذين هم بالضرورة مجهزون بأسلحة خفيفة . وقد استعمله اليابانيون بكثافة ضد الجيوش والمغاورين الصينيين الذين كانت تنقصهم أقنعة الغاز . ويمكن أن تُعد العربات المدرعة بشكل يمنع نفوذ الغاز اليها ، وكذلك الأمر بالنسبة الى الطائرات . ولربما يكون تأثير الغاز خلال المرحلة الأولى من هذه الحرب ، إن يستعمل الغاز أصلاً ، هو بالدرجة الأولى اعاقة ، أو المساعدة على تدمير القوات ذات العقلية المحافظة بالنسبة الى معداتها وتكتيكاتها ، بحيث أنها لا تسارع الى صنع دبابات وطائرات وناقلات جنود مضادة للغاز . واستخدام رذاذ الغاز من الجو يمكن أن يؤثر على السكان المدنيين في المناطق التي جعلت دعاية الحكومة فيها من الغاز مرضاً عصبياً رهيباً ، بينما آثاره التدميرية قليلة . والغاز لما يستخدم بعد في هذه الحرب ، على نطاق واسع ، من قبل الاعداء ، لاننا كنا نملك ، حتى العام ١٩٤٢ ، امكانات أفضل لانتاج الغاز ، ونملك معظم مطاط العالم . وخلال العام ١٩٤٢ ، حسرنا ٩٠٪ من مصادر المطاط الخام العالمية ، مما جعل أعداءنا أفضل منا وضعاً ، من حيث القدرة على « تدريع » أنفسهم ضد الغازات . لذا ، سيكون من الحكمة أن تُدرس بتفصيل أكثر مسألة تأثير الغاز على التكتيكات الحديثة : مثال ذلك أن وضع معداتنا الحالي يجعل من غير الواضح ما اذا كانت الطائرات المقاتلة قادرة على العمل من مطارات ترش بكثافة بغازات تدوم طويلاً .

والعمليات الاساسية في بناء المشاة الحديثة ثلاث : المكننة والربط المحكم بالدروع ؛ تطوير قنص الدبابات والدفاعات المضادة للدبابات ؛ والتوجه نحو أساليب المغاورين وتكتيكاتهم . أما المكننة ، فقد قطعت حتى الآن شوطاً يجعل من الممكن تحرك كمية كبيرة من القوات بسرعة الدبابات . ونقطة ضعف هذه القوات في العمليات هي أن نيران المدافع الرشاشة المعادية تستطيع ارغامها على الترجل من عرباتها ، وتستطيع ابطاء ايقاعها حتى تتساوى مع سرعة الزاحفين . وقد عمد السوفيات ، في محاولتهم تطوير تنسيق وثيق

بين الدبابات والمشاة ، عمدوا الى استخدام زحافات مدرعة للمشاة تُجر خلف الدبابات على الاراضي الجليدية ، والى جعل مجموعات صغيرة من رماة المدافع الرشاشة والبنادق الآلية يركبون على أجناب الدبابات ذاتها . ويبدو من المرجح أن هاتين الفكرتين ستمران بالمزيد من التطوير : سيصار الى اختبار نماذج متعددة من ناقلات الجند المدرعة ، وسيكون بوسع الدبابات أن « تعبر »(٦٠) بالمشاة قدماً بسرعة ، بوساطة شكل ما من أشكال الدروع المضادة للرصاص ، التي تُركب خلف برج الدبابة العادية .

لم تظهر المشاة بعد أقصى قدراتها في مواجهة الدبابات . وقد يكون هذا نتيجة سوء فهم نظري لطبيعة العمل . لقد زُودت المشاة بأسلحة مقذوفات من أنواع متعددة ، وببنادق مضادة للدبابات ومدافع خفيفة مضادة للدبابات . وزُودت بهذا كله كأسلحة رئيسة لها تستخدمها ضد الدبابات . وأنا أكرر أن الدروع والقتال التلاحمي متلازمان أبداً . وأعتقد أن الاستنتاج النظري من هذا هو أن المشاة يجب أن تُدرب على مناوشة الدبابات من أمدية قصيرة للغاية . وهي لا تتمكن من ذلك الا اذا تدربت عملياً على أن تختفي عن نظر الدبابات ، ذات حقل الرؤية المحدود حكماً ، على مثل هذه الامدية . ويكون سلاح المشاة الأساس ، المضاد للدروع ، على مثل هذه الامدية ، هو الشحنات شديدة الانفجار على شكل : اما رمانة ثقيلة مضادة للدبابات ، أو لغم مضاد للدبابات ، واما على شكل مقذوف معين ، ثقيل نسبياً ، يحدث تأثيره على الدبابة من خلال انفجار الشحنة أكثر مما يحدثه من خلال اختراق الدرع الناتج عن السرعة الابتدائية العالية للمقذوف . فالرصاصة الصلبة المنطلقة من بندقية مضادة للدبابات ، أو القذيفة الصلبة المنطلقة من مدفع خفيف مضاد للدبابات ، لا تستطيع احداث تأثيرها الا اذا اخترقت التصفيح وأصابت نقطة حيوية . بيد أن انفجار الشحنة يمكن ، وبسهولة أكبر ، أن يدمر الجنزير أو علبة السرعة ، أو يفتح فجوة معقولة في الدرع . ولا بد من أن تكون الرصاصة أو القذيفة دوارة بسرعة عالية . أما المقذوف شديد الانفجار فيمكن أن يقذف باليد أو يطلق (من آلة) بسرعة بطيئة نسبياً . وما زال اللهب فعّالاً ضد بعض نماذج الدبابات ، اذ لا بد من ان تتعبأ بالهواء ، وحيثما ينفذ الهواء ينفذ اللهب .

في الماضي ، تم قهر الدروع ، كما حدث في « كريسي » ، عن طريق المقذوفات المعاونة . ومن الممكن قهرها مجدداً بمثل هذه الأسلحة ، أي الطائرة أو المدفع . ولكن من

---

(٦٠) شبه المؤلف الدبابة بالزورق، ونيران العدو بوسط مائي.

المعرب

الممكن أيضاً أن يؤخذ في الحسبان قهرها بشيء ما يقارب تكتيكات الصدمة . . . أي بالصدمة ، أو شدة انفجار الشحنة ، وهي نوع من الصدمة لم يكن استخدامها ممكنا في الماضي .

يلجأ الناس الى صناعة أكثر الاسلحة تعقيداً وكلفة من أجل احداث الانفجار قرب العدو . . . مدافع ضخمة أو طائرات قاذفة ، أو طوربيدات . ثم يكتشفون ، لدى مواجهة عدو منتشر أو مدرع ، أن نسبة ضئيلة فقط مما أبدعوه ، ومن مقذوفاتهم القوية ، هي التي تضمن تأثيراً يذكر ، بغض النظر عن مداه . لكن عنصر المشاة المتخفي ، اما بالتمويه ، أو بعدم الحركة ، أو بالدخان ، أو الظلام يستطيع ايصال المتفجرات « باليد » ، ويتأكد ، على الارجح ، من ايصالها الى « العنوان » الصحيح . وبديهي أن ليس هذا الاستخدام الجديد للمشاة ، والمخيف (بالنسبة الى بعض الضباط) ، في الواقع ، جديداً تماماً ، بمعنى أن صائدي الدبابات ، اليوم وغداً ، ما هم سوى نظراء قاذفي الرمانات في القرن السابع عشر ـ وهم ، كقاذفي الرمانات أولئك ، يجب أن يكونوا عناصر مشاة منتقين وشجعاناً . بيد أن مهمتهم ممكنة . ولقد سبق أن أداها ، بمستوى معقول ، اناس في اسبانيا ، والاتحاد السوفياتي .

وفي فترة تسودها الدروع والحركية ، يستحيل على عناصر المشاة أن يقوا أنفسهم في ميدان المعركة بالتخندق وحسب . اذ تصبح وقايتهم الرئيسة بالتخفي ، لا عندما تصبح الدبابات المعادية فيما بينهم فقط ، بل أيضاً عندما تحلق الطائرات المعادية فوقهم . وذلك هو السبب الأول الذي سيجعل معظم الاساليب الحديثة لتكتيكات المشاة ، من ناحية هجومية ، تماثل أساليب رجال العصابات . فقوة من هذا النوع هي بالضرورة قوة غير مرئية . انها تضرب في الظلام ، أو الادغال أو أزقة المدن الخلفية ، أو في الهضاب الوعرة ، ثم تنسحب ، أو تتبعثر لتختفي فوراً ، بعد توجيه ضرباتها . وشتى شروط التكتيكات الحديثة تمكن المشاة الخفيفة النشطة من القتال بهذه الطريقة . والتقدم السريع في العمق الذي تنفذه القوات الممكننة والمحمولة ، والكر والفر في الهجمات والهجمات المعاكسة ، التي تنفذ عبر الاقنية الضيقة الموجودة بين جزر المقاومة ، تجزّأ المعركة الى عدد كبير من الاشتباكات الصغيرة المنفصلة ، حيث تتهيأ لوحدة المشاة التي تعرف كيف تحاكي قوة من المغاورين في استقلاليتها وظهورها من حيث لا ترتقب ، تتهيأ لها فرص هائلة . وان تعتبر المشاة ، في هكذا معركة ، مجرد قوة دفاعية ضد مشاة أخرى ، أو « كانسة » تنظف الانقاض بعد أن يعبرها هجوم دروع ، فلن يكون مستطاعاً دمجها « بفريق القتال » المؤلف من الدبابات والطائرات التي لن يكون بالنسبة اليها أكثر من ملحق أو هدف .

ولكن من جهة ثانية ، ان تلعب المشاة دورها الذاتي والايجابي في المعركة ، في الدفاع : « هوام » خطرة من الصعب اجتذارها من شقوق التربة ، وفي الهجوم : خلية نحل لاسعة تخرج من حيث لا أحد يعرف ، وتختفي بالسرعة التي تظهر فيها ، عندئذ يمكن أن تصبح المشاة ، من جديد ، أقوى عامل في عملية الدمج التي تكون الجيش .

مشاة كهذه ستستخدم الأغطية الدخانية حتى حد أكبر مما هو مألوف حتى الآن . وليس لقادة المشاة ، من النوع الاحتياطي ، أن يقلقوا أصلاً الا فيما يتعلق بسيطرتهم على جنودهم . فللدخان تأثير على هذه السيطرة ، والمشاة التي لم تألف الدخان ستضيع اتجاهها ، عندما تتحرك عبره . الا أن سيطرة القادة المستمرة على الوحدات الصغيرة ، وهم خلف تلك الوحدات ، لم تعد ممكنة ، في ظروف المعركة الحديثة . والدخان والظلام هما الشرطان الوحيدان اللذان يلائمان الضرورة النظرية التي ذكرناها سابقاً . . . أي ضرورة أن تعتمد المشاة في وقايتها على التخفي أكثر من التخندق . وكان من الملاحظ ابان الحملة اليابانية على « مالايا » أن كان التقدم الياباني العادي يتوقف حتى منتصف الليل ، أو بعيد ذلك بقليل ، حيث كان يبدأ من جديد تقدمهم « التسربي » الرئيس . وكانوا باستخدامهم (في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، اذ كان الجنود اليابانيون يأكلون ويرتاحون) الظلام للمرور عبر خطوطنا أو تطويق وحداتنا ، يتوضعون ـ عند الفجر ـ بشكل تتمكن معه نيرانهم من السيطرة على مواقعنا من مختلف الزوايا ، والسيطرة أيضاً على كافة طرق الانسحاب من هذه المواقع . وهذه هي التقنية النموذجية لحرب المغاورة . ومما لا شك فيه أنهم تعلموها من القوات الصينية التي كانت تنفذ تكتيكات المغاورة ، وتماثل المشاة بالمغاورين ، وبمستوى من التطوير يساوي في علوه المستوى السوفياتي .

ولا بد للمشاة من أن تمارس كثيراً قتال الشوارع في سني الحرب الخاطفة ، وفي السنين التالية التي ستتجسد الآن ـ حسب رأيي ـ بصدام بين الحرب الخاطفة وأفكار قتالية أحدث . فالهجوم الخاطف يهدف الى الاقتحام السريع والتدمير ، ثم التقدم بشكل أسرع لتجاوز الثغرات التي يخلفها لتشكيل « المرجل » . ويجري الكثير من هذا التقدم على الطرق . وحيثما تتقاطع الطرق هناك مدن وقرى . فان تتمسك المشاة بهذه المدن والقرى باصرار يرغم التقدم الخاطف على التباطوء ، والتشكيلات المدرعة على التمفصل في وحدات أصغر فأصغر ، وتنفصل عن الشاحنات التي تحمل المشاة والامدادات ، والتي تكون خلفها .

وفي الحرب الاخيرة ، كثيراً ما مهدت المدفعية المناطق المكتظة بالمباني ، وبتكلفة كبيرة من الوقت والقذائف . ولكن لا يمكن تمهيد هذه المناطق في هجمة خاطفة نموذجية .

فليس هناك متسع من الوقت . لذا لا بد من اكتساحها . ولا يمكن اكتساح هكذا مناطق بالدبابات . فالدبابات في الشوارع تفقد الكثير من مزاياها : انها غير قادرة على حمل كميات من القذائف كافية لتدمير المنازل على جانبي كل شارع ، ولا هي قادرة على تطهير انقاض المباني المدمرة من المشاة المدافعة ، التي تتخذ من الانقاض سواتر مشابهة ، بل أفضل من السواتر التي تتخذ من الجدران والنوافذ السليمة . والدبابة في الشارع هي في ورطة حرجة أمام مشاة العدو ، حيث تكون على مرمى الرمانات من كل جانب ، وهي بذلك في خطر دائم .

والمقنبلات أيضاً تفقد بعضاً من ميزاتها أثناء قتال الشوارع : فهي لا تستطيع رؤ ية أهدافها . لذا فان هذا النوع من القتال هو من عمل المشاة بالدرجة الأولى . وغالباً ما يكون العمل بطيئاً ، وفرص المدافعين فيه أفضل من فرص المهاجمين . ولا بد للقوة المهاجمة الخاطفة ، عندما تُجابه بمُدافع متمسك بالمناطق المبنية ، وبالتالي بعقد الطرق ، لا بد لها من دفع مشاتها ومدافعها . وكان السوفيات يتمسكون بمدنهم ، وهذا هو السبب الذي جعل فرق البانزر ، والحرب الخاطفة ذاتها ، تتغير وتبطىء في الاتحاد السوفياتي . وعندما يكون مثل هذا الدفاع عنيداً ومتقناً ، كما كان الوضع في « سيبا ستبول » ، قد يصبح من الضروري سحق المدينة برمتها قبل التمكن من احتلالها . وهذا يستغرق شهوراً ، وقد أُرغم الالمان على هدر أشهر الربيع وأوائل الصيف الثمينة في العام ١٩٤٢ . ومن جهة ثانية ، كان الألمان ، وحيثما كانت الدفاعات حول المدن دفاعات خطية ـ كما كان الأمر في طبرق عام ١٩٤٢ ـ كانوا يخترقون هذه الدفاعات على جبهات ضيقة ، ويندفعون حتى قلب المناطق المبنية ، ومن هناك يتدبرون أمر الدفاعات الدائرية من الخلف .

قتال الشوارع وقتال المغاوِرة* مرتبطان اسلوباً وهدفاً، من حيث طرق المقاومة التي يمكن أن تكون مؤثرة ضد الحرب الخاطفة . ولقد تم تعليم كلا النوعين ، في بريطانيا ، من قبل « مدرسة الفكر العسكري » التي بدأت تعليم أساليب القتال هذه للحرس الوطني ، في مدرسة « أوسترلي بارك » في العام ١٩٤٠ .

وأوضح برهان على أن باستطاعة حرب الشوارع التصدي للحرب الخاطفة هو حصار ستالينغراد ، الذي بدأ بعد أن أكتملت كتابة نص هذا الكتاب . ولحظة كتابة هذه الملاحظة المشبعة بالبراهين ، فان الحصار مستمر ، وهو أكبر معركة من نوعها نشبت حتى

---

* قتال المغاورة: تعرف ايضا بحرب العصابات.

تاريخ اليوم . فقد دكت المدينة طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة ، وعشرات من فرق المشاة . وهذه لم تكن « ڤيردان » ، لان الالمان لم يدخلوا مطلقاً المناطق الآهلة في « ڤيردان » . والخصائص المميزة لهذا القتال أنه يمثل الدفاع عن المناطق المبنية الآهلة بوساطة قتال الشوارع . فالمدينة تشهد الآن عملية سحق ، كما كان الوضع في « سيبا ستبول » . ولكن هذه مبنية على تربة أكثر طراوة من معظم أراضي « سيبا ستبول » ، وبذلك تنشأ عن القنابل والقذائف الكبيرة حفر،منها يتابع المدافعون دفاعهم . وسيكون هناك ، مستقبلاً ، المزيد من المعارك المشابهة في شكلها لمعركة ستالينغراد ، وسيتناقص عدد الحملات المشابهة لحملة سنغافورة . . . حالما تتعلم قواتنا كلها حرب الشوارع ، وأساليب حرب المغاورة المرتبطة بعضها بالبعض الآخر بشكل وثيق .

كان السوفيات والصينيون ، كلاهما ، قادرين على الاحتفاظ بقوات كبيرة ، وفاعلة ضمن المناطق المحتلة (اسمياً) من قبل أعدائهما . ومجمل هدف التقنيات الحديثة في الحرب يتمثل في ايصال الجنود والأسلحة الى النقاط الحيوية خلف المواقع الرئيسة للعدو . وهذا هو الهدف الذي صُممت من أجله الحرب الخاطفة ، ومن أجله صُنعت الآلات المدرعة العالية التكاليف . وهذا هو الهدف الذي بُنيت من أجله المقنبلات والجيوش المحمولة جواً . ومن أجل هذا الهدف يُسقط المظليون . وعناصر المغاورة « موجودون أصلاً » ، وأسلحتهم معهم في نقاط العدو فيها أضعف ما يكون ، فيوجهون ضرباتهم ضد مواذ العدو ، حيث تخزن هذه المواد ، أو حيث تُعد عملية نقلها ، مما يجعلها غير قابلة لان تُعد للقتال بسرعة ، لا كما هو الحال في العمل ضد المواد المنتشرة في مواقع العدو الرئيسة ، وبحالة الجاهزية للقتال . ويوجه المغاور (رجل العصابات) ضرباته أيضاً الى معنويات العدو ، وحيث تكون معنوياته على أضعف حال ، وخلف الوحدات المنتقاة والجنود المحميين بالدروع . ولا تستطيع القوة المغاورة (العصابة) أن تتدبر شأن الكميات الضخمة من الذخائر والامدادات الاخرى ، كما هو الحال بالنسبة الى ما يمكن أن تمتلكه قوة نظامية تكون على تماس مع قاعدتها . لذا فان استهلاكها للذخائر أقل بكثير وهي تستطيع من خلال « عباءة التخفي » أن تتقرب من العدو حتى التلاحم ، وتعيد للمعركة بساطتها .

و « فريق القتال » ، الذي يجسد القوة الحاسمة في هجوم من النموذج الخاطف ، قوي الى درجة هائلة . ولكن لا بد من أن تسير خلفه شاحنات الوقود وقوافل التموين . وهذه حركة سير مزدحمة جداً ، قوامها العربات والمصانع المتحركة وعربات الاركان ، وما الى ذلك . . وهدف التكتيكات الحديثة هو استخدام قوة فاعلة ضد هذه الاجزاء الطرية من جسم العدو . والحرب الخاطفة تشبه انساناً رأسه وجذعه مدرعان بشكل جيد ، ولكن

دونما وقاية لما تحت خصره . وليس من الضروري أن يلزمني أي جندي حقيقي بأن أكمل له هذه الفقرة .

نمط الصراع المسلح الذي يمكن أن يبطل الحرب الخاطفة ، وهو النمط الذي أخذ في الظهور حالياً ، هو ـ حسب اعتقادي ـ « الحرب الشعبية » . وهذا نمط حرب يتناول ، كمبدأ ، الربط الايجابي بين قطاع سكاني مسلح وقوة هجومية ضاربة . وحيثما تنشب الحرب الشعبية ، فان هذه القوة الضاربة ستكون نموذجاً عن الحرب الخاطفة وتطوراً لها . وسيكون فيها دبابات وطائرات ومدفعية ثلاثية المهام ، ومشاة محمولة ، وكافة وسائط الحرب الممكننة بيد أن أسلحة الأهلين ستكون أسهل وأرخص في صناعتها : رشيشات ، متفجرات ، خام للالغام ، والرمانات ، بنادق رشاشة . . . الخ . ووسائط النقل وأجهزة الراديو المدنيتان ستساعد على ربط هذه القوى ، الواحدة بالاخرى ، ومع القوة الضاربة . وسيستخدم الأهلون مدنهم كمخابىء كما يستخدمون التلال . ولسوف يقاتلون في الشوارع كما في الحقول . ولا يمكن أن تكون قوات المغاورة المنبثقة عن الاهلين المسلحين قوة حاسمة دونما دعم من القوة الضاربة . فالمغاورون الاسبان لم يتمكنوا من قهر جيوش نابليون رغم أنهم استطاعوا استنزاف قوة تلك الجيوش . ولم تفز بالمباراة الا عندما نزلت قوة ولينغتون الضاربة . لكن وجود المغاورين وأعمالهم يجعل من الممكن لقوة ضاربة صغيرة نسبياً أن تهزم جيوشاً أقوى منها بكثير .

لم تكن أساليب الحرب الشعبية ، حتى العام ١٩٤٢ ، تُستخدم الا في الدفاع الاستراتيجي . وبهذه قاوم الصينيون ، طوال خمسة أعوام ، الهجوم الذي كان يشنه عدو أقوى منهم بكثير ، عدو ظل يُمد ويُمون طيلة الأعوام الخمسة من مصادر الديمقراطيات الصناعية كافة . وقد ساعد هذا الاسلوب على أن تبنى في بريطانيا قوة ـ الحرس الوطني ـ قابلة لأن تصبح قادرة على أخذ معظم مهام الدفاع عن هذا البلد (بريطانيا) على عاتقها ، وبحيث تسمح لكافة القوات النظامية الموجودة في بريطانيا بأن توضع قيد الاستخدام كقوة ضاربة على القارة (أوروبا) . ولم يلعب المغاورون في الاتحاد السوفياتي مجرد دور بطولي فحسب ، بل لعبوا أيضاً أقوى الادوار فعالية خلال السنة الاولى من « العظمة السوفياتية » . لكن « ما فات ليس كما هو آت . . » : فعندما يتم تطوير هذه الأساليب وتطبيقها في الاستراتيجية الهجومية المضادة للفاشية ، فستبدو « الحرب الشعبية » ، في طول أوروبا وعرضها ، أقرب الى الأنفجار منها الى الحملة .

في بداية هذا الكتاب ، افترضت أن الأسباب الضمنية لاي ثورة في تقنية الحرب تكمن عادة في مكان ما خارج التطورات المتلازمة مع الحرب ذاتها.. ويطرأ هذا النوع من

التغيرات عندما تعبر الشعوب التي تتكون منها الدولة ، أو الدول . عن نفسها بطريقة ديمقراطية أو شعبية أو ثورية . فالديمقراطية التي مارسها الاغريق ، أو « البرابرة » الذين حطموا الليجيون ، أو الشعب الذي تكونت منه دولة شارلمان ، أو استقلال صغار الملاك النبالين في « كريسي » ، أو الطاقات التي حررتها الثورات الاميركية والفرنسية والسوفياتية والنازية ، هذه كلها ، رغم صعوبة وضعها على مستوى واحد من حيث مقارنتها أو قياسها ، كانت الأسباب الضمنية للثورات في تقنية الحرب . وان يكن افتراضي صحيحاً ، وتوجب استبدال « الحرب الخاطفة » « بالحرب الشعبية » من خلال الدمج بين المغاورين والقوة الضاربة الممكننة، فسيكون سبب هذه الثورة في الحرب ـ وشكلها في الوقت نفسه ـ هو ثورة شعبية مضادة للفاشية تعم أوروبا وتتجاوزها . ومن أجل ذلك فان القوى التي تعمل وتقاتل ضد الفاشية في أميركا أو الاتحاد السوفياتي ، وفي الامبراطورية البريطانية أو الصين أو أوروبا المدمرة ، سيسهم كل من هذه القوى في الثورة على طريقته الخاصة . ولكن لن يكون ثمة اسهام من قبل أولئك المبقين على الطرق القديمة في القتال ، كما يبقون على الطرق القديمة في الحياة ، لانالتغيير يبدو في نظرهم هجينا وغير مرض ومهدداً لهم . فالتغييرفي التقنية ، وفي التكتيكات والاستراتيجية والامداد والاعداد والنقل والتدريب وكل مظهر من مظاهر الحرب ، هذاالتغيير هو القانون الوحيد الملح الدائم في الصراع المسلح . وان شئنا الاستمرار في البقاء ، وأن نكون المنتصرين ، فلا بد لنا من تعلم طرق التغيير .

الجزء الثاني

بقلم: جي. ن. بلاشفورد - سنل

١١) الفترة الثالثة المدرعة (الحركية)

معقول جداً الافتراض بأن الفترة الثالثة المدرعة التي كتب عنها « وينترينغهام » Wintringham تنتهي في العام ١٩٤٥ ، مع مجيء « العصر النووي » .

ولدى دراسة تاريخ الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، يتبين أن الثانية كانت أكثر حركية ، وكانت ـ على اليابسة ـ في جوهرها حرب دروع ومدفعية . وهذا لا يعني القول بأن أهمية المشاة كانت قد انتهت ، بل يعني أنها لم تكن السلاح الضارب الأهم ، كما كانت عليه خلال ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

ان الدروع والمدفعية تملكان قوة نارية أكبر ، كما أن حركية الأسلحة الجديدة زادت من امكانية الحركية في التكتيكات . وقد اتضح ذلك في مستهل الحرب ، عن طريق « الحرب الخاطفة » ، التي كانت النقيض المباشر للتوجهات، الدفاعية ، التي كانت لا تزال هي السائدة آنذاك . وفي وقت لاحق ، أظهرت حملة شمالي أفريقيا كيف استطاعت القوات المدرعة الممكننة أن تقاتل وتناور حتى مسافات بعيدة ، كما لو كانت سفناً في بحر . وأخيراً ، أوضحت عملية تحرير أوروبا مدى السرعة التي استطاعت الجيوش الكبيرة أن تتقدم بها عبر القارة (أوروبا) ، وهي تملك شبكة جيدة من الطرق والجسور المبنية أصلاً لنقل الاحمال المدنية الثقيلة في أوقات السلم .

لقد خطا التطور العلمي والتقني خطوات واسعة ، ومكن المتنافسين من التغلب على العديد من العوائق الطبيعية ، التي كانت تبطىء الجيوش القديمة . وليس من الممكن تقويم خطوات التقدم كلها ، وما كان لها من تأثيرات ، من خلال عمل كتابي بسيط كهذا . ولكن هناك سمات اجمالية معينة ظهرت الى الوجود ، وصار العديد منها مقبولاً كجزء من الحرب الحديثة .

كانت قيمة أية قوة متوازية ، كما بدا ذلك في الحرب الخاطفة الناجحة ، هي نتيجة التعاون الممتاز بين القاذفة المنقضة الالمانية والدروع . فالطائرة « شتوكا » كانت تحمل كمية صغيرة نسبياً من القنابل ، ولكنها كانت تسدد بدقة ، عن طريق الانقضاض العامودي . وكانت بمثابة ضجة مرعبة ، صادرة عن جهاز صغير بجناحين ، تُفاقم بعنف التأثير النفسي الناشىء أصلاً عن هذا النظام من الأسلحة ، خصوصاً وان الاسلحة م / ط كانت في الأيام الأولى من الحرب قليلة ، ومنتشرة بشكل متباعد جداً . وكان واضحاً أن العديد من الجنود ، خارج الرايخ الثالث ، لم يستوعبوا دروس الحرب الأهلية الاسبانية ، على ما يبدو .

وعلى اليابسة ، صعّد الاداء المحسن للعربات البرية زخم المعركة . وفي الوقت نفسه ، كانت قوة النيران وفعالية المدافع على مستوى تضاءلت معه ، والى حد بعيد ، قيمة التحصينات الثابتة . وخلال الحرب ، جهد الطرفان للحصول على المزيد من الحركية لمدافعها ، وصارت المدفعية المحمولة على هياكل دبابات تعرف باسم « المدافع ذاتية الحركة » (مد ذ / ح) . وكان المدفع ، بخلاف ما كانت عليه الدبابة ، غير قادر على التحرك في الاتجاه ، ولكنه ـ طبعاً ـ كان يطلق قذائف أثقل بكثير من قذائف سلاح الدبابات الحالية ، والى مسافات أبعد منه بكثير . وكان ذلك يعني أن بوسع المدفعية أن تتقدم وتنتشر بسرعة أكبر بكثير مما كان عليه الحال في الحروب السابقة . والأرض الوعرة ، التي كانت تتحول في الحرب العالمية الأولى الى مخاضات طينية ، عبورها مضن ، صارت تقطعها العربات المجنزرة بيسر نسبي ، رغم أن « القائد شتاء » ظل عدواً لا يستهان به على « الجبهة الشرقية » .

كانت المدافع المجرورة خلف الشاحنات لا تزال قيد الاستخدام ، لان « المحرك الابتدائي » أو العربة القاطرة ، كانت أيضاً أقوى ، وقادرة بالتالي على « محاورة » الارض الوعرة ، ولكن كان من الممكن نقل الأسلحة الأخف بوساطة الجو ، وكان من الاسهل تمريرها عبر الموانع المضادة للدبابات .

ولربما أتى استخدام اللاسلكي الموثوق كواحد من أقوى التعزيزات لكفاءة المدفعية وفعاليتها في ميدان المعركة . فقد مكنت الاتصالات اللاسلكية الجيدة من أيصال توجيهات الرصاد المتقدمين ، والقادرين على رؤ ية الهدف ، الى المدافع . واستخدم الرصاد أيضاً الطائرات الخفيفة لمراقبة مواقع العدو . وكانت هذه الطائرات ، مثل مناطيد الأيام الغابرة ، عرضة للاصابة ، ولكن قدرتها على الحركة كانت تمكنها عادة من تخليص نفسها من المواقف الحرجة .

كان مدى المدفعية في الميدان يصل عادة الى ٢٠ ألف ياردة (حوالى ١٨ كلم) كحد أقصى . أما الآن فقد حلت الطائرات مكان المدافع ذات الأمدية الطويلة جداً ، ثم أتت الصواريخ في وقت لاحق . وقرب نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت حتى المدفعية الساحلية تتناقص ؛ وهي تُستبدل حالياً بالصواريخ الموجهة .

وفي النظرية التكتيكية الألمانية ، رُكز كثيراً على دور المدفعية ، ولكن هذا السلاح تعرض عملياً للاهمال والالغاء . وصار الدعم المدفعي القريب يوكل تدريجياً الى الدبابات والهاونات ومدافع الاقتحام ، والى الطائرات المنقضة ـ طبعاً ـ عندما يتوافر وجودها . وكان ثمة توجه نحو الحاق بطاريات (سرايا) مدفعية الميدان بالوحدات المنفصلة ، حيث كان يلاحظ أن قوة نيرانها غير كافية . وكان ضعف أداء المدفعية الألمانية أحد مظاهر الحرب . ورغم ما كانت تتميز به من نوعية جيدة في السدنة والمعدات ، الا أن النقص في أعدادها ، وفي ذخائرها أحياناً ، كان يجعلها ناقصة الفعالية . لكن ما كان يثير الحيرة هو استخدامها التكتيكي الضعيف ، عندما كان الألمان لا يحققون التفوق الجوي ، ويصبح لزاماً على رجال مدفعيتهم أن يجابهوا الدعم الناري الكثيف الموجه من قبل الحلفاء . ولربما كانت رغبتهم في الحصول على دعم قريب لدروعهم هي التي كانت تؤ دي الى مثل هذا الوضع . والواقع ، أنه لوحظ في العام ١٩٤٢ أن الجنرال « أوكينلك » Auchinleck صار يتصدى للدروع الألمانية بمدفعية الميدان المنتشرة بطريقة مماثلة . وعندما تولى القيادة الجنرال « مونتغومري » عاد الى طريقة الحشد المدفعي .

يقول المارشال « جوكوف » في تعليقه على الخبرة التي اكتسبها من « جبهة الدون » السوفياتية ، في العام ١٩٤٢ :

« من خلال ملاحظة كيف كان الألمان ينفذون تمهيدهم المدفعي ضد قطاع الفرقة ٢٢٩ مشاة ، اكتشفت نقاط ضعف في تكتيكاتهم . كان هذا التمهيد المدفعي ضعيفاً من حيث قدرته وتنظيمه . وكانت هجمات المدفعية والهاونات غير منسقة ، أو بلا عمق ، بل

كانت موجهة فقط ضد خط الدفاع الرئيس . ولم أشاهد أية مناورة عريضة مغطاة بالمدفعية خلال ديناميكية المعركة .

« كنت أتوقع عمليات مشتركة متلاحمة بين مدفعية العدو وقواته الارضية ، أتوقع تنظيماً دقيقاً للسدود المدفعية ، ومناورات بالذخائر والعجلات كالبرق في سرعتها . لكن الوضع كان على غير ذلك . لقد واجهت ما هو بعيد عن حداثة الاسلوب في الانهاك البطيء ، للخندق بعد الخندق .

لم تكن الدبابات الألمانية تدخل المعركة دون مشاة ودعم جوي . ولم يكن ثمة دليل ، في أرض المعركة ، على « بسالة » أطقم الدبابات الألمانية ، وعلى شجاعتهم وسرعتهم في العمل ، وهو ما كتبت عنه الصحف الاجنبية . كان العكس هو الصحيح . وحقيقة الأمر انهم كانوا يعملون بتكاسل . وبمنتهى الحذر والتردد .

كانت المشاة الالمانية قوية بنيران الاسلحة الآلية . ولكنني لم أشهد في أرض المعركة أي تحرك سريع أو هجمة عنيدة . ولم تكن المشاة الألمانية تعمد ، أثناء التقدم ، الى الاقتصاد بالذخيرة ، بل كثيرا ما كانت تطلق النار في الهواء . . »[٦١] .

من المهم ملاحظته أن فاعلية التعاون في القوات الجوية الألمانية (Luftwaffe) كانت تظهر من خلال معرفة الطيارين بتكتيكات كلا الطرفين :

« يستحيل النصر في الحرب الحديثة دونما عمل مشترك لمختلف أنواع القوات ودونما ادارة جيدة . وكان لدى الألمان مثل هذا النوع من الأعمال المنسقة المتقنة . فلم تكن قط أسلحة قواتهم المتعددة ، في المعركة ، على عجلة من أمرها ، ولم تكن تتقدم منفردة ، بل كانت تقاتل بمجمل الكتلة البشرية (الجنود) المدعومة بالتقنية . وكان من عادة طيرانهم ، أن يدخل سماء المعركة قبل دقائق معدودة من الهجوم الشامل ، فيقصف أهداف الهجوم ويرشّها ، مسمراً القوات المدافعة في الأرض ، ثم تخترق مشاته ودباباته ، بمعاونة نيران مدفعيته وهاوناته ، تشكيلاتنا العسكرية ، دونما خوف من عاقبة . . »[٦٢] .

كان مستوى معين من التخصص ، المشفوع بالاتجاه المحافظ في القوات البريطانية ، ينحو باتجاه أن يؤطر أفكارنا ضمن حجيزات محكمة السد . وكانت الاسلحة المضادة

---

(٦١) انظر «جوكوف»، «بداية الطريق».

(٦٢) انظر المصدر السابق نفسه.

للطائرات والدبابات ، وأدوار مدفعية الميدان والمدفعية الساحلية ، كانت تعتبر منفصلة تماما بعضها عن البعض الآخر . ولم يكن هناك غير القليل - ان وجد أصلاً - من الأسلحة المتعددة الاغراض قيد الاستخدام لدى الحلفاء . وكما أشير الى ذلك في الجزء السابق من هذا الكتاب ، كان الألمان يحاولون انتاج عدد من المدافع الشاملة الاهداف ، وكان نجاحهم الابرز هو في انتاج المدفع المخيف ٨٨ ملم .

في العام ١٩٣٩ ، كان « وينترينغهام » من المؤيدين لانتاج سلاح مماثل ، أو انتاج طراز مشتق من المدفع البريطاني الممتاز ٣,٧ بوصة ، المضاد للطائرات . ولكن رغم النقص الخطير في المدافع المضادة للدبابات ، ذات الأثر الفعال ، فأنا لم أستطع ايجاد ما يثبت أن المدفع ٣,٧ بوصة قد استخدام من أجل هذا الغرض . وانه لمن اليسير انتقاد البطء الذي يتبنى به الجيش البريطاني كل عتاد جديد ، وكل اسلوب جديد . فالحكم على الحدث بغد مروره أمر هين .

فيما مضى ، لم يكن البريطانيون شعبا محباً للحرب . وكانت اهتماماتهم ، أيام السلم ، موجهة نحو صيد الثعالب ومباريات كرة القدم وصيد الاسماك . فهناك طرق لشغل ساعات العمل والراحة لدى المرء أكثر امتاعاً من قضائها في انتاج الأسلحة المكلفة المخصصة للحرب . ويميل المنظرون العسكريون باتجاه أن يعتبرهم الآخرون « مهووسين » ، أو « غريبي الاطوار جداً » على الاقل . ويُثار المخترعون « بالشريط الاحمر » (بالرتابة الرسمية) وبالمسائل المالية . أما وزارة الخزانة فهي العدو الطبيعي للعسكري ، زمن السلم ، وينظر أحدهما الى الآخر بأقصى ما يمكن من الشك .

وفي واقع هذه المشاكل كلها ، فان من دواعي فخرنا أن الدبابة قد اختُرعت ، وأن البريطانيين هم أول من أنتجها . وقد توقع الملهمون العسكريون مستقبلاً عظيماً « لعربة » الحرب الحديثة . ولكن المؤسف أن السياسي البريطاني قد افترض أن « العصر الالفي السعيد »[٦٣] الذي طال انتظاره قد بدأ . وبذلك حُرمت صناعة الأسلحة البريطانية من المال الضروري لها ، وقُلصت مؤسسات جيشنا حتى الحد الأدنى . ورغم الهمس بالحرب الذي كان يدور في الشرق ، فقد ظلت حكومتنا مطمئنة البال ، وهي تؤمن بأن الحروب قد انتهت .

---

(٦٣) العصر الألفي السعيد الذي ستؤول فيه الأرض إلى السيد المسيح ، أو الحقبة من العدالة والسعادة المطلقتين ، حيث تنتهي عيوب البشرية .

المعرب

كان الفلانكس المدرع السريع ، الذي سبق أن ناقشه « وينترينغهام » ، هو نذير الهجوم الضاري الذي شنته القوات النازية . ووجدنا ، وقد أُخذنا على حين غرة ، ونحن بلا توازن ، وجدنا أننا بحاجة ـ ثم أصبح من الضروري لنا ـ إلى إعادة التفكير بمبادئنا التكتيكية .

ولم يكن قد مضى زمن طويل على تخلي الجيش البريطاني عن خيوله . وكان لا يزال يعم صفوف خيالتنا ما يمكن فهمه من روح الاندفاع والتصميم والاقدام . وكان من غير الطبيعي تماماً أن يقف أمثال هؤلاء مدافعين ، أو ألا يهاجموا غير مشاة العدو المكشوفة الضعيفة . وكان يبدو أن دورهم هو القتال حتى النهاية ضد دروع العدو التي كانت ـ عن سوء صدفة أو حظ ـ أقوى جزء من الجيش الألماني . ولقد فرضت المطاردة الهوجاء على دباباتنا أن تصطدم بستارة الدفاع المضاد للدبابات التي لا يمكن تجنبها ، تاركة المشاة غير المحمية تحت رحمة الدروع الألمانية . وكانت روح الامير « روبرت »[٦٤] Rupert في « ادجهيل » Edgehille و « مارستون مور » Marston Moor لا تزال حية .

كانت مدافعنا المحمولة على دبابات ، كمدافعنا المضادة للدبابات ، أخف مما ينبغي عموماً ، وذلك أثناء القسم الأول من الحرب . كانت أخف من أن تتصدى لدبابات البانزر الجيدة التدريع . وعندما نشبت معركة العلمين ، كان لدينا دبابات جديدة ، ومدافع أقوى . وكانت التكتيكات قد تغيرت ، ولم نعد نستخدم « الخط الاحمر الرفيع » من أجل الدفاع ، بل أصبحنا نبني مواقعنا بعمق كبير لم تعد فلانكسات البانزر قادرة على النفوذ عبره . وصارت التكتيكات نفسها تستخدم في الاتحاد السوفياتي ، حيث أصبح حتى التفوق التقني في الدبابات الألمانية غير قادر على مجاراة التفوق العددي في الدروع السوفياتية ، وعلى تحدي العمق الكبير ، لمواقعهم الدفاعية ، وتحدي « الجنرال شتاء » .

في الهجوم ، تعلمنا أن نضرب العدو ، في أضعف نقاطه ، بأقوى ما لدينا من أسلحة ، وتعلمنا أن ندمج المدفعية والدروع والمشاة والمهندسين والقوات الجوية في قوة منسقة اقتحامية مؤلفة من مختلف صنوف الاسلحة . وقبل أن نتجاوز مسألة تكتيكات الدبابات في الحرب الأخيرة ، من المفيد التوقف عند العقيدة الالمانية التي اختُطت لكي تُستخدم في الصحراء أو السهوب المفتوحة .

اذا كان العدو متخندقاً في مواقع جيدة ، محمياً بموانع مضادة للدبابات ، طبيعية أو

---

(٦٤) الأمير روبرت Rupert (١٦١٩ـ١٦٨٢) جنرال، وقائد بحري انكليزي، وابن أخ الملك شارل الأول.

اصطناعية ، تعمد المشاة الالمانية الى التقدم المباشر وتنظيف الطريق . وكانت مهمتها تدمير ما لدى العدو من مدافع م / د وأسلحة ذات أمدية قريبة ، وتقديم حماية قريبة للنقّابين الذين يكونون حينذاك يزيلون الالغام والموانع . وفي الوقت نفسه ، تكون الدروع تقدم الدعم الناري من الخلف . واذا كانت الدفاعات المعادية خفيفة ، وينقصها العمق ، تحشد الدبابات لتتقدم الهجوم على النقطة الحاسمة ، وفي اللحظة المناسبة . ثم يُنفذ الاقتحام بجمهرة مكونة من مختلف صنوف الاسلحة ، مدعومة بالاحتياطات الضرورية . وكانت الموجة الاولى من الدبابات تُكلف بالمهمة الاولية ، وهي اختراق ترتيب قتال العدو ، وتدمير مدفعيته ومشاته . وكانت الاسلحة الاخرى تعاون الدبابات على التخلص نهائياً من الاسلحة م / د . وعندما كان الهجوم يصل الى العمق ، كان يُترك للدبابات والمدافع م / د في الموجات اللاحقة ، ان تدمر دروع العدو ، وتغطي تحرك التشكيل المتقدم .

وكانت العادة أن تُشن على جبهة ضيقة (٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ياردة) (١٨٠٠ ـ ٢٧٠٠ م) ، وبوحدات متعاقبة ، وبطريقة مشابهة لتلك التي كان يستخدمها نابليون . ولكن ، للاسف ، كان ينقصنا الاسلحة م / د لنقلد « ويلينغتون » في تكتيكاته المضادة .

لقد تجنب الالمان ، عن وعي ، مهاجمة الأسترة م / د « مناطحة » ، وآمنوا بعدم الاشتباك مع الدروع المعادية الا عندما يتمتعون بتفوق كاسح بالتسليح والمدى . وكانت الحركة تُغطى بالنيران ، والتدريب على صنوف الاسلحة المختلطة يعتبر ذا اهمية قصوى . وكانت المشاة تُنقل بالشاحنات ، أو بناقلات الجند المدرعة ، وقد تعلمت فن تعاون المشاة والدبابات .

وكان الالمان سريعين ، في تطوير تكتيكات هدفها القضاء المبرم على الدروع البريطانية في ليبيا . فاستُدرجت الدبابات غير المدعومة نحو أسترة من المدافع م / د ، ودمرت كلياً . ورُبّضت بعض المدافع لترمي المهاجين الاخف تدريعاً . وكان يسمح أحياناً ، للدروع بأن تمر عبر الاسترة الخارجية المكونة من المدافع م / د ، قبل أن يتم تدميرها من الخلف . لقد طوى النسيان هزيمة الفرس في أربيل »[٦٥] . وطوال الحرب ،

---

(٦٥) معركة أربيل Arbela ، أو موقعة « كوكميلة » Gaugamela ، ابان الفتوحات المقدونية (٣٣١ ق . م .) ، وفيها قرر داريوس الثالث أن يحسم الامر مع الاسكندر الكبير بعد أن تجاوزت القوات المقدونية نهر دجلة ، وصارت تهدد الامبراطورية الفارسية . وكانت هذه احدى المعارك الحاسمة في التاريخ العسكري ، حيث فقد الفرس ٤٠ ـ ٩٠ الف قتيل ، مقابل ١٠٠ ـ ٥٠٠ من جنود الاسكندر . وكان أحد الاسباب الرئيسة لهذه الهزيمة الفارسية هو ترك كبد القوات (المشاة) دون تغطية ، مما سهل على المقدونيين الاقل عدداً (٤٠ الفاً من المشاة + ٧ آلاف خيال مقابل حوالي ربع مليون من القوات الفارسية ، من بينها ٤٠ الفاً من الخيالة الخفيفة و ٢٠٠ عربة مشفرة و ١٥ فيلاً) أن يخترقوا ذلك الكبد ، ويدبوا الذعر في قلوب الفرس ـ بمن فيهم الملك داريوس نفسه ـ الذين ولوا الادبار بشكل فوضوي .

المعرب

وحتى في العام ١٩٧٠ ، ظل يقوم أحمى تنافس بين الدبابة والسلاح م / د .

وفي مراحل الحرب اللاحقة ، سببت ظروف خاصة تطوير دبابات متنوعة خاصة . وصارت هذه تعرف باسم « المضحكات » (Funnies) . وكانت مصممة للتغلب على الحواجز . وكان ثمة أهمية قصوى لانشاء الجسور ، وردم الخنادق المضادة للدبابات ، لتمكين دروعنا من العبور . وفي اوروبا وبورما ، كانت الاوضاع مختلفة عما كانت عليه في الصحراء الغربية . ولم يكن التقدم في ايطاليا وهولندا ممكنا أبداً دونما جهاز معين يمكن من المحافظة على زخم تقدم دروعنا . وكان من بين « المضحكات » الاخرى « العربات المدرعة في سلاح الهندسة الملكي » ، التي كانت تستطيع اجتياز العوائق المغطاة بالنيران ، وتحمل أيضاً شحنات ناسفة (ش . ن) زنة كل منها ٤٠ رطلاً (حوالى ١٨,٥ كغ) ، ويمكن اطلاقها ضد الموانع الحصينة من أنبوب مركب على برج «المضحكة». وكثيراً ما كانت هذه الموانع المعززة تشكل اساس نظام الدفاع الالماني. وكان من الصعب للغاية تدميرها بمدفع عادي. وفي معارك الباسيفيكي اوقعت الموانع المشابهة، المبنية من الطين وقضبان القصب خسائر فادحة في القوات الاميركية . ولم يكن قهرها ممكنا الا بالهجمات الجريئة المكلفة ، وباستخدام المتفجرات وقاذفات اللهب .

وثمة « مضحكة » أخرى كانت « التمساح » ، وهي دبابة من طراز « تشيرشل » ، مجهزة بقاذفات لهب . وقد استخدمت بادىء الأمر في شمال غربي أوروبا ، بعد يوم الانزال في النورماندي بوقت قصير . وكان الالمان يخشون كثيراً هذا السلاح الرهيب . وكانت قيمته كبيرة كمدمر للمعنويات . وكان مجرد منظر « تنين » القرن العشرين هذا يثير الرعب حقاً .وبعض الرجال الذين كانت تطالهم الالسنة الملتوية من اللهب السائل كانوا يتحولون الى رماد في الحال . ولاسباب ، بعضها انساني ، أخرجت قاذفات اللهب من الخدمة ، بعد انتهاء الحرب بوقت قصير . وقد حلت مكانها ، في هذه الأيام ، قنبلة النابالم ، المساوية لها في رهبتها ، والأقل منها في تمييزها للأهداف.

واستخدمت الدبابات البرمائية « المدرس » (مدق) و « مدادات الشباك المعدنية على الرمال الناعمة » في الانزال على شاطىء « النورماندي » لابراز الدروع بسرعة ، وتمهيد طريق التقدم عبر ما كان يُعتقد بأنه « حزام كبير من الموانع » . وكان « المِدْرَس » أو « السرطان » (السلطعون) ، كما كان يسمى أحياناً ، يطهر الممرات عبر حقول الالغام ، بوساطة سلاسل تُرشق من معزل يدار بمحرك محمول على ذراع مركب في مقدمة الدبابة . وعندما تتفجر الالغام تعطل السلاسل ، وتبقى الدبابة سليمة . وبهذه الطريقة كانت تُطهّر الثغرة ضمن حقل الالغام المضاد للدبابات ، فتسمح للدروع بالمرور مع المشاة . وعلى

الشواطىء ، كانت المناطق الرملية الرخوة ترصف (تغطى) بصفائح معدنية (قابلة للطي) تفرد من اسطوانة ضخمة (تلف الصفائح ضمنها) مركبة على « المضحكة » .

الواقع أن الدفاعات الساحلية لم تكن قوية بقدر ما كان يخشى منها . لكن الألمان طبقوا دفاعاً عميقاً نموذجياً ، كان من الممكن أن يكون أنجح لولا كثافة القصف الجوي والمدفعي ، والهجمات المحمولة جواً . . . وهذا كله مشفوعاً بأنشطة المقاومة الفرنسية التي رافقت عملية الانزال .

وعلى العموم ، لاقت « المضحكات » تقديراً كبيراً . وما تجدر ملاحظته هو أن الاميركيين ، الذين قدمت لهم هذه الآلات الغريبة ، كانوا قد رفضوها . وفي ذلك ، يقول العميد « بيتر يونغ » P. Young ، في كتابه « الحرب العالمية ، ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، تاريخ موجز » ، يقول :

« سبق أن عُرضت على المخططين الاميركيين أعداد كبيرة من المضحكات ، التي كان حلفاؤهم البريطانيون قد طوروها من أجل التعامل مع الموانع الحصينة والالغام والاسلاك الشائكة . وكانت هذه « المضحكات » هي دبابات « شيرمان » معدلة ومحولة لاغراض خاصة . وكان بعضها مجهزاً « ليدرس » (ليفتح) ممرات وسط حقول الالغام ، والبعض الآخر لفرش الصفائح المعدنية ، أو ردم الخنادق المضادة للدبابات . وكان منها ما هو مجهز بقاذفات لهب ، أو شحنات ناسفة ضخمة لتدمير المنع . وكان مثل هذه الآلات مقبولاً لدى البريطانيين الحذرين المنهكين من الحرب . أما الاميركيون فكانوا يفضلون اكتشاف ما كان يمكن تحقيقه بالاقتحام الجبهي المباشر . وكان من الممكن الا تخاض معركة « دييب » Dieppe»[(٦٦)] .

كانت أراضي « البوكاج » Bocage ، الواقعة جنوبي الشواطىء ، مناطق نموذجية من أجل الدفاع ، حيث كانت صفوف الاسيجة الكثيفة تكاد تحصر حركة العربات في دروب وممرات زراعية ضيقة . وكانت كل مزرعة وكل قرية صغيرة مثار ريبة ، كما كانت « النمر » (دبابة المانية) الثقيلة كامنة في المساتر والاجمات ، وجاهزة لاطلاق قذائفها

---

(٦٦) معركة دييب Dieppe : من معارك الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢) ، احدى أكبر عمليات (الاستطلاع بالقوة) التي كانت تنفذها قوات الحلفاء على الساحل الاوروبي الغربي الذي كان يحتله الالمان . وفي هذه العملية خسر المغيرون حوالى ٣٥٠٠ شخص (من أصل ٧ آلاف) بين قتيل وأسير ، بالاضافة الى ٩٧ طائرة حربية . وكان ذلك بسبب سوء تقدير المغيرين لطبيعة الارض ، وكان فيه درس قاس للحلفاء .

المعرب

الخارقة للدروع ، ذات السرعة الابتدائية العالية ، من مسافات قريبة . وكانت المدافع المضادة للدبابات ، من كل نوع وحجم ، ومعها الالغام والقواذف (البازوكا) تجعل مهمة الدروع المهاجمة أمراً مزعجاً للغاية . لقد ولى الزمن الذي كانت فيه دباباتنا تجول في « الصحراء الغربية » وهي أشبه ما تكون بأساطيل حربية . أما الآن ، فلا تجرؤ أية دبابة على التحرك دون مساندة المشاة . وكان من حسن الطالع أن الحلفاء قد أمنوا سيطرة جوية كبيرة . ومع ذلك ، كانت هناك أخطاء مأساوية فيما يتعلق بتمييز الاهداف . وكما هو شائع الآن في فيتنام ، صارت طائراتنا تهاجم أحياناً القوات الأرضية العاملة معها . فالطائرة التي تطير بسرعة ٤٠٠ ميل في الساعة ، من العسير عليها أن تميز الصديق من العدو ، وخاصة في ريف نورماندي الوارف ، وفي ذلك الصيف المصيري ، حيث لم يكن يفصل الخصم عن خصمه أكثر من خمسين ياردة .

« ما أن ثبت الحلفاء موطىء قدم لهم في أوروبا حتى تحقق ذوو البصيرة من الالمان أنهم خسروا الحرب . والواقع أن بعضهم قد تحقق من أن كفة الميزان قد انقلبت في جزر سليمان وستالينغراد والعلمين ، منذ أيلول / تشرين الاول (سبتمبر - نوفمبر) ١٩٤٢ ، عندما قال تشيرشل : « ليست هذه بداية النهاية ، بل نهاية البداية » .

وسرعان ما وجد الجنود الالمان أنفسهم ، وهم يقاتلون بلا دعم جوي ، بحاجة ماسة الى كل ما هو ضروري في حرب حديثة : كانت طائرات الحلفاء الرائحة الغادية تضرب بالقنابل والرشاشات والصواريخ كل محاولة لتعزيز أو امداد القوات المترنحة ، التي كانت تقاتل من أجل احتواء الاندفاع المتعاظم في النورماندي . وكان الحلفاء ، بفضل خطوط مواصلاتهم القصيرة ، وبفضل الموانىء الاصطناعية (طراز « مالبيري » Mulberry) ، يتلقون امدادات غزيرة ، وسيلا من القوات الجديدة ، لاعدادها من أجل الاكتساح الحتمي . وكان ذلك مجرد نموذج لحشد القوى استعدادا لتسديد الضربة على النقطة الحاسمة . وقد خبر مونتغومري ، من خلال تجربته في العلمين ، التكتيكات بشكل جيد . وكانت حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ قد أصبحت تحديا محرجاً لاوروبا ، لأن وسائط النقل كانت آنذاك عاجزة عن ابقاء الجيوش قادرة على تلقي الامدادات الكافية وهي بعيدة عن نهايات الخطوط الحديدية . ولم يكن ما يمنع النصر الحاسم مجسداً بالمدفع الرشاش والاسلاك الشائكة فحسب ، ولكن أيضاً بالجمود والعجز عن متابعة النجاح واستغلاله بسرعة . وفي الحرب العالمية الثانية ، أدت معضلات مماثلة الى هزيمة الالمان في ستالينغراد .

في العام ١٩٤٤ ، أصبحت العربات ذات المحرك أكثر ضماناً وأقوى . ولم يكن الحلفاء يستخدمون الخيول . ولكن هذه وجدت في العديد من وحدات الجيش الالماني ، لا

سيما على الجبهة الشرقية . وفي « فاليز » كانت الطرق مسدودة بالعربات المحترقة وجيف الخيل المتعفنة ، نتيجة لانحباسها ، بلا مهرب ، فيما صار الآن جيباً شهيراً. وقد لقي الحلفاء عوناً على متابعة التقدم بسرعة ، في الحضور الدائم لسيارات الجيب وغيرها من العربات الرباعية العجلات ، المجهزة باطارات دائمة .

أصبحت الدبابات الآن تتميز بالمزيد من الحركية والوقاية وقوة النيران . وعلى هذا الاساس ، صار لا بد للاسلحة الأخرى أيضاً من الحركية ، وبعض الوقاية ، من أجل استغلال هذه الميزة للابقاء على المجاراة . لذا نشأ « نسل » جديد من العربات عرف باسم « ناقلة الجند المدرعة » . ولم تكن الفكرة جديدة . والواقع أنه قد تكرر ظهور مثل هذه العربة عبر التاريخ . وهذا لا يعني مقارنتها « بفيل » هانيبعل ، بل الأقرب الى ذلك مقارنتها بشكل « ذاتي الحركة » من أشكال تروس الجند الرومان . وكان هدف الناقلة المدرعة هو وقاية الجندي من المقذوفات الاخف ، (رصاص وشظايا قنابل) وتمكينه من الالتحام مع العدو ، وهو صحيح الجسم ، ليترجل بعد ذلك ، ويقاتل بالطريقة العادية . وكان هناك بعض العربات المدرعة الالمانية المجهزة بشكل يمكن المشاة من اطلاق النار من داخلها ، اما من كوى رمي ، أو من على سطح العربة . وبدون تجهيزات خاصة ، ليس من اليسير الرمي بالاسلحة الصغيرة ، بشكل دقيق ، من عربة متحركة بسرعة فوق أرض وعرة . وعلى العموم ، يبقى تأثير الصدمة كبيراً . وان يستطع المرء تصور نفسه أمام هجوم يشنه عليه « جحفل » من هذه القلاع المتحركة ، المعزز بدبابات تبدو غير قابلة للقهر ، فان ذلك ليس من المناظر التي تسرّ . وان تكن المعنويات منخفضة أصلاً ، بسبب الهجمات الجوية ، والقصف المدفعي ، وفقدان التموين ونقص الذخائر ، فلن يصمد ويقاتل سوى أقوى القلوب . وهذه خطوة أخرى متخذة في تكامل وتمتين الفترة المدرعة الثالثة .

من أجل قهر الهجوم المدرع ، لا بد للدفاع من أن يعتمد مجدداً على الموانع والمهارة في استخدام الارض . واذا أُريد للموانع أن تكون مؤثرة ، فمن الضروري لها أن تُغطّى بنيران مخططة . وقد استلزمت هذه التكتيكات وجوب زيادة دقة الأسلحة ومداها . ونتج عن الغاء التحصينات الثابتة التي تقام في مواجهة تقنية الحرب الخاطفة ، أن يتم التركيز على مبدأ الدفاع الدائري ، والدعم المتبادل ، والاختفاء عن الانظار الارضية والجوية ، والوقاية من القصف المدفعي . وثمة دروس قاسية ، وبكلفة غالية ، كانت من جراء التقصير في حماية حقول الالغام البريطانية التي زرعت في الصحراء الغربية . (حمايتها بالنيران) . ولربما كان يفضل أن يكون الدفاع المثالي ، في العام ١٩٤٤ ، هو ذاك النظام الشبكي ، المكون من نقاط قوية ، وعوائق تقام بعمق كبير . وفي هذه الحالة كان الأمر

سيتطلب توافر قوات الهجوم المضاد الآلية لتعمل على أرض معروفة من قبلها ، فتوجه الضربات للهجمات التي تتمكن من الخرق . وقد أثبت خط الأنهر الذي اتخذه المدافع الألماني في ايطاليا ، أثبت منتهى الفعالية في صد تقدم الحلفاء . ولو كان من الممكن توافر وسائط إنزال ، لكان من الواضح أن الافضل هو الالتفاف عليها وهي في البحر .

لقد فرض هتلر على جيوشه أن تتأخر أكثر من اللازم في النورماندي ، بدلاً من تراجعها وبناء مواقع دفاعية جديدة على نهر السين . وحقيقة الأمر ، أن من المدهش ، بعد تلك الخسائر الفادحة في فرنسا ، أن ينجح الالمان في القتال على جبهتين ، وفي اعادة تجميع قوات كافية تمكنهم من شن هجومهم على « الأردين » في ذلك الشهر (كانون الاول ـ ديسمبر) .

ومن جهة ثانية ، على الرغم من النجاح الذي حققته الحرب الخاطفة في أوروبا ، فقد كانت هذه الحرب أقل قيمة في معارك أخرى مثل لينينغراد وستالينغراد . فهنا أسهمت المقاومة العنيدة التي أبداها الجيش السوفياتي ، والطقس القاسي وصعوبة الحركة ، ذلك كله أسهم في ابلاء هتلر بأسوأ كارثة حلت به خلال فترة قيادته القصيرة .

وما لا يجب نسيانه هو اسهام القوة البحرية في هذا العمل ، وهذه بالدرجة الاولى مناقشة للتكتيكات الأرضية . فالحلفاء لم يكونوا يملكون ، لولا مساندة قواتهم البحرية ، أي أمل في تنفيذ عملياتهم الاقتحامية البرمائية الناجحة ، كما جرى ذلك في المحيط الهادىء وأوروبا . ففي هذه اللحظات الحاسمة الحرجة ، وبينما يكون الجيش يعمل على تثبيت نفسه على الشاطىء ، تكون الوقاية التي يؤمنها الطيران المنطلق من الحاملات ، وكذلك نيران المدفعية البحرية أمراً حيوياً . ومع ذلك ، فان تأثير القصف الثقيل المتواصل على مدافعين يقيمون في ملاجىء عميقة ، محكمة البناء ، وموضّعة تكتيكياً ، هذا التأثير لن يكون على ما يُتوقع له من حجم . والخسائر الرهيبة التي منيت بها المشاة المكشوفة ، وهي تنزل على الجزر العديدة التي كان يحتلها اليابانيون ، كانت شاهدا على هذه الحقيقة . وفي محاولة لجعل هذه الخسائر على أقل درجة ممكنة ، كان لا بد من تطوير عربات خاصة ، كالعربات البرمائية المجنزرة . وكانت هذه عربة برمائية ذات تدريع خفيف ، يمكن أن تنقل شاغليها عبر الشاطىء المكشوف ، وحتى ـ كما كان يؤمل ـ مناطق تفريغ أبعد من ذلك ، وآمنة نسبياً . ولربما استطاعت الحوامة (الهوفركرافت) أن تفعل ذلك في المستقبل .

وفي الوقت الذي اتضحت فيه الحاجة الى الاقتحام البرمائي ، كانت هناك ضرورة

وجود استطلاع دقيق للدفاعات الساحلية . فأصبح الطيران المنخفض ذا أهمية كبيرة من أجل التصوير الفوتوغرافي والاستطلاع الجوي . ولكن الضرورة الحقيقية كانت ممثلة في ايصال الجنود الى الشاطىء . لذا ، كان الجنود مزودين بأجهزة للتنفس تحت الماء ، لتمكنهم من السباحة دون أن يُكشف أمرهم وهم في البحر . لقد أنزل العنصر البشري معه الحرب الفردية (الشخصية) الى أعماق البحر . ولربما كان الاهتمام السوفياتي بالحرب في عمق البحار نذير شؤم .

١٢) الحركية الجديدة

رغم أن الكتاب معني ، بالدرجة الأولى ، بالمعركة البرية ، الا أننا لا نستطيع تقويم أي حملة حديثة دونما دراسة للعلاقة فيما بين القوى البرية والجوية والبحرية . والواقع أن العلاقة الوثيقة فيما بين هذه القوى قد توضحت من خلال الحرب . وكان يُعتقد أن الحرب العالمية الثانية ، ستكون ، بالمقام الأول ، حرباً جوية . ولكن لم يثبت أن هذا هو الحال عموماً .

طوال التاريخ ، كانت الشعوب تستعد بين الفينة والفينة ، وهي في حالة السلم ، لنوع من الحرب ، لم تكن تحدث عملياً في الواقع . لذا يحتمل أن تكون ثمة مبالغة في توجيه التركيز نحو أهمية القصف الجوي .

قبل الحرب ، كانت النظريات التي طرحها العميد الايطالي « دوهيه » Douhet ، تحث بشدة على القصف الاستراتيجي . بيد أنه لم يكن يرى أن للطيران مستقبلاً عظيماً ، كأسلحة تكتيكية . وكان « دوهيه » يعتقد بوجوب الحصول على التفوق الجوي ، ولكنه كان يرى أن هذا سيكون ناتجاً عن القصف الجوي ، لا عن القتال الجوي . وكان يرى في القوى البرية والبحرية قوى دفاعية من حيث المبدأ ، بينما يرى أن القوة الجوية تُحشد وتُعد من أجل معارك الجو . وكان يعتقد ، وبشيء من التبصّر ، أن باستطاعة الطرف المهاجم

كسب مميزات هائلة عن طريق دفع قواته الجوية في اغارات مفاجئة مكثفة عند بدء اندلاع الحرب . ومن جهة ثانية ، كان « دوهية » غارقاً في خواطره حول تقويم الطائرة القاذفة ، فبخس الطائرة المقاتلة حقها وجدارتها كوسيلة فعالة في الدفاع . وقد بالغ في تقدير فعالية القصف الجوي الهجومي ، فبرهن العديد من نظرياته عن عدم اكتماله من خلال « معركة بريطانيا » (٦٧).

ورغم التحقق من أن التفوق الجوي ضروري للنجاح ، فليس بوسع الجو وحده أن يكسب المعارك الحاسمة ، ولو أن « معركة بريطانيا » قد تكون استثناء .

كانت القاذفة الاستراتيجية مجرد وساطة « لتوجيه سلاح » قوي ، ضمن دقة معقولة ، وعلى مسافة كبيرة . وكانت القاذفة ، على عكس المدافع أو الصواريخ الاولى ، قادرة على البحث عن هدفها ، ولكنها كانت تعاني من كونها سهلة التعرض للتدمير .

كان « اللوفتواف » ، رغم هزيمته في معركة « بريطانيا » ، لا يزال سلاحاً جوياً قوياً للغاية ، وتأثير قصفه شيء أحسه الناس في شتى أنحاء بريطانيا ، وفي العديد من البلدان الاخرى . وقد عانى معظم مدننا الرئيسة كثيراً . ومع ذلك ، فقد أخفق الالمان في تحقيق هدفهم الاستراتيجي . ورغم أن الصناعة والمواصلات والملاحة تعرضت مراراً وتكراراً للقصف الثقيل ، فان شعب بريطانيا لم يخضع .

يجب ألّا يغيب عن البال أن « اللوفتواف » مشكل على أساس أنه قوة جوية تكتيكية ، تقدم التعاون على مستوى جيش . وربما كان هذا هو سبب عدم نجاحها في قصفها الاستراتيجي لبريطانيا . وعلى عكس ذلك ، فان « القوات الجوية الملكية » (البريطانية) ، باستثناء « قيادة الطائرات المقاتلة » وما يتعلق بهدفها الدفاعي الوحيد المحدد ، كانت مشكّلة طبقاً لاعتقاد « ترنشارد » Trenchard بأن القوة الجوية هي كينونة

---

(٦٧) معركة بريطانيا The Battle of Britain ، من معارك الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ ـ ١٩٤١) . بعد سقوط فرنسا ، ركز الالمان جهودهم على انهاك بريطانيا فيما سمي (عملية أسد البحر) (Sea Lion) . وبدأ ذلك بحرب جوية مركزة اشتركت فيها ٢٦٧٠ طائرة (١٠١٥ قاذفة ، ٣٥٠ قاذفة منقضة ، ٩٣٠ مقاتلة ، ٣٧٥ مقاتلة ثقيلة) ظلت تقصف المراكز العسكرية والمدنية والاقتصادية البريطانية طوال عام كامل (أيار (مايو) ١٩٤٠ ـ أيار ١٩٤١) . وكانت هذه اول معركة في التاريخ تدور في الجو فقط . وقد قتل فيها حوالي ٤٥ الف نسمة (من المدنيين والعسكريين) وجرح اكثر من ٢٥٠ ألف نسمة من البريطانيين ، الذين لم يكن لديهم سوى ٦٠٠ طائرة مقاتلة ، وألفي مدفع م / ط . زيدت الى ٢٥٠٠ مدفع فيما بعد . وبلغت خسائر الالمان ١٧٣٣ طائرة ، رغم ادعاء البريطانيين بأنهم حققوا ٦٩٨ ، اصابة ، مقابل ٩١٥ طائرة بريطانية ، و ٤٨١ طياراً بين قتيل وأسير ومفقود ، و ٤٢٢ طياراً جريحاً .

المعرب

مستقلة ، بوسعها الحسم في حرب خاصة بها . وبذلك ظلت حتى حوالي العام ١٩٤٤ عاجزة عن تقديم سوى نفع ضئيل للجيش والبحرية .

بعد « دنكيرك » ، لم يعد لدى بريطانيا سوى وساطة فاعلة واحدة من أجل تبادل الضربات مع هتلر . فقد انهزم الجيش ، وتهلهلت مصادرها البحرية . ولكنها ظلت تملك قوة صغيرة من القاذفات ، ولو أنها متخلفة الى حد ما . وكانت هذه هي نواة « قيادة القاذفات » الحالية الشهيرة . وكان لا بد ، من ناحية مبدئية ، من الحفاظ عليها . وبذلك كان من التكتيكات الناجحة شن هجمات مركزة على هدف واحد ، في الوقت الواحد . وبينما كانت تنفذ هذه التكتيكات ، كانت قواتنا القاذفة آخذة في التوسع لدرجة أرغمت الالمان ، بعد الغارة التاريخية رقم ١٠٠٠ على كولونيا ، أرغمتهم على تخصيص العديد من مقاتلاتهم للتصدي لهذا الخطر المتزايد . ولتحقيق ذلك ، على الالمان أن يسحبوا قوات « لوفتواف » من دورها التعاوني مع الجيش ، وتخصيصها للدفاع عن المدن والمناطق الصناعية الحساسة .

وفي المراحل المتقدمة من الحرب ، أصبحت القاذفات قادرة على حمل المزيد من القنابل ، والطيران الى مسافات أبعد ، ومكنتها زيادة القدرة على التحمل من تأدية دور هام في حراسة سفننا ، والبحث عن الغواصات الالمانية (U-boats) التي كانت موجودة في كل مكان . ورغم أنها كانت قادرة على تخريب المدن وتدمير الصناعة ، الا أن العلم لم ينتج حتى الآن قاذفات قنابل قادرة على اختراق الكثافة الهائلة من الاسمنت المسلح ، التي كانت تحمي حظائر الغواصات الالمانية وملاجىء «جدار الاطلسي»[٦٨] . ومع ذلك، بدأت الدولة الالمانية، وببطء، تتهاوى تحت وطأة الهجوم العنيف. ولم يتحقق ذلك إلا بعدد من الخسائر تكبدها الحلفاء. فالقاذفة، البطيئة الطيران، كانت معرضة لنيران الاسلحة م / ط وللمقاتلات المعدنية. وظلت هذه القلاع، طوال المرحلة الأخيرة من طيرانها، خارج مدى طيران المقاتلات التي كانت ترافقها لحمايتها. ورغم أن الهدف أصيب بشكل بالغ، فقد خسر الاميركيون ستين طائرة اسقطتها المقاتلات الالمانية، كما أعطب أكثر من نصف القلاع التي نجت، وعادت الى بريطانيا وكانت نتيجة هذه الغارة الكارثة أن تم الانتاج الفوري لمقاتلة بعيدة المدى، وعالية السرعة عرفت باسم «موستانغ» Mustang. وقد عكس هذا السلاح الجديد الوضع، وسمح بأن يستمر القصف النهاري البعيد المدى.

---

(٦٨) جدار الاطلسي : خط تحصينات أنشاه هتلر يمتد من الدانمارك شمالا حتى الحدود الفرنسية الاسبانية جنوباً

كان استخدام القاذفات الثقيلة في دور تكتيكي أقل نجاحاً . ففي ايطاليا والنورماندي ، أُسقطت كميات ضخمة من القنابل على المواقع الالمانية الامامية ، وكان يحير أولئك الذين يشهدون المحرقة أن العدو كان يبدي مقدرته على المقاومة العنيفة بمجرد أن يتوقف القصف .

ولئلا يُظلم الطيارون ، لا بد من الاشارة الى أن جزءاً من فشل العمليات المشتركة ، مثل عملية (غود وود) Goodwood في النورماندي ، ربما يكون ناتجاً عن البطء النسبي في تحرك القوات الارضية لاستغلال القصف الجوي . ورغم أن الجيش كان يبدو سريعاً ، آنذاك ، ان هو هاجم العدو في غضون ساعة واحدة من إياب القاذفات ، فان ثمة استجابة أسرع كان من الممكن أن تكون هي التعويض عن البطء ، كتلك التي يمكن أن تنفذ بقوات من المظليين . لكن هذا يفترض سلفاً امكانية توافر مثل هذه القوات المحمولة جواً ، وتوافر الطيران في الوقت المناسب .

في « كاسينو »[٦٩] ، بانت مرة أخرى قيود القصف الجوي التكتيكي . فبينما كان الحلفاء يتقدمون من جنوب ايطاليا ، اثر استسلامها ، اضطروا الى توقف فوري ومفاجىء ، في ظلال دير « سانت بنيدكت » St. Benedict . فهذا البناء الضخم قائم على تلة شهيرة ، ساداً الطريق الى روما . وكان الألمان قد انشأوا هناك شبكة ضخمة من الملاجىء القوية ، والمواقع المحصنة الممتدة عبر ايطاليا . وكان هذا الحاجز في طريق تقدم الحلفاء يعرف باسم « خط غوستاف » ومن أجل اختراق الدفاعات الالمانية ، تقرر وجوب ازالة الدير . وفي ١٥/٢/١٩٤٤ ، قامت ٢٥٤ طائرة قاذفة باسقاط ٥٧٦ طناً من القنابل على ذاك المبنى الضخم . ورغم تدمير الهدف ، فان الذي حدث هو مجرد تراكم الانقاض فوق الملاجىء الالمانية ، ولم يفد ذلك الا في تقوية هذه الملاجىء . وأُتبع ذلك بالمزيد من هجمات القاذفات ، وبقصف مدفعي ضخم ، الى أن انتهى الامر في ١٧ أيار (مايو) ، وبعد قتال عنيف ، بأن احتل الفيلق البولوني ما تبقى من « تلة الدير » .

لم تكن الطائرة القاذفة ، رغم اسهامها ، الى حد كبير جداً ، في استراتيجية هذه الحرب ، بل وفي تكتيكاتها أيضاً في بعض الحالات ، لم تكن من حيث اعتبارها سلاحاً

---

(٦٩) معركة كاسينو Cassino ، احدى معارك الحرب العالمية الثانية (١٩٤٤) ، وفيها تمكنت المواقع المحصنة الالمانية من افشال أربع محاولات هجوم قام بها الحلفاء ، قبل أن تتمكن القوات البولونية من احتلال تلك البلدة (كاسينو) الواقعة على احدى التلال التي تشكل جزءاً من « خط غوستاف » الدفاعي الالماني .

المعرب

مطلقاً أكثر مما كان عليه الحال بالنسبة الى الغواصة الالمانية . فالقاذفات وحدها لم تستطع تدمير المواقع الدفاعية جيدة التحضير ، ولم تتمكن ، الا بعد وقت طويل ، من انهاك صناعة الدولة وروحها المعنوية :- ويمكن ايجاز محدودياتها في مداها ، وحساسيتها (قابلية تدميرها) ودقة قصفها ، وقدرة قنابلها .

وبوجه عام ، كان ذلك قصفاً شاملاً (بالمساحة) نفذته قاذفات قنابل ثقيلة ، وكانت نتيجة مخيبة للتوقعات في « كاسينو » و « النورماندي » . فالقصف التكتيكي النهاري ، والقاذفات المتوسطة ، كانا أشد تأثيراً .

وكانت قيمة القوة الجوية أيضاً في قدرتها على ايصال الرجال والمعدات والامدادات الى مناطق لا يمكن الوصول اليها بغير ذلك . وكثيراً ما كانت تحقق المفاجأة .

وفي أيار (مايو) ١٩٤٠ ، لوحظت بعض المظاهر الدالة على أشياء يُنتظر حدوثها ، وذلك عندما كان الالمان يتدفقون على «الأراضي الواطئة». وكان ثمة جزء حيوي من خطة الحلفاء الدفاعية يعتمد على القلعة البلجيكية في «ايبن ايمابل»، التي كانت تبدو منيعة جداً. فأنزل على هذه القلعة «فريق قتال» من المظليين المدربين بشكل جيد، من ضمنهم جماعة اقتحام من المهندسين العسكريين، وأرغموا حامية القلعة، التي كانت لا تزال تضم ١١٠٠ مقاتل، أرغموها على الاستسلام، بعد ست وثلاثين ساعة من بدء الانزال. ولم تقع في الحامية سوى مئة اصابة، وكانت لهم ميزة الحصول على دعم ناري مخطط مسبقاً من قلاع مجاورة. ومع ذلك، كان المهاجمون، بما قدم لهم من معلومات واعداد ـ وكثير مما قدم لهم كان نموذجياً تماماً ـ كانوا من الدقة، وكان لوصولهم من المباغتة، بحيث تمكنوا من التغلب على تلك النقطة القوية بخسائر قليلة في صفوفهم.

في العام ١٩٤١ ، نفذ الالمان عملية بقوات محمولة جواً ، كانت حتى ذلك التاريخ هي الاكبر والاكثر طموحاً . فجزيرة « كريت » كانت محتلة بقوات الجنرال « فريبيرغ » Freyberg ، قائد الفرقة النيوزيلاندية المشهور . وكان « فريبيرغ » يتوقع هجوماً محمولاً جواً ، ويذل أقصى طاقته في الاعداد لمواجهة مثل هذا الاقتحام . ومن جهة ثانية ، لم يكن لديه قوات أرضية كافية ، ولا دعم جوي من المقاتلات ،عندما غزاه الالمان في ١٩٤١/٥/٢٠ .

كان الهدف الاولي « للوفتواف » الالماني هو تدمير مدافع « فريبيرغ » المضادة للطائرات . وقد تم ذلك بسرعة ، وأُتبع بانزال قوات مظلية جيدة التدريب ، معززة

بموجات من الطائرات الشراعية التي تحمل المزيد من القوات الارضية والاسلحة الثقيلة . وقاتل المدافعون ببطولة ، وأنزلوا بالالمان خسائر رهيبة . وتم ايقاف محاولة لدعم العملية من البحر بظهور « البحرية الملكية » في الوقت الملائم . ورغم أن البريطانيين دفعوا الثمن غالياً جداً ، الا أن الالمان توقفوا نهائياً عن محاولات الغزو البحري . وفي « كريت » ، نجحت القوات المحمولة جواً في الحصول تدريجياً على مواطىء قدم . وحالما تمكنت من الاستيلاء على أحد المطارات ، تم تعزيز هذه القوات بطائرات نقل بمعدل عشرين طائرة في الساعة .

وفي نهاية المطاف أُرغم البريطانيون على اخلاء الجزيرة . ولكن هذا النصر كلف الالمان غالياً. فقد خسروا من ١٢ الى ١٧ ألف رجل، و ١٧٠ طائرة نقل قوات، وفقدت وحدات معينة ضباطها جميعاً، وفي وحدات أخرى لم ينجُ إلا نفر قليل. وتأكد للألمان أن العملية كانت مكلفة لدرجة أنهم لم يكرروا أية محاولة مماثلة فيما بعد.

من جهة أخرى ، كانت الحاميات المعزولة ، التي تدعم وتمون جواً ، تستطيع الصمود لفترات طويلة في مواجهة ظروف قاهرة . فثمة مثال معبر عن استمرار الدعم بطريق الجو لحامية مطوقة يتمثل خلال الهجوم الالماني على « الاردين » ، في كانون الاول (سبتمبر) ١٩٤٤ ، عندما تمكنت الفرقة ١٠١ الاميركية المحمولة جواً من ابقاء « باستونيا » كصخرة صلدة في طريق الجيش الخامس بانزر . وطوال بضعة أيام من القتال المرير ، كان الامداد من الجو هو الذي أنقذ « باستونيا » . وفي بورما ، كان ذلك أشد ضرورة . فهنا ، كانت معظم الاراضي مغطاة بأدغال كثيفة ومتشابكة ، وتتخللها أنهار كبيرة . وزاد من صعوبة طبيعة الارض وجود الجبال والمستنقعات وحقول الارز . وكانت الطرق قليلة ، وحالتها سيئة ، وسرعان ما تتحول الى مكابح طينية بفعل سيول الامطار الموسمية . وفي المناطق الداخلية ، كانت الادغال الملتفة تسمح للقوات المتسللة بالتقرب من خطوط الامداد الحيوية ، ومهاجمة القوافل . لذا استُخدم الامداد بطريق الجو ، من قبل الحلفاء ، على نطاق هائل .

بتأمين التفوق الجوي الذي أبعد الطائرات المقاتلة اليابانية ، تمكن سلاحا الجو ، الاميركي والبريطاني ، من نقل ٦١٥ ألف طن من الامدادات ، والطيران بحمولة ٣١٥ ألفاً من قوات الدعم ، ونقل ١١٠ آلاف مصاب ، كما أن هجوماً في « أراكان » ، اعتمد في نهاية المطاف على نقاط الاستناد المغلقة ، أو « الصناديق الدفاعية » ، التي تمكنت من الصمود بفضل امدادها من الجو وحسب .

والامداد الجوي عمل مكلف ، ويمكن أن يتأثر جداً بالطقس . وان تتمكن الطائرة من الهبوط ، فمن الممكن ايصال مخزونات أكثر مما هو مستطاع بالاسقاط المظلي . ولهبوط الطيران الذي يحمل الامدادات والتعزيزات ميزة اضافية ، هي امكانية اخلاء الاصابات ـ وأسرى الحرب ، عند الحاجة ـ من أرض المعركة . ومن الخطأ عموماً ، الافتراض بأن حامية ما يمكن أن تصمد الى ما لا نهاية بفضل الامداد من الجو ، والدليل على ذلك ، المصير الذي لاقته القوات الفرنسية في « ديان ـ بيان ـ فو » .

كان ايصال القوى البشرية عن طريق الجو موضوع بحث اجراه الجيش السوفياتي ، قبل الحرب العالمية الثانية ، وأُجريت التجارب على عدة طرق ، وكانت النتائج متفاوتة النجاح . واحد نماذج الايصال هذه ـ التي يقشعر لها البدن ـ تضمنت وضع عدد صغير من الجنود في صندوق معدني مغلق ، وذي عجلات . وكان يطلق هذا الصندوق من طائرة تطير قريباً من سطح الأرض ، وبسرعة بطيئة نسبياً ، بحيث يخرج الصندوق وكأنه هيكل عربة مزيف تتناقص سرعته حتى يقف . لكن هذه الطريقة ، حسبما هو معلوم ، لم تستخدم في الحرب . أما المهم فهو أن أفكاراً مماثلة تم تبنيها حالياً ، وهي الاسقاط من ارتفاع قريب من سطح الارض . وعلى العموم ، لم تسقط حتى الآن على الارض بهذه الطريقة ، سوى حزم الامداد .

وفي حال خلو المنطقة المقصودة من أية مطارات ، لا بد من ايصال الجنود بالمظلات أو الطائرات الشراعية . وقد أمن استخدام هاتين الطريقتين وساطة جديدة لاحتواء الخصم أو الالتفاف حول مجنبته . وقد استوعبت الان تماماً مسألة الاسقاط المظلي لقوات كبيرة ، ووحدات صغيرة ، خلف جبهة الخصم . وبالطريقة ذاتها ، يمكن انزال القوات بالطائرات الشراعية . ولهذه الطريقة ميزة أنها لا تتطلب تدريباً خاصاً . واذا ما توافرت أرض جيدة للهبوط ، فمن الممكن إنزال تشكيلات كبيرة نسبياً ، ومعها معدات ذات أحجام وأشكال متعددة . وكانت القوة المظلية تعتمد كلياً على المظلة ، في استمرار امدادها ، الى أن تتمكن من احتلال أراضي هبوط ملائمة ، كما حدث في جزيرة « كريت » .

ليس بوسع القوات المحمولة جواً الصمود الا لفترة محدودة . اذ انها لا تملك أسلحة دعم ثقيلة ودروعا ، وهذه معدات ضرورية في الحرب الحديثة . والطيران الذي يدعمها معرض جداً للنيران م / ط ، ولهجمات الطيران المقاتل ، خصوصاً أثناء المرحلة النهائية من عبورها لخط اسقاط القنابل ، أو قربها من منطقة الهبوط . ولقد دخلت معركة « أرنهيم » الملحمية التاريخ . ولكن على الرغم مما أبداه المظليون من بسالة وتضحية

عظيمة، لم يكن هناك اي أمل في نجاحهم، في الوقت الذي كان فيه الألمان يصدون ارتال القوات الارضية المهاجمة ، التي خُطط لها أن تتصل بالمظليين . وحين كانت المعركة بين مد وجزر ، حاول الطيران الملكي البريطاني ، يائساً ، ايصال الامدادات . وكانت المأساة أن كثيراً من هذه الامدادات كانت تصل ، في تلك الفوضى ، الى أيدي الالمان . والطقس الرديء ، وصعوبات الاتصال اللاسلكي ، وردود الفعل السريعة التي كان يتخذها العدو ، هذه كلها أسهمت في الكارثة ، وأبرزت للاجيال اللاحقة محدودية امكانات القوات المحمولة جواً .

ورغم استخدام الطائرات الشراعية ، على نطاق واسع ، في أوروبا ، وبورما ، فان هذه الطائرات لم تحقق ، من ناحية عملية ، نجاحاً كبيراً . فالنسبة العالية في حوادث التحطم أثناء الهبوط كانت تسبب خسائر فادحة في حمولاتها . وحقيقة الأمر أن ما كانت تحققه عمليات هذه الطائرات من نجاحات ، يعود كله ، بالدرجة الاولى ، الى شجاعة طياريها ومهارتهم .

كانت احدى أجرأ العمليات المحمولة شراعياً الناجحة في الحرب هي احتلال الجسور الواقعة فوق نهر « أورن » Orne ، وقتال « بينوفيل » Benouville خلال الساعات الاولى من يوم الانزال على شاطىء النورماندي ، عام ١٩٤٤ . فقد طارت ستة فصال من مشاة « أوكسفورد شاير » و « بكينغهام شاير » الخفيفة ، بقيادة الرائد « ر . جي . هوارد » R. J. Howard ، طارت من بريطانيا ، ثم هبطت ، رغم ظلام الليل ، على الجسور ذاتها تقريباً . . والحقيقة أن احدى الطائرات الشراعية قد حطت بحيث اصطدم أنفها بالاسلاك الشائكة المحيطة بالموقع الالماني المحصن قرب نهاية الجسر المقام على القنال . وكان الاستيلاء على هذه الجسور ذا أهمية قصوى بالنسبة الى انزالات الحلفاء التي تمت في وقت لاحق من صباح ذاك اليوم .

وفي الوقت نفسه ، شُنت عمليات اقتحام مظلي عبر المنطقة . بيد أن خطأ ملاحياً ، ومقداراً كبيراً من سوء الحظ ، جعلا هذه القوات المحمولة جواً تتبعثر على منطقة واسعة جداً . وفُقد مظليون كثيرون في المستنقعات ، وأُسر آخرون . وكانت الخسائر الاجمالية فادحة جداً . وكان من دواعي فخرهم على الدوام أن الوحدات التي مُنيت بذلك القدر من النزف قد حققت ما حققته كله .

في هذه الأيام ، حلت الحوامة (الهليكوبتر) محل الطائرة الشراعية ، ومحل المظليين الى حد معين . ومن المثير لأقصى الاهتمام أن وسائط النقل هذه ، على ما تبدو عليه من

غلظة وبطء في الطيران ، تحقق نجاحات كبيرة حتى في مواجهة عدو عنيد . ولربما كان السبب أن ليس للطائرة الشراعية أية قوة محركة بعد أن تتحرر من الطائرة القاطرة ، بينما تملك الحوامة مثل هذه القوة ، وبوسعها الهبوط عمودياً ثم الاقلاع من جديد ، ضمن مساحة صغيرة. ومما لا شك فيه ان استخدام فرسان الجو قد أعطى جيوش السبعينات قدراً كبيراً اضافياً من المرونة التكتيكية . وسيناقش هذا الأمر ، بتفصيل أكثر ، في فصل لاحق . ولكن ما يجب أن يكون واضحاً هو أن للجندي ، الذي يستغني عن الارض ، والذي يطير ويهبط بلا قيود ، ويستخدم أسلحته ، لهذا الجندي مزايا هامة ، ولربما كنا نستشف نهاية فترة مدرعة . . .

نظراً لزيادة فعالية الطيران ، فقد أصبحت القوات الأرضية بحاجة الى أسلحة تدمر بها الطائرات . وطبيعي أن الطائرة المقاتلة العاملة في المنطقة ذاتها هي العدو الاول للطائرة القاذفة . الا أن القوات الارضية والمواقع الهامة تتطلب التغطية . وقد تحولت أبسط المدافع م / ط ، بسرعة ، الى أسلحة أكثر تعقيداً وتكلفة . فأصبح الرادار حاجة ضرورية لقدرته على كشف الهدف المقترب ، والحواسب ضرورية لحساب اتجاه المحل المستقبلي للهدف وارتفاعه وسرعته . ولا يمكن نظرياً ، الا أن يصاب الهدف ، اذا كان ضمن مدى الرمي . الا أن الشيء العملي أنه كانت تطلق بضعة آلاف من القذائف لكي تسجل اصابة واحدة . وفي بعض الاحيان ، كانت شظايا القذائف العائدة الى الارض تشكل خطراً حقيقياً ، خصوصاً عندما كانت تسقط على مناطق مأهولة ، مثل « لندن » . وقد أجريت محاولات التصدي للغارات الشاملة باستخدام بطاريات الصواريخ . ولكن هذه الصواريخ لم تكن ، من جهة ثانية ، موجهة من بعد (ريموت كونترول) ، ولا بأي جهاز توجيه ، وكانت دقتها غير مضمونة . وخلال مراحل الحرب المتقدمة ، أصبحت القاذفات أقوى ، وأقدر على زيادة السرعة والارتفاع في طيرانها . وانتهت الحرب بأن كانت القاذفة متقدمة جداً على المدفع المضاد للطائرات .

وعلى الارتفاعات المنخفضة ، أصبح هناك نوع من التكافوء . وهنا صارت الطائرة المقاتلة القاذفة تقابل بالمدافع الرشاشة السريعة ، ومدافع « البوفرز »[٧٠] (Bofors) . وحتى في هذه المرحلة ، كان لسرعة الطائرات تأثيرها الفعال . وصار من الصعب جداً على سدنة المدافع أن يلاحقوا اتجاه الهدف بأسلحتهم ، حتى مع افتراض أنهم تلقوا الانذار عن

---

(٧٠) مدافع بوفورز Bofors : مؤسسة سويدية تنتج عدة نماذج من الأسلحة والمعدات وخاصة المدفعية .

اقتراب الطيران المعادي . وقد تم التغلب على ذلك باستخدام المحركات الكهربائية التي تدير الاسلحة بالاتجاه والارتفاع ، وبتركيب أجهزة تسديد معدلة ، واستخدام رادارات محسنة للانذار المبكر . وكان في ذلك بزوغ فجر جديد ، وصار من الضروري تطوير أسلحة جديدة اذا كان المقدر لسرعة الطيران أن تستمر في تزايدها . وهكذا « وُلد » الصاروخ الذي يمكن توجيهه نحو الطائرة القاذفة بوساطة الرادار ، أو بوساطة جهاز توجيهه الذاتي .

١٣) مولد الصاروخ

بما أن القاذفة الاستراتيجية كانت احدى وسائط ايصال الاسلحة ، فقد لا تكون ثمة غرابة في أن رجالاً من ذوي الابداع حاولوا استبدالها بطائرة لا يقودها بشر ، وقادرة على احداث القدر نفسه من الدمار . فمساعي ايجاد أسلحة جديدة لا تتوقف في السلم ، ولا في الحرب . وأثناء الحرب العالمية الثانية ، كان هناك توازن تقريبي من حيث تقدم الحلفاء في بعض المجالات ، وتقدم الالمان في مجالات أخرى . وفي الوقت الذي تتم فيه اكتشافات جديدة ، فان زعماء الدول وجنرالاتها يأملون أيضاً في انتاج سلاح من شأنه أن يكون حاسماً في انهاء الصراع لمصلحتهم . فالقوس المتصالب ، والبارود ، والمدفع الرشاش ، والغاز ، والدبابة ، كل من هذه الاسلحة كان يعتبر ، بدوره سلاح « الضربة القاضية » في عصره .

عقد هتلر الكثير من آماله على القنبلة الطائرة . وقد شُن هجومها الأول في فجر الثالث عشر من شهر حزيران (يونيو) ١٩٤٤ : أربع طائرات صغيرة ، بدون طيار ، تسير بمحرك بسيط ، مستخدمة مبدأ النفث ، انفجرت فوق الارض البريطانية . وكانت مصنوعة بشكل فج ، ومن مواد معقولة الكلفة ، واطلقت من منصات (مساند) في أوروبا المحتلة . وكانت بطيئة السرعة ، بالمقارنة مع المعدلات الحالية ، حيث كان الاعتقاد أن سرعة طيرانها كانت زهاء ٣٥٠ ميلاً في الساعة (حوالي ٥٦٤ كم / سا) . لذا كانت التكتيكات المستخدمة ضدها هي الرمي على هذه الاسلحة بالمدافع م / ط ، أو اعتراضها

بالطائرات المقاتلة ، مع اعتبار حقيقة أنها لا تستطيع التحرك وقائياً تشكل عيباً خطراً . وما هو معروف حقاً ، أن الطائرات المقاتلة كانت ، في بعض الاوقات ، تدرك القنبلة الطائرة ، أو الـ ف ـ ١ (V-1) ، كما كانت تسمى أحياناً ، وتضع نتوء جناحها تحت نتوء جناح « الطائرة بدون طيار » ، فتحولها عن مسارها الاصلي ، لتنفجر بعيداً عن الهدف المحدد لها . وكانت هذه الطائرات تصبح بلا أي نوع من التوجيه بمجرد انطلاقها من منصاتها . وكانت دقتها ضعيفة . ومن جهة ثانية ، كانت قوتها التدميرية هائلة بفضل رأسها المتفجر الذي يزن حوالى ألف كيلوغرام من المواد شديدة الانفجار . ومما لا شك فيه أن كان لهذه القنابل الطائرة تأثير محبط لمعنويات السكان ، مما أوجب تحويل سلاح الطيران نحو البحث عن مواقع اطلاق الطائرات بدون طيار وتدميرها ، وذلك لان المدى المحدود لهذه القنابل كانت على الاغلب ضمن مسافة العمل من شاطىء القنال الانكليزي .

كانت الـ ف ـ ١ هي شكل الشيء المقدر ظهوره . وفي ١٩٤٤/٩/٨ ، سقطت على لندن أولى القنابل ف ـ ٢ ، وكان لانفجارها دوي مدمر . وقد أتت من ارتفاع عال وبسرعة كبيرة ، وانقضت بشكل شبه عامودي بسرعة تفوق كثيراً سرعة أي طائرة حربية . ولم يكن هناك أي مجال لاعتراضها ، الا بوساطة عقبات ثابتة مكونة من سد مبني بالمناطيد (البالونات) . وكان رأسها المتفجر بحجم يماثل حجم رأس سابقتها . ولكنها كانت تشكل خطراً يفوق خطر أي سلاح جوي معروف آنذاك . ولا بد أن يكون انتاج وتشغيل هذا الصاروخ المعقد غير الموجه قد أحدث اضطراباً في المجهود الحربي الالماني ، وعمل افتقاره للدقة المحكمة على التشكيك بقيمته . وعلى العموم ، يظل من حسن الطالع أن الابحاث الالمانية في مجال أجهزة التوجيه لم تصل الى درجة من الكفاءة تمكن من تضمينها في الصاروخ . وان نحن نتأمل في القوة التدميرية لصواريخ اليوم ، العابرة للقارات ، فقد يكون من المقبول أن أكثر من ١٠٠٠ صاروخ ف ـ ٢ سقطت على لندن وجنوب شرق انكلترا ، ولم تقتل أو تجرح أكثر من ٩٠٠٠ مدني ، خلال الاشهر الستة التي سبقت اقتحام مواقع اطلاقها من قبل الحلفاء الزاحفين . وكانت هذه أسلحة بسيطة ، ذات مدى لا يزيد عن مئتي ميل (حوالى ٣٢٠ كم) ، رغم أن العلماء الالمان الذين كانوا يعملون في هذا الصاروخ الذي لا يقاوم كانوا ينتظرون تسليحه برؤوس جرثومية ، مع أنه في الواقع لم يكن يحمل سوى متفجرات تقليدية . وفي ربع القرن الاخير ، حقق العلم تقدماً حتى مرحلة استطعنا فيها ، عن طريق « أحفاد » ف ـ ٢ ، انزال بشر على سطح القمر ، أو المرور عبر المريخ . وهذا الامر لم يحمل معه التفاؤل بفرص جيدة للسكان المدنيين ، في أي صراع مستقبلي ، وخاصة في وقت تكاد تكون فيه الملاجىء الواقية من الغارات غير موجودة عملياً .

١٤) الشخصية العسكرية

(جدعون ينطلق مجدداً) (Gideon Rides Again)

إبان الحرب العالمية الثانية ، تشكلت عدة وحدات غير نظامية من أجل مهام خاصة . وقد أصبحت المهام التي نفذتها هذه « الزمر » الجسورة المؤلفة من رجال أشداء ، أصبحت مهامها أسطورية . ورغم أن قلة من هذه الوحدات الاساسية لا تزال قائمة فعلاً ، فان هناك أسماء جليلة لا يمكن أن تُنتسى ، مثل « القوة الجوية الخاصة » و« الكوماندوس » و« لونغ رينج دزرت غروب » و« نغيتس تشندتس » و« جيش بوبسكي الخاص »[٧١] . وكانت القوات الخاصة على نوعين : أولئك المخصصون للغارات الهجومية ، وأولئك الذين كانت مهمتهم جمع المعلومات بالدرجة الاولى . من جهة أخرى ، من الواضح أن هناك درجة معينة من المزج بين الاستطلاع والاغارة . وكان معظم هذه الوحدات يعمل كمجوعات صغيرة ، ولو أن « التشندتس » و « الكوماندوس » وبعدهما « الفرقة الجوية الخاصة » أصبحت وحدات كبيرة ذات قوة هامة . ولقد خاضت « التشندتس » معاركها كلها في الشرق الأقصى ، بأمرة « أورد ونغيت » Orde Wingate مؤسس هذه الوحدة ، وقائدها المشاكس ، المفعم بالحيوية .

وفيا يقال بأن اللواء « ونغيت » كان متأثراً بـ « توم وينترينغهام » الى حد كبير ،

(٧١) قوة الكوماندوس، ليس المقصود بها هنا نوعاً من القوات، بل وحدة خاصة حملت هذا الاسم بالذات. .

المعرب

فلربما يكون من المناسب الاستشهاد به لايضاح الفردية التي يتميز بها قادة مثل هذه المجموعات . كان « ونغيت » رجلاً غير عادي ، يستقطب ثقة الرجال غير العاديين . وكان « ويفل » ، العسكري المثقف ، يثق به ، وسمح له بتنظيم المتطوعين اليهود (ميليشيا) للتصدي للثورة العربية المتزايدة. وفي وقت لاحق، أثبتت براعته في تنظيم الحرب غير التقليدية، وقوات المغاورين في أثيوبيا، حيث استطاع، وبحملة قصيرة، عمل الكثير من اجل انهيار جيش الاحتلال الطلياني. وفي ذلك المعقل الجبلي، ما يزال اسمه يتردد بين قبائل «الامهرة» المعتدة بنفسها، معتقدة بأن «ونغيت» واركانه هم الذين اعادوا لهم امبراطورهم. وكان تشيرشل قد وجد نفسه على انسجام مع فكره القوي الجريء، كما ان «مونبتاتن» شجعه.

كان « ونغيت » في بعض الاحيان ، يعاني نوبات كآبة عميقة جداً ، وحاول الاقدام على الانتحار في احدى المرات . فهو لم يكن قادراً على احتمال المعاكسة . فكانت كل عقبة بمثابة تحد ، وكانت كل نكسة تحثه على بذل المزيد من الجهود . ولربما كان هذا التصميم العنيد هو الذي ساقه الى حتفه . فقد قتل في بورما ، أثناء طيرانه في طقس رهيب ، فوق منطقة جبلية .

وقلما كان الجنرال « سليم » Slim ، الضابط المسؤول عنه ، وقائد الجيش الرابع عشر ، يلتقي وجهاً لوجه مع هذه الشخصية المتمردة . ورغم ذلك ، كتب « سليم » بعد وفاة « ونغيت » :

« كان ونغيت ، يملك رؤية واضحة ، كما كان بوسعه نقل ما يؤمن به الى الآخرين . وفوق هذا كله ، كان يستطيع تكييف فنون الآخرين وممارساتهم وأفكارهم مع أهدافه الذاتية ، بمجرد اقتناعه بصحتها . ومن يشهد « ونغيت » وهو يحث أحد قادته المترددين على عمل ما يدرك كيف كان يشعر أي نبيل (بارون) من العصور الوسطى عندما كان بطرس الناسك يلاحقه كي يشترك في الحروب الصليبية . وكان الكثيرون من النبلاء يرون في بطرس الناسك شخصاً مزعجاً ، ولكنهم ، رغم ذلك ، كانوا يذهبون الى الحرب . . »

كان المفهوم التكتيكي لوحدة « التشندتس » هو أنها عدد من الارتال ، قوام كل منها حوالى ٣٠٠ عنصر من مختلف الرتب ، يمون من الجو ، يعتمد على ذاته لفترة تمتد حتى اسبوع ، وهو بالتالي منفصل عن أي خط مواصلات أو امداد . وكان دور الرتل هو مضايقة خطوط مواصلات اليابانيين وقطعها . وكان هناك حملتان منفصلتان : أولاهما في مطلع

العام ١٩٤٣ ، وكانت بقوة لواء . بيد أن الثانية تمت خلال شهري آذار ونيسان (مارس ، أبريل) ١٩٤٤ ، ونفذت بقوة مجهزة بامكانيات فرقة أو أكثر ، نقل نصفها بطائرات « داكوتا » وطائرات شراعية ، الى مناطق هبوط في أواسط بورما .

لاقى « ونغيت » حتفه خلال الحملة الثانية ، مخلفاً وراءه عدداً متزايداً من النقاد ، الذين لم يستطيعوا تبين قيمة عمليات (التشندتس) . اذ كان منظر الرجال الملتحين ، غير الانيقين ، مناقضاً لاسلوب الحياة البريطانية ، حتى في تلك المرحلة من الحرب العالمية الثانية . وكانت فكرة التخلي عن المرضى والجرحى للعدو أكثر تناقضاً مع تقاليد الاسلوب البريطاني في خوض الحروب . ومع ذلك ، فقد اكتُسبت تجارب مفيدة كثيرة في مجال الامداد جواً ، وتوضح مجمل مفهوم تحقيق المفاجأة التكتيكية بوحدات منقولة جواً .

في الحملة الثانية ، اضطر اليابانيون الى سحب قوات كبيرة كانت الجبهة في أمس الحاجة اليها ، وذلك لمعالجة الخطر الذي صارت تتعرض له خطوط مواصلاتهم . ورغم أن « التشندتس » منيت بخسائر فادحة ، فقد أثبتت أن الاوروبيين ليسوا متخلفين عن اليابانيين . وبهذا الاثبات أسهمت في رفع المعنويات في الجيش ، وفي الوطن (بريطانيا) .

الواقع أنه كان هناك تأثير مماثل خلفته الاغارات التي ذاعت شهرتها ، والتي نفذتها قوة « الكوماندوس »[٧٢] . وكان هؤلاء الجنود البرمائيون مدربين على العمل في زمر صغيرة ، أو كوحدة كبرى . وكانوا مقاتلين على مستوى عال من المهارة ، ويستخدمون مراكب الانزال ، أو القوارب الصغيرة ، للوصول الى العدو ، تماماً كما كان « وينغيت » يستخدم الطيران . وكانت أسلحتهم ومعداتهم خفيفة ، وسهلة الحمل والنقل . وكان قادتهم من ذوي الاندفاع والتصميم والشجاعة . وبحكم كونهم جنوداً غير تقليديين ، الى حد ما ، كان من اليسير عليهم تطبيق التكتيكات المرنة والافكار الجديدة ، المصممة من أجل استغلال الحد الأقصى لحركيتهم . وفي مواجهة عدو يستخدم أساليب دفاع سكونية ، كان هؤلاء يحققون نجاحات كبيرة . ومن المهم الاشارة الى أن الالمان لم ينفذوا قط غارات من هذا النوع ، على الرغم من أنه ، سبق لهم أن حققوا نجاحاً واحداً بارزاً ضد الحلفاء ، عندما أغاروا على « سانت مالو » ، من « جيرزي » في المرحلة النهائية من الحرب .

وبشكل عام ، أبدى الالمان اهتماماً بسيطاً بمثل هذه التكتيكات ، بينما كان البريطانيون يعجبون ويتباهون بالاساليب « البوهيمية » في خوض الحرب بمجموعات

---

(٧٢) قوة الكوماندوس ، ليس المقصود بها هنا نوعاً من القوات ، بل وحدة خاصة حملت هذا الأسم بالذات .

المعرب

صغيرة . ولربما كان السبب هو شعورهم بوجوب رد الضربة بشيء ما ... . مع ذلك ، ورغم هذا الشعور ، فقد فشلوا في شحن تشكيلاتهم الكبيرة ، والأكثر تقليدية ، بما أظهرته « جيوشهم الخاصة » من اندفاع نحو المغامرة وولع بها .

عند نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت « القوة الجوية الخاصة » قد تنامت حتى أصبحت خمس كتائب من القوات المدربة على الهبوط بالمظلات ، تحت امرة «قيادة اللواء » . وكانت مهمتها العمل خلف خطوط العدو ، بمجموعات صغيرة منضبطة ، ذات زي موحد نظامي ، ودور هجومي . واليوم ، هناك أنواع من الوحدات المشابهة « للكوماندوس » و « القوة الجوية الخاصة » في بلدان عديدة . ومنذ العام ١٩٤٥ ، أثبت « مغاوير البحرية الملكية » جدارتهم ، في حملات عدة ، نفذت في شتى أنحاء العالم . وما زالت بريطانيا تملك وحدة من « القوة الجوية الخاصة » ، وهناك وحدة مشابهة من « القبعات الخضر » الاميركية كانت تعمل في فيتنام ، وكانت هذه من القوات الخاصة .

منذ العام ١٩٤٥ ، والحروب السياسية ـ العسكرية التي تشنها الكتلة الشيوعية ، بالاضافة الى الحروب الجانبية (المحيطية) التي تخوضها بريطانيا ، تزيد من الحاجة الى وحدات قادرة على العمل لفترات مطولة ، وبمجموعات صغيرة .

وفي الوقت الذي تستمر فيه الحرب الباردة ، فان من المحتمل أن تزداد الحاجة الى القوات الخاصة . ومن الممكن ، حالياً ، تقليصها لتصبح على شكل وحدات يتدرب فيها الجنود على العمل لفترات طويلة ، بمجموعات صغيرة ، في مناطق يسيطر عليها العدو ، أو يحتلها . وتكون لديها القدرة على الوصول الى (أو المرور فوق) أراض لا يمكن عبورها ، بمجموعة متنوعة من الوسائط ، بما فيها المظلات والقوارب الصغيرة . وتكون اتصالاتهم اللاسلكية من المرتبة الاولى ، ومدربين جيداً على المهارات الفردية ، كالتأشير والاسعافات الأولية والتدمير وجمع المعلومات . ويكون العديد من هؤلاء الجنود يتكلمون لغة أجنبية . وفوق هذا كله ، يكون هؤلاء أهلا ، وقادرين على التكيف مع التباينات القصوى في المناخ وطبيعة الارض . وبوسعهم أن يشكلوا مجموعات « ابق في الخلف » (خلف خطوط العدو) في الحرب النووية

وعلى العموم فان ما يجب فهمه هو أن لهؤلاء الرجال حدوداً . فمن هم على مثل هذا النحو قلة ، وليسوا متوافرين في كل وقت ، ويجب ألا يتعرضوا للاصابة بخسائر كبيرة ، كذاك الذي يحدث اذا ما طلب من القوات الخاصة ، وقوتها النارية محدودة ، أن تصمد أمام عدو منظم ومصمم :

ان حركيتهم ومرونتهم وسرعتهم في العمل هي مميزاتهم الكبرى .

١٥) هوشي منه ومداه...

نتج عن نشاطات القوات الخاصة ، والمثال الذي قدمته ، ابان الحرب العالمية الثانية ، تصعيد كبير لعدد من حركات المغاورة ، فقد بالغ الحلفاء في تقديم المستشارين والاسلحة والاجهزة اللاسلكية والاموال الى مجموعات مقاتلي المقاومة المنظمة الذين كان يمكن أن ينقلبوا على قوات المحور . وشجعت ـ ضمن حدود أضيق ـ شعوب آسيا المحتلة ، بطريقة مماثلة ، على شن الحرب ضد اليابانيين . وهكذا ، وُجد ، في العام ١٩٤٥ ، العديد من « المدنيين » الذين تدربوا على التجسس والتخريب ، والعمليات السرية ، وجمع المعلومات الاساسية . ونمت روح الجماعة فيما بين أولئك الذين خاطروا بكل شيء في هذه الجيوش غير النظامية . والأهم من ذلك أن العديدين منهم لم يسلموا الاسلحة والاعتدة التي قُدمت لقتل الالمان واليابانيين . ولربما كان هذا نموذجاً عن سذاجة التفكير الغربي ، الذي صور لهم بأنه كان من المنتظر أن يعودوا كسابق عهدهم ، الى ما كانوا يحتلونه ، يوم كان احتلالهم أكثر هدوءاً .

في أوروبا ، حلت بالعدو هزيمة ساحقة . وطبيعي أن الناس كانوا متلهفين على العودة الى وضع كانوا عليه قبل الحرب . وكان عيشاً مريحاً الى حد معقول . وأصبح مجمل ما يحتاجه المغاوير الاوروبيون ليتذكروا الحرب هو : تجديد لقاء ، أو احتفال مع الزملاء ، أو ربما زيارة يقام بها الى « ميدان معركة مقدسة بشكل خاص » . أما في آسيا ،

فكان الوضع مختلفاً جداً ، اذ ان ما كان الناس يتطلعون اليه تحت ظل أنظمتهم الجديدة هو أقل من أن يذكر . وفي حين انطوى حلم اليابان في التوسع الامبريالي ، ومات في مخاضه ، اعتلى المسرح مستبدون جدد .

في الهند الصينية ، سرعان ما تحول النضال مضاداً للفرنسيين . وفي شتى أنحاء آسيا ، لم يعد الرجل الابيض يُحسب إنساناً لا يقهر . ورغم أنه انتهى الى النصر ، الا أن بسطاء الناس أدركوا أن من الممكن لأمة أسيوية أن تقهر الاوروبيين في المعركة . فلقد شهدوا اذلال أسيادهم ، وكانت نتيجة ذلك أن قل احترامهم لهم في بعض المناطق .

حرب المغاورة ليست جذيدة على العالم . . . اسمها مأخوذ عن الكلمة الاسبانية « غيريليروس » Guerrilleros ، التي استخدمت في « حرب شبه الجزيرة » . . .

وهؤلاء الجنود الاسبان ، غير النظاميين ، وبتشجيع وامداد ودعم من « ويلينغتون » صمدوا في مقاومة عصبية ضد قوات نابليون ، مكبديه معدلاً يومياً من الضحايا قدره مئة ضحية فرنسية . وكانوا يتميزون بثيابهم الرثة وقذارتهم وسوء تسليحهم . ولكنهم كانوا يقاتلون بشراسة ندر أن تُرى في ميادين المعارك التقليدية . وكانوا يخوضون القتال دونما علم بقواعد ذلك العصر ، أو الممارسات المقبولة آنذاك . وكان أسلوبهم هو الضرب حيث يكون توقع ضربتهم أقل ما يكون ، وعلى أضعف النقاط ، ثم الذوبان قبل أي رد منظم . وعندما دارت الدوائر على الجيش الفرنسي انحدر المغاورون (غيريليروس) كالذئاب على الجيش المتراجع . وطوال تلك الحرب ، كان الخطر الدائم الذي شكلوه خلف خطوط نابليون يساوي قوة عدة فرق بالنسبة الى اللورد « ويلينغتون » ـ لقد أثبتوا كفاءتهم في جمع المعلومات ، وشكلوا شبكات تجسس قيمة ، وقدموا معلومات عملت ، دونما شك ، على تمكين البريطانيين من تخطيط استراتيجيتهم بشكل ناجح .

قبل بضع سنين من الحرب العالمية الثانية ، كان زعيم شيوعي صيني ، اسمه « ماوتسي تونغ » يقود جنوداً غير نظاميين ضد قوى « وطنية » تابعة لـ « شيانغ كاي شك » . واليوم ، تثبت عقيدته الخاصة بالحرب الثورية انها كانت صحيحة . وكنتيجة لذلك ، بدأت محاولات شن حروب المغاورة وفق هذه العقيدة .

ورغم أن « ماو » كان قاتل ضد الغزاة اليابانيين ، إلا انه لم يكن في نيته ان يختتم في العام ١٩٣٧ نضاله بقتال « الوطنيين » . ولكنه وافق ، بناء على طلب « الكومنتيرن » ، على التعاون مع « شيانغ » ، ومن ثم اضعاف اليابان ، بغية تعزيز الامن السوفياتي من جهة الشرق ، في وقت كان فيه هتلر يهدد الاتحاد السوفياتي من الغرب . وهكذا استطاع « ماو »

أن ينشر عقيدة ثورية ، متسترة بالوطنية . وحقيقة الامر ، أنه أفاد الى حد كبير من تعاونه . فتمكن من توسيع مناطق نفوذه ، واقامة تنظيمه الحزبي على نطاق اوسع بكثير ، وخلق حركة جماهيرية داعمة للحزب الشيوعي . وعندما انهزم اليابانيون ، كان « ماو » في وضع قوي ، يمكنه من المضي في « الحرب الاهلية » .

والآن ، أصبحت العقيدة والمبادىء التي خطها « ماو » لقتال المغاورة هي دليل الثوريين كافة . وقبل محاولة فهم أسلحة مثل هذه الحرب وتكتيكاتها ، من المهم وجوب دراسة هذه العقيدة ، التي هي كالتالي :

١ ـ أول قوانين الحرب أن نحافظ على أنفسنا وندمر العدو .

٢ ـ تقوم استراتيجيتنا على أن « يقاوم واحدنا عشرة » ، وتكتيكنا على أن يتربص عشرة منا بواحد .

٣ ـ في العمليات كافة ، إضمن تعاون السكان المحليين .

٤ ـ احتفظ بالمبادأة بالابقاء على الهجوم ، ولا تعط العدو أي راحة . ضايقة باستمرار حتى تنهكه ، ويصبح مشتتا بالامكان ابادته . تراجع عندما يتقدم . تفرق عندما يهاجم . ضايقه عندما يتوقف . الجأ الى الهجمات الليلية ، وقض مضجعه ، واخفض روحه المعنوية . وهاجمه عندما يسعى الى تجنبك .

٥ ـ لا تقاتل الا عندما يكون النصر مؤكداً : اهرب عندما لا يكون الامر كذلك . « تجنب القوي ، وهاجم الضعيف». ان النجاحات مهمة لتعزيز المعنويات ، والاستيلاء على الاسلحة والعتاد .

٦ ـ خطط كل عمل بدقة ، وفق أفضل المعلومات المكانية ، ونسق خطتك مع أي وحدات أخرى موجودة في المنطقة .

٧ ـ تجنب الاشتباكات المطولة . اسع دائماً نحو الحسم السريع .

٨ ـ كن يقظاً ، واعمل بسرعة في مراحل القتال كافة .

٩ ـ تحرك سراً وبسرعة ، معتمداً ظلام الليل والطقس الرديء بالدرجة الاولى .

١٠ـ استخدم كل وساطة ذكية مبتكرة لتضليل العدو ، أو جذبه أو تشويشه . أثر ضجة كبرى في الشرق واضرب في الغرب .

١١ ـ كي تتغلب على الصعوبات الادارية ، عش على ما تنتجه الارض ، وتعلم كيف تتقبل المصاعب . تجنب الاعتماد على خط الامداد المنتظم أنشىء واستخدم حفراً (ملاجىء) للمؤ ونة والذخائر منتشرة بشكل واسع . الاسلحة والذخائر والاعتدة والمعدات الطبية يجب الحصول عليها من العدو .

١٢ ـ ابذل ما في وسعك لتشجيع انشقاقات العدو . الاسرى يجب أن يلاقوا معاملة طيبة ، ويجب أن تكسبهم الى جانب قضيتك ان أمكن .

تتفق تكتيكات المغاورة ، عموماً ، مع مبادىء « ماو » . ولكن ثمة نتيجة عامة يمكن كشفها خلال دراسة حالات التمرد أو العصيان المسلح في السنين الاخيرة . فهناك ـ دونما تفصيل ـ خمس مراحل ، الا أنها ليست معرّفة ، بحال من الاحوال ، بشكل واضح ، بل هي في الواقع أقرب ، الى حد ما ، لان تكون متزامنة ومتطابقة :

المرحلة التحضيرية ، وفيها تتم تعبئة القوى وتنظيمها . وفيها تتأسس شبكة قيادة ، وتُبذل محاولات لاستدرار التعاطف مع القضية . وسرعان ما تعقب هذه المرحلة مرحلة « ارهاب » . وهذه الآن أقرب الى الانحراف من العقيدة « الماوية » . « فالارهابيون » يعملون وحدهم ، وبمجموعات صغيرة . وهدفهم ضمان دعم الشعب للتمكن من الحصول على المصادر المادية . وقد تكون الاسلحة ابان الخطوات الاولى ، من أبسط الأنواع . ولكن من الممكن الاستيلاء على نماذج أكثر تطوراً من قوى الأمن . والارهاب نفسه ـ كما يمكن للمرء أن يقدر ـ هو سلاحهم الأقوى ، ويأمل أنصار هذا العمل في امكانية احداث تغيير في سياسة الحكم ، أو يأملون ، عملياً ، في تغيير الوضع في البلاد عن طريق انهيار القانون والنظام . وقد يكون في نيتهم الاشتباك المسلح مع قوى الامن القوية ، بل يفضلون تثبيت الشرطة والقوات بمهام حراسة سكونية .

هناك قاعدتان بسيطتان ينتقي « الارهابيون » على أساسها ضحايا الاغتيال والاختطاف ، وأهداف التخريب والفوضى . انهم من خلال البدء في قتل موظفي الحكومة والمتعاطفين معها ، وتخريب المباني الحكومية وتعطيل المواصلات ، يعملون على ازعاج الحكومة حتى الحد الأقصى . ولتلافي مضايقة السكان الذين يسعى « الارهابيون » الى كسب تعاطفهم ، لا بد من تجنب تخريب اماكن العمل لمنع انتشار البطالة على نطاق واسع . ويأتي في المقام الثاني ، واستنادا الى العمل الذي ستقوم به قوى الامن ، احتمال ان يكون الاكثر فائدة ، في اوقات معينة ، هو محاولة هدم معنويات رجال الأمن ، عن طريق اختيارهم كأهداف رئيسة ، بدلاً من التركيز على مهمة تشويش الادارة المحلية . ومن الممكن أن يكون هذا الاختيار أكثر تحقيقاً للفائدة .

كلفة الارهاب رخيصة ، ولا يتطلب ـ نسبياً ـ أكثر من حفنة من الرجال والاسلحة . ففي قبرص ، كان من المعتقد أن ليس مع « غريفاس » سوى ٢٢٠ من الاتباع « ذوي العود الصلب » ، وانه كان في فلسطين حوالي ٥٠٠ « ثائر » عامل . وغالباً ما يعيش الارهابيون في مناطق المدن ، لا في قواعد المغاورين النائية . ولذلك فان متطلباتهم الادارية غير ذات بال ، وخطوط امدادهم قصيرة .

وفي حين يكون من المفيد للاعمال القتالية أن تُمد من قبل دولة متعاطفة فان أسلحة عديدة يمكن الحصول عليها ، أو تصنيعها ، بوساطة « الارهابيين » . وأسلحة الصيد والمتفجرات هي المواد الاساسية. وفيما بعد ، يعتمد « المتمردون » على براعتهم . وقد يتلقون العون بحضور دورات تدريبية في الخارج ، وحتى بأن يكون لديهم خبراء ملتحقون بتنظيماتهم .

في البلدان الصغيرة التي تعوزها الاراضي للاختباء ، أو في البلدان المتمدنة ذات الطرق الجيدة ، قد يصبح الأرهاب الاسلوب الوحيد المهيأ للثائرين . وعندئذ يتمكن الارهابيون من العمل في المدن الكبرى والصغرى .

وغالباً ما تكون المرحلة الثالثة هي اقامة مراكز السيطرة على المغاورين في المناطق الريفية . ويُعمد الى ذلك لضمان حد من الامان والاخفاء لانشاء ملاجىء الامداد ، ولتدريب الافراد ، واقامة مقر قيادة ذي مستوى اعلى من اجل توجيه الحملة . وفي هذه المرحلة تصبح قوى الامن هي الهدف الاولي . وفي الوقت الذي تتوسع فيه المنظمة ، تتصاعد تكلفة المعدات والقوة البشرية . والشيء العادي ان يصبح العون المادي الخارجي ضرورياً . وان تستطيع قوى الأمن قطع هذا العون ، يكون هناك احتمال خطر انهيار الحركة . وان يكن نجاح هذه المرحلة مطلوباً ، فمن الضروري أن تتوافر أرض ملائمة للمغاورين . فاذا غلبوا على أمرهم يتحتم عليهم أن يلتجئوا الى الارض ، ويمارسوا التخريب والارهاب ، وهم يعملون في الوقت نفسه ، على بناء قوتهم من جديد . وقد يستغرق هذا زمناً طويلاً . وقد تكون من الشاهدين ، في العام ١٩٧٠ ، على أولى علائم حدوث ذلك في الملايو ، حيث يبدو أن « الارهابيين » الشيوعيين قد عادوا الى الظهور مجدداً . وان يحقق المغاورون النجاح بشكل عام ، يمكن ان ينتقلوا الى المرحلة التالية التي يجب أن تؤدي الى الاطاحة نهائياً بالحكومة القائمة ، عن طريق التمرد المكشوف . وقد يضطر المغاورون الى العمل كجيش منظم في الميدان ، الخارجي حيوياً . وحقيقة الأمر أنه ينبغي تخصيص أشهر من التحضير ، استعداداً للتدريب وتكويم مخزونات الذخائر

والاسلحة . وفي الوقت الذي يكون فيه هذا العمل قائماً على قدم وساق ، لا بد أن تكون قوى الأمن معرضة باستمرار للهجوم والمضايقة ، حيثما كان ذلك ممكنا . ومن المهم وجوب الحصول على المعلومات الصحيحة ، للمساعدة على تخطيط الحملة النهائية . ومن المهم أيضاً أن تعمل قوى « المغاورين النظامية » ، المشكلة حديثاً ، على ملاقاة العدو على أرض منتقاة ، حيث تستطيع أن تماثله في القوة والأسلحة . فالثوار الفيتناميون بقيادة الجنرال « جياب » ، كانوا يُهزمون كلما هاجموا الفرنسيين في دلتا « النهر الاحمر » ، التي كانت قريبة من القاعدة الفرنسية الرئيسة . فهناك ، كان بالامكان أن تتدخل القوة الجوية والمدفعية بشكل مؤثر ، وبالامكان استخدام الزوارق ، للتفوق بالمناورة على قوات « جياب » . وبحلول العام ١٩٥٤ ، كان « جياب » قد تعلم الدرس . وعندما شن هجومه على « ديان بيان فو » ، كان قد أمضى شهوراً وهو يحشد قوة متفوقة في المدفعية . وكان يدرك أن سلاح الجو الفرنسي والدروع على مسافة أبعد من أن تكون لهما قيمة حقيقية بالنسبة الى الحامية ، إبان ذلك الوقت الحاسم .

تكمن الخطورة في أن يغالي « المتمردون » في ثقتهم بأنفسهم ، فيحاولون الاشتباك مع خصم متفوق في قوته النارية الى حد بعيد ، وعلى ارض معركة مفتوحة . وهنا تجدر الاشارة الى أن ثوار فيتنام انتقلوا الى حرب مغاورة بالأسلوب الذي يُشن على نطاق واسع ، بمجرد أن تحرك الاميركيون بقوات كبيرة في فيتنام .

استخدم ثوار فيتنام « الارهاب والتخريب » ، والضغط السياسي ، وحرب المغاورة ، ضد القوات الاميركية ، واتت المعونات الخارجية من شمال فيتنام على شكل رجال ومعدات . وكان هذا الوضع غير عادي ، لأنه كانت هناك حرب شبه معلنة بين الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية ، رغم أن القتال الارضي كله كان يجري ضمن الحدود المتفق عليها مع جنوب فيتنام ، وفي سعيه لاقناع الشمال بقطع عونه عن الثوار أسقط سلاح الجو الاميركي عليه من القنابل ما يزيد عما أسقطه على أوروبا طوال الحرب العالمية الثانية . ولم يتمكن القصف الجوي من سد طرق الامداد . فكانت الطرق والجسور المدمرة تصلح بسرعة ، بوساطة فصائل من العمال غير المهرة . وأمكن اعادة بناء المنازل المبنية محلياً ، في الأصل ، في غضون أيام ، ووُجد أن لا معنى للقصف الجوي حيثما يمكن الاصلاح بهذه السرعة . لقد تسببت الحرب الفيتنامية في ايجاد العديد من الاسلحة والتكتيكات الجديدة .

ستناقش أساليب مجابهة التمرد في الفصل التالي ، ولكن لنأمل الا تبتلى فيتنام بحرب أهلية اسبانية ثانية ، والا فسيكون ذلك مقدمة لنزاع عالمي (٧٣).

(٧٣) لا بد هنا من لفت النظر الى زمن كتابة هذا الكتاب . وقد تم ذلك قبل أن تحدث التطورات الاخيرة في الحرب الفيتنامية .
المعرب

١٦) مجابهة التمرد

من أجل التغلب على المتمردين ، من الضروري شن حملة سياسية وعسكرية معاً وقبل أن تتمكن الاجراءات طويلة الأمد ، على الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من تحسين الوضع ، ستكون هناك ضرورة للعمل العسكري ، من أجل تثبيت سلطة الحكم الشرعي ، وفرض الأمن والقانون والنظام في البلاد . لذا يجب أن تهدف العمليات العسكرية الى اعادة السيطرة على المناطق التي يهيمن عليها المغاورون ، دونما استغناء عن دعم الشعب . وغالباً ما يكون المتمردون معتمدين على تأييد الشعب ؛ والا فعليهم أن يرحلوا . وتعمد أكثرية السكان الى مساعدة المغاورين بسبب الخوف منهم ، ويكون الناس ، في غياب حماية الحكم ، تحت رحمتهم . ففي بعض مناطق فيتنام ، ظل الثوار مسيطرين مدة كافية لجعل الناس يعتبرون الاميركيين وقوات الحكومة التي أتت لتحريرهم معتدين .

الأسلحة الضرورية للتغلب على هذا النوع من الحالات هي الاذاعة (الراديو) والمنشورات (الكراريس) التي تُستخدم في التكتيكات العامة التي صرنا نسميها الآن « الحرب النفسية » . والتكتيكات معروفة جداً لدى أولئك الذين كانوا يستمعون الى ما كان يذيعه (ونستون تشيرشل) ، وما كان يذيعه « غوبلز » في المانيا . وما يمكن أن يقال في أهمية اكتساب قلوب الناس وأفكارهم هو دون كل مبالغة .

من الصعب على الجندي ، وهو يفتش عن « الارهابي » المراوغ ، أن يبقى على التزامه بأهداف الحملة الشاملة . فنادراً ما يرتدي العدو زياً خاصاً ، ولا يمكن تمييز مظهره عن مظهر باقي الأهلين . ولحماية الناس من المغاورين ، يجب أن تُخطط العمليات العسكرية على أساس عزل المتمردين . وقد يستوجب ذلك اجراءات خاصة ، مثل مراقبة التموين، ومنع التجول ، وتقييد مختلف التحركات . وفي الوقت نفسه ، يجب ملاحقة المتمردين بدوريات هجومية . وهذه ، بلا شك ، ستجلب الضرر ، من حين لآخر ، على اناس أبرياء . وما من طريقة يؤمل أن يُنفذ بها هذا كله مع اكتساب قلوب الناس وأفكارهم ، في الوقت نفسه ، الا بالتخطيط البالغ الدقة ، وبالتعاون بين السلطتين العسكرية والمدنية .

رغم ضرورة جر المغاورين الى المعركة ، وقهرهم بشكل حاسم ، فان الأهم من ذلك هو توسيع المناطق التي تسيطر عليها الحكومة ، وبالتالي منع الدعم عن المتمردين .

ان فرص الجيش ضئيلة اذا كانت المعلومات غير جيدة . ولكن ربما لا يكون مستطاعاً الحصول على المعلومات الا بالجهود المستمرة لوكالات عسكرية وأمنية مشتركة . وقد يصبح ممكناً ، بالمعلومات الدقيقة ، اكتشاف مصادر امداد المغاورين القادمة من مؤيدين خارجيين . وان أمكن التيقن من طريق تسليم الامدادات وتوقيته ، يصبح من الممكن أحياناً منعه . ومن الواضح أن بالوسع فعل ذلك ، على جزيرة ، بتسيير دوريات بحرية نشطة . ولكن في الحالات التي يسيطر فيها المتمردون على الحدود ، وتكون الحدود أراضي صعبة ، فلربما لن يكون سهلاً وقف الممون . وممر « هوشي منه » ، في فيتنام ، الذي يخترق غابة كثيفة ، هو مثال دقيق عن هذه المعضلة .

تعتمد منظمات المتمردين عادة ، والى حد بعيد ، على قيادة عدد بسيط من الرجال شديدي التفاني في قضيتهم . . ويمكن أن يكون للتخلص من القادة تأثير متفاوت على معنويات الباقين وصمودهم . لذلك ، يمكن أن يكون وجوب القضاء على هؤلاء الرجال من الأهداف الهامة في العمليات المضادة للتمرد .

من الطبيعي أن يكون خير القوات ملاءمة لمثل هذه الحرب متمثلا في النوع نفسه من المغاورين ، أو أشباه المغاورين . كما يمكن أن يكونوا من المنشقين . والمثال الجيد على ذلك هو النجاح الذي أحرزته « العصابة المضادة » للماوماو في كينيا . وقد يكون معقولاً أيضاً استغلال وتوظيف معونة القبائل الصغيرة التي تعيش في المناطق البعيدة . وربما تكون هذه المجموعات من الأقليات قادرة على حماية الحدود ، ومنع تحركات المغاورين ، والبرهنة على

أنها مصدر معلومات مفيد ، وذلك بدعم بسيط وحسب ، تتلقاه من القوات النظامية . ولاسباب سياسية ، يمكن أن يفضل استخدام قوات من المواطنين . اذ سيكون من الصعب على الصحافة المعادية أن تتهم قوة أجنبية بفرض سيطرتها على البلاد ، اذا كان ما يُرى هو قوات محلية تعمل على تحرير نفسها . وفي البدء ، كان أمل الاميركيين في فيتنام الاكتفاء بتقديم المستشارين والفنيين والاعتدة ، لتلافي التورط فيما تحول الى حرب طاحنة مكشوفة . وبما أنها قد انزجت في صراع على هذا المستوى ، فقد خُيل اليها أن بوسعها التغلب على ثوار فيتنام المتخلفين بوساطة ما تملكه من أسلحة القرن العشرين وتقنياته ، وبوساطة جنودها المدربين بشكل جيد . وسرعان ما وجدت أن قواتها المدربة والمسلحة لمعارك العصر النووي ، وفي فترة مدرعة ، لم تتمكن من اخضاع المتمردين المتحمسين الكثر ، في أدغال فيتنام وجبالها وحقول أرزها . فمن جديد ، كان على الانسان ان يلج فترة غير مدرعة ، لان الارض ضده . وقد سبق أن كانت جيوش العالم تفتش عن وسائط تخوض بها المعارك البرية في العربات القادرة على الاستغناء عن الارض ، وما يرتبط بها من عوائق . وهكذا ظهرت خيالة الجو . وسيناقَش هذا الموضوع في الفصل اللاحق .

تشكل شروح أسلحة حرب المغاورة وتكتيكاتها موضوع العديد من الكتب . ولا يتسع المجال هنا للمناقشة المستفيضة . وستكون الحملات شعواء ، وستُشن دونما رحمة من قبل اناس يندفعون بحماسة ، ودوافعهم مبادىء تعصبية ، وغالباً ما تكون عقائدية ومهمة الثورة المضادة هي ضمان المبادأة النفسية ، وكسب دعم هؤلاء الناس وولائهم ، وعزلهم بشكل دائم عن المتمردين . وقد نكون ، « نحن الغربيين » ، أقل صلابة من أن نجابه هذا الخطر بنجاح . ولكن ما يجب تذكره هو أن أعمال الارهاب وبث الرعب التي يقترفها المغاورون قد تحقق مكاسب آنية ، ولكنها قد تتحول ، مع مرور الزمن ، ضدهم . وقد يعتمد نجاح مقاومة التمردُ على كبح الجناة بعنف ، ولكنه يعتمد على معاملة الابرياء بلطف .

حرب المغاورة هي حالياً « فلانكس » الشيوعيين . ولكن يجب ألا ننسى أننا نحن أيضاً استخدمنا ، وقد نُستخدم في المستقبل ، حربا مشابهة .

١٧) فرسان الجو . . . سلاح جديد

ابان الحرب الكورية ، لوحظ أنه كان للحوامة (الهليكوبتر) دور هام في الحرب الحديثة . وفي العام ١٩٦١ أرسل الجيش الاميركي الحوامات ليزيد من حركية القوات الفيتنامية . وبحلول العام ١٩٦٦ ، كان أكثر من ١٦٠٠ من حوامات الجيش تؤدي مهام متعددة في فيتنام ، من بينها نقل القوات ، والامداد جواً ، والاستطلاع وادارة نيران المدفعية . يضاف الى ذلك أنه كان بالامكان استخدام هذه « المنصات » الجوية من أجل القيادة والسيطرة ، واخلاء الاصابات ، وكوسائط لتقوية المحطات اللاسلكية ، أو محطات لتحويل الاتصالات .

قدر دعاة الحرب المدرعة أن الحوامة غير المدرعة التي تطير ببطء ، وعلى ارتفاعات منخفضة ، ستمثل هدفاً سهلاً بالنسبة الى العدو . وعلى العموم فان الاحصائيات تميل باتجاه اثبات قدرتها على الاستمرار في الحياة . ففي العام ١٩٦٥ ، قيل ان حوامة واحدة فقدت في كل ١٨ ألف طلعة . ويشير النقاد الى أن الامر قد يكون كذلك في الحرب المضادة للمتمردين ، ولكنه سيكون مختلفاً جداً في حرب تقليدية مع عدو متطور . وكنتيجة لذلك ، أجري العديد من التجارب والتمارين المعقدة لتقرير ما اذا كان هذا صحيحاً . وكانت النتائج متضاربة ، ولكن تم تقرير أن الحوامات أقل تعرضاً لخطر النيران الأرضية مما

هو مقدر . وصارت اليوم جيوش العالم تزيد من حجم أساطيلها العامودية ، وتزيد التدريب على استخدامها عند الحد الامامي لأرض المعركة .

وعندما كانت القوات تُنقل بالحوامات الى أهدافها الامامية ، كانت هناك ثغرة خطرة في حمايتها ، وهي تطير ضمن منطقة الانزال ، وخلال لحظات الهبوط الفعلي . فكانت معرضة للخطر ، مثلها مثل المظليين والطائرات الشراعية ، الى أن تصبح القوات الارضية المحمولة فيها جاهزة للاشتباك . وقد تم التغلب على ذلك بوساطة حوامات مسلحة ترافق حوامات النقل . واليوم ، أصبحت القوة المحمولة بالحوامات قادرة على الظهور فجأة عبر مستوى قمم الاشجار . فتعمل « سفن المدفعية » المتقدمة هذه على دك الهدف بنيران مركزة بما تحمله من صواريخ شديدة الانفجار ومدافع رشاشة متعددة . وقد يضاف الدخان أيضاً الى نيران القمع . وقبل أن تجهز أسلحة العدو للاشتباك تكون الناقلات قد أفرغت القوات وانسحبت . وفي الوقت نفسه ، تتابع « سفن المدفعية » دعمها للقوات الارضية ، أو يمكن أن تُستدعى الطائرات القاذفة ـ المقاتلة بوساطة راصد جوي ، وتوجه نحو الاهداف الارضية . ومن الطبيعي أن يعتمد هذا كله على تحقيق التفوق الجوي .

لتقديم المزيد من الحماية للمكونات الحيوية لهذه الآلة وللاطقم ، بُذلت مساع حثيثة لتطوير الاغلفة الواقية من الرصاص (كان أول من استخدمها أطقم الطائرات خلال الحرب العالمية الثانية) وصفائح التدريع خفيفة الوزن . وفي حال اعطاب الحوامة ، رغم القوة المسلحة المرافقة لها ، ورغم الوقاية المدرعة ، فان لها القدرة على الهبوط في أي مكان تقريباً ، الأمر الذي يجعل من الممكن استعادة نسبة عالية من هذه الطائرات ، ثم اعادتها الى الخدمة بعد تصليحها .

تتمثل احدى مشاكل الحوامة بما تتطلبه من مقدار هائل من الصيانة . ولكن تجربة فيتنام تشير الى امكانية ابقاء هذه الآلات عاملة في مناطق القتال ، لفترات طويلة ، شريطة توافر قطع الغيار ، وعناصر صيانة مدربين بشكل جيد .

الاجسام الطائرة كلها مقيدة ، الى حد ما ، بالطقس الرديء وبالظلام . ومع ذلك ، بوسع الحوامة البطيئة الطيران أن تعمل في أوقات الرؤية المنخفضة بكفاءة أكبر من كفاءة مضاداتها التقليدية . وعندما تصبح ظروف الرؤية مستحيلة فعلاً ، يستطيع الطيار أن يشعل ضوءاً مبهراً ، ويهبط على بقعة صغيرة من أرض مستوية . والعمليات الليلية الناجحة تتطلب عادة ، وبشكل عام ، أقصى ما لدى الاطقم من مهارة ، وخاصة عندما يكون الطقس رديئاً .

ويمكن أن يعاد امداد القوات المحمولة بالحوامات من الجو . وهذا يتطلب وقوداً كثيراً ، كما أنه لا يمكن أن يصل الى الوزن نفسه بالمقارنة مع الأمداد الارضي العادي . ومن جهة ثانية ، فان العدد الضخم من القوة البشرية اللازم لحراسة خطوط الأمداد الارضي ، هذا العدد يمكن الاستغناء عنه ، كما يمكن ايصال المواد بشكل أسرع . وطبيعي أنه لا بد من حماية الطريق الجوي بوساطة الطائرات المقاتلة ، من الهجوم الجوي والارضي على حد سواء .

تطلب السيطرة على الهجمات المحمولة بالحوامات ، أو المنقولة جواً ، مقر قيادة محمولاً جواً . وتحسباً لوقوع اصابات ، لا بد من وجود جهاز بديل . والحوامة تهيىء للقائد أفضل امكانية لرؤية أرض المعركة ، وتسمح له بالاسراع في احكام نيران المدفعية ، وتوجيه المقاتلات لمهاجمة الاهداف الارضية . ويمكن للقائد أن يهبط في اللحظة المناسبة ، ويستأنف دوره العادي على الارض .

لقد اتضحت الفعالية التكتيكية للقوة المحمولة بالحوامات ، وبشكل مؤكد ، من خلال حرب فيتنام . واتضحت ، الى حد ما ، من خلال الفرنسيين في الجزائر . فالحركية الجوية تعطي المشاة الميزة الكبيرة للمرونة وسرعة الانتشار . ويستطيع مثل هذه الوحدات أن يعمل فوق مناطق واسعة من الارض ، ويلتف على القواعد الارضية المعادية عندما يشاء .

في الجزء الاول من هذا الكتاب ، أورد « توم وينترينغهام » ، أن الحرب الخاطفة ، والهجمات المحمولة جواً ، كانت تهدف الى الوصول حتى خلف المواقع الرئيسة للعدو . وللفرقة المنقولة جواً مهمة مماثلة ، فيما عدا أنه لم يكن ثمة خط أمامي في فيتنام ، وان كان يتحتم التفتيش عن العدو ، وتدميره ، في مواقعه التي لا يمكن الوصول إليها بشكل عادي . لذا استبدلت الشاحنات بحوامات النقل ، والدبابات « بسفن المدفعية » . وعند الضرورة ، يمكن أن ترفع المدفعية بحوامات رفع ثقيلة ، كما يمكن أن يتم ذلك بالنسبة الى الدبابات الخفيفة . ولم تكن الوحدات في فيتنام مشكلة على أساس أن تحل محل فرق المشاة العادية ، بل كانت ـ كقوات المظليين والوحدات الخاصة البحرية ـ ذات قدرات خاصة متضمنة فيها .

يبدو أن هناك عدداً من فئات الحوامات المختلفة التي قد تدخل الخدمة . فهناك أولاً ، الحاجة الى حوامة خفيفة للاستطلاع . . . حوامة سريعة ، مرنة ، ومجهزة باتصالات لاسلكية جيدة . ويمكن أن تستخدم هذه الآلة من أجل البحث عن العدو

ومراقبته . والحوامة هي دبابة الجو القادرة على تسديد ضربة قوية ، وحمل أسلحة ذات مدى مفيد . ويجب أن تكون هذه متكاملة ، وأجزاؤ ها الحيوية محمية من النيران الأرضية التي لا بد من أن تتعرض لها . وهناك ، أخيراً ، حوامات النقل ، وستدعو الضرورة الى هذه من أجل حمل الجنود والعتاد والمؤ ن والاسلحة لمسافات بعيدة ، وبسرعة معقولة . وقد تحتاج الى بعض الاسلحة الخفيفة لحماية نفسها . ولربما ستصنف حسب قدراتها على الحمل .

ابان الفترة الثانية ، غير المدرعة (٣٧٨ ـ ٧٧٤) التي ذكرها « وينترينغهام » ، أصبحت الخيالة هي السلاح الرئيس الذي كان يكسب المعارك . وكانت ، في العادة خيالة خفيفة الى حد ما ، وغير مدرعة بشكل كامل . وكانت نقاتل بالمقذوفات أكثر مما تمثل قتال صدمة تلاحمي . وانتهت هذه الفترة بظهور الفارس المدرع الثقيل ، الذي لم يكن بالامكان تدميره بوساطة الخيال خفيف السلاح . ولم تتقلص قيمة الفارس الا بعد أن أصبح القوس الطويل قادراً على خرق الدرع . والآن ، يعيد التاريخ نفسه . وأصبح بالامكان اطلاق الصواريخ الحالية ، الموجهة ، المضادة للدبابات ، القادرة على تدمير الدبابات من مسافة تصل الى ألفي متر ، اطلاقها من الحوامة . والدبابة البطيئة الحركة كهدف أفضل من مضادتها الرشيقة . وأما الدبابة فهي أقدر على الاختفاء ولكن لا شك ان هناك الآن أسلحة وتكتيكات يمكن أن تستخدم في مواجهة خطر الحوامة . وأتنبأ بأن استخدام القوات المنقولة جواً سيكون له تأثير دائم على أسلحتنا وتكتيكاتنا المستقبلية . وفي الوقت الحاضر ، تستطيع الجيوش أن تحرك أعداداً بشرية كبيرة بسرعة تصل الى مئة ميل في الساعة (١٦٠ كم / سا) . ويمكن لهؤلاء أن يطيروا فوق الارض الصعبة ، وفوق الحواجز الاصطناعية والمياه ، وحتى في الطقس المتوسط الرداءة . واننا نتجاهل هذه التطورات الجديدة على حساب ما قد تحمله إلينا من أخطار .

١٨) الشرق يتوهج محمراً

في الصباح الباكر من يوم ٦ آب (أغسطس) ١٩٤٥ ، طار العقيد «بول و.تيبتس» Paul W. Tibbets ، بقلعته الطائرة « سوبر فورترس » Super Fortress في جو صاف ، باتجاه هيروشيما . وكان هدفه واحدة من كبريات مدن الامبراطورية اليابانية . وكان يعيش فيها ، ما بين مخازن الاسلحة والمعامل ومصافي النفط ، ٣٤٣ ألف مدني ، وأكثر من ١٥٠ ألف عسكري من حاميتها .

لقد اختيرت هيروشيما كأول هدف عسكري يحس بنتائج الحرب النووية . وفيما كانت القلعة الطائرة تعود أدراجها ، هبطت بمظلتها أول قنبلة ذرية في العالم ، على تلك المدينة . ولنترك لاحد الصحافيين اليابانيين وصف المشهد :

فجأة ، برقت السماء بضوء قرنفلي ضارب الى البياض ، رافقته هزة غير طبيعية ، اعقبتها على الفور موجة حرارة خانقة ورياح جرفت كل شيء في طريقها . وفي غضون ثوان قليلة ، لسعت الناس في الشوارع والحدائق الواقعة في وسط المدينة موجة من الحرارة اللاذعة . فقتل الكثيرون على الفور ، وسقط آخرون على الارض يتلوون ، وهم يصرخون توجعاً من آلام حروقهم التي لا تُحتمل . وامحق كل شيء كان منتصباً في طريق الموجة

الانفجارية (جدران ، منازل ، معامل ، وأي مبان أخرى) وتطايرت الانقاض في زوبعة متصاعدة نحو السماء .. واقتُلعت الحافلات ، وطُوح بها جانباً كما لو كانت بلا وزن ولا حجم . وانزاحت القطارات عن خطوطها كما لو كانت دمى . ولاقت الخيول والكلاب والابقار المصير نفسه الذي منيت به الكائنات البشرية . لقد انصعق كل كائن حي بجو معاناة لا يمكن وصفه . ولم تنج حتى النباتات . فزهقت الأشجار باللهب ، وذهبت عن نباتات الأرز خضرتها ، وشبت النار في اعشاب الأرض كما لو كانت قشاً جافاً . وفيما بعد دائرة هذا الفناء المطلق ، حيث لم يبق شيء حي ، انهارت البيوت أكوام دعائم وطوب وعوارض . وحتى مسافة حوالي ثلاثة أميال من مركز الانفجار ، تهاوت البيوت الخفيفة وكأنها كانت مبنية من الورق المقوى . وأولئك الذين كانوا فيها اصبحوا موتى أو جرحى ، وأولئك الذين تمكنوا من النجاة بمعجزة ما ، وجدوا أنفسهم محاطين بدوائر من نار . والاقلاء الذين وُفّقوا في شق طريقهم نحو السلامة ، ماتوا ، على الأغلب ، بعد عشرين أو ثلاثين يوماً ، نتيجة للتأثير اللاحق لأشعة غاما المميتة . أما بعض المباني الحجرية ، أو الأسمنتية المسلحة فقد ظلت منتصبة ، إلا أن الأنفجار مزق أحشاءها الداخلية تماماً .

بعد حوالي نصف ساعة من الانفجار ، وفيما كان الجو المحيط بهيروشيما لا يزال صافياً ، بدأ يتساقط على المدينة مطر خفيف ، استمر زهاء خمس دقائق . وكان سبب ذلك هو الارتفاع الحاد المفاجىء في درجة حرارة الهواء ، حيث تكاثف على شكل مطر . بعد ذلك ، ثار ريح عنيف ، وامتدت النيران بسرعة مخيفة ، لأن معظم بيوت اليابانيين مبنية من جذوع الأشجار والقش .

وعندما حل المساء ، كانت النيران تخمد ، ثم انطفأت اذ لم يبق شيء للاحتراق . لقد امحت هيروشيما من الوجود . . . ».

في هيروشيما ، مات على الفور حوالى ٧٨ ألف نسمة ، وفقد عشرة آلاف . وكان هناك ٣٧ ألف مصاب ، مات الكثيرون منهم ، أو أصيبوا بعاهات ، بسبب أشعة غاما . وقبل أن تقتنع اليابان بالاستسلام ، ألقيت قنبلة ثانية على ناغازاكي ، وقتلت أربعين ألفا آخرين .

اتُخذ قرار انتاج هذا السلاح الرهيب في الولايات المتحدة في أوائل الحرب ، بعد أن عُرف أن العلماء الالمان كانوا يعملون على تطوير ابتكار من هذا النوع . ومن حسن حظ

الحلفاء انهم هم الذين فازوا في السباق الذري ، وانتهت الحرب في أوروبا قبل أن يتمكن هتلر من اتمام وساطة القتل الجماعي هذه .

ليس ثمة شك كبير في أن هتلر كان سيستخدم هذه القنبلة لو أنه تمكن من اتمامها . وما زال الاشمئزاز الاخلاقي الذي أعقب قصف اليابان بالقنبلة الذرية يسود الاحاسيس حتى اليوم . بيد أن الحرب هي عمل بشع ، وليس ثمة كبير فرق بين الموت بالقنبلة أو الرصاصة أو النار أو الغاز أو اللهب أو الانفجار النووي . ولقد كان قصف المانيا ، ولا سيما الاعصار الناري الذي أُحرقت به هامبورغ ، كان في كل جزء منه يحمل بالنسبة الى الضحية الفرد الفظاعة نفسها التي حملها الموت الذي كيل الى اليابان في ذلك الصباح من شهر آب (أغسطس) .

انتهت الحرب العالمية الثانية بتعاظم العنف ، وذلك بانتحار طيارين من سلاح الجو الياباني ، وهم يندفعون بطائراتهم الحربية المحملة بالمتفجرات الى سطوح سفن الحلفاء . ووصل الجيش السوفياتي الى برلين لينفس عن نقمة رهيبة على وحشية الالمان في الجبهة الشرقية . وفتحت بوابات « بيلسن » Belsen ليخرج (بتهدل) الاسرى الاحياء من سجن « شانغي » Changi . لقد أسف العالم كله على الاحداث المدمرة التي جرت خلال السنين الست الماضية ، وأقسم ـ للمرة الثانية على الاقل ـ ألا تكون هناك حروب أخرى .

رغم شتى النوايا الحسنة ، وجدت القنبلة لتبقى . وصار لزاماً علينا أن نتعلم العيش معها . ومما لا ريب فيه أنها أحدثت تثويراً جديداً كاملاً في تطوير الاسلحة والتكتيكات . وبديهي أن أول ما تم التفكير فيه هو الوقاية . ومنذ الوقت الذي أخذ فيه التسلح بالتزايد حجماً وقوة ، بدأ يعم شعور العبثية (اللا جدوى) . وقد تفاقم هذا الشعور ، والى حد كبير ، عن طريق الاعباء الاقتصادية المتزايدة التي يخلقها تطوير الاسلحة . وغدا واضحاً أن الدولة الغنية هي وحدها القادرة على تحمل نفقات جيش فعال في العصر النووي . وعلى العموم ، فان هدف التكتيكيين هو تحقيق أفضل استخدام للقوة البشرية ، وللاسلحة المتوافرة تحت تصرفهم . ولتحقيق ذلك ، في ظل الدمار الجماعي ، استدعى الامر مزيداً من الحركية والوقاية . وهكذا ، صارت الجيوش كافة ، منذ العام ١٩٤٥ ، تعمل على تطوير تشكيلات مدرعة سريعة الحركة ، ومجموعات مختلف صنوف الأسلحة ، كل منها ذات اكتفاء ذاتي .

في أي صراع نووي ، ستتفاقم مشكلة الابقاء على معنويات الجندي المقاتل من خلال خطر الدمار الشديد على مناطق الشؤون الادارية الخلفية، وعلى الوطن .

عاد التوجه نحو الدفاع الى الظهور . ورداً على التهديدات السوفياتية ، برزت الاحلاف ، مثل حلف الناتو . وأُنفقت مقادير ضخمة من الأموال على تطوير الاسلحة النووية وانتاجها ، وعلى طرق القصف والدفاع الجوي . وبينما يظل هذا الوضع المحرج المكلف على حاله ، يتراجع دور التكتيكي ، الى حد ما ، ليأخذ الاستراتيجي مكانه . وكانت حرب كوريا هي التي أيقظت من جديد فكرة القتال التقليدي غير النووي .

وما كاد غبار الحرب يترسب ، حتى صارت تُسمع الدمدمات المتوعدة من الشرق ، مرة أخرى . ففي الساعة الرابعة من صباح الاحد في ١٩٥٠/٦/٢٥ بدأ تسعون ألف كوري شمالي ، ومعهم أكثر من مئة دبابة ، غزو كوريا الجنوبية . ورغم التحذيرات بأن هذا قد يحدث ، فقد بدا أن الكوريين الجنوبيين وأصدقاءهم الاميركيين قد أُخذوا على حين غرة . وقد وصف ذلك بأنه « حرب محدودة » ، رغم أنه لم يكن هناك الا حدود قليلة بالنسبة الى الطريق الشيوعي . وكانت تلك هي أول حرب يصطدم فيها جيش صيني ، على مستوى كبير ، مع قوة غربية ، وفيها يظهر الجندي الشيوعي الصيني ، رغم صلابته واعتماده على نفسه ، بأنه ليس ذاك الانسان الخارق (السوبرمان) .

ولحظة خشي الشيوعيون نفاذ صبر الاميركيين ، واحتمال أن تستخدم الاسلحة النووية ، سعوا نحو السلام . وخلال أشهر المفاوضات التي أعقبت ذلك ، نجح الصينيون والكوريون الشماليون في استعادة المناطق التي خسروها كلها تقريباً .

كانت تلك حرباً خاضها جيش ذو جنسيات متعددة ، وتابع لقوات الأمم المتحدة(*) ، في أراض جرداء وغير مضيافة . وسرعان ما وجدت القوات الاوروبية ـ الاميركية المتفوقة أن عليها أن تعدل الكثير من أفكارها ، وهي تقاتل بأسلحة الحرب العالمية الثانية وتكتيكاتها ، بالدرجة الاولى ، واكتشفوا أن القوات الصينية والكورية الشمالية عموماً لا تتقن الحرب الآلية ، رغم كفاءتها في معظم الأحيان في تنفيذ التحرك ليلاً على نطاق واسع ، وفي التمويه الجيد . لكن الصحيح أن قوات الامم المتحدة قد ارتكبت بعض الاخطاء المبدئية ، ذلك أن التصاقها بالطرق غالباً ما جعلها معرضة لحركات التفاف العدو ، الذي كان يسير محاذياً لخطوط الذرى وقمم التلال .

كانت آلة الدعاية الشيوعية من الجودة بحيث كرست الاعتقاد ، حتى في بعض القطاعات الغربية ، وفي الوقت الحاضر ، بأن القوات الصينية كانت منتصرة في كوريا ،

(*) من ناحية عملية، كانت هذه قوات أميركية، ليس فيها غير قلة من جنسيات أخرى.

المعرب

ولا يمكن قهرها . وهذا غير صحيح البتة ، والواقع أن قوة نيران جيش الامم المتحدة وحدها قد تغلبت على مليون عنصر من خيرة ما يمكن أن تنجبه الصين من قوات .

كانت الجيوش الشيوعية تعمل تحت الاشراف المباشر لمفوضيها السياسيين . وكان مستوى تدريبها منخفضاً . ومجال مباداءاتها محدوداً . ومن المعتقد ان ما يسمى بالتكتيكات « الجماعية » ما هي الا نتائج جنود متخلفي التدريب ، يندفعون معاً (متكتلين) أثناء تقربهم من الهدف . أما في الغرب ، فكان الجنود يُنبهون باستمرار الى المحافظة على فرجة من ٤ ـ ٥ أمتار بين الواحد والآخر في مختلف الاحوال . الا أن النقص في وسائط الاتصالات يمكن أن يكون قد فرض ضرورة أن تظل القوات الشيوعية متقاربة . ومن جهة أخرى ، يمكن اعتبار أن الشيوعيين كانوا يحاولون تركيز قواتهم على نقطة ما وحسب ، عندما كانوا يهاجمون تشكيل قوات الامم المتحدة ، وكانوا يأملون بذلك ان يدقوا إسفيناً عبر المواقع الدفاعية . وكانت قوات الامم المتحدة تجد نفسها ، في مواجهة هذه التكتيكات ، غارقة في بحر من القوى البشرية لا يمكن صده حتى بأفدح الخسائر . ووجدت قوات الامم المتحدة أن أسلحتها متخلفة ، وأنها بحاجة الى بنادق سريعة الطلقات وقصيرة المدى ، والى ألغام صغيرة معوقة وخفيفة ، والى المزيد من الذخائر في الخطوط الامامية . وكانت المؤخرة هي التي تتحسس الخطورة الحقيقية لتسلل عملاء « الطابور الخامس » . أما من حيث ما وصل اليه الدفاع السكوني ، فلم يكن هناك سوى القليل من الدروس التي لم يكن قد تم تعلمها في الماضي ، أيام حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

لقد تم خوض الحرب الجوية في كوريا بطيران أحدث وأقوى مما كان مستخدماً في الحرب العالمية الثانية. وكما كان عليه الأمر أيام «دوهيه»، كانت هناك مدرسة فكرية تعتقد بأن القوة الجوية قادرة وحدها تقريباً على انهاء الحرب. ولكن على الرغم من أن القوات الجوية الاميركية كانت تملك التفوق الجوي المطلق، وكانت قادرة على قصف أي موقع تختاره، فقد استمرت الامدادات والتعزيزات بالوصول الى جبهة العدو.

كان هناك عزوف عن مهاجمة الاهداف الاستراتيجية ، مثل السدود المهمة على نهر « يالو » Yalu . وفي حال تدمير هذه السدود ، من المؤكد أن مشكلة امداد العدو كانت ستصبح أكثر صعوبة . وكانت الامم المتحدة(*) تأمل باستمرار أن تجر الشيوعيين الى طاولة

(*) إن الإصرار على تسمية تلك القوات «بقوات الأمم المتحدة» هو تجاوز للواقع.

المعرب

المفاوضات . لذا كانت تعارض تدمير المنشآت التي سيصبح بناء غيرها ، بعد انتهاء الحرب ، أمراً صعباً ومكلفاً . وفي الجو ، أصبحت الحوامة عربة عسكرية مهمة . وكان نجاحها في كوريا هو الذي جعل الولايات المتحدة تركز على تطويرها ، لتثبت ، فيما بعد ، أهميتها الكبيرة في جنوب شرق آسيا .

١٩) الدروع تتطور

بينما كانت الجيوش المدرعة المتحركة تتطور ، برزت مسألة القيادة والسيطرة . وكان قد تم تحقيق تقدم ملموس في حقل الاشارة العسكرية ، منذ العام ١٩١٨ . ثم أصبحت جيوش الستينات مزودة بمستوى من الاجهزة اللاسلكية لم يكن معروفاً آنذاك . وفي الوقت الحاضر ، ما تزال الادوات الالكترونية ، وفي طليعتها الحواسب ، (كومبيوتر) آخذة في التحسن .

من أجل قهر معتد مدرع صار لا بد من أن يكون الدفاع أكثر حركية ، ومعتمداً على الاستخدام الماهر للعوائق الارضية . ولكي تكون العوائق فعالة ، لا بد من تغطيتها بنيران مراقبة . وهكذا ، ومن جديد ، طُلب من العلماء العسكريين أن يجدوا طريقة لزيادة مسافة المدافع ودقتها .

بعد النقد الذي وُجه الى الدروع البريطانية ، في الحرب العالمية الثانية ، أجريت مناقشات مطولة لمستلزمات المستقبل . ووُجد أن من الضروري توافر هذه « الوحوش » المكلفة ، بأعداد كبيرة ، خلال الصراع ، وخلال السلام الذي يليه . وصار لا بد من أن يطمئن الجيش الى حصته الكبيرة في التمويل .

ظلت أهمية الدبابة ، ولسنين عديدة ، تعتبر كامنة في درعها الواقي . وقد يطرح

النقاد أن قيمة الدبابة قد تقلصت ، ما دام مستطاعاً خرقها بالاسلحة المضادة للدبابات ومن جهة ثانية ، فاننا نشهد ، وخاصة في العصر النووي ، أنه ليس هناك شيء آمن كلياً ويحاول المصممون ، اليوم ، أن ينتجوا دبابة أكثر حركية ، ومن ثم ذات قدرة على حمل سلاح ثقيل ، والتحرك به بسرعة ضمن ساحة المعركة . ولا بد من ايجاد توازن بين قوة النار والحركية والوقاية . والهدف الاصعب للدبابة هو دبابة أخرى ، وبالتالي فان للقدرة على تدمير الدروع المعادية الاعتبار الاول في تصميم الدبابات . ويجب أن تكون التشكيلات المدرعة قادرة على مجابهة قوات كبيرة غازية من عربات قتال العدو المدرعة ، لأنه من المؤكد أن هذه ستشكل رأس حربة الاعتداء في مناطق متعددة من العالم . وسهول ألمانيا الشمالية ، بشكل خاص ، ملائمة جداً من أجل حرب الدبابات .

كانت مدافع دباباتنا في العام ١٩٤٠ أخف بكثير من أن تثبت فعاليتها ضد الدروع الالمانية . ويجب أن يكون مدفع الدبابة قادراً ، قبل كل شيء ، على اصابة الهدف وهذا يعتمد الى حد كبير ، على مهارة السدنة وتدريبهم ، وعلى الدقة في تقدير المسافات . فالدبابات الاسرائيلية ، من نوع « سنتوريون » ، ونتيجة للمستوى الرفيع في التدريب بالدرجة الاولى حققت نتائج مدهشة في حرب الايام الستة ، عام ١٩٦٧

المدافع الحديثة ، التي تطلق قذائف بسرعة عالية جداً ، وذات محرك مستقيم ، تعطي احتمال اصابة أكبر من المدافع ذات السرعة الادنى ، والمحرك الاكثر انحناء . ومن جهة ثانية ، فان للمدافع ذات السرعة العالية تراجع كبير ، وتتطلب قاعدة (عربة) أثقل وزناً . والدبابة ذات السرعة العالية هي مقذوف صلب ، مصنوع من معدن قاس للغاية ، مصمم من أجل فتح ثغرة في درع العدو . وتُستخدم المتفجرات في الذخائر ذات السرعة الاقل ، وتحدث ـ بطريقة أو بأخرى ـ ثغرة في الهدف . والشيء الاهم في هذه المسألة هو أن اصابة الهدف لدى امكانية رميه بشكل مباشر ، أسهل مما لو كان لا بد من اسقاط القذيفة عليه . وعند الرمي المباشر يكون الخطأ في تقدير المسافة أقل أهمية ، أما في اسقاط القذيفة ، البطيئة السرعة ، فان الخطأ في التقدير ، حتى ٥٠ متراً ، يعتبر عدم اصابة . وعلى المسافات التي تتجاوز الالف متر ، وفي خضم المعركة ، يكبر احتمال ارتكاب مثل هذا الخطأ البسيط . ويمكن أن تحدث مثل هذه الاخطاء في الاجهزة الآلية الحديثة ، الخاصة بتقدير المسافات ، لذا فان المدفع ذا السرعة العالية يبقى هو الأدق .

ظل من المعتقد ، حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ببضع سنين ، أن مسافه الالفي متر ستظل هي المدى الاقصى في معارك الدبابات . ولكن هذه المسافة زادت على

الثلاثة آلاف متر من أجل التفوق في المدى على الخصم . وكان في حرب الايام الستة درس حاث على هذا المطلب ، ولو أنه لا يزال هناك شك في عدد مرات قدرة الدبابة على التقاط الاهداف (احكام التسديد) على مثل هذه المسافات .

من أجل زيادة مسافات تدمير الدروع المعادية، كان هناك ، ومنذ الحرب ، توجه نحو تكبير مدافع الدبابات . وعلى العموم ، فان زيادة عيار المدافع ذات السرعة العالية قد ولد احتمال ارتداد أثقل بكثير . وهذا ، بالتالي ، يعني زيادة أوزان الدبابات . وان يضف المزيد من التدريع ، في الوقت نفسه ، تصبح العربة أقل حركية ، وربما تصبح غير قادرة على عبور الجسور القائمة حالياً .

لذا ، كان لا بد من استبدال « الفارس » بدروعه هذه بشيء ما ، مساو في فعاليته ، ولكنه أخف وزناً . وفي الخمسينات ، قرر الجيش الفرنسي استخدام دبابات أخف ، وأكثر حركية ، وترمي مقذوفات ذات سرعة عالية ، ينتج عنها ارتداد أقل ، ويعتمد على قذائف « مجوفة الشحنة » وهذه القذائف تخترق صفائح التدريع بمجرد انفجار الشحنة شديدة الانفجار . وعلى هذا الاساس ، استطاع الفرنسيون انتاج الدبابة » أ . م . اكس ـ ٣٠ » (AMX-30) ، التي تزن ٣٢ طناً فقط ، مقابل آخر دبابة بريطانية ، « الشيفتن » Chieftain ، التي تزن أكثر من خمسين طناً . وجهزت الدبابة « أ . م . اكس ـ ٣٠ » بقائس مسافة بصرى لمساعدة الرامي ، بيد أنه لم يكن موثوقاً كالقائس الذي يعمل بأشعة « ليزر » ، الذي يجرب الآن من أجل دبابات المستقبل[٧٣] .

أصبح الآن تجهيز عربات القتال المدرعة بالصواريخ الموجهة أمراً عادياً في مختلف جيوش العالم . ونظراً لمحدودياتها المتعددة ، فان الجيل الأول من هذه الصواريخ لا يمثل البديل العملي لمدفع الدبابة .

ولا يحتاج الصاروخ الموجه الصغير ، مثل « ڤيجيلانت » Vigilant الا إلى مساحة بسيطة لمعدات اطلاقه وتوجيهه . ولكن الصواريخ معقدة ومكلفة وقليلة المرونة . لذا لا بد من ايجاد مجال اضافي ضمن الدبابة كي تحمل عدة صواريخ موجهة . والصواريخ ذات حساسية لا تمكن من وضعها في الخارج . فقد يتحتم على الدبابات أن تستخدم مدافعها للاشتباك مع أهداف متنوعة(تجمعات بشرية ،عربات، بنايات ، دبابات ،) وتحمل ذخائر

---

(٧٣) كان ذلك قبل أن توضع « أشعة ليزر » في الاستخدام القتالي الفعلي .

المعرب

متنوعة من أجل هذا الغرض . ولن تكون سهلة مسألة تغيير الرأس المتفجر في الصاروخ ، كما أن الصواريخ لا تجهز « بعلب » منثار لاستخدامها ضد كتل المشاة . وطيران الصاروخ الموجه بطيء . لكن تمكين العامل على الصاروخ من التحكم به يستلزم بضع ثواني طيران . لذا فان للصاروخ مسافة دنيا لا يمكن الاستفادة منه ضمنها . واعادة التلقيم في الصواريخ عملية أبطأ منها في المدافع ، بالاضافة الى ان كل صاروخ يكلف بضعة آلاف من الجنيهات .

تكتيكياً ، الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات ، الموجودة حالياً ، ملائمة لان تستخدمها المشاة في الدفاع ضد الدبابات ، على مسافة بعيدة ، وفي الاراضي المفتوحة ، عندما لا يملك الهدف امكانية الاختفاء خلف ساتر أثناء طيران الصاروخ .

من جهة ثانية ، أصبحت صواريخ السبعينات ، المضادة للدبابات ، أصغر حجماً ، وأسرع ، وذات توجيه نصف آلي يحقق لها المزيد من الاستغناء عن التوجيه اليدوي . وفي حال وجود نظام جديد وحيد ، تكون منصة الصواريخ قادرة على اطلاق صواريخ تقليدية غير موجهة ، مما يزيد الى حد كبير تنوع هذا السلاح . يقال ان مثل أنظمة الصواريخ الموجهة هذه تؤمن ، نظرياً ، احتمال اصابة عالياً . وسيعني هذا امكانية تصنيع دبابات أخف وأكثر حركية . وبوجه عام ، هناك مسائل تقنية قائمة ، ولا بد من اثبات امكانية الاعتماد عليها في ساحة المعركة . وفي حال التركيز على استخدام قنابل ذات حشوة جوفاء ، تصبح هناك خطورة الا يحتاج العدو الى تدريع دباباته الا لمواجهة هذا النوع من الهجوم . اذ من السهل جداً تصميم درع دبابة يُعرف أنه لن يُستخدم ضدها الا شكل واحد من الهجوم . ومن ناحية ثانية ، يمكن أن تصنع الصواريخ الموجهة بشكل يجعلها قادرة على زيادة حملها من المتفجرات الى حد كبير . ومن الصعب جداً أن نتصور ، في نهاية المطاف ، دبابة يمكن أن تكون محصنة ضد هكذا أسلحة . والصواريخ الموجهة لا تؤمن ، حالياً ، بديلاً مقنعاً تماماً للمدافع ذات السرعة العالية ، المدافع القابلة للمزيد من التطوير ، خصوصاً في حقل زيادة السرعات الابتدائية . واصابة الهدف وحدها لا تكفي : لا بد من خرق الدرع ، بحيث تكون الاضرار الداخلية قاتلة .

لقد بذل العديد من المحاولات الرامية الى ايجاد طريقة تبقي على قوة نيران الدبابة وحركيتها ووقايتها ، مع الاقلال من وزنها . وليس هناك ، حتى الآن ، الا نجاح محدود في هذا الاتجاه ، رغم أن دروعاً من خلائط الالمنيوم قد استخدمت في ناقلات الجند المدرعة ، والدبابات المنقولة جواً . وقد يصبح من الممكن صُغر الدبابة بتطوير محركات أكثر تضاماً ،

ولكن ليس بمقدورنا الاقلال من سرعتها أو تدريعها . والغريب أن من الصعب جداً زيادة سرعة الدبابات على الطرق غير المعبدة . فأي امرىء قدر له أن يركب ذات يوم في احد هذه الوحوش المخيفة ، وهو يسير بسرعة كبيرة ، سيدرك أن هناك حدوداً لما يمكن للبنية البشرية أن تتحمله من قسوة مثل هذا الركوب .

ورغم أن تحسين أجهزة التعليق يمكن أن يساعد على ذلك ، الا أنه من غير المحتمل أن تتمكن الآلة القتالية ، المفروض عليها أن تتحرك متماسة مع الارض ، من السير بأسرع من ذلك . فالمشاكل الناتجة عن الوزن تتحكم ، الى حد كبير ، بحركية الدبابة . ولكن رغم امكانية تخفيف وزنها ، فان ذلك محدد بنوع المدفع الموجود . والحل الممكن هو استخدام المدفع عديم التراجع على هيكل مدرع . فهو سلاح خفيف ، ولا يفرض على العربة « حملاً نارياً » (الجهد الناتج عن عملية الاطلاق) لدرجة أن قذيفة متفجرة ذات سرعة بطيئة ، وامكانية خرق جيدة ، يمكن أن تطلق حتى من على ظهر عربة صغيرة (لاند روفر) . ولسوء الحظ ، فان مدى المدافع عديمة التراجع محدود ، ونادراً ما تكون فعالة على مسافة تزيد على ٨٠٠ متر . وذخائر هذه المدافع ثقيلة ، ويتولد عن اطلاقها وهج خلفي كبير من الصعب للغاية اخفاؤه . ومن جهة ثانية ، فانها كسلاح يستخدم على مسافة قريبة ، ومن عربة خفيفة ، تملك الكثير مما يحض على استخدامها . ومن الممكن أن يصبح هذا النوع من المدافع ملائماً للاستخدام من عربات قتال من نوع « الطوافات » (Hbvercraft) حيث يكون كل نوع من التراجع غير مقبول .

منذ الحرب العالمية الثانية ، وحتى الآن ، أدخلت تحسينات كبيرة على معدات الرؤ ية الليلية . وقد قضى الجيش السوفياتي نسبة كبيرة من أوقاته وهو يتدرب على القتال والتحرك تحت ستار الظلام . فجهزت دباباته ، والعديد من عرباته الاخرى ، بأجهزة أشعة تحت الحمراء التي تمكن السائقين من الرؤ ية لمسافة قصيرة في الليل . كما جهزت دروعه بأجهزة كشافة تعمل بالاشعة تحت الحمراء بالامكان استخدامها لانارة الاهداف أمام مدفع الدبابة . ومن الممكن استخدام الكشاف نفسه لانتاج شعاع مبهر من النور الابيض . وقد يخيل للمرء أن هذا الجهاز سيجتذب فوراً النيران المعادية . ولكن من الصعب جداً اصابة كشاف ينار لبضع ثوان فقط كل مرة ، من على دبابة يمكن أن تنتقل فيما بين نوبات الاضاءة . واستخدام الاشعة تحت الحمراء يحمل الكثير من الخطورة ، لان العدو سيلجأ حكماً الى استخدام كاشف الاشعة تحت الحمراء ، وسيتمكن فوراً من كشف كافة مصادر هذا الضوء ، بما في ذلك العوادم الساخنة ، ومصابيح الاشعة تحت الحمراء .

وهناك مسألة أخرى في هذا المجال ، وهي أن من الممكن توجيه الصواريخ نحو مصادر هذه الاشعة .

الدبابة ، رغم احتمائها بدرعها ، ورغم ما فيها من أجهزة رؤية ليلية ، هي حساسة للغاية ، بعد هبوط الظلام ، وتحتاج الى وقاية من قانصي الدبابات المعادية .

هناك خلاف الآن حول الاستخدام التكتيكي لناقلات الجند المدرعة ، وحول أفضل أساليب الدفاع ضد الناقلات . فاستخدام مدفع مضاد للدبابات من أجل تدمير حاملة قوات خفيفة التدريع هو كاستخدام المهدة (مطرقة ثقيلة) لكسر حبة جوز . ومن الضروري الحفاظ على الذخائر م / د الحيوية لمقاومة « الفيلة » . ولكن لا يوجد الآن صواريخ أقل كلفة ، ولها من القدرة فقط ما يكفي لخرق « الترس » .

الجيوش الحديثة المتطورة كلها تستخدم ناقلات جند مدرعة مجنزرة ، أو ذات عجلات ، لحمل المشاة في ميدان المعركة . ويشكل الاستخدام التكتيكي لهذه العربات ، في الهجوم ، سمة هامة من سمات الحرب الحديثة .

لقد ظهرت عقيدتان مميزتان لهذا الاستخدام التكتيكي ، تبنت احداهما بريطانيا ، والاخرى ألمانيا الغربية ، فالعربة تستخدم ، من وجهة النظر البريطانية ، فقط كوسيلة مدرعة للنقل حتى الهدف . بيد أن الالمان يعتقدون بوجوب القتال الفعلي من الناقلات المدرعة ، عند الضرورة . وترى المدرسة الفكرية البريطانية أن الناقلات هي ، بالاصل ، عربات نقل ، وتفترض أن عملها الاساس هو نقل المشاة نحو الأمام من أجل الاشتباك وهي راجلة ، وتحمل القوات في « صندوق » ذي أحفة عالية نسبياً ، يركب عليه مدفع رشاش ، هو سلاحه الوحيد . ولا تستطيع غالبية الجنود أن ترى الارض التي يتحركون فوقها ، ولكنهم يتلقون المعلومات بايجاز من قائد الجماعة ، بوساطة مكبر صوت داخلي .

لدى توافر دبابات لتقديم الدعم القريب ، فانها تُدفع عادة أمام الناقلات حتى الهدف ، ويجب أن يكون هدف الدبابات والناقلات ، كلتيهما ، الوصول الى موقع الترجل في اللحظة نفسها . وتترجل المشاة عادة عند الهدف ، اذا كانت الارض ونيران المدافع تسمحان بذلك . وعندما يستحيل هذا ، ينفذ الترجل (النزول) في منطقة يرجح ألا تكون ملغومة ، ومنتقاة كهدف لمدفعية العدو . وآنذاك ، تشق المشاة طريق تقدمها ، حتى الهدف ، مستخدمة السواتر ، وتكتيكات النار والحركة . وما أن تترجل الجماعات حتى تعمد الناقلات المدرعة اما إلى البقاء عند الهدف ، لتقديم غطاء ناري بمدافعها الرشاشة واما إلى الانسحاب إلى نقطة قفل متفق عليها، وبشكل مستور. وقد يكون موقع الترجل

مخططاً مسبقاً ، أو محدداً من قبل القائد ، بوساطة اللاسلكي ، ساعة بدء الهجوم .

قد تبقى الاحتياطات ضمن الناقلات المدرعة ، حيث تكون محمية ، وعلى الاتصال ، بحيث يمكن أن تتحرك بسرعة الى أية نقطة خطرة في الهجوم .

هذه الطريقة البريطانية تزيد الحركية العامة للمشاة ، ولكنها تفرض أن تخوض قتالها كله على الاقدام . ولم يدرج في حسبان هذه الطريقة امكانية استخدام الاسلحة الفردية من داخل العربة ، رغم أن أسلحة الدعم العادي كلها تطلق من ناقلات الجند المدرعة .

لقد طُور مدفع ، يركب في برج ، من أجل العمل ضد ناقلات الجند المدرعة ، ويقدم المدفع زيادة أساسية على قوة نيران الفصيل . ومن جهة أخرى ، لا تبذل أي محاولة ، في الوقت الحاضر ، لفتح كوى لتستخدم منها الاسلحة الفردية .

اتبع الجيش الاميركي ، بشكل عام ، التكتيكات نفسها التي استخدمها البريطانيون في قتال ناقلات الجند المدرعة . وعربتهم مشابهة جداً للنماذج البريطانية . أما الآن ، فقد جعلتهم تجربة فيتنام يزيدون القوة النارية للناقلات ، وذلك بتعزيز المدفع الرشاش بأسلحة أخرى آلية خفيفة . وما أدخل على هذه الناقلات ، من كوى لاستخدام الاسلحة الفردية ، واضافة استخدام قواذف عيار ٤٠ مم ، وقاذفات اللهب ، وأسلحة الدعم ذات الاعيرة الاثقل ، هذا كله يشير الى تغيير في السياسة المتبعة لخلق عربة قتال المشاة : وبكلمة أخرى ، عربة تقاتل المشاة فعلاً من داخلها .

ترى مدرسة ألمانيا الغربية الفكرية وجوب أن تكون ناقلات الجند المدرعة عربات تستطيع المشاة أن تقاتل من داخلها أثناء الحركة ، ولا تترجل منها الا عندما يصبح هذا ضرورياً . ولقد طور الالمان الغربيون الناقلة بشكل يتفق مع هذا المبدأ ، واهتموا كثيراً بخفض هيكل الناقلة ، وامالة صفائح تدريعها لتقليل تعرضها للاصابة . وبوسع شاغليها جميعاً أن يستخدموا أسلحتهم الفردية ، كما جهزت العربة بمدفع آلي ذي برج . وهذا كله يمكن الناقلة الالمانية الغربية من العمل كعربة قتال مشاة ، ومن الاشتباك وهي تتابع تقدمها ما دامت الضرورة لا تدعو الى الترجل . وبالمقارنة مع هذه ، هناك بعض الناقلات الاخرى ، الاكثر تعرضاً للاصابة ، بسبب ارتفاع هيكلها ، وعدم قدرة طاقمها على استخدام أسلحتهم الفردية في الدفاع القريب .

« لصندوق التنك » ، ناقلة الجند المدرعة ، فضائلها الذاتية . ولكن هناك الكثير مما يقال حول المنحى الالماني الغربي . وتركيز الالمان على الدور القتالي لعربات المشاة المدرعة

مدعوم بخبرة عملية مشهودة . فالنقص في الدبابات ، والمعدات الاخرى ، ابان المراحل الاخيرة من الحرب العالمية الثانية ، فرض عليهم ضرورة الاستثمار الاقصى لما كان لديهم ، كما دفعتهم الحاجة الملحة الى تحقيق نجاح بارز في حقل مجموعات القتال المتحركة المجهزة ، الى حد كبير ، بعربات مشاة مدرعة من نوع « عربات قتال المشاة » . وكان هذا بالذات هو الوضع أثناء العمليات المتحركة على الجبهة الشرقية ، في الاراضي السوفياتية ، حيث كانت عربات قتال المشاة تستخدم ، عادياً ، من أجل القتال الراكب المتحرك . ورغم هذه التجربة ، فان الناقلة الالمانية الغربية تعاني من النقص في امكاناتها البرمائية ، نقص يمكن أن يشكل فعلاً سلبية خطيرة في الحملة التي تعتمد على سرعة الحركة .

ويفضل الجيش السوفياتي أيضاً مفهوم « عربة قتال المشاة » . ولكنه يبدو أكثر من الالمان الغربيين تحبيذاً للترجل . فعندما تواجه المشاة دفاعاً قوياً ، تترجل على مسافة ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ متر من العدو ، وتتقدم حتى حوالي ١٠٠ متر خلف الدبابات ، مدعومة بنيران رشاشات ناقلات الجند المدرعة ، ونيران تغطية أخرى ، وفي حال التعثر ، تتحرك المشاة الى الامام . والسوفيات ، كالالمان الغربيين ، يرون وجوب دعم الجماعة بنيران ناقلاتها المدرعة . ونتيجة لذلك ، فان عرباتهم مزودة بأسلحة هامة .

السوفيات ، بحكم كونهم منافساً طليعياً في الحرب المتحركة ، واعون حتى أقصى حد ، ضرورة أن تكون ناقلات الجند المدرعة عربات برمائية ، وأن تسير عرباتهم بوحدات دفع نفثي مائي من أجل عبور الانهار السريعة . والتركيز في تصميم الناقلات على شكل قوارب جعلهم يتلافون الابواب الخلفية ، ومشاكل الوقاية من المياه الناتجة عن ذلك . وعلى هذا الاساس ، صممت المخارج فوق الاجناب ، وغالباً ما تكون العربات مفتوحة من الاعلى . وهذا يقلل ، الى حد كبير ، الوقاية الممكنة للافراد ، الا انهم يدركون أن من الممكن تركيب غطاء علوي واق . والتصميم المفتوح من الاعلى يسمح ، بشكل عام ، لشاغلي العربة برؤ ية ما يحدث بشكل دقيق ، ويمكنهم من استخدام أسلحتهم بما لا يكاد يذكر من معيقات . وللمحافظة على مستوى جيد في دقة الاسلحة الفردية ، يخضع الجنود السوفيات لتدريب واقعي ، يتضمن نماذج هيكلية للناقلات ، تهتز وتلوح فيما يكون شاغلوها مشتبكين مع الاهداف .

ويبدو أن الفرنسيين تبنوا حلاً وسطاً . ورغم أن ناقلاتهم المدرعة مصممة على أنها عربات قتال ، فهم يقاتلون راجلين ، أغلب الاحيان . وهم يعتقدون أن السرعة في الترجل أمر أساس ، ويتدربون على تنفيذ ذلك والعربة متحركة . وعند الضرورة ، تقاتل المشاة المدرعة الفرنسية من عربات قتال المشاة . ولكن هذا لا يرجح الا عندما تكون

المقاومة خفيفة . ويمكن استخدام رشاش الناقلة في دعم المشاة وهي تترجل . ولكن دور العربة الأولي هو التمكين من سرعة المناورة .

في بعض المناسبات أجرى الفرنسيون تجارب على « دبيبات » صغيرة ذات هيكل منخفض ، ويشغلها طاقم مؤلف من اثنين فقط . وكانت هذه تبدو وكأنها أحد أشكال عربات قتال المشاة . بيد أن التأثير الوحيد الذي خلفته هو تخفيض هيكل ناقلة الجند المدرعة الفرنسية .

للترجل من أجل القتال سلبياته . فاذا ما تقدمت ناقلة الجند المدرعة حتى الهدف ، أصيبت بسلاح م / د ، هناك احتمال كبير بأن يتحول طاقمها كله الى خسائر . بيد أن من الممكن تحاشي ذلك بأن ينفذ الترجل خارج هذا المدى . وتستطيع المشاة شق طريقها عبر مواقع العدو بالطريقة التقليدية ، دون ان تتأثر بنيران الـ م / د ، ومع القدرة على التعامل مع مثل هذه الاسلحة أثناء تصديها للدبابات . وتقدم النيران الاضافية الصادرة عن رشاش الناقلة دعماً قيماً لجماعة المشاة . واحتمال أن تغيب الجيوب المعادية الصغيرة عن أنظار المشاة الراجلة أقل من احتمال غيابها عن الراكبين في الناقلات . ولحظة الاستيلاء على الهدف يصبح هناك خطر هجوم معاكس فوري . والمشاة الراكبون في الناقلات هم اكثر عرضة للخطر الذي قد يصدر عن نيران الاسلحة م / د بعيدة المدى ، بينما يستطيع الجنود الراجلون أن يحتلوا بسرعة موقعاً دفاعياً مستوراً ، من أجل التمسك بالارض ، كما يستطيعون التقدم بسهولة عبر معظم أنواع الاراضي .

وفق المبدأ البريطاني ، هناك خطورة أن تصل المشاة دون أن ترى الارض ، فتدخل في خضم المعركة بشكل مفاجىء . وهي معرضة ، لاقصى حد ، لخطر الكمائن في الاراضي المغلقة . ويمكن للعوائق البسيطة ، كحاجز سلكي مخفي ، أن يعرقل عملية الاقتحام . كما يمكن لعملية التوقف من أجل الترجل أن تقضي على الزخم الحيوي الضروري لعمليتي المفاجأة والصدمة . وقد تكون هذه الثواني القليلة كافية لكي يسترد العدو وعيه ، ويفتح النار بأسلحة مشاته هو .

وللقتال المحمول أيضاً مميزاته . وما لا بد من تقبله هو أنه في مواجهة موقع معاد قوي ، مجهز تماماً بأسلحة مضادة لناقلات الجند المدرعة ، يكون من التهور اللجوء الى الهجوم المحمول . ومن ناحية أخرى ، هناك أوقات قد يكون فيها لمثل هذا الهجوم مميزات عديدة . ففي حال قدرة الاطقم على الرؤ ية ، واستخدام اسلحتهم الفردية ، سيصلون الى هدفهم بسرعة عالية ، مشكلين بذلك هدفاً صعباً بالنسبة الى الاشتباك القريب

بالاسلحة المضادة لناقلات الجند المدرعة ، ومحصناً ضد نيران الاسلحة الصغيرة . ويصبح بمقدور الاطقم ، عن طريق استخدام الاسلحة الآلية ، وامكانات الناقلات في حمل ذخائر كثيرة ، اكتساح الهدف بنيران غزيرة ، ودقيقة الى حد كبير . وبما أنهم على اتصال لاسلكي دائم ، يصبح الاقتحام مرناً للغاية ، ويصبح بوسعهم الحفاظ على زخم الاقتحام ، بتغلبهم على الاسلاك الشائكة والعوائق الصغيرة . ولدى اعادة التنظيم يمكن أن يكون مدفع الناقلة بحد ذاته ذا قيمة في صد الهجمات المعاكسة.

تعتبر ناقلة الجند المدرعة عموماً ، هدفاً كبيراً ، ومعرضاً لخطر الالغام ، وزجاجات المولوتوف والاسلحة البدائية المضادة للدبابات. لذا فان الاقتحام المحمول لعدو يتميز بالشجاعة ، ولكنه ضعيف الاعداد ، وفي ارض مستوية ، يمكن أن ينطوي على خطورة تفوق خطورة الهجوم الراجل . فالكوى ، والسقف المفتوح ـ وهو الاسوأ ـ يقللان من وقاية الاطقم ، بالاضافة الى خطورة أنه قد يصبح الراكبون غير راغبين في التخلي عن الأمان الذي توفره لهم ناقلاتهم المدرعة ، وينزعون إلى استخدام هذه الناقلات كدبابات خفيفة . . . وهي مصممة من أجل هكذا مهمة . والهجوم المحمول ، مثله كمثل خيالة العام ١٩١٨، لن يكون صحيحاً إلاّ إذا لم تكن هناك عوائق تستطيع ايقاف العُربات على مقربة من الهدف، حيث يكون بوسع المدافعين نسفها.

من العسير ، والعالم على ما هو عليه من تنوع في صراعاته ، تفضيل تقنية واحدة معينة ، واستخدامها من أجل شتى الوقائع . وبالنظر للتضارب في طبيعة الحرب الحديثة ، يصبح خطراً الاصرار على وجوب أن تقاتل المشاة دائماً وهي راجلة . وقد يكون من الحكمة تبني منهج أكثر مرونة . ومن الممكن تعديل التكتيكات بسرعة ، الا أن تصميم الناقلة المدرعة وانتاجها بشكل ملائم للتكتيكات يستغرق سنوات .

كيما تتلاءم ناقلة الجند المدرعة مع المفاهيم التكتيكية المتغيرة ، لا بد لها من أن تتسم بعدد من الملامح . فيجب أن تكون ذات قدرة على دعم الجماعة عندما تترجل ، وأن تدعمها بنيران مضادة للناقلات المدرعة ، ان امكن . والمشاة تتطلب دعماً بالاسلحة الثقيلة ، ويفضل أن تكون هذه الاسلحة قادرة على الرمي من العربات . ومن الممكن أن تعمل زيادة أسلحة اضافية على زيادة الارتفاع الاجمالي للناقلة . لذ يجب أن يظل ارتفاعها الاصلي على اقل مستوى ممكن ، للمساعدة على الاختفاء ، وتقليل التعرض للخطر .

لمصلحة تكيف أفراد الطاقم مع الظروف المحيطة ، وللابقاء على معنوياتهم وقوتهم النارية ، يجب أن تجهز كوى الناقلة بشيء ما . يجب أن يركب نوع معين من الاغطية

المحكمة السد لاستخدامه في حال التعرض لهجوم نووي او غازي . وفي الوقت نفسه ، يجب استخدام جهاز تكييف هواء . ويبدو أن استخدام عدة مناظير (بريسكوب) هو أمر مكلف لقاء حل مشكلة بسيطة . كما يجب أن يسمح تصميم الناقلة لشاغليها باستخدام أسلحتهم أثناء التحرك ، وبالمراقبة في جميع الاتجاهات .

اذا كان لا بد من أن تعمل الدبابات والناقلات معاً ، يصبح من المهم أن يكون أداء الناقلة خارج الطرق مماثلاً لاداء دبابة القتال . فالناقلة التي تسير على عجلات هي أسرع على الطرق ، أما للسير خارجها فتعتبر السلاسل (الجنازير) ضرورية ، ولو أن المعترف به هو أن العجلات أطول من السلاسل عمراً ، وأقل منها ضجيجاً وتعرضاً للاعطال . وفي الحرب المتحركة يجب أن تكون الناقلة المدرعة برمائية تماماً ، والا فستكون معتمدة في عبور الانهار على امكانات المهندسين المحدودة ، اللازمة أصلاً للدروع كافة .

أصغر وحدة قتالية فرعية في الجيش البريطاني هي الجماعة . وليس من الفطنة توزيعها على ناقلتين أو ثلاث . وكل عربة لازمة لنقل أكثر من جماعة يرجح ان تقل فيها الوقاية ، ويزيد حملها الاجمالي الذي يستلزم محركاً أقوى وسلاسل أعرض ، لتؤمن حركية جيدة . وهذا بدوره يجسد هدفاً أكبر ، وأكثر تعرضاً للاصابة . ومن جهة أخرى ، يجب ان تكون ناقلة الجند المدرعة من الوسع بحيث تستطيع حمل مؤن تكفي الجماعة مدة يومين دونما تزود من جديد . ويرجح أن تمثل لوازم اليومين أقصى ما يمكن أن يقدره المرء لكمية تحملها الجماعة في المرة الواحدة .

يجب أن تقي ناقلة الجند المدرعة راكبيها من نيران الاسلحة الصغيرة ، ومن شظايا القنابل . كما يجب أن يُقلص – حتى الحد الادنى – التأثير المحتمل للغاز أو الاسلحة النووية . ويبدو أن من المفضل وجود باب خلفي للترجل . وقد يكون الاسرع أن تترجل الجماعة من فوق الاجناب ، الا أن هذا الوضع سيقلل الوقاية من فوق .

ومفهوم أن المشاة الميكانيكية يجب ألا تقاتل الا وهي راجلة مفهوم قابل للشك . فثمة شواهد توحي بأننا نحن الغربيين بحاجة الى مراجعة عقيدتنا التكتيكية الخاصة بالناقلات المدرعة ، والنظر في مسألة الركوب حتى الهدف . ومع الاعتراف بأن هناك أوقات يستوجب فيها الموقع المعادي القوي أن تقتحمه مشاة راجلة ، وهناك أوقات أخرى يكون الافضل فيها القتال من العربات . ولا شك أن هكذا سيكون الوضع إن يُفاجأ العدو ، أو يهتز ، بتجربة ما ، حديثة وغير سارة . . .

وعلى فرض أن هكذا سيكون الوضع ، فان المطلوب هو ناقلة جند مدرعة جديدة تسمح لجماعة المشاة البريطانية بأن تقاتل منها .

٢٠) الحروب الذرية والكيميائية والجرثومية (البيولوجية)

لم تعد أهوال الصراع الذري والكيميائي والجرثومي دنيا تصورات جامحة وخيال علمي . ومنذ الحرب العالمية الاولى لم تستخدم الغازات الا في حالات قليلة جداً . وقد استخدمت آنذاك ، أغلب الاحيان ، ضد الجيوش غير المحمية بتاتاً ، والجيوش البدائية نسبياً . فاستخدمها الطليان في أثيوبيا ، كما استخدمت على نطاق واسع ، بشكلها المخيف ، بهدف ضبط أعمال الشغب ، وارغام المختبئين في الأرض على الخروج من سراديبهم ، في فيتنام .

تشكل حرب الغازات الاساس في الحرب الكيميائية . وغازات تعرية الاشجار هي أيضاً من هذه الفئة ، وقد استخدمت في فيتنام . وللغازات تأثيرات متنوعة . فهناك الغازات التي تسبب الازعاج المؤقت ، وهناك غازات أخرى يمكن أن تكون قاتلة في غضون ثوان قليلة من وصولها الى الضحية . وبعض الغازات هو ذو طبيعة دائمة أو مستمرة ، وتستطيع ايقاع الخسائر بعد زمن طويل من استخدامها . والغاز غير الدائم ينجرف مع الريح بسرعة نسبياً . وتتألف الفئة غير القاتلة من مسيلة للدموع ومهيجة . وللغازات المسيلة للدموع تأثير فوري على الاعين ، حيث تسبب وخزها وأفاضة دموعها ، وسرعان ما تتلاشى أعراضها بعد انتهاء الهجوم . وليس هناك كبير خطر من استمرار

التأثيرات الناتجة عن هذا السلاح . والغاز المهيج أشد ازعاجاً ، ويتألف من مركبات تسبب هياجاً وألماً حاداً في الانف والحنجرة وجهاز التنفس . ومن أعراضها الاخرى التقيوء الشديد والشعور بالكآبة . ويشكل المزيج من الغازات المسيلة للدموع والمهيجة سلاحاً فعالاً ، لا سيما في تفريق الجماهير . ولكن غالباً ما يكون الغاز المسيل للدموع كافياً اذا ما استخدم ضمن شروط مناسبة .

وثمة فئة غازات أخرى يمكن أن تسمى « الشالة » . ومع أن لها تأثيراً بسيطاً في الهواء الطلق ، فانها تسبب الدوخة والصداع ان استخدمت في اماكن محصورة ، وبتركيز قليل . بيد أن الشفاء الكامل غالباً ما يكون سريعاً . اما اذا استخدمت وبتركيز عال ، فهناك خطر أن تصاب الضحية بشلل مركز التنفس في الدماغ ، يعقبه موت سريع .

من الغازات ذات الطبيعة القاتلة غاز « الارسين » Arsine الذي يمكن إن تمتصه الرئة ، أن يحدث الاصابة بفقر الدم (الانيميا) ، فالموت لاحقاً . وتسبب الغازات الخانقة التهابات حادة في الرئة ، تؤدي بالتالي الى ملئها بسائلها الذاتي ، وبذلك يختنق المصاب . وكان الخردل ، الذي استخدم في الحرب العالمية الاولى ، يطلق بخاراً غير مرئي تفوح منه رائحة بصل قوية . وهذا الغاز يدوم لمدة طويلة . وهو كغيره من الغازات الجلدية (يقرح البشرة) يؤثر على كل جزء من الجسد يطاله ، ويخترق الملابس العادية . ويمكن أن يسبب سائله عمى دائماً ، ويطلق على سطح الجلد بثوراً رهيبة . وبخاره أيضاً يقرح البشرة ، ويمكن أن يسبب عمى مؤقتاً . وإن استنشق الغاز فقد ينتج عن ذلك التهاب الشعب الرئوية .

والفئة الاخيرة مما سينظر فيه من غازات هي غازات الاعصاب . ودرجة سمية هذه الغازات عالية جداً ، وسريعة المفعول . وبما أنها لا تُرى ، وبلا رائحة ، فان الانذار الوحيد عن وجودها هو بوساطة جهاز كشف خاص يُحمل أو يُلبس من أجل هذا الغرض . ويمكن أن يُستنشق بخاره ، أو أن يمتص سائله أي جزء من الجسد . وفي كلا الحالين تكون النتيجة واحدة ، اذ يتقلص انسانا عيني الضحية ، ويعشى بصرهما ، ويصبح من الصعب عليه أن يركز . وفي غضون ثوان يحس المصاب بألم حاد في الاذنين ، يعقبه سيلان من الانف والفم ، ويضيق الصدر ويصعب التنفس ، ويبدأ الغثيان فالتقيوء . ويعقب ذلك تقلص في العضلات ، فتشنج ، ثم انهيار كامل ، فموت .

هناك ، طبعاً ، اجراءات وقائية يمكن أن تتخذ ، وملابس واقية يمكن أن ترتدى . ومن الممكن تزويد السفن والدبابات والعربات بأجهزة تهوية وتنقية من أجل حماية

الاطقم . وقد أصبح الآن التطهير ، عن طريق الغسل بمواد مطهرة قوية ، أحد التدريبات النموذجية في جيوش عديدة . . ويمكن أن تستخدم عناصر الحرب الكيميائية في ساحة المعركة لقتل العدو أو انهاكه . وفي حال استخدام الغاز الدائم ، يكون ذلك من أجل وضع حواجز وعقبات في وجهه . وقد يكون للاحوال الجوية تأثير مهم على استخدام هذه الاسلحة . فالتربة التي تسخن بأشعة الشمس ستسخن هي بدورها الهواء الذي يعلوها ، مما يؤدي الى نقل الحمل الحراري . وبالمقابل ، في الليل ، عندما تبرد الارض ، قد يظل الهواء ساكناً . لذا ، فان أي تكثيف للغاز المكوم ، في يوم صيفي دافىء ، سيرتفع كثيراً فوق سطح الارض . وكما هو الحال في الضباب ، سيميل الغاز للبقاء على مستوى الارض أثناء الليل . وتستطيع الرياح أن تجزف البخار ، لكن النسيم الخفيف يمكن أن يؤدي الى تزايد معدل التبخر في العنصر السائل . وعلى هذا الاساس ، قد يصبح بالامكان تشكيل غيمة متحركة من الغاز المركز . وسترفع الحرارة معدل التبخر ، بينما يمكن أن تعمل الحرارة المنخفضة على تجميد العنصر السائل ، بحيث يصبح مكمن خطورة في وقت لاحق . وقد تمتص التربة الرخوة الغاز ، ثم ينزل المطر ، ويعمل ـ طبعاً ـ على جرفه .

قد يتطلب تشكيل سحابة غازية كافية لنجاح المهمة عدداً كبيراً من القذائف أو الصواريخ . ويتحتم على القادة أن يقدروا ما اذا كان التأثير المحتمل يستحق الاستهلاك بالذخائر وبرمجة وسائط القصف . فانتغيرتالريح ، يصبح هناك باستمرار خطورة أن تصاب قوات الصديق نفسه . والغاز لا يستطيع تدمير الدبابات والمباني ، ولكن التأثير الذي سيحدثه استخدامه ضد العسكريينالسيئيالتدريب أو الانضباط سيفوق كل مقدار من التأثير تحدثه الخسائر الفعلية .

اما الحرب الجرثومية فهي مختلفة الى حد ما . والاسلحة الجرثومية ، على عكس العناصر الكيمائية ، يمكن انتاجها بسهولة ، وكلفة قليلة ، في أي مختبر ذي مستوى جيد . وحتى الدول الصغيرة باستطاعتها تصنيع أسلحة الجراثيم . ويمكن أن تسبب الهجمات الناجحة بالعناصر الجرثومية العجز المؤقت ، أو الاصابات الخطيرة ، أو الموت ، كنتيجة لنشر وباء اصطناعي . وليس من السهل ابقاء الجراثيم حية لمدة طويلة . فهذه تتأثر جداً بدرجة الحرارة ، وهي لا تخترق الاردية بنفس طريقة العنصر الكيميائي ، كما أن أقنعة الغاز ، والبزات الواقية ، والتطعيم هذه كلها تؤمن ، بشكل عام ، دفاعاً ضدها .

الطبيعة غير الثابتة للاسلحة الجرثومية والكيميائية ، ومشاكل ايصالها الى العدو ، تنفر الناس من هذا السلاح . ورغم أننا كنا قد أعددنا أنفسنا للهجوم الفتاك في العام ١٩٣٩ ، فحقيقة ان هذا الهجوم لم يشن لم تكن ناتجة عن انسانية هتلر ، بل عن قدرتنا على

توجيه ضربة ثانية . ومهما تكن وحشية هذه الاسلحة وفظاعتها ، فهي مجرد تسليح آخر ، ولن يكون من الحكمة ، بالنسبة الى اجيال المستقبل ، أن يهملوا دراسة هذا الموضوع ، أو يقصروا في اتخاذ الاجراءات الاحتياطية اللازمة للوقاية .

لا بد للمرء ، كي يفهم تكتيكات الحرب النووية ، من أن يملك معرفة أساسية بتأثيرات الانفجار النووي . ورغم اعتقادنا بأن الحرب التي تخاض بمثل هذه الاسلحة هي بمثابة انتحار عالمي ، فالواقع أن هناك قذائف ذرية صغيرة يمكن اطلاقها من مدفع ، أو قذفها بصاروخ قصير المدى ، بل ومن الممكن تجهيزها مسبقاً واطلاقها عن بعد . ومن الممكن تماماً امتلاك اسلحة نووية تكتيكية ، ولو أن من المرجح أن يؤدي استخدامها الى تصاعد سريع .

هناك ثلاث نتائج رئيسة فورية تنشأ عن اطلاق الجهاز النووي ، أولها حدوث وميض من الضوء المبهر المشفوع فورياً باشعاع حراري شديد . ويعقب هذا موجة انفجارية قوية جداً . وهناك أخيراً الاشعاع النووي . وقد يحدث ، في ظل بعض الظروف تلوث اشعاعي وترسبات نووية . ويبدو ، بشكل عام ، أن أكبر قدر من الانفجار بالنسبة الى سطح الارض . فان انفجرت القذيفة على مستوى الارض فستتبخر كمية كبيرة من التربة ، وتتصاعد مع الكتلة النارية المميزة ، حيث تتلوث بالمادة المشعة . وعندما تعود متساقطة على الارض ، ستشكل خطورة قصوى . وبسبب اختفاء جزء من الكرة النارية تنخفض الاشعة الحرارية . ويعمل جزء كبير من الانفجار على احداث هزة ارضية ، يمكن استخدامها لتدمير الاهداف الموجودة تحت الارض . ويكون مثل هذه الاهداف محمياً من الانفجار الجوي بوساطة ما فوقه من تربة . وفي حال حدوث الانفجارات تحت السطح ، فان الموجة الانفجارية الجوية تقل كثيراً .

من شأن الانفجار في عمق أرضي بعيد أن يشكل « فقاعة » تحت السطح ، فقاعة يحتمل أن تدفع جزءاً من وجه الارض نحو الاعلى . ويعتمد الاثر الحقيقي على مدى العمق الذي انفجرت عليه القنبلة تحت سطح الارض ، وعلى جيولوجية منطقة الهدف . ومن شأن هذا السلاح ان يثقب ، أو يشق الارض حتى نقطة معينة في العمق ، قاذفاً نحو الأعلى كمية هائلة من الانقاض المشعة . وهذا سيسبب أيضاً ترسبات نووية تحمل خطورة قصوى . وستحدث موجة صدمة ضعيفة . وطبيعي أنه لن يكون هناك اشعاع حرارة أو ضوء . ومن الجلي أن السلاح النووي الذي ينفجر فوق سطح الارض ، على ارتفاع منخفض ، يحدث المدى الاقصى من الاثر التدميري على الاهداف السطحية .

في هذه الايام ، تتدرب الجيوش على اتخاذ اجراءات وقائية بسيطة أثناء الهجوم النووي . وقد أظهر ما أجرى من تجارب قنابل حية ودمى أن للجندي المدرب فرصة نجاة معقولة ، ان هو اتخذ هذه الاحتياطات . أما السكان المدنيون غير المعدين لذلك ، ففرصهم أقل من ذلك بكثير .

ما من امرىء عاقل يرغب في حرب نووية . ولكن من الحماقة ، بالنسبة الينا ، ألا نكيف تكتيكاتنا بحيث نستطيع ، آن حدوث الاسوأ ، أن نطبقها بشكل يتلاءم مع الوضع .

٢١) في الطريق نحو المنطقة الحاسمة

منذ العام ١٩٤٥ والحلفاء الغربيون يراقبون روسيا السوفياتية بريبة جدية . فكانت هناك فترات توتر ، وأوقات كان يبدو فيها الشيوعيون متحمسين لانهاء الحرب الباردة . ومرت أوقات كانوا ينظرون فيها الى الاجراءات الدفاعية الغربية على أنها أعمال عدائية استفزازية . وفي حين أن انتباه كلا المعسكرين مركز على الخلافات الارضية ، فان هناك أملاً ضعيفاً بأن هذا الوضع سيتغير بشكل جذري . وأنا أتنبأ باستمرار النزاعات فيما بيننا ، وباستمرار الحروب فيما بين الكائنات البشرية ، حتى نصطدم بعدو من خارج الكرة الارضية ، ونرغم على الوقوف معاً دفاعاً عن جنسنا البشري . ولربما تحققت فعلاً كتابات السيد «هـ. جي ويلز» H. G. Wells[٧٤] .

يكمن أحد الامال بالسلام في توازن القوى بين الشرق والغرب . اذ لن يجرؤ أي من الطرفين على بدء الحرب ، بسبب الانتقام والدمار اللذين سيلحقان به . لقد أصبحت القنبلة أكبر من العالم . وما من شخص عاقل يرغب في أن يبدأ صراعاً يخلف للمنتصر دنيا خربة ، ذات أجواء ملوثة . أما وقد أبدينا ذلك ، فإن ما يجدر التذكير به هو أن هناك أملاً

(٧٤) ويلز H. G. Wells (١٨٦٦ - ١٩٤٦) روائي بريطاني اشتهر بكتابة الروايات التي تقوم على الخيال العلمي

دائماً في أن الحرب النووية ربما لا تضع نهاية العالم كله . ورغم تخريب مناطق شاسعة ، ربما يظل الانسان قادراً على الاستمرار في الوجود في منطقة لم يبلغها التخريب .

من جهة أخرى ، يظل هناك دائماً احتمال أن يقدم مجنون ما على ضغط الزناد النووي ، أو أن يعمى كلياً ، وبشكل مفاجىء ، إبصار سياسة ما للنتائج التي يمكن أن يؤدي اليها التصعيد ، فالحرب النووية . فليس ثمة ما يضمن أن التوازن الصحيح في القوى سيمنع الحرب . وقد تظل دول معينة على رغبتها في فرض ارادتها على جيران ضعفاء ، فتحاول الوصول الى مبتغاها عبر حرب تقليدية . وقد يعمد بعض الدول الى انتهاج هذا السبيل من منطلق الاعتقاد بقدرة هذه الدول على دفع اللعبة حتى « حافة الهاوية » ، دون أن تبلغ الامور حد التقلص النووي .

ولربما سينحصر نشوب الصراعات ، من الآن فصاعداً ، فيما بين الدول الاقل تطوراً ، ويبقى الامل في أن تكون منظمة الامم المتحدة قادرة على التدخل في الوقت المناسب ، وتعمل ـ كحد أدنى ـ على ايقاف اطلاق النار . والامم المتحدة ، عموماً ، « حيوان » بطيء الحركة . ولربما يكون من الانسب أن تتدخل قوة ما عالمية في عمليات حفظ السلام ابان المراحل الاولى من الصراعات ، ريثما يأتي وقت تستطيع فيه قوة ، كقوة الامم المتحدة ، أن تنجح .

ولربما قُصد بمخاطر التصعيد والرد النووي ، أن تظل الحروب ذات طبيعة محدودة ، أو مجرد حملة مغاورة مدعومة من دولة خارجية ، وتواجهها الحكومة الشرعية التي تتلقى العون من دولة صديقة ومع ذلك ، يظل هناك احتمال نشوب حرب تقليدية ذات حجم معين ، من نوع الحروب العربية الاسرائيلية .

رغم هذا ، فإن شبح الصراع النووي يحوم فوقنا . وأصبحت الحروب كلها الان تتأثر بهذا الخطر . ولربما كان زخم الحرب من النوع الذي تتوقف فيه الاعمال العدائية خلال بضعة أسابيع ، وحتى أيام ، من اندلاعها . وفي غضون ذلك ، قد تحل أشد الاضرار هولاً بأطراف الصراع ، وبجيزانهم . ولربما تُستنفذ مخزونات الاسلحة النووية ، وتشوه الاراضي بحيث تنهك الجيوش حتى التوقف نهائياً .

بوسع المرء أن يتصور قوتين كبيرتين ، تظلان ـ وظهراهما مقصومان ـ تحاولان يائستين، الواحدة منهما ضرب الاخرى ، وكل ضربة تصبح أضعف من سابقتها ، بينما ينهض من بين الرماد قادة عسكريون جدد ، مدعين فوائد تنطحوا لها ، وواصلوا القتال بوسائط تقليدية . ولربما لم تكن لاغراضهم أية علاقة بأهداف العداء الاصلي .

في الحروب السابقة ، كان هناك دائماً بعض العسكريين الذين يصبحون ممن يستهويهم الصراع ، بعد أن يكونوا قد نجوا من الاعمال القتالية الاولى . وقد يكون هؤلاء قادرين على غلق عقولهم دون البؤس والمعاناة . بيد أن الناس ، في المعركة النووية ، سرعان ما يسقمون ويصدمون ، وتنهار معنوياتهم بسرعة . وليس بالامكان الاستهانة بمسألة ابقاء القوات تقاتل وهي محتفظة بارادتها القتالية . وسيجد القادة أن عليهم توجيه الحملة بشكل يقاوم الدعاية المعادية ، والابقاء على شجاعة جنودهم وحسن تفكيرهم . وسيعني الاخفاق في ذلك الانهيار العاجل حتى لأفضل الجيوش تدريباً وتجهيزاً .

قد تكون الاسلحة النووية التكتيكية ذات أحجام صغيرة تماماً . وأصغر سلاح يدرج عادة في الحسبان هو ما يوازي حوالي ٥٠٠ طن من المتفجرات (ت . ن . ت) . ولهذا السلاح نصف قطر دائرة تخريب قصير نسبياً (أقل من ١٠٠٠ متر) ، ويمكن أن يطلق من مدفع متحرك ذي عيار كبير ، والى مسافة زهاء عشرين كيلومتراً . أما الصواريخ فتحمل رؤوسا متفجرة نووية أكبر من ذلك بكثير ، وحتى أي مكان على وجه الارض .

وبوسع الطيران أيضاً أن يوصل الأسلحة النووية التكتيكية . وقد ظل هذا حتى السنين الأخيرة ، يملي الحاجة إلى مطارات منشأة بعناية ، وموسعة ، وتقع ضمن مدى القصف لمنطقة المعركة . ومن الصعب حماية هذه المطارات ، ومن المستحيل تمويهها . ومنذ بدء الأعمال العدائية ستكون هي الهدف ذا الأهمية الأولى ، وسيحقق تدميرها التفوق الجوي للعدو . وقد أظهر الإسرائيليون ذلك في العام ١٩٦٧ ، أما وقد ظهر الآن الطيران القصير الإقلاع والهبوط وطيران الإقلاع والهبوط عامودياً ، فسيكون ممكناً موضعة هذا الطيران في مخابىء مخفية على طول مواجهة التشكيلات . والتصاميم الحالية تستهلك كميات كبيرة من الوقود كي تقلع عامودياً . ورغم أن هذا أصبح ممكناً ، إلا أن المفروض القبول بتقليص حملها من الأسلحة. وحيثما يكن ممكناً بناء مهبط (مدرج) في منطقة طولها بضع مئات من الأمتار ، تزدد كفاءة الطائرة إلى حد كبير جداً . وهكذا أصبح لدينا نظام جديد لإيصال الأسلحة ، نظام يستطيع التجاوب بسرعة مع طلب مهمة ضرب أو استطلاع .

والأزمان التي تستغرقها الاستجابة بمدافع أو صواريخ نووية ، بطيئة إلى حد ما ، قياساً بالأسلحة التقليدية . ومرد هذا ، إلى حد كبير ، هو الدقة التي يجب أن ينفذ بها التحضير للرمي ، وتبليغ الإنذار إلى الطرف الصديق : فسلامة القوات هي بالتأكيد من العوامل التي تقيد استخدام الأسلحة النووية . وقد تأتي أوقات ، وهذا من الأوامر المأساوية ، تضطرنا فيها الحاجة إلى التضحية بجنودنا أنفسهم ، إذا كان من المستحيل سحبهم من منطقة الخطر .

وأنظمة القصف النووي هي نفسها أهداف أولية . وهذا يعني وجوب تطبيق سياسة «اطلق وانطلق » (Shoot and scoot) بعد كل رمي . ومن شأن حجم بعض المعدات الحالية أن يجعل هذه السياسة صعبة التحقيق في منطقة قتالية متضررة ، ما لم تتوافر أفواج كاملة من المهندسين . وهذا أمر عسير .

يسعى القادة إلى الحصول على آخر ما استجد من معلومات دقيقة ، لتمكنهم من تخطيط ضرباتهم النووية . ولتأمين ذلك تتطلب الضرورة وجود جهاز جمع معلومات كفء ومنسق ، ومنتشر عبر شتى أنحاء المنطقة القتالية . وقد وضعت الآن قيد الاستخدام أجهزة متقدمة جداً .

يساعد وجود الحواسب (الكومبيوتر) على تدقيق المعلومات ومعالجتها ، وعلى توزيعها بعد ترجمتها . ويركز كلياً على السرعة . وفي هذه الأيام ، أصبح الإنسان نفسه هو أبطأ جزء في هذا النظام . ولا بد للقادة ، على مختلف المستويات ، من التفكير بوضوح وسرعة ، ومن أن يكونوا أهلاً لاتخاذ القرارات بشكل سريع . والقاعدة القديمة في القيادة ، القائلة بوجوب « التأني وقت الأزمة والحسم وقت العمل » هي قاعدة سليمة في الميدان النووي . فلا يفكرن أي أمرىء بأن الجيش يتطلب «جهابذة علم » يقودونه . فما زالت أهمية تدريب «ساند هيرست» و«وست بوينت » (٧٥) . وتقاليدهما على حالها . ومما لا شك فيه أن «دوق ويلينغتون » سيحقق النجاح نفسه لو وجد في هذه الأيام ، لأنه كان رجلاً ذا عين منتهزة للفرص . فالحرب الحديثة تتطلب أشباه «ويلنيغتون » عصريين ، وذوي معرفة راسخة بالأسلحة الفنية الموضوعة تحت تصرفهم .

لكي تحمي التشكيلات نفسها لا بد وأن تكون محمولة . فيجب أن تنتشر لحظة سماعها الإنذار ، كي تتجنب الإبادة ، أو تتحشد بسرعة كي تضرب العدو الذي تفقده المفاجأة توازنه . والدروع تحمي التشكيلات ، ومع ذلك يجب أن تظل قادرة على احتفار أمّنا الأرض ، كلما تطلب الأمر ذلك . والتربة تمتص الاشعاع النووي بسرعة . . وكما هو الحال دائماً ، يتوجب على القادة أن يبذلوا ما في وسعهم ليضللوا العدو ، ويخفوا عنه نواياهم الحقيقية .

بهذا يتقرر : أنه لكي تكون القوات فاعلة في القتال النووي ، لا بد لها من أن تكون مدرعة ومحمولة وقادرة على تنفيذ الانتشار والتحشد بسرعة . ولجعل هذا الأمر ممكناً ، فإن جودة الاتصالات أمر حيوي . فقد حقق سلاح الإشارة ، منذ العام ١٩٤٥ ، تقدماً بارزاً . واليوم ، فإن الأجهزة العاملة على الترددات العالية جداً ، والترددات فوق العالية ، ومعها التلكس

---

(٧٥) ساند هيرست: الأكاديمية العسكرية البريطانية
وست بوينت: إحدى الكليات العسكرية الأميركية.

والتلفاز ، هذه كلها أجزاء من شبكة الاتصالات الموسعة . والقدرة على مقاطعة وتشويش البث اللاسلكي المعادي هي « سلاح » قائم بذاته ، كما أن فن الحرب الالكترونية آخذ في التحول بسرعة باتجاه أن يصبح ذا أهمية قصوى .

تستخدم الإشارات اللاسلكية في توجيه الصواريخ وتحديد الاتجاهات ، تماماً بقدر ما تستخدم من أجل الاتصالات المحضة . كما تستطيع أداء دور مهم في الخطط الخداعية . وليس بالإمكان تحقيق القيادة والسيطرة اللازمتين للحرب الحديثة دونما اتصالات جيدة .

قد تصاب مقرات القيادة ، لذا يجب أن تكون ترتيبات القيادة مرنة ، ولها ترتيبات تبادلية . ولا بد للوحدات من توجيهات تمكنها من متابعة مهامها حتى فترة ما ، بعد أن تدمر اتصالاتها بالسلطات الاعلى .

إن الوقوف بلا حراك من أجل خوض معركة نووية ، سيعني طلب الدمار . لذا يجب أن تتبنى الوحدات مقولة « إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع » . ويجب ألا يكون هناك تمييز واضح بين أطوار الحرب المختلفة . ويتحتم أن تُشحن القوات بالروح الهجومية . ويجب أن يدركوا أن الأمان من أسلحة العدو النووية كامن في التّماس القريب مع الخصم ، أو في مواقعه الخلفية .

وبما أن معظم عرباتنا يتحرك على سطح الأرض ، باستثناء ما يُحمل جواً ، فإن الحركية خاصية غير ثابتة . فالمستنقعات والكتل البركانية والجبال والحواجز المائية ، هذه كلها من شأنها أن تحول الحركة صوب الجسور أو المخاضات . وثمة ضرورة للاستطلاع المفصل وللدعم الهندسي الكبير المتزايد . والمهندسون الذين يبنون الجسور معرضون للفناء بسرعة ، لذا هناك ضرورة للنقابيين المزودين بالأطواف ومعدات العبور البرمائية ، الممكن إعدادها للعمل بسرعة ، ثم استخدامها . فاخفاؤها من جديد . ولن يكون هناك أي اكتفاء بالنقّابين (اللغّامين) . . . لذا لا بد أن يكون أكبر عدد ممكن من العربات قادراً على العوم أو الخوض في الماء .

يجب أن تتم إعادة إمداد الجيوش ، وتنفيذ أعمال الصيانة للأعندة والعربات تحت جنح الظلام . كما يجب إصلاح الجسور والطرق خلال الليل ، وكذلك هدم (أو تخطي) الحواجز أو تقويتها في أثناء هذه الساعات ، تحاول المشاة القيام بعمليات تسرب . وهذا يتطلب الدفاع عن الوحدات الإدارية الخلفية المبعثرة في المناطق الخلفية . ولربما كانت (حتى) ليالي الشتاء الطويلة ذات فائدة ملموسة . . .

لقد أُهمل التدريب الليلي في الجيوش الغربية . ولكن الكتلة الشيوعية لم تفعل ذلك .

فقوات هذه الكتلة مجهزة بشكل جيد ، وذات حركة عالية ، وتتمتع بقدرات برمائية . وتقضي هذه القوات كثيراً من وقتها في التدريب الليلي ، وإجراء التجارب على الحرب الكيميائية والنوويه كلتيهما .

في الغرب ، هناك افتراض بأن القوات الشيوعية ستكون البادئة بالهجوم ، وهذا يعني أن هناك ـ في أوروبا ـ نظام دفاع مخطط مسبقاً . ولا يمكن نشر تفاصيل هذا النظام . ولكن ما نرجوه هو أننا لن نعتمد على « خط أحمر دقيق » . وفي جميع الأحوال ، فإن « الدفاع في العمق » هو مبدأ تكتيكي قديم . وإن يكن مستطاعاً تحسين المانع الطبيعي بتعزيزه بالألغام والإغراق المكاني ، أمكن بناء « حزام » معيق . وهذا لن يوقف الغزاة ، ولكن يفترض به ، إن بني بالشكل الملائم ، أن يبطىء تقدمهم مدة تكفي القوات المدافعة كي تتخذ مواقعها القتالية . ويجب أن يكون موقع « الحزام » في الخلف ، وراء الحد الأمامي ، ويجب أن تغطيه قوات ذات حركية عالية متمركزة على طول الحدود . وعندما يشن العدو هجومه ، يجب أن تنسحب هذه القوات أمامه ، ويجب أن يكون هدفها الإبلاغ عن تقدم المعتدي ، وتحاول تقدير قوته وتوجيه اندفاعه . ويجب أن تعمل قوات التغطية على تأخير العدو حيثما كان ذلك ممكناً ، إلا أنها يجب أن تتحاشى الاشتباك معه بشكل لا يمكنها من التملص . والقوات المدرعة ، المرافقة بحوامات دعم ، هي الأنسب من أجل مهمة كهذه . وفي النهاية ، ولدى بلوغ « حزام » الموانع ، تمر هذه القوات عبر « زقاق أمان » مخطط مسبقاً . ثم يغلق هذا الممر خلفها .

في الوقت الذي يجتاز فيه المهاجم هذا الحاجز ، يمكن أن يصبح هدفاً نووياً ، كما يمكن استخدام الغاز الدائم لزيادة عمق « الحزام » . . . مع الافتراض دائماً بأن الحكومات المعنية قد صادقت على استخدام مثل هذه الاسلحة . وهناك شك محزن حول ما اذا كانت ديمقراطيات الغرب ستحزم أمرها ، وبشكل عملي ، في الوقت المناسب . والواقع أنه سيكون من مصلحه القوات الشيوعية ألا نستخدم نحن أسلحة التدمير الشامل . فهؤلاء ، وبقواهم البشرية الهائلة ، يستطيعون ـ وبسهولة ـ تحقيق التفوق العددي علينا ، وتهيئة فرصة ممتازة للنجاح في حرب تقليدية .

وبينما يكون العدو لا يزال عند المانع ، لا بد من وجود قوات مزودة بأجهزة مسح ورصد (أشعة تحت الحمراء ورادارات . . الخ) تراقب تقدمه ، وتمرر المعلومات الى قائدها ، وهذا بدوره ، يفترض به أن يكون قد حضر هجمة معاكسة بالقصف النووي ، أو أن يحاول ـ باستخدام ستارة متحركة خفيفة ـ توجيه اندفاعات العدو المخترق نحو منطقة قتل منتقاة . ويجب أن تكون هذه المنطقة « كزقاق مسدود » ، ما أن يدخله العدو حتى يجد أن

ثمة موانع طبيعية وألغاماً توقف تقدمه . وبينما يكون متوقفاً في منطقة القتل يمكن أن يتحول الى هدف نووي ، والسلاح المصوب مسبقاً على هذه المنطقة هو في وضع الجاهزية . والتخطيط المسبق للضربات النووية يوفر وقتاً ثميناً . وبعد انفجار السلاح النووي ، يُفترض أن يشن المدافع هجمة مضادة سريعة « يكنس » فيها الناجين . واذا لم يستعمل السلاح النووي ، لا يعود بوسع المدافع الا محاولة تدمير خصمه بوسائط تقليدية .

في معركة « سائلة » من هذا النوع ، يجب أن تكون التشكيلات مرنة للغاية ، ويجب ألا يكون هدف الوحدات هو الصمود ، أو تعزيز الدفاعات بالقوة البشرية في منطقة الموانع . ويفترض بالمدافعين أن يحاولوا تدمير قوات العدو ، أو خلخلتها ، بالهجمات المستمرة ، حيث يجري اضعافه ، قبل أن يبلغ الدفاع الرئيس . وسيكون على الوحدات أن تتلاءم مع الزيادة الكبيرة جداً في عرض المواجهة وحجم المنطقة الدفاعية عما كان عليه الامر من قبل . وعليها أن تكون مستعدة في حالة عزلها مؤقتا بضعة أيام ، كل مرة ، وعليها أن تتحمل خرق دفاعاتها ، بيد أنه يجب أن يكون لدى التشكيلات قوات هجمات معاكسة ، مدرعة ومحمولة ، وجاهزة لسحق الاندفاع الرئيس .

في الحرب النووية ، سيجعل المد والجزر في المعركة من الصعب التفريق بين الهجوم والدفاع ، بين النصر والهزيمة . ولكن عندما يُشن هجوم مدروس ، يجب أن يكون مركزاً ، ويجب أن توجه من عمق المواقع ضربة منسقة باحكام . ويجب أن يُبذل كل جهد من أجل تحقيق المفاجأة ، وضرب العدو في الزمان والمكان اللذين يعطيهما الحسبان الاقل . ويجب أن تهدف تدريبات الانتشار وتدابير المعركة الى اعداد التشكيلات للحشد والحركة والانتشار والهجوم دونما تأخير . ولقد أصبحت تقنية اتخاذ الترتيب القتالي من ترتيب المسير الى تشكيل اقتحامي ، أصبحت معروفة جداً لدى العديد من الجيوش . وبعد الهجوم ، يجب أن تنتقل الوحدات بسرعة ، وألا تهيىء للعدو فرصة استخدام أسلحته النووية ضدها ، لانها تؤلف هدفاً يستحق الجهد .

الادارة والامداد في خضم مثل هذه الحرب هما بمثابة الكابوس . فيجب أن تُخفى المستودعات والمشافي والمعامل . كما يجب أن تكون قابلة للانتقال بسرعة . لذا فهي بحاجة الى عربات خاصة بها ، قادرة على السير خارج الطرق . والوحدات الادارية يمكن أن تكون حقاً أهدافاً نووية . وليس من السهل اخفاء هذه الوحدات ، بسرعة ، تحت الارض ، نظراً لما لديها من نقص في القوة البشرية ومعدات نقل الاتربة .

تعمل نتائج « الهدم » النووي على اعاقة التحرك في أرض المعركة . وسيكون الهدم على شكل أشجار ساقطة ومبان مدمرة ، وجسور محطمة ، وطرق مزدحمة بعربات محروقة . وفي خضم هذا الخليط الركامي سيكون هناك ناجون يكافحون ، ومصابون ونازحون ومراسلون حربيون ، وربما يكون هناك أيضاً أفراد شرطة عسكرية تائهون وحداناً . . .

هذه النظريات يوعظ بها في شتى الكليات العسكرية في العالم . ولكن تطبيقها العملي قضية مختلفة جداً . وليس من السهل ، بحال من الاحوال ، تحقيق الحركية وتكاليف البرمائيات والطائرات العامودية والطوافات (هوفركرافت) في تصاعد يومي . ولقد تعلمنا الاتكال على الاتصالات الجيدة ، وعلى التفوق الجوي . ويتساءل المرء : كيف يمكن لجيش « معقد » أن يتدبر أمره مع قوة « أبسط » منه ، وأكثر منه اكتفاء ذاتياً ، تقاتل على أرض وعرة ، بأسلحة ثقيلة قليلة ، ان كانت تملك شيئاً من ذلك . . لقد علمتنا فيتنام التبصر في مشاكل العقل التقني الذي يتشبث بالهجوم الكاسح بوساطة كتل القوة البشرية . ففي الارياف ، حيث تكون الدبابات وناقلات الجند المدرعة عديمة الجدوى ، لا تستطيع تقنيات القرن العشرين كلها ايقاف جيش مؤلف من ملايين البشر . وقد يتضح أن الدفاع الوحيد هو الدفاع النووي أو الجرثومي أو الكيميائي .

« . . . لاني غصت عبر المستقبل حتى أبعد ما يمكن أن تراه العين البشرية ،
شاهدت منظر الدنيا ، وكل ما يمكن أن يكون فيها من عجائب ،
شاهدت السماء الملأى بالاساطيل ذات الاشرعة السحرية ،
وشاهدت ربابنة الشفق الارجواني يهبطون بأحمال عالية ،
وسمعت السماء ملأى بالصراخ ، واذ ذاك ، انهمر ندى مهول،
من أساطيل الامة الجوية ، المتشبثة بالزرقة المركزية . . . »....

ولربما كان « الفريد تنيسون» ، في قصيدته « لوكسلي هول » (Locksley Hall) التي كتبت منذ أكثر من مئة عام ، يستشف المستقبل .

محتويات الكتاب

أهم ما في هذا الكتاب، بيانه المعزز بالوقائع لمدى التأثير، بل التفاعل المتبادل، بين القوة البشرية، والسلاح، والاستخدام القتالي أو التكتيك، والفكر القيادي. . . أي بين العناصر الأربعة الأهم في بناء «صناعة الحرب» وتطورها. ويأتي ذلك بايجاز لا يُبهم الفكرة، ووضوح يغني عن التفصيل.

ولقد عمل المؤلف على استحضار التاريخ كشاهد على أن البداهة والجرأة هما مفتاح النصر. وبرهن على أن الفكرة السليمة ستُزهر، ثم تثمر، مهما يطل وأدها أو إهمالها من قبل «الأوفياء» للرتابة والمتمسكين بكل ما هو تقليدي وقديم.

وتأتي القيمة الذاتية للكتاب من رسالتين: أولاهما تثقيفية للقارىء العادي والمختص، حيث يتسنى لكليهما الاطلاع على محاور التطور في التسليح والتكتيك، ومدى تأثر الواحد منهما بالآخر، مع الاستشهاد بكبريات المعارك عبر التاريخ، والثانية هي أن فيه درساً ثميناً للعسكريين على اختلاف رتبهم ووظائفهم، يتعلمون منه أن طريق النصر كان وما زال مسدوداً أمام المتشبثين بالقديم من الأفكار والمفاهيم، والمعيقين للابتكار والتجديد.

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ١/٨٠٧٩٠٠ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧.